حقائق ورقائق
(٩)
ثمار من شجرة النبوة
رواية حول آثار الإسلام في الحياة
د. نور الدين أبو لحية
دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

تجـري أحـداث هـذه الروايـة بين مبشـر مسـيحي - هـو بطـل الروايـة، وهـو الـذي أسـلم بعـد ذلـك، وحكى قصـــته للمؤلـــف - ومجموعـــة من المستشرقين المنصفين الكبار الذين بهرتهم القيم العظيمة التي جـاء بهـا الإسـلام، فشـهدوا شـهادات صـادقة كـــانت أحســـن رد على شـــهادات المجحفين والمناوئين من المبشـرين والمستشرقين والمستغربين.

وتدور أحداث الروايـة في جامعـة السربون وما حولها.. وفيها مقارنات كثيرة بين كل ثمرة جاء بهـا الإسـلام من خلال مصادره المقدسـة، والثمـار الـــتي جـــاءت بهـــا ســـائر الأديـــان والمذاهب السماوية أو الوضعية.

حقائق ورقائق

(9)

ثمار من شجرة النبوة

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

2015 – 1436

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة **7**
البداية **9**
أولا ـ خلاص **34**
أمراض الجاهلية **39**

حضارات **40**
ديانات: **50**
إكسير الإسلام **58**

الدعوة: **58**
التنوير: **66**
الدين: 66
الحياة: 73
ثانيا ـ صمود **96**
العقيدة: **102**
الشعائر: **108**
السلوك: **115**
الانتشار: **119**
ثالثا ـ قيم **127**
قيم الجاهلية **131**

المسيحية: **132**
اليهودية: **139**
الحضارة الغربية: **147**
قيم الإسلام **150**

العفاف: **150**
الكرم: **158**
المروءة: **163**

التضحية: 166
القوة: 169
الأمانة: 172
الصدق: 174
رابعا ـ إنسانية 177
حقيقة الإنسان 185

العبودية: 186
الازدواج: 192
الآدمية: 194
الخلافة: 198
الخلود: 203
حقوق الإنسان 205

الحرية: 211
الإخاء: 219
المساواة 228
خامسا ـ روحانية 236
الربانية: 242
العقلانية: 258
الإنسانية: 267
سادسا ـ سلام 281
سلام الجاهلية 286

سلام الإسلام 307

الضرورة: 312
الوفاء: 317
الرحمة: 319
سابعا ـ نظام 324
نظم الجاهلية 328

المسيحية 329
الديمقراطية: 344
الشيوعية 354
نظام الإسلام 361

الفرد: 362
المجتمع: 366
الأمة: 369
ثامنا ـ علوم 372
علوم الجاهلية 377

المسيحية: 378
العقلانية: 387
المادية: 393
علوم الإسلام 395

التعميم: 395
الانفتاح: 401
القيم: 405
الرفاه: 407
تاسعا ـ فنون 420
فنون الجاهلية 425

المسيحية: 426
التيه: 430
الكلاسيكية الجديدة: 431
الرومانسية: 437
الواقعية: 441
اللامعقول: 443
فنون الإسلام 450

التهذيب: 450

التوحيد: 455
عاشرا ـ حضارة 458
حضارة الجاهلية 465

الشذوذ: 466
الصراع: 475
حضارة الإسلام 482

الهداية 490

المقدمة

تنطلق هذه الرواية من مقولة للمسيح عليه السلام في إنجيل متى (7:15-17) يقول فيها: (احترزوا من الأنبياء الكذبة، يأتونكم بثياب الحملان الوديعة، ولكنهم من الداخل ذئاب خاطفة.. من ثمارهم تعرفونهم، هل تجتنون من الشوك عنبا، أو من الحسك تينا.. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية)

ولذلك هي تخاطب بالدرجة الأولى من يجمعون بين الإيمان بهذه المقولة، وبين جحود رسالة رسول الله ﷺ .. ذلك أنه يستحيل على رجل أمي في بيئة بدوية بعيدة عن كل منتجات الحضارة أن يخرج دينا ممتلئا بالقيم وبكل معاني الخلاص التي كانت تنتظرها البشرية، ولا زالت تتعطش إليها.

وهي تخاطب كذلك كل صاحب عقل سليم، ليجري مقارنة شاملة بين الثمار التي جاء بها رسول الله ﷺ والثمار التي تفتخر بها سائر الأديان.. ليخرج من تلك المقارنة - على الأقل - بأن هذا الدين يحتاج إلى مزيد بحث وتأمل، وأنه لا يصح أن يستعجل العاقل في الحكم عليه ابتداء.

وبناء على هذا الهدف كانت أحداث هذه الرواية .. والتي تجري بين مبشر مسيحي - هو بطل الرواية، وهو الذي أسلم بعد ذلك، وحكى قصته للمؤلف – ومجموعة من المستشرقين المنصفين الكبار الذين بهرتهم القيم العظيمة التي جاء بها الإسلام، فشهدوا شهادات صادقة كانت أحسن رد على شهادات المجحفين والمناوئين من المبشرين والمستشرقين والمستغربين.

وتدور أحداث الرواية في جامعة السربون وما حولها.. وفيها مقارنات كثيرة بين كل ثمرة جاء بها الإسلام من خلال مصادره المقدسة، والثمار التي جاءت بها سائر الأديان والمذاهب السماوية أو الوضعية.

وهي تقر في نفس الوقت بالتخلف الذي حصل للمسلمين، والانحرافات التي شوهتهم، وشوهت دينهم.. ولكنها في نفس الوقت تقر بأن بذور الخير لا تزال في هذه الأمة ما دامت

مصادرها المقدسة محفوظة.. ولذلك يمكنها أن تسترد حقيقتها، وأن تعود لأداء دورها الرسالي الذي كلفت به.

ومن أهداف الرواية أيضا إخراج القارئ من تلك التعميمات المجحفة التي ترمي جميع المستشرقين بالعمالة وعدم العلمية والنوايا الخبيثة.. بل هي تصنفهم بحسب أعمالهم وأفكارهم.. فمنهم المنصفون .. كالأبطال العشرة لهذه الرواية.. ومنهم غيرهم، والذين لم نهتم في الرواية بذكر أسمائهم.. لأن هدفنا منها هو بيان الثمار العظيمة التي جاء بها رسول الله ﷺ .. والتي لم تر البشرية ثمارا مثلها في تاريخها الطويل.

وقد قسمناها – كأخواتها من الروايات – إلى عشرة فصول.. كل فصل منها يتناول ثمرة من الثمار:

وهي تبدأ بثمرة الخلاص التي جاء بها الإسلام لينقذ البشرية من الانهيارات التي مرت بها، وكادت تقضي عليها..

ثم بثمرة صمود هذا الدين ومصادره المقدسة رغم الحروب الكثيرة التي شنت عليه.

ثم بثمرة القيم الأخلاقية التي جاء بها، لا كمعان نظرية فقط، بل كتشريعات عملية لا يزال صدى الكثير منها موجودا في الواقع الإسلامي رغم انحرافه.

ثم بثمرة إنسانية الإسلام، وحفاظه على حقيقة الإنسان، وحقوقه مقارنة بغيره من الأديان والمذاهب.

ثم بثمرة روحانيته وتطلعه إلى المعارف السامية المرتبطة بحقائق الوجود الكبرى.

ثم بثمرة سلامه الشامل للكون والإنسان والحياة.

ثم بثمرة النظام العادل الذي دعا إليه..

ثم بثمرة العلوم التي جاء بها، ودعا إليها، ووضع المنهج المثالي للتوصل إليها.

ثم بثمرة الفنون والجماليات التي شجع عليها.

ثم بثمرة الحضارة التي تحافظ على رفاه الإنسان، وفي نفس الوقت تحافظ على إنسانيته.

هذه هي الفصول العشرة التي تتشكل منها الرواية، وفي كل فصل منها يلتقي بطل الرواية مستشرقا من المستشرقين

ليبرهين له على كل واحد منها.

وهي – كما تحاول أن تغرس الأمل في قلوب المؤمنين بهذا الدين – إلا أنها تحذرهم من الاغترار بمجرد الانتساب إليه .. فهذا الدين هو القيم التي جاء بها .. ولا يمثله إلا من امتلأ بتلك القيم، وسار بها في الناس.. أما من شوهها، فلا يصدق عليه سوى قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: 26]، وقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: 169]

وأحب أن أذكر في الأخير أن هذه الطبعة الجديدة تتميز باختصارها مقارنة بالطبعة السابقة، فقد حذفت الكثير من التفاصيل التي قد تجهد القارئ العادي في فهمها أو الاستفادة منها.

البداية

لا أخفي عليكم أني كنت ــ قبل أن أسمع الحكاية التي سأحكيها لكم ــ أحمل مستنقعا من العقد التي نشرتها في نفسي أوهام النقص التي كنت أحملها، والتي لم يستطع ذلك الإيمان الوراثي أن ينزعها مني.

لقد كنت أنظر بأسف إلى الأمة الإسلامية التي تمثل أعظم رسول في الدنيا، وأكمل رسالة نزلت إلى الأرض، نظرة ممتلئة بالازدراء والاحتقار.

فهي أمة متخلفة في جميع الميادين.. بينما غيرها يتقدم في جميع الميادين:

هي متخلفة في السياسة، تحاول أن تقلد حرية الغرب وديمقراطيته، ولكنها لا تستطيع أن تتخلى عن مواريث الاستبداد التي تملكتها، فلذلك تنشئ ديمقراطيات مشوهة تحفظ لها استبدادها وقمعها وتسلطها وقوانين الطوارئ التي ظلت تفرضها منذ ولد الملك العضوض.

وهي متخلفة اقتصاديا.. بل ليس هناك في العالم من هو متخلف مثلها في هذا الميدان.. لقد من الله عليها بثروات يسيل لها لعاب العالم، وبمواقع استراتيجية تحسد عليها، ولكنها تأبى إلا أن تسلم جميع ثرواتها ــ مقابل متاع زهيد ــ لمن يكيلونها أصناف العذاب، بل هي تقيم المسابقات بينهم، فمن كان أكثر عداوة لها، كان أكثر تنعما بخيراتها.

وهي متخلفة اجتماعيا، لا تزال تنخر فيها العنصريات التي جاء الإسلام ليقمعها، ومعها الأعراف البائدة التي وجدت من فتاوى الفقهاء من يبررها، بل يجد لها من الأسانيد الواهية ما يحولها أصلا من الأصول، وشريعة من الشرائع.

وهي متخلفة فوق ذلك دينيا.. لا تزال الفرقة تشتت شملها.. ولا يزال التعصب للرجال يشغلها عن نبيها.. ولا يزال الاهتمام بالجزئيات والحرفيات والطقوس يشغلها عن كليات هذا الدين ومقاصده وحقائقه.

والخطر الأكبر من ذلك كله هو جهلها بتخلفها، أو حبها لتخلفها:

فساستها يناوئون كل إبداع، ويفرضون عليه من قوانين الطوارئ، ما يجعل من بلادنا جميعا معتقلا كبيرا، أو سجنا

عريضـــا، أو زنزانـــة ضـــخمة لا يتنعم بعـــذابها إلا المبـــدعون الصادقون.

والكثير من فقهائهـا أو المشـهور منهم يقـف مـع ساسـتها ليبرر تصرفاتهم، فهم ظل الله في أرضه، والله يؤتي ملكـه من يشاء، ومن لم يطع سلطان الأرض لم ينل سلطان السماء.

أما عامتهم، فهمهم أن تملأ بطونهم، فهم لا يهتمون بشيء كما يهتمون بأصناف الغذاء، وكتب الطبخ، وموائد الولائم.. فـإن انصرف اهتمامهم للدين لم يجدوا إلا الرقاة، ومفسـري الأحلام، والمتشبثين بالخرافة والشعوذة.

هـذه هي النظـرة الـتي كنت أنظـر بهـا إلى الأمـة.. وكنت أتألم بسببها، وأحيانا أصيح مع ذلك الشاعر الذي كان يردد بـألم قائلا: (هذه الأمة ماتت والسلام)(1)

كانت تراودني ذلك الصباح ـ كما كانت تراودني كـل حين ـ هذه الخواطر..

وكيف لا تراودني، وأنا أتغذى عليها في اليوم عشر مرات.. ففي كل نشرة أخبار لا أسمع إلا أخبار قـومي الـذين ينتشـرون من المشرق إلى المغـرب.. وفي كـل نشـرة أخبـار لا يقتـل إلا قومي، ولا يقهر إلا قومي، ولا يموت من الجوع إلا قومي.

ولست الوحيد في تلك الآلام.. بل كـل من أراه كـان يتـألم ألمي.. ومنهم من كان يود أن ينسلخ من جلده، ليتحول فرنسـيا أو إنجليزيا أو ألمانيا.. فإذا لم يطق ذلك حـاول أن يلـوي لسـانه لينطــق بمــا حفظــه من الأفلام الأجنبيــة، ثم يلبس مــا رآه من ألبستها، ويسير في الشوراع كما يسيرون، ويصفر ويصفق كمـا يصفرون، وكما يصفقون.

في ذلــك الصــباح.. وبــذلك العقــل المتــألم، وبتلــك النفس المملوءة خجلا، سمعت طرق الباب.. فـرحت أهـرع إليـه لأفتحـه..

---

1) من قصيدة للشاعر أحمد مطر بعنوان (عملاء)، يقول فيها:

الملايين على الجـوع تنـام، وعلى الخـوف تنـام، وعلى الصـمت تنـام، والملايين الـتي تصرف من جيب النيام، تتهاوى فوقهم سيل بنادق، ومشانق، وقرارات اتهـام، كلما نـادوا بتقطيع ذراعي كل سارق، وبتوفير الطعام.

عرضـنا يهـتـك فـوق الطرقـات، وحمـاة العـرض أولاد حـرام، نهضـوا بعد السـبات، يـبـسطون البسط الحمراء من فيض دمانا، تحت أقدام السلام.

أرضنا تصغر عاما بعد عام، وحماة الأرض أبناء السماء، عملاء، لا بهم زلزلة الأرض ولا في وجههم قطرة ماء، كلما ضاقت الأرض، أفادونا بتوسيع الكلام، حول جدوى القرفصاء، وأبادوا بعضنا من أجل تخفيف الزحام.

آه لو يجــدي الكلام.. آه لو يجــدي الكلام.. آه لو يجــدي الكلام.. هــذه الأمة مــاتت والسلام.

وبمجرد فتحه دخل رجل غريب ممتلئ بالأنوار، قاصدا البيت الذي تعود أن يزورني فيه الغرباء، وكأن له به معرفة، وكأنه معي على ميعاد.

دخل مسرعا، وخلع حذاءه، ثم استلقى على قفاه، وراح يقول:: هيا أسرع بالفطور.. فالجوع يعصر بطني .. لم أصل إليك إلا بمشقة وعسر.

تعجبت من هذا الغريب الذي لم يستأذن.. لكني رجوت أن يكون مثل من سبقه من الغرباء الذين ملأوا قلبي بالأشعة الجميلة من شمسه ﷺ.

لذلك أسرعت إلى المطبخ أبحث له عن الطعام الذي طلبه.. لكني لم أجد إلا حبات تمر، وكوب لبن، وكسرة خبز.. فرحت أقدمها له، وجبيني يتقطر حياء، وأنا أقول له: اعذرني.. فهذا ما تعودنا على أكله، فأرجو أن تتحمل حياتنا البسيطة، فنحن لا نزال نعيش الحياة البدائية.

اعتدل في جلسته، ثم ابتسم، وقال: أليست هذه هي الحياة التي كان يعيشها رسول الله ﷺ؟.. ألم يكن رسول الله ﷺ يأكل التمر، ويشرب اللبن، ويأكل مثل هذه الكسر التي تأكلونها؟

قلت: بلى.. ولكن الحياة تطورت الآن، وللأسف، فقد تخلف قومي عنها.. تخلفوا بأميال كثيرة، وسنوات طويلة، وقد استبد بهم اليأس، فتوقفوا عن السير، واكتفوا بالتفرج على السائرين.

قال: ومن هم السائرون الذين وقف قومك يتفرجون عليهم؟

قلت: أولئك الذين يسكنون وراء البحار.. أليسوا هم رواد الحضارة وأساتذتها؟

أليسوا هم الذي اخترعوا جميع قيم الحياة الجميلة، وما تحتاجه الحياة الجميلة؟

فهم الذين اخترعوا التلفزيون والحواسيب والشبكات العنكبوتية.. وهم الذين اخترعوا الطائرات والسيارات والقطارات وجميع وسائل النقل.. وهم الذين صمموا الأنبية الضخمة وناطحات السحاب.. وهم الذين اكتشفوا أعماق البحار، وقمم الجبال، بل راحوا إلى الأفلاك من حولهم يزورونها ويقيمون العلاقات معها.

قال: تقصد قومي؟

قلت: أأنت منهم.. أجئتني من وراء البحار؟

قال: نعم.. وأنا أعرفهم جيدا.. وأعرف الحياة التي يعيشونها..

قلت: إن حياتهم المميزة تجعلنا نشعر بالعقد الكثيرة.

قال: الحياة ليست ذلك فقط.. الحياة أعمق من ذلك بكثـير.. ولو تأملت حياة كثير من الحيوانات لوجـدت لـديها من الاختراعـات ما يوازي بالنسبة لها جميع ما صـنعه من ذكـرت، وراحـوا يفخـرون على العالم بصنعه.

قلت: وحق لهم أن يفخروا.

قال: بم يفخر المساكين؟

قلت: بما نراه من اختراعات واكتشافات..

تنفس الصعداء، ثم قال: نعم هم الذين اخـترعوا التلفزيـون.. لكنهم لم يجـدوا مـا يملأونـه بـه، فراحـوا ــ بعقـولهم المملـوءة بالشهوات ـ يجعلونه ماخورا من مواخير الرذيلة، وحانة من حانـات الفساد.

وهم الذين أنشأوا الشبكات العنكبوتية التي تحول العالم قرية صغيرة تربط بين أطراف الأرض.. ولكن المساكين لم يجدوا إلا أن يعمقوا بهذه الشبكات ما سبق للتلفزيون والفيديو البدء به.

وهم الذين اخترعوا جميع وسائل النقل.. ولكنهم ملأوا الأرض بسببها تلوثا، وملأوا الطرقات جثثا.

وهم الذين اخـترعوا الأشـياء الكثـيرة.. ولكنهم لم يأخـذوا من الأشياء إلا ذلك الجانب المظلم منها..

شرد ذهنه قليلا، كأنه ينظر إلى شيء مجهول لا أراه، ثم قال: ولم لا تذكر ما فعله قومي بالعباد والبلاد من أنواع الفساد؟

هل يستطيع أحد في الدنيا أن يعد من قتلـه قـومي في قـرن واحد؟

وهل يستطيع أحـد في الـدنيا أن يعـرف مقـدار الـدمار الـذي تختزنــه أنــواع الأســلحة المخبــأة في ســراديب الأرض، وأعمــاق المحيطات؟

وهل يستطيع أحد في الدنيا أن يسأل ذرات الجــو، وقطــرات المياه، وحبيبات التربة، وأنواع الحيوانات عن الجرائم الـتي ارتكبهـا قومي في حقها، والتي لم يسمع بها أحد، ولم يرها أحد؟

نعم.. ربما يكون قومي هم الذي أنشأوا هذه الأشـياء الكثـيرة التي تراها جميلة.. ولكنهم هم.. هم أنفسهم.. الذين أنشأوا بســببها من الدمار أضعاف ما يوازي منافعها.

قلت: أنت تريد أن تجرد قومك من كل مكرمة.

قاطعني بحزن قائلا: لأنه ليس لديهم أي مكرمـة.. لقـد بحثت في بطـون التـواريخ، فلم أجـد في تـواريخهم غـير سـفك الـدماء،

واللعب بالأعراض، والتجارة بالإنسان.

قلت: فقومي مثل قومك إذن.. وأنت تختزن من عقـد النقص ما أختزنه!؟

قال: وضعكم مختلف تمامـا.. لقـد أتيح لكم أن تعيشـوا تحت ظلال شجرة النبوة، وقد أمـدتكم تلـك الشـجرة المباركـة بثمارهـا اليانعة، فلذلك لم تجوعوا جوعنا، ولم تظمأوا ظمأنا، ولم تحــرقكم أشــعة الشــمس الــتي أحرقتنــا، ولم تلهب شــهواتكم شــياطين الشهوات التي ابتلعتنا.

قلت: ولكننا متخلفون.

قال: ولولا تلك الشجرة لكنتم معدومون..

ثم استأنف قائلا: نعم أنتم متخلفون.. ولكن ليس عن قــومي، وإنما عن نبيكم، وعن الصالحين الذين تربوا على يديه، وشربوا من منبعه..

أمــا قــومي، فلا حــرج عليكم أن تتخلفــوا عنهم، لأنكم إن لحقتموهم لم تجدوا إلا السراب الـذي يحسـبه الظمـآن مـاء، فـإذا جاءه لم يجده شيئا.

هكذا قومي.. يلهثون وراء السـراب.. ويظلـون يلهثـون، ثم لا يجدون المـاء العـذب الـذي يسـقيهم، ويبـل السـغب الـذي يحـرق أجــوافهم.. لأن المــاء لــديكم أنتم.. أنتم وحــدكم في هــذه الأرض الذين تملكون الماء العذب الذي يروي كل عطش.

قلت: ولكننا عطشى مثلكم.. ونحن الذين ننحني أمام قومــك ليسقونا.

قال: تلك غفلـة دبت إليكم.. وهي من الجـرائم الـتي ارتكبهـا قومي نحوكم.

قلت: وما علاقة قومك بذلك؟.. أراك تنسب إليهم كل فساد.

قال: منذ اليوم الأول الذي نبتت فيـه شـجرة النبـوة، وقـومي يحـاولون استئصـالها، فلمـا لم يطيقـوا حـاولوا شـنق الثمـار الـتي تنتجها.

قلت: لست أفهم سر شجرة النبوة التي تتحدث عنها، وعلاقة قومي وقومك بها.

قال: كنت مثلك أجهل هذه الشـجرة.. ولا أعـرف قيمتهـا إلى أن هـداني اللـه إليهـا، فعرفتهـا، وعـرفت المعـاول الـتي تـوجهت لتقطعها، والنيران التي توجهت لتحرقها.

قلت: فهل ستحدثني حديثها؟

قال: أجل.. فلم أعاني المشقات في رحلتي إليك إلا لأحــدثك حديثها.. فهات قلمك ودواتك وقراطيسك لأحكيها لك.

***

بعد أن أكمل الغريب فطوره، وحمد الله، وصلى على نبيه ﷺ مستغرقا في كـل ذلـك، ممتلئـا خشـوعا، رمى ببصـره إلى الأفـق البعيد، ثم قال:

في ذلك اليوم من أيام الشتاء الباردة سرت إلى مدينة تمتلئ بالحضارة والثقافة والعلوم، لأذهب إلى جامعـة من جامعاتهـا الـتي اشتهرت بتخريج المستشرقين.

قلت: لا شك أنك تقصد باريس، وتقصد جامعة السربون.

قال: أجل.. لقد كنت حينها ممتلئا إعجابا بما أنشأه قومي من حضارة، كانت روحي تسجد أمام كل عمارة، وتتمسح بكـل جسـر، وتصافح كل تمثال، وتقبل كل لوحة.

لقد كنت أنظر إلى الأشياء الكثيرة التي أمـامي، فلا أرى فيهـا غير الجمال.. الجمال الذي يصيح بكل ألوان العذوبة.

لست أدري كيف خطـر على بـالي أن أذهب إلى بـرج إيفـل، وفي الحديقـة الـتي تحيـط بـه جلسـت على كرسـي أتأمـل ذلـك الجمال الذي ينطق به هذا البرج.

خطر على بالي حينها صاحبك معلم السلام.. وتسـاءلت بيـني وبين نفسي: هل رأى هذا البرج؟.. وهـل رأى قبلـه ثمـار الحضـارة التي تنعمنا ـ معشر أهل الغرب ـ بها؟

ما استتم هذا الخاطر في ذهني حتى التفت إلى جـانبي، فـإذا به يجلس بجانبي يحدق إليه كما أحدق، ولكني لم أر في وجهه من الانبهار ما رأيت في وجهي.

صافحته بحرارة قائلا: ها نحن نلتقي أخيرا في باريس.. كيــف خطر على بالك أن تأتي إلى هذا الموضع؟

قال: لقد أردت أن أرى بعض ثمار الشجرة التي أسست هذه الحضارة؟

قلت: إنها ثمار يانعة ممتلئة طيبة.. أم أنك تخالفني في ذلك؟

قال: لا أخالفك.. ولا أوافقك.. أحيانـا قـد تكـون الثمـار يانعـة، طيبة المذاق، حلوة الرائحة، جميلة المنظـر، ولكنهـا تخـتزن السـم الزعاف.

قلت: ما الذي تقوله؟

قال: ألست ترى القتلة المجرمين إذا دسـوا سـما دسـوه في

أطيب الأطعمة وألذها؟
قلت: أجل.. حتى تغري الآكلين بأكلها.
قال: فإذا أكلوها سقتهم الموت؟
قلت: ذلك عندما يكون الطعام سما.
قال: كل طعام قد يكون سما، وقد يختزن سما.
قلت: لا يـزال الشـك الـذي اعـتراك في الكتـاب المقـدس يعتريك في الطعام أيضا.
قال: لقد ذكرت لك أني لا أتيقن حتى أشك، ولا أطمئن حـتى أضطرب.
قلت: لقد سمعت بأسوار الكلمات المقدسـة الـتي تضـع في القلب اليقين بمصدرها الإلهي.. فهـل هنـاك أسـوار للثمـار الطيبـة تفرق بينها وبين الثمار الخبيثة.
قال: أجـل.. وسأضـرب لـك مثـالا يوضـح لـك هـذه الأسـوار، ويقربها لعقلك:
أرأيت لو أن بك مرضا يمنـع جسـدك من ثمـار معينـة، فـراح بعض الناس يغريك بكل صنوف الإغراء لتأكلهـا، ويتفنن في تزيينهـا لك بكل ما أتيح له من قدرات التزيين.. هل ترى هذا ناصحا لك؟
قلت: هــذا لا يريــد إلا قتلي.. ولكنــه لم يــرد أن يلطخ يــداه بقتلي، فراح يقتلني بيدي، ويبطني، ويستعمل مـا ملئت بـه نفسـي من شهوات ليسقيها السم الزعاف.. إن هذا مجرم لا ناصح.
قال: ولكن الناس عندما يرونه لا يرونه إلا ناصـحا متملقـا في نصحه.
قلت: هم لا يرون ما أرى.. ولا يعيشون ما أعيش.
قال: فهذا هو الحصن الأول للثمار الطيبة.
قلت: لم أفهم..
قـال: الثمـار الطيبـة ثمـار تناسـب الإنسـان، وكأنهـا صـنعت خصيصـا من أجـل الإنسـان، وأول مـا تبحث عنـه هـذه الثمـار هـو مصلحة الإنسان.
قلت: فما الحصن الثاني؟
قال: أرأيت لو جلست في قاعة امتحان يرتبط بها مصــيرك.. مصيرك العلمي، ومصيرك الوظيفي.. فجاء بعض النـاس، وشـغلك بثمار كثيرة بهيجة المنظر حلوة المذاق، تصيح بكل لسان، وتدعوك بكل أسـلوب، فانشـغلت بهـا عن امتحانـك.. أتـرى من قـدمها لـك ناصحا؟

قلت: كلا.. فهذا لا يختلف عن ذاك.. كلاهما لا يريد إلا هلاكي.
قال: ولكنك لن تموت بأكل هذه الثمرة الأخيرة.
قلت: ولكني سأحيا حياة أشبه بالموت.
قال: فهذا هو الحصن الثاني.
قلت: لم أفهم ما ترمي إليه.
قال: كل ثمرة تبعدك عن الوظائف التي أنيطت بها حياتك، أو الرسائل التي كلفت بتبليغها ثمرة سامة، وإن بدت لـك حلـوة، هي كالشيطان الذي يتزين بكل صنوف الزينة ليجذبك إليه.
قلت: فهل هناك حصون أخرى؟
قال: لا.. هناك حصنان فقـط.. بهمـا تعـرف طيبـة الثمـار من خبثها.
قلت: فهل طبقت هذا على ما أنتجته حضارتنا؟
قال: أجل.. ولكني للأسف.. لم أجد بعد جهد مضـن إلا الثمـار الخبيثة، وقلما أظفر بثمرة طيبة.
قلت: كيف ذلك؟
قــال: انظــر إلى كــل من حولــك بعين الحقــائق لا بعين الشهوات، وسترى ما لم تكن ترى، وتسمع ما لم تكن تسمع.
التفت لأرى ما لم أكن أرى، وأسمع ما لم أكن أسمع.. فإذا به يبتعد عني من غير أن أشعر.
أسرعت إليه، وقلت: إلى أين تذهب، وتدعني!؟
قال: أنا أبحث عن الثمار الطيبة لأكتشف من خلالها الشـجرة الطيبة.
قلت: فإذا عرفت الشجرة الطيبة، فما يغنيك معرفتك لها؟
قال: أبحث عمن زرعها.
قلت: فإذا عرفته؟
قال: إذا عرفته جعلته إمامي الذي به أأتم، وقدوتي الـتي بهـا أقتدي، ولم أتناول ثمرا إلا من يديه.

***

بعد أن تركني وسار، حاولت أن أقترب أكثر من تلك الجمـوع لأرى ما لم أكن أرى، وأسمع ما لم أكن أسـمع، فـرأيت، وسـمعت ما ملأ نفسي بالغثاء..
لقد تخيلت نفسي في حضـيرة حيوانـات لا هم لهـا إلا العلـف الذي تعلفه، والحياة البهيمية التي لا تعيش إلا من أجلها..

***

عند باب جامعة السربون، رأيت رجلا لاح لي من مظهره أنــه رجل دين، بل يظهر من مظهره أن له مكانة في الكنيسـة، ولكـني تعجبت منه إذ رأيته يرمي صليبه الذي كان يطـوق رقبتـه، ويـرتمي على الأرض ساجدا، يبلل الأرض بدموعه.

اقتربت منه لأسمع ما يقول، واقترب جمـع من النـاس نحـوه كما اقتربت.

كانت الدموع تحول دون فهم الجمع لما يقول، فلـذا تصـوروه مجنونا، فانصرفوا عنه، أما أنا، فقد وعيت كل كلمة نطق بها.

لقد كان يردد ما قاله المسـيح في إنجيـل مـتى (7:15-17): (احترزوا من الأنبياء الكذبة يأتونكم بثياب الحملان الوديعـة، ولكنهم من الداخل ذئاب خاطفة.. من ثمارهم تعرفونهم، هـل تجتنـون من الشوك عنبا، أو من الحسـك تينـا.. هكـذا كـل شـجرة جيـدة تصـنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية)

عنـدما قـام من سـجوده، اقـتربت منـه، وحييتـه، وقلت: لقـد رأيتك تفعل عجبا حيرني.. أنت تسجد سـجود المسـلمين، ثم تقـرأ في ســجودك إنجيلنــا نحن المســيحيين، فهــل أنت مســلم أم مسيحي؟

قال: أنا مسلم مسيحي.. أو مسيحي مسلم..

قلت: لا يمكن أن تخلـط بين الأديـان، فالمسـلمون لا يقبلـون مسيحيا يظل على مسيحيته، والمسيحيون لا يقبلون مسـلما يظـل على إسلامه.

قال: لقد كنت مسيحيا خالصا، بـل مسـيحيا متعصـبا.. ولكـني الآن تحولت إلى المسيحية الحقيقية التي جاء المسيح يبشر بها.

قلت: فما هي هذه المسيحية؟.. وكيف وصلت إليها؟

قال: لقد ظللت سنة في هذه الجامعة.. أسـتمع من علمائهـا: الصديق منهم والعدو.. ورحت أقارن كل ما أسمعه عن الإسلام بما في سائر الأديان والمذاهب والأفكار.. وقد كانت خلاصـتي تفكـيري ما رأيته الآن..

ثم التفت إلي، وقال: لقد كنت سائرا الآن لألقي موعظـة في حفل من النـاس دعـوني لأذكـر لهم ثمـرات المسـيحية في الـدين والحياة.. وكنت أحمل الكتاب المقـدس.. وأقلب طـرفي في ذلـك السور المنيع الذي وصفه المسيح للنبوة الصادقة.

قلت: تقصد سور الثمرات.

قـال: أجـل.. من أراد أن يعـرف النـبي الصـادق من الكـاذب،

فلينظر إلى تعاليمه، وإلى ثمار تعاليمه؟
قلت: فهل وجدت في ثمار محمد ما دلك على صدق نبوته؟
قال: أجل..
قلت: فما وجدت؟
قال: لا يمكنني أن أعبر لك عن كل مـا وجـدت.. لقـد طبقت قـول المسـيح: (لا تقـدر شـجرة جيـدة أن تصـنع أثمـارا رديـة، ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارا جيدة، كل شـجرة لا تصـنع ثمـرا جيـدا تقطع وتلقى في النار، فإذن من ثمارهم تعرفونهم) (متى: 18:7-20) على جميع ما أعرفه من المذاهب والأديان، فلم أجـد شـجرة طيبة إلا شجرة محمد..
فما عرفت ذلك حتى سجدت.. ورحت أترنم بالنص المقـدس الذي سمعته من المسيح.. والذي جعله الله سبب هدايتي.
قال ذلك، ثم استمر سائرا من غير أن يسألني عني، قلت له: إلى أين؟
قال: لقد تأخرت.. والجماعة تنتظرني.
قلت: لكنك قد غيرت رأيك.
قال: بل صححت رأيي.. إن أعظم ثمـرة للمسـيح هي دلالتنـا على محمد.. ولذلك.. فإن كل ثمرات محمد ثمرات للمسيح.
هـؤلاء كلهم أنبيـاء.. ولا أحـد منهم ينـازع الآخـر، أو يصـارعه.. الصراع لا تجده إلا عندنا..
قال ذلك ثم انصرف.. والبسمة تملأ محياه.

***

بعد هذه المواقف التي كانت توجهـني وجهـة واحـدة.. وكأنهـا تحثــني على الاســتعداد العقلي والنفســي لتلقي هــذا النــوع من الأشعة.. ذهبت إلى جامعة السـربون، وهنـاك طلبت مقابلـة مـدير الجامعة، الـذي رحب بي غايـة الـترحيب.. ثم دار بيننـا هـذا الحـوار الذي حاول من خلاله أن يبين لي الوظيفة التي تنتظـرني في هـذه الجامعة.
قــال: لقــد تعــودت أن أســتقبل كــل من ترســله الكنيســة بنفسي..
قلت: لم تكلف نفسك هذا مع كثرة أشغالك؟
قال: بالإضافة إلى احترامي العظيم للكنيسة ورجال الكنيسة، هناك سببان يدعواني لهذا الاهتمام:
أما أولهما، فلأن ما أقوله لرجال الدين الذين يشرفون مكتبي

هذا يكاد يكون سرا لا ينبغي أن يسمع به أحد.

وأمـــا الثـــاني، فلأني لا أجـــد فيمن أراهم معي من يحملـــون العزيمة التي أحملها، والتي تجعلهم يبلغون الرسالة كما ينبغي.

قلت: فكلي آذان صاغية، فحدثني عن الرسالة الـتي تريـد أن تبلغني إياها.

قال: قبل أن أحدثك عن تلك الرسالة.. والتي جعلتنـا نطلبـك، أو نطلب بالأحرى من له من القـدرات العلميـة واللغويـة مـا لـك.. أريد أن أحدثك عن علاقة هذه الجامعة بالـدين.. أو بـالأحرى علاقـة التبشير بالاستشراق.

هذه الجامعة ـ كما تعلم ـ جامعة تهتم بالدراسات الشرقية، أو بالخصوص الدراسات المهتمة بالإسـلام.. وهي تحمـل في الظـاهر لواء العلميـة والموضـوعية، ولكنهـا في نفس الـوقت تحمـل نفس اللواء الذي يحمله المبشرون..

التفت إلي مبتســما، وقــال: أنتم تبشــرون بالمســيح، ونحن نقـرب المسـلمين لكم لتبشـروهم بالمسـيح.. فنحن نقـوم بعمـل متكامل.

قام من مجلسه، وقال: ربما لم تفهمني جيدا، وربما فهمتــني فهما خاطئا، ولذلك سأوضح لك أكثر.

في البداية.. لم يكن هناك استشراق..

ابتســـمت، وقلت: في البدايـــة لم يكن أي شـــيء.. ليس الاستشراق وحده.

نظر إلي، وقال: لم تفهمني.. لم أقصد ما فهمتـه.. حـاول أن تركز معي.

ركزت معه كما طلب مني.

كـان يحـاول أن يقـول أشـياء كثـيرة، وكنت أشـعر أنـه كـان يستحي من ذكرها، ولكنه كان مضطرا لقولهـا، فلـذلك كـان يبـدوا مضـطربا ينحـرف ذات اليمين وذات الشـمال ليعـبر عمـا يريـد أن يوصله لي، وهو مع كـل ذلـك ينظـر إلى وجهي بدقـة ليحـدد مـدى استيعابي لما يقوله.

قال: أقصد أن الاستشراق لم يبدأ من هذه الجامعـة.. ولا من أي جامعة من جامعات الدنيا.

قلت: فمن أين بدأ؟

قال: من الكنيسة.. لقد كانت البدايـة الرسـمية للاستشـراق من الكنيسة.

نظرت إليه متعجبا، فقال: لا تتعجب.. لقد بدأ الاستشراق من مجمع فينا الكنسي سنة 1312 من ميلاد المسيح، فقد أوصى هـذا المجمع بإنشاء عدة كراسي للغات، ومنها اللغة العربيـة، ولا سـيما التشريع الحادي عشر الذي قضى فيـه البابـا (إكليمنس الخـامس) بتأسيس كراسي لتدريس العبريـة واليونانيـة والعربيـة والسـريانية والآرامية في الجامعات الرئيسية(1).

وكانت هذه التوصية قائمة على دعوة (ريموند لول)(2) لإنشاء كراسي للغة العربية في أماكن مختلفة، لقد كان هدفه واضـحا من تلك الدعوة..

لقد كان الهدف تبشيريا محضا، ولم يكن له علاقة بالدراسات العلمية المجردة.

نظر إلي ليرى تأثير ما يقولـه على وجهي، فلمـا رآني منصـتا مستغرقا في الإنصات أتاح له ذلك حريـة الكلام، فقـال: منـذ ذلـك الحين نال الاستشراق رعايـة الكنيسـة ومباركتهـا.. وخاصـة عنـدما فشلت الحـروب العسـكرية من خلال انحسـار المـد الصـليبي بعـد جهود قرنين من الزمان.

ولهـذا اتجهت الكنيسـة الغربيـة إلى التبشـير من خلال الفكـر والثقافـة والعلم.. فكـان التوجـه إلى الحـرب الفكريـة، لتحقـق مـا فشل فيه سلاح الغزو الحربي.

لقـد كـان الهـدف من هـذه الـدعوة هـو أن تـؤتي محـاولات التبشير ثمارها بنجاح من خلال تعلم لغات المسلمين، وقد عبر عن هـذه الثمـار في دعـوة (لـول) بارتـداد العـرب إلى المسـيحية من الإسلام، كما كان (غريغوري العاشر) يأمل في ارتـداد المغـول إلى المسيحية، وقبله كان (الإخوة الفرنسيسكان) قد توغلوا في أعماق آسيا يدفعهم حماسـهم التبشـيري، ومـع أن آمـالهم لم تتحقـق في وقتها إلا أن الروح التبشيرية قد تنامت منذئذ.

وهـذا يعـني بتعبـير أوضـح (إقنـاع المسـلمين بلغتهم ببطلان

---

1) إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، قم: دار الكتاب الإسلامي، 1984 م - ص 328.

2) ريمونـد لـول(1235 -ـ 1316 م)، إسـباني، كـان دومينيكيـا ثم تحـول إلى الفرنسيسكانية، وهو من جزيزة ميورقة، تبنى فكـرة السـيطرة على الشـرق بالتبشـير لا بالحروب، ووضع خطة لذلك، وسعى إلى إنشاء مدرسة ميرامار للمنصـرين، ثم تواصـلت محاولاته لإنشاء مدارس تنصيرية أخرى، ومارس التبشير في شمال إفريقية، وبها تـوفي، وكان وراء قرار مجمع فينا الكنسي المشهور سنة 1311 ـ 1312 م، الذي قضى بإنشاء كراسي للغات، ومنها اللغة العربية، من آثاره: رواية تنصيرية، وكتاب المنطق في الحـوار مع الكفرة (انظر: عبد الجليل شلبي: الإرساليات التبشيرية: ص 151 - 156)

الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي)[1]

سكت قليلا، ثم استأنف قائلا: لقد انتظم الاستشراق في الفاتيكان، وانتشر واستمر على أيدي البابوات والأساقفة والرهبان، فكان رجال الدين، ومجمعهم الفاتيكان يومئذ، يؤلفون الطبقة المتعلمة في أوربا، ولا سبيل إلى إرساء نهضتها إلا على أساس من التراث الإنساني الذي تمثلته الثقافة العربية، فتعلموا العربية، ثم اليونانية، ثم اللغات الشرقية للنفوذ منها إليه.

نظر إلي وتمعن في تأثير كلماته علي، ثم قال: مما يدلك على الصلة العظيمة بين الاستشراق والتبشير أنه كان هناك فئة مهمة من المستشرقين لم تتورع عن قبول اللقب الديني، أو الرتبة الدينية.. فمنهم (الأب).. ومنهم (الأسقف).. ومنهم (البطريرك).. ومنهم (المطران)

سأضرب لك بعض النماذج عن هؤلاء:

لاشك أنك تعرف الأب آسين بلاثيوس (1871 -ـ 1944 م) الإسباني، ذلك الرجل الذي اشتهر بدراسة حركة التفاعل الثقافي بين الإسلام والمسيحية، والذي كتب عن (مذهب ابن رشد، ولاهوت توما الإكويني)، وعني بـ (محيي الدين بن عربي)، وأجرى (مقارنة بين ابن عباد الرندي ويوحنا الصليبي)، وصنف في (الغزالي والمسيحية)، وكتب في (الآثار الإنجيلية في الأدب الديني الإسلامي)[2]

لقد حاول كل جهده أن يلبس الإسلام ثوب المسيحية، وقد نجح في ذلك، ولا تزال آثاره تتداول.. أتدري من كان؟.. لقد كان أبا مسيحيا.. كان رجل دين قبل أن يكون رجل استشراق.

ومثله الأب أبوجي(1819 -ـ 1895 م) الفرنسي، لقد كان من الرهبان اليسوعيين[3]، وقد صنف كتبا دينية ومدرسية، لقد جمع هذا الرجل الفاضل بين الوظيفتين: وظيفته الدينية ووظيفته العلمية، بل استخدم الوظيفة العلمية في خدمة وظيفته الدينية.

ومثلهما نعمة الله أبو كرم (1851 - 1931 م)، لقد كان من

---

1) محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري،ط 2، القاهرة: دار المنار، 1409 هـ - 1989 م - ص 35.

2) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين: 121.

3) اليسوعيون أو الجزويت من الجماعات التبشيرية النشطة، ومؤسسها هو القديس إجناتياس لويولا (1491 ـ 1559 م)، وكان جنديا إسبانيا، وهي لا تتبع مذهبا معينا، لكنها تعد من المبشرين، انظر: طلال عتريسي: البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان، دراسة تاريخية وثائقية، بيروت: الوكالة العالمية للتوزيع، 1987 م، ص 28 - 34.

مستشرقي المدرسة المارونيـة بلبنـان، نصـب مطرانـا، وكـان قـد تخرج من جامعة القديس يوسف ببيروت، وعاون في تحرير مجلـة البشير، ثم عين رئيسا للمدرسة المارونيـة في رومـة، ومستشـارا في المجمع الشرقي، ومن آثاره: قسـطاس الأحكـام في القـانون مع مقارنته بما يقابله في الشرع الإسلامي.

ومثلهم الأب يوســف الأشــقر (ق 18 م)، لقــد كــان من مستشرقي المدرسـة المارونيـة بلبنـان، تـرجم إلى الفرنسـية من العربيـة والسـريانية كتبـا كثـيرة أشـهرها سلسـلة تـواريخ بطاركـة الموارنة الأنطاكيين، وقد اعتمد عليه (لي كيين) في كتابـه الشـرق المسيحي.

كان هناك غيرهم ممن لا يحمل هذه الألقاب.. ولكنه مع ذلـك لم يتتلمذ إلا في المدارس اللاهوتية المسيحية أو اليهودية:

منهم أرنست رينان (1823 ـ 1892)، الذي تلقى تعليمه في المدارس اللاهوتيـة، وتعلم العربيـة في مدرسـة اللغـات الشـرقية بيـاريس، وزار المشـرق وعـاش بلبنـان فـترة من الـزمن، واهتم بالعقيدة الإسلامية.

لاشك أنك تعرف موقفه المشهور من العقل السامي، وأنه لا يصلح لدراسة العلم(1).

ومنهم جـورج سـيل (1697-1736) الـذي ولـد في لنـدن، والتحق بالتعليم اللاهوتي.. لقد كان من أبرز أعماله ترجمته لمعاني القـرآن الـتي قـدم لهـا بمقدمـة احتـوت على كثـير من الشـبهات الجادة(2).

ومنهم وليام ميـور (1819 -1905).. لقـد كـان مستشـرقا ومبشّرا وموظفا إداريا.. وهو إنجليزي، تعلم العربية في أثناء عملـه في الهنـد واهتم بالتـاريخ الإسـلامي شـارك في أعمـال جمعيـة تنصيرية في الهند.

وقد ألف كتاباً يناصر الجهود التنصيرية بعنوان (شهادة القـرآن على الكتب اليهوديـة والمسـيحية).. ومن أهم مؤلفاتـه كتابـه في سيرة محمد في أربعة مجلـدات، وكتابـه حـول الخلافـة، كمـا ألـف

---

1) وقد ردّ عليه كل من جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في كتابه (الإسـلام والنصرانية بين العلم والمدنية)

2) ومع ذلك يقول عبد الرحمن بـدوي عن ترجمتـه:(ترجمـة سـيل واضـحة ومحكمـة معاً، ولهذا راجت رواجـاً عظيمـاً طـوال القـرن الثـامن عشـر إذ عنهـا تـرجم القـرآن إلى الألمانية عام 1746)، ويقول في موضـع آخـر:(وكـان سـيل منصـفاً للإسـلام برئيـاً رغم تدينه المسـيحي من تعصـب المبشـرين المسـيحيين وأحكـامهم السـابقة الزائفـة) (عبـد الرحمن بدوي. موسوعة المستشرقين.(بيروت:دار العلم للملايين) 1984.ص 252).

كتاباً حول القرآن بعنوان (القرآن تأليفه وتعاليمه)[1]
وغيرهم كثير..
قلت: فـأنت تـرى إذن بـأن التبشـير هـو الأصـل الحقيقي للاستشراق؟
قال: أجل.. وليس العكس كما يذهب أغلب الباحثين.
قلت: ولكن الاستشـراق ليس خاصـا بالمسـيحيين، فهنـاك مستشرقون يهود وعلمانيون.. بل وملحدون[2].
قال: بورك كل أولئك المستشرقين.. ولا يهمنا من يكونون ما دمنا نتفق على نفس الهدف..
قلت: أتبارك الملحدين واللادينيين؟
قال: لم أبـاركهم أنـا.. أنتم الـذين بـاركتموهم.. الكنيسـة هي التي تبارك كل من يقف في وجه الإسلام.. ولا يهمها من يكون، ولا ما يرتدي.
قلت: سمعت كل ما ذكرتـه، وفهمتـه، ولكـني لم أع الرسـالة التي تريد أن تبلغني إياها من خلال هذا الكلام.
قـال: اصـبر علي.. فليس من عـادتي أن أملي على أحـد مـا يفعل.. عادتي مع جميع من ينتمي لهذه الجامعـة أن أقنعـه، وأبعث فيه الهمة، ثم أترك له الأسلوب الذي يراه مناسبا لتحقيـق القناعـة التي أوصلته إليها.
ليس ذلك مع من ينتمي لهذه الجامعة فقط.. أنا أمـارس هـذا الأسلوب مع أولادي.. أكتفي بحوارهم وإقناعهم، ثم أتـرك لهم بعـد ذلك اختيار القرار المناسب.
قلت: لقد ذكرت لي علاقة التبشير بالاستشراق، وحـاولت أن تقنعني بأن أصل الاستشراق هو التبشير.
قال: بورك فيك.. لقد وعيت كل ما ذكرته لك.
قلت: ولكني لم أع الرسالة التي يحملها هذا الكلام.
قال: لقد كان ذلك في البدء.. في البدء ولـد الاستشـراق في

---

1) وقد تولى ميور منصب مدير جامعة أدنبره في الفترة من عام 1885حتى عام 1903. انظر: عبد الرحمن بدوي. موسوعة المستشرقين.(بيروت:دار العلم للملايين)

2) من المعلـوم أنـه ليس كـل المستشـرقين ينتمـون إلى المسـيحية، ففيهم المستشرقون اليهود الـذين خـدموا اليهوديـة من خلال دراسـاتهم الاستشـراقية، كمـا أن فيهم الملحدين الذين خـدموا الإلحـاد من خلال اهتمـامهم بالمنطقـة العربيـة والإسـلامية، ومحاولاتهم نشـر الإلحـاد في هـذه البقـاع بـديلا عن الإسـلام، ومنهم العلمـانيون، فهنـاك انتساب واضح إلى العلمانية عنـد فئـة من المستشـرقين، كمـا أن هنـاك انتسـابا صـريحا للصـهيونية عنـد فئـة أخـرى من المستشـرقين. انظـر: الاستشـراق والتنصـير، لعلي بن إبراهيم الحمد النملة.

محضنة الكنيسة، وظل وفيا لها عهودا طويلة.. ولكنه أحيانا كان ينحرف عن مساره، ويظهر بعض المستشرقين المتمردين الذين يتصورون ـــ حسب أوهامهم ـــ أنهم يغلبون المنهج العلمي الموضوعي على الرؤية الذاتية الدينية.

قلت: أعلم ذلك.. وأعلم كذلك أن المسلمين يتبنون هذا النوع من المستشرقين، ويفرحون بهم، وينقلون شهاداتهم في كتبهم.

قال: وهذا هو مصدر الخطورة.. إن وجود هذا النوع من المستشرقين أحدث شرخا خطيرا في المقاصد التي يرمي إليها الاستشراق.. لقد تاه أولئك المستشرقون عن الهدف..

لقد صاروا كذلك المحارب الذي لم يكتف بأن يرمي سلاحه، ويولي دبره، وإنما ذهب، وأمد العدو بسلاح كثير، وقنابل كثيرة.

قال ذلك، ثم صاح بنوع من الهستيرية: إنها خيانة.. خيانة عظمى.. لو كنت حاكما عسكريا لحكمت على أولئك بالشنق.. لا يجدي معهم غير الشنق.

التفت إلى نفسه، ورأى خطأه في إظهار ما تكنه نفسه من ألوان الحقد، ثم ابتسم، وقال: اعذرني.. كنت أمزح فقط.. لست أدري لم طغت لغة الحرب هذه الأيام.. صرنا لا نتكلم إلا بالمدافع والأسلحة والقنابل.. لعل ذلك من تأثير وسائل الإعلام.

ثم قال: على العموم، فقد كان هذا النوع الخطير من المستشرقين أفرادا محدودين، ومع ذلك كان لهم ذلك التأثير الخطير.. ولكنهم ـ الآن ـ أمة من الناس.. هم الآن يتكاثرون كما تتكاثر الطفيليات.. لهذا صار خطرهم أعظم.. ولهذا صرنا نفضل المستغربين على المستشرقين.

المستغربون جاءونا أصلا لينسلخوا من هويتهم.. فلذلك نراهم يتزلفون كما لا يتزلف أحد.. أما أولئك المستشرقون الأغبياء.. فهم لا يزالون يلقون أسلحتهم ليمدوا بها عدوهم.

قلت: وهل يوجد أمثال هذا النوع من المستشرقين في هذه الجامعة؟

قاطعني، وقال: أجل.. وهم يتكاثرون كما يتكاثر النمل.. وقد عرفنا السر في ذلك التكاثر.

قلت: وما هو؟

قال: العلمانية.

ابتسمت، وقلت: وما علاقة العلمانية بهذا؟.. ثم ألسنا في دولة علمانية؟

قال: العلمانية هي فصل الدين عن الحياة وعن الدولة وعن الأخلاق..

قلت: أعلم ذلك.

قال: وهؤلاء فصلوا الدين.. أو فصلوا اهتمامهم الديني وانتماءهم الديني عن دراساتهم لتراث المسلمين وفكر المسلمين.

قلت: وما يضيرنا من ذلك.. فهم إن لم يدخلوا بعدهم المسيحي أدخلوا بعدهم الإلحادي، أو بعدهم الوجودي، أو أبعاد أخرى.

قال: ليت الأمر سار على هذا النحو.. هؤلاء أدخلوا البعد الموضوعي.. لقد صاروا يتعاملون مع التراث الإسلامي والفكر الإسلامي بموضوعية وحياد..

قلت: هذا بعد جيد..

قال: وخطير جدا..

قلت: ما خطره؟.. ما داموا يلبسون ثياب العلم، ويتبنون التحقيق العلمي.

قال: لم تفهم إذن كل ما قلت لك.

قلت: بل فهمت.. ولكني لم أفهم خوفك من البعد الموضوعي.

سار في أرجاء القاعة، وكأنه يهم أن يقول شيئا يخاف على نفسه منه، أو يخاف علي منه.

لكنه تحدى ذلك، وقال بلسان متلعثم: البحث الموضوعي في تراث المسلمين خطير.. خطير جدا..

ثم قال، وكأنه يستعيد ذكريات مر بها: سلني أنا.. لقد جربت في شبابي هذا النوع من البحث.. ولكني كدت أحترق.. لقد كانت شمس محمد شمسا محرقة كادت تصليني بنارها..

لست أدري مدى صدق قومه في إطلاق لفظ الساحر عليه.. ولكنه ــ معي ــ لا يوجد لقب أصدق منه.. لقد سحرني كما لم يسحرني أحد من الناس.. ظللت دهرا من عمري منشغلا بالتفكير فيه، وفي الشجرة التي تركها لترمي كل حين من الثمار ما يجعل وجوده حيا مستمرا.

لست أدري كيف قلت له مقاطعا: فلماذا تريد قطع هذه الشجرة؟

قال ــ وكأنه لا يدري ما يقول ــ: لست أنا الذي أريد أن

أقطعها.. كلهم يريد أن يقطعها.. وما نحن إلا معاول بسيطة.
قلت: ومن يشارككم في الاهتمام بقطعها؟
قال: كثيرون.. منهم أنتم المبشرون.. ومنهم أولئك العساكر المستعمرون.. بالإضافة إلينا نحن المستشرقون.. بالإضافة إلى أولئك الذيول من المستغربين..
كلنا نشكل معاول لهدم شجرة ذلك الساحر التي تؤتي أكلها كل حين، ولا تمل من إعطاء الثمار كل حين.
قلت: فلم نهتم جميعا بقطعها؟
قال: لأنها الشجرة الوحيدة في العالم التي تقف في وجه شجرتنا، وتمنع امتدادها.
قلت: فلم لا نترك الشجرتين تتعايشان مع بعضهما، فنأكل ثمرا ناضجا من كليهما(1)؟
انتفض، وقال: يستحيل ذلك.. يستحيل ذلك..
قلت: وما وجه الاستحالة؟
قال: ألا تعلم أن شجرة محمد شجرة مسحورة!؟.. إن كل من أكل من ثمارها أصابه سحر محمد.
ابتسمت، وقلت: أراك تؤمن بالسحر، وتبالغ في الإيمان به؟
قال: لو لم أجرب تأثيره ما آمنت به.
قلت: فلنفرض أنا قطعنا شجرة محمد..
قاطعني قائلا: ذلك مستحيل.. هي شجرة ضاربة الأطناب في التربة، بل لعل لها جذورا في السماء يستحيل قطعها.
قلت: فلم نجتهد في تحقيق المستحيل؟
قال: ذلك منهج خاطئ سلكه أسلافنا، ونحن اليوم نعرف استحالته.
قلت: فهل رأيت منهجا آخر يمكن سلوكه؟
قال: أجل.. نترك للشجرة وجودها.. لكنا نترك ثمارها تتساقط من غير أن يأكلها أحد.
قلت: كيف ذلك؟
قال: ذلك بسيط.. نحذر من ثمارها.. نصف حلاوة ثمارها بحلاوة العلقم، ونصف إكسيرها وترياقها بالسم الزعاف.. ثم نرمي كل من يأكل ثمارها بالتخلف والرجعية والإرهاب والخرافة..
قلت: وحينذاك لن يقترب منها أحد.

---

1) أقصد (حوار الحضارات) الذي هو مطلب إسلامي بدل (صراع الحضارات) الذي يتحدث عنه الغرب.

قال: وحينذاك ستذبل الشجرة وتموت من غير أن نقطعها.
قلت: فكرة جيدة.. ولكن ألسنا نسيء للبشرية إن فعلنا هذا؟
قال: بل نحسن غايـة الإحسـان.. لا يمكن للبشـرية أن تعيش على ثمـار شـجرتين متناقضـتين غايـة التنـاقض.. لـذلك إن أردنـا السلامة لشجرتنا، فهذا ما ينبغي أن نمارسه مع شجرة محمد.
قلت: فهل تسيرون في هذا السبيل؟
قال: كنا نسـير فيـه.. ولكنـه ظهـرت فئـة من المستشـرقين غفلت عن مبادئها وهدفها وغلبت الموضوعية العلمية في تصورها.. ونخاف على هذه الفئة أن يصيبها سحر محمد.
قلت: فما دوري أنا في هذا؟
قـال: لسـت وحـدك.. هنـاك إخـوان كثـيرون لـك في هـذه الجامعة، وهم ينتشرون بين هؤلاء المستشـرقين ليقـدموا لهم من الرقى والتعاويذ ما يقيهم من سحر شجرة محمد.
قلت: أطلبتم حضوري لأقدم لكم رقى ضد السحر؟
قال: ليس ضد كل سحر.. ضد سحر محمد وحده.
قلت: لا أعـرف هـذا النـوع من الـرقى.. بـل لا أكـاد أؤمن بالسحر.
ابتسـم، وقـال: أنت لم تفهمـني.. الـرقى الـتي نقصـدها هي الشبهات.. ليس هناك شيء يقتل شجرة محمد كالشبهات.
قلت: فهمت.. أنت تريـــدني أن أتصـــل بهـــذا النـــوع من المستشـرقين لأملأ عقـولهم بالشـبهات الـتي تبعـدهم عن شـجرة محمد.
قال فرحا: أجل.. هذا ما أريـده، وقـد ذكـرت لـك أنـك لسـت وحدك في هذه الجامعة.. هناك كثيرون من أمثالك.
قلت: إن هذا يحتاج وقتا..
قال: لقد أعددنا لك في هذه الجامعة كل ما يريحك، وكـل مـا يخدمك، ويخدم الهدف النبيل الذي جئت من أجله.
لقد وفرنا لك مسـكنا لائقـا، وسـيارة فارهـة، وأمـوالا سـوف تصـب كـل حين في رصـيدك.. وإن احتجت إلى أي نفقـات زائـدة، فليس عليك سوى الاتصال بي.
قـــال ذلـــك، ثم التفت إلى صـــليب كنت أعلقـــه ليشـــير إلى وظيفتي الدينية، فأمسكه بيده، ثم قبله، وقال: لا أطلب منك سوى طلب واحد.
قلت: وما هو؟

قال: انزع هذا الصليب..
قلت: لم؟
قال: لا تظهر أي علاقة لك بالدين في هذه الجامعة.. نحن في جامعة علمانية، ولذلك حاول أن تكون علمانيا في ظاهرك قدر ما استطعت، وخاصة أمام أولئك المرتدين الذين لبسوا لباس الموضوعية العلمية، وتركوا الرسالة النبيلة التي كلفتهم بها أمتنا العظيمة.

***

خرجت من مكتبه، فصحبني مرشد جال بي في أنحاء الجامعة، ثم أعطاني دفترا يعرفني بالمستشرقين الذين يطلب مني الاتصال بهم والتعامل معهم، ثم سار بي إلى المسكن الفاره المعد لي.. ومعه كل ما تهفو إليه النفوس من الحياة الرغيدة.

لقد ظللت في تلك الجامعة سنة كاملة، رأيت فيها أشياء كثيرة، واستمتعت نفسي بنعم كثيرة.. لكني لا أذكر منها إلا عشرة أيام..

لقد كانت تلك الأيام العشرة هي الأيام التي تنعمت فيها بأشعة جديدة من شمس محمد ﷺ.. ولن أحكي لك في هذه الرحلة إلا حكاية تلك الأيام العشرة.. أما ما عداها فأكثره لغو فارغ.

أولا ـ خلاص

في اليـوم الأول من تلـك الأيـام العشـرة المباركـة، التقيت المستشرق الذي قطفت على يـده أول ثمـرة من شـجرة النبـوة، وهي (ثمرة الخلاص)

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة:19)

وعـرفت بهـا سـر قولـه ﷺ: (إن ربي أمـرني أن أعلِّمكم مـا جهلتم مما عَلَّمني في يومي هذا: كل مال نَحَلْته عبادي حلال، وإني خلقت عبـادي حُنَفَـاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشـياطين فاجْتَـالَتْهُم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم، وأمـرَتْهم أن يشـركوا بي مـا لم أنزل به سلطانا، ثم إن اللـه، عـز وجـل، نظـر إلى أهـل الأرض فَمَقَتَهُمْ، عجَمَهم وعَرَبَهُم، إلا بقايا من أهل الكتاب)(1)

فهذه النصوص المقدسـة تخـبر عن الحالـة الـتي كـان عليهـا العالم حين جاءه الإسلام.. وتشير ـ في نفس الـوقت ــ إلى الـدور العظيم الـذي قـام بـه الإسـلام في إنقـاذ البشـرية وتخليصـها من الهلاك الذي كاد يقضي عليها.

***

سمعت بتوماس وولكـر آرنولد(2)، وهـو مستشـرق بريطـاني

---

1) رواه أحمد، ومسلم، والنسائي.

2) أشير بهذا الاسم إلى المستشرق (1864-1930) Sir Thomas Walker Arnold وهو من كبار المستشرقين البريطانيين، وقد بدأ حياته العلمية في جامعة كامبردج حيث أظهر حبـه للغـات، فتعلم العربيـة، وانتقـل للعمـل باحثـاً في جامعـة (عليكـرا) في الهنـد، حيث أمضى هناك عشر سنوات ألف خلالها كتابه المشهور (الدعوة إلى الإسلام)

من المهام العلمية التي شارك فيهـا عضـوية هيئـة تحريـر الموسـوعة الإسـلامية الـتي صـدرت في ليـدن بهولنـدا في طبعتهـا الأولى، والتحـق بمدرسـة الدراسـات الشـرقية والأفريقيـة بجامعـة لنـدن بعـد تأسيسـها عـام 1916. وعمـل أسـتاذاً زائـراً في الجامعـة المصرية عام 1930.

له عدة مؤلفات سوى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) ومنها (الخلافة) وكتاب حول العقيدة الإسلامية.

وهو صاحب فكرة كتـاب (تـراث الإسـلام) الـذي أسـهم فيـه عـدد من مشـاهير البحث والاستشراق الغربى. وقد أشرف أرنولد على تنسيقه وإخراجه، وهـو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسـة اللغـات الشـرقية بلنـدن، وقـد وصفه المستشرق البريطاني المعروف (جب) بأنه (عـالم دقيـق فيمـا يكتب، وأنـه أقـام طويلاً في الهند وتعرف إلى مسلميها، وأنه متعاطف مع الإسـلام، وكـل هـذه أمـور ترفـع أقوالـه فـوق مسـتوى الشـهادات)(دراسـات في حضـارة الإسـلام، ص 244) ذاع صـيته

كان من النوع الذي حدثني عنه مدير جامعة السربون، واسـمه من الأسماء التي وضعت في الدفتر الذي سـلمني إيـاه المرشـد، وقـد كنت أتحين الفرص للقائه والاستماع إليه، ولكني لم أظفر بذلك إلا في ذلك اليوم الجميل...

فقد كنت سائرا أمام حديقة بيته، فوجدته يسقي شجرة ذابلة تكاد تموت.

رفعت كل كلفة، واقتربت منـه، وحييتـه باللغـة العربيـة الـتي كان يتقنها غاية الإتقان، ويحب أن يجد من يحدثه بها.

نظر إلي، وابتسم، وقال: هل أنت من الشام، أم من مصر؟

قلت: لا هذا ولا ذاك..

قال: فأنت من المغرب إذن؟

قلت: أنا من ألمانيا..

قال: نسبا، أم جنسية مكتسبة؟

قلت: بل نسبا.. أنا ألماني أبـا وأمـا.. ولم أعش في أي دولـة عربية.

قال: أنت تتقن العربية جيدا، وكأنك عربي..

قلت: أنا مهتم بها كثيرا، ومهتم بكل ما يرتبـط بهـا من ألـوان الثقافة.

قال: هذا شيء جيد.. أنت مثلي في هذا.. أنا أيضـا أحب هـذه اللغة، وكل ما يرتبط بها من ثقافة، ولست أدري سر ذلك..

نظر إلى الشجرة الذابلة التي كان يسقيها، ثم قال: لعل سـر ذلك يعود إلى الإكسير الذي أعاد لهذه الشجرة حياتها.

قلت: مـا علاقـة هـذه الشـجرة باهتمامـك باللغـة العربيـة، والثقافة العربية؟

قـال: لقـد كـان مصـير هـذه الشـجرة هـو الفنـاء والـذبول والموت.. لقد أحاط بها الموت من كل جانب، ولم يعد لي أمل في حياتهـا.. ولكن بعضـهم أهـداني إكسـيرا عجيبـا، مـا إن وضـعته في الماء، وسقيته بها حتى عادت إليها الحيـاة، وأنت تراهـا الآن مقبلـة على حياة جميلة تنتظرها.

قلت: لا أزال عاجزا عن فهم علاقة الشـجرة والإكسـير الـذي أعاد إليها الحياة باللغة العربية والثقافة العربية.

قال: يمكن أن تشبه العالم الذي نعيش فيه بهذه الشجرة..

بكتابيه: (الدعوة إلى الاسلام) الذي ترجم إلى أكثر من لغة، و(الخلافة). كما أنه نشر عدة كتب قيمة عن الفن الإسلامي.

قلت: من أي جهة؟

قال: من جهة الحياة والموت.. والمـرض والصـحة.. والـذبول والنشاط.

قلت: ذلــك صــحيح.. فالشــجرة كــائن حي لا يختلــف عن الإنسان.. يعتريه ما يعتري الإنسان من أسباب العافية والبلاء.

قال: لعل هذا هو سر اهتمامي بالعربية والثقافة العربية.

قلت: هذا ما لم أفهمه.

قال: أنا مهتم كثيرا بتاريخ العالم.. وبأسـباب عافيتـه وأسـباب بلائـه.. وأوقـات انحـداره وأوقـات ارتفاعـه.. ولحظـات إنسـانيته ولحظات بهيميته..

في بيــتي ســجلت منحنيــات كثــيرة للســقوط وللنهــوض، وللصعود وللهبوط.

لم أشأ أن أقاطعـه لأسـتفهم عن سـر هـذا الكلام الغـامض، فأخذ يقول: لقد وجدت العالم في جميع فتراته يشبه هذه الشجرة التي اعتراها الذبول وكاد يميتها.. ولكنها عادت للحياة من جديد لما سقيتها بإكسير الحياة.

قلت: فهل وجدت البشرية في فترات سـقوطها من يسـقيها إكسير الحياة؟

قال: لقد سـجلت أعظم انحـدار لمنحـنى سـقوط البشـرية.. ورأيت بأم عيني الإكسير الذي حمى البشرية من الفناء الـذي كـان يترصد بها.. وذلك الإكسـير هـو الـذي حملـني على أن أتعلم اللغـة العربية، وأسافر إلى البلاد العربية، وأتعلم الثقافة العربية.

قلت: فما ذاك الإكسير؟

قال: هو أعظم رجل على الإطلاق.. لعلـه هـو المخلص الـذي عناه المسـيح عنـدما قـال لتلاميـذه: (إن كنتم تحبونـني، فـاحفظوا وصاياي، وأنـا أطلب من الآب فيعطيكم معزيـاً آخـر، ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبلـه، لأنـه لا يـراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم، ويكــون فيكم.. إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي وإليه نأتي، وعنده نصنع منـزلاً.

الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلام الـذي تسـمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني، بهذا كلمتكم وأنا عندكم، وأما المعــزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شــيء، ويذكركم بكل مـا قلتـه لكم.. قلت لكم الآن قبـل أن يكـون، حـتى متى كان تؤمنون، لا أتكلم أيضاً معكم كثيراً، لأن رئيس هذا العــالم

يأتي، وليس لـه فيّ شـيء) (يوحنـا 14/15 – 30)[1].. نعم.. بـل هو..

لقد كانت البشرية تنتظر الخلاص.. لقد كانت كالظمـآن الـذي كاد يهلكه العطش، ولولا محمد، ولولا المياه العذبـة الـتي جـاء بهـا لماتت البشرية من الظمأ.

قلت: كيف تقول ذلك؟.. لقد كـان محمـد في بيئـة صـحراوية بدوية.. وكان مع ذلك أميا.. كيف كان هو المخلص؟

قال: أحيانـا كثـيرة يجعـل اللـه فيمـا نحتقـره من أشـياء سـر خلاصنا..

هذه الشجرة مثلا.. يئست منها، وتـألمت ليأسـي، كنت أراهـا تـذبل أمـامي، وأنـا لا أطيـق معهـا أي حـراك.. ولكن ذلـك الرجـل الفاضل، بل العبقري الفذ وصف لي إكسيرها.

في البداية عندما وصفه ضحكت بيني وبين نفسي.. بل ظننته يسخر مني، وعندما جربته لم أجربه إلا كمـا يجـرب الغريـق تعلقـه بقشـة لا تغـني عنـه شـيئا.. ولكـني بعـد أن طبقت ذلـك الإكسـير العجيب فعل فعله، وأعاد لهذه الشجرة حياتها.

وبالمناسبة.. فالرجل الذي وصف لي هذا الإكسير رجل أمي.. هو يشبه تماما محمد الذي كـان أميـا، ولكنـه كـان يحمـل الإكسـير الذي أعاد به الحياة لشجرة البشرية.

قلت: لقد كـانت في عهـد محمـد حضـارات عريقـة وديانـات قديمة.. ألم يكن في أحدها سر الخلاص؟

قال: لقد كان من سر الخلاص الذي جاء به محمد أنه لم يكن في بقعة من بقاع الأرض غير تلك البقعة البسيطة القريبة جدا من الفطرة.

قلت: لم؟.. هل تعادي الحضارات؟

قال: لا أعاديها، ولكن محمدا لو ولد في بيئـة غـير تلـك البيئـة لتلطخت تعاليمه كما تلخطت تعاليمنا نحن المسيحيين.

لقد ذكر القرآن شيئا قريبا من هذا عندما قـال: وَإِذَا جَـاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُـلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ(الأنعام:124)

لقد طلب هؤلاء القوم أشياء مماثلة لما جاءت بهـا الرسـالات السابقة، والتي امتلأت تحريفا، فـرد عليهم القـرآن بـأن اللـه أعلم بالمحل الذي يجعل فيه رسالته.

---

1) انظر التفاصيل المرتبطة بهذه النبوءة في (أنبياء يبشرون بمحمد)

قلت: أراك تتحامل على تلـك الحضـارات العريقـة.. والـتي لا زلنا نشم عطر ما أنتجته.

قال: كلامك يحتاج بحثا موضوعيا بعيدا عن لغة الخطاب الـتي تعودنا أن نسمعها.

قلت: وما الكلام الموضوعي في هذا؟

قال: الموضوعية العلمية تتطلب استقراء واقـع البشـرية في عصر محمد، لـنرى بموضـوعية تامـة الحالـة الـتي كـانت تعيشـها، والدواء الذي كانت تبحث عنه.

قلت: فهل تسمعني حديث ذلك؟

قال: لا يسرني إلا ذلـك.. تعـال معي إلى الـبيت.. فمثـل تلـك التفاصيل لا يمكن أن نتحدث عنها ونحن واقفون.

أمراض الجاهلية

دخلت إلى بيته الـذي لا يختلـف في تصـميمه الـداخلي عن البيوت العربية، وقد فرش على أرضـه زرابي عربيـة رأيتهـا في رحلتي إلى بلاد الشام.

أحضـر لي (تومـاس) الشـاي، وأحضـر لي معـه مجموعـة خرائط، وقال: في هذه الخرائط، سنتعرف على العالم القديم.. وكيف كان حاله وقت بعثة محمد.

ولتكون دراستنا موضوعية.. فسنبحث عن جانبين لا مناص لمن يريد أن يعرف الخلاص الـذي جـاء بـه محمـد من أن يبحث فيهما.

قلت: ما هما؟

قال: الحضارات.. والديانات.

قلت: ما وجه الحصر في ذلك؟

قال: الحضارات تنبئ عمـا وصـل إليـه الفكـر البشـري من البحث عن خلاص البشر.

قلت: والديانات؟

قال: هي الوحي الإلهي المنزل لإنقاذ البشر.

قلت: أفلم يكن في كـل الحضـارات والـديانات المنتشـرة في ذلك الوقت ما يحمل سر الخلاص؟

قال: لنرى ذلك.. تعال بنا نطبق ما ذكرناه من القواعد في هذا المجال.

حضارات

قلت: أجل.. ولنبدأ بالحضارات(1).

أشار إلى بقعة كبيرة من الأرض، وقال: هذه هي حدود **الدولة الرومانية**.. وفي هذه البقعة الواسعة نشأ ما يسمى بالحضارة الرومانية.

التفت إلي، وقال: لاشك أن اسمها يقرع الأذن بهيبة عظيمة.

قلت: ذلك صحيح.. فالدولة الرومانية دولة ترمز إلى القوة والشباب والحياة.

قال: وترمز إلى الاستبداد والانحلال والتجبر.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد بلغ الاستبداد غايته في الدولة الرومانية، فعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات، وتضاعفت الضرائب، حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومات، ويبغضونها بغضا شديداً، بل ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية، وقد حدثت لذلك اضطرابات عظيمة وثورات.

لقد هلك عام 532 في الاضطراب ثلاثون ألف شخص في العاصمة، وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة أسرف الناس فيه، ووصلوا في التبذل إلى أحط الدركات.. بل أصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أي وجه، ثم إنفاقه في الترف وإرضاء الشهوات.

لقد ذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق، حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية.

وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم مثل السلع، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع.

لقد قال (جيبون) يصف كل ذلك: (وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم في حين من

---

1) رجعنا في وصف الحضارات والديانات المعاصرة لبعثة رسول الله ﷺ إلى كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لأبي الحسن الندوي، فهو المرجع الذي رجع له الكثير في هذا الباب، وقد رجع هو بدوره إلى مراجع مختلفة عربية وإنجليزية.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن أكثر مراجعنا في هذا الكتاب هي ما يطلق عليه الكثير (الكتب الفكرية) ككتب سيد قطب ومحمد قطب وأبي الأعلى المودودي ومحمد الغزالي والشهيد الصدر، وغيرهم.. بالإضافة إلى كتب المستشرقين المتعلقة بالإسلام والحضارة الإسلامية.. بالإضافة إلى الكتب المؤرخة للأفكار والأديان والمذاهب، وخاصة (الموسوعة اليهودية) للمسيري، فهي من أوثق المراجع العلمية في هذا الباب.

الأحيان تستظل بظلها الوارف، ولم يبق منها إلا الجـذع الـذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً)

أما المجتمع الروماني، فقد كان مليئا بالتناقض والاضطرابات، وقد صور حاله صاحب كتاب (الحضارة ماضـيها وحاضـرها) بقولـه: (كان هناك تنـاقض هائـل في الحيـاة الاجتماعيـة للبيزنطـيين، فقـد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم، وعمت الرهبانية، وشـاعت في طول البلاد وعرضها، وأصـبح الرجـل العـادي في البلاد يتـدخل في الأبحاث الدينيـة العميقـة، والجـدل البـيزنطي، ويتشـاغل بهـا، كمـا طبعت الحياة العادية العامة بطـابع المـذهب البـاطني، ولكن نـرى هؤلاء ـ في جانب آخر ـ حريصين أشـد الحـرص على كـل نـوع من أنواع اللهـو واللعب، والطـرب والـترف، فقـد كـانت هنـاك ميـادين رياضية واسعة تتسع لجلوس ثمانين ألـف شـخص، يتفرجـون فيهـا على مصارعات بين الرجال والرجال أحيانًا، وبين الرجـال والسـباع أحيانًا أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق ولـون أخضـر، لقـد كـانوا يحبـون الجمـال، ويعشـقون العنـف والهمجيـة، وكانت ألعابهم دموية ضارية أكثر الأحيان، وكانت عقـوبتهم فظيعـة تقشـعر منهـا الجلـود، وكـانت حيـاة سـادتهم وكـبرائهم عبـارة عن المجــون والــترف، والمــؤامرات والمجــاملات الزائــدة، والقبــائح والعادات السيئة)

بالإضافة إلى هذا، فقد كان الرومان متجبرين غاية التجـبر، عنصـريين غايـة العنصـرية، لقـد كـان المبـدأ الأساسـي الـذي يجتمعون عليـه، ويجمعـون عليـه هـو تقـديس الـوطن الـرومي، والشعب الرومي.

ولم تكن الأمم والبلاد الـتي كـانت تسـيطر عليهـا الدولـة الرومانية(1) إلا خادمة لمصلحتها، وعروقاً يجـري منهـا الـدم إلى مركزها.. فلهذا كانت الدولة الرومانية تستهين بكل حـق ومبـدأ، وتـدوس كـل شـرف وكرامـة، وتسـتحل كـل ظلم وشـنيعة، لا يمنعها من ذلـك الحيـف والظلم اشـتراك في دين وعقيـدة، ولا إخلاص ووفاء للملكة.

يقول مؤرخ عربي شامي عن الحكم الروماني في الشـام: (كانت معاملة الروماني للشاميين بادئ ذي بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم في داخليتهـا من المشـاغب والمتـاعب،

1) كانت الإمبراطوريـة الرومانيـة الشـرقية تعـرف بالإمبراطوريـة البيزنطيـة، وكـانت تحكم دول اليونان والبلقان وآسيا وسـوريا وفلسـطين وحـوض البحـر المتوسـط بأسـره، ومصر وكل إفريقيا الشمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية.

ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس ما كانت عليه من الرق والعبودية، ولم تضف رُومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولا أرضهم أرضاً رومانية، بل ظلوا غرباء ورعايا، وكثيراً ما كانوا يبيعون أبنائهم ليوفوا ما عليهم من الأموال، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق، وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام)[1]

وقد كان ذلك السلوك العنصري المتجبر هو سبب سقوط الدولة الرومانية، يقول (Robert Briffault)ـ عند ذكره لسبب سقوط الدولة الرومانية: (لم يكن سبب انقراض الدولة الرومية وسقوطها الأساسي الفساد الزائد (كالرشوة وغيرها) بل كان الفساد والشر وعدم المطابقة بالواقع مما صحب نشوء هذه الدولة من أول يومها وتغلغل في أحشائها، إن كل مؤسسة بشرية تقوم على أساس زائف منها ولا تستطيع أن تنقذ نفسها بذكاء أو نشاط، ولما كان الفساد مما قامت عليه هذه الدولة فكان لا بد أن تبيد يوماً وتنهار، لقد رأينا أن الدولة الرومية إنما كانت وسيلة لرفاهية طبقة صغيرة على حساب الجماهير الذين كانت هذه الطبقة تستغلهم وتمتص دمائهم، لقد كانت التجارة تسير في رومة بأمانة وعدل، وقد كان ذلك مما طبعت عليه هذه الدولة، وقد كانت فائقة في قوة الحكم والقضاء، وفي الكفاءة، ولكن هذه المحاسن كلها لم تكن لتحفظ الدولة من عواقب الزيف الأساسي والخطأ)

***

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه هي **الهند**.

قلت: إنها معدن الحكمة، وينبوع العدل والسياسة، وأهل الأحلام الراجحة، والآراء الفاضلة.. هكذا وصفها صاعد الأندلسي في طبقات الأمم.

قال: ولكنها كانت في العهد الذي جاء فيه محمد على حافة الهاوية، كانت كتلك الشجرة الذابلة التي رزقها الله إكسير الحياة.

لقد إتفقت كلمة المؤرخين على أن أحط أدواره الهند ديانة وخلقاً واجتماعاً ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن

---

1) خطط الشام للأستاذ كرد علي: 1 / 101.

السادس الميلادي، أي في العهد الذي تزامن مع مجيء محمد(2).

لقد اشتركت الهند مع جاراتها وشقيقاتها في التدهور الخلقي والاجتماعي، الذي شمل الأرض جميعا في ذلك الزمن.. وأخذت نصيباً غير منقوص من هذا الظلام الذي مد رواقه على المعمورة.

لقد كان النظام الاجتماعي السائد هو نظام الطبقات الجائر المبالغ في جوره.. بل لم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة، وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة، وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً، وخضعت له آلافاً من السنين.

وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي في آخر العهد الويدي بتأثير الحرف والصنائع وثوراتها، وبحكم المحافظة عل خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها.

وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفق عليه البلاد وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ (منوشاستر)

يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات ممتازة وهي البراهمة، وهي طبقة الكهنة ورجال الدين.. وشتري رجال الحرب.. وويش رجال الزراعة والتجارة.. وشودر رجال الخدمة.

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة، فقد ذكر أن البراهمة هم صفوة الله، وهم ملوك الخلق، وإن ما في العالم هو ملك لهم، فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر من غير جريرة ما شاءوا، لأن العبد لا يملك شيئاً وكل ماله لسيده.

ونص هذا القانون على أن البرهمي الذي يحفظ رك ويد (الكتاب المقدس) هو رجل مغفور له، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطرار والفاقة أن يجبي من البراهمة جباية أو يأخذ منهم إتاوة، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعاً، وإن استحق

2) انظر هذه التفاصيل في (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)

برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيقتل.

أما الشتري، فإن كانوا فوق الطبقتين (ويش وشودر)، ولكنهم دون البراهمة بكثير.. يقول (منو): (إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشتري الذي ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده)

أما شودر (المنبوذون)، فكانوا في المجتمع الهندي ــ بنص هذا القانون المدني الديني ــ أحط من البهائم وأذل من الكلاب، فيصرح القانون بأن من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك، وليس لهم أن يقتنوا مالاً أو يدخروا كنزاً فإن ذلك يؤذي البراهمة، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبطش به قطعت يده، وإذا رفسه في غضب فدعت رجله، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهمياً، فعلى الملك أن يكوي إسته وينفيه من البلاد، وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سقي زيتاً فائراً، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء.

أما المرأة.. فقد نزلت في هذا المجتمع منزلة الإماء، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج، فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أمة بيت زوجها المتوفى وخادم الأحماء وقد تحرق نفسها على إثر وفاة زوجها تفادياً من عذاب الحياة وشقاء الدنيا.

***

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه هي **مصر**.

قلت: إنها بلد النيل السعيد، والخير الكثير، والحضارة العظيمة.

قال: ولكنها كانت تعيش في ذلك العهد أسوأ أيام حياتها(1).. لقد كانت في القرن السابع من أشقى بلاد الله بالمسيحية، وبالدولة الرومية معاً، أما الأولى فلم تستفد منها إلا خلافات ومناظرات في طبيعة المسيح، وفي فلسفة ما وراء الطبيعة والفلسفة الألهية، وقد ظهرت في القرن السابع في

1) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

شـر مظاهرهـا، وأنهكت قـوى الأمـة العقليـة، وأضـعفت قواهـا العملية.

وأمـا الأخـرى فلم تلـق منهـا إلا اضـطهاداً دينيـاً فظيعـاً واستبداداً سياسياً شنيعاً تجـرعت في سـبيلهما من المرائـر في عشر سنين ما ذاقته أوربا في عهد التفـتيش الـديني في عقـود من السنين، فألهاها ذلك عن كل وطر من أوطـار الحيـاة، وعن كـل مهمـة شـريفة من مهمـات الـدين والـروح، فلا هي تتمتـع بالحرية السياسـية رغم كونهـا مسـتعمرة رومية، ولا هي تتمتـع بالحرية الدينية والعقلية، رغم كونها مسيحية.

يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه المعروف (حضارة العرب): (ولقـد أكـرهت مصـر على انتحـال المسـيحية، ولكنهـا هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سـوى الفتح العربي، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الـزمن، وكـان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية، وأنهكهـا اسـتبداد الحكـام تحقـد أشد الحقد على سادتها الروم، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين)(1)

وفوق هذا، فقد اتخذها الروم مصر شاة حلوبـاً يسـتنزفون مواردها، ويمتصون دماءها، يقول ألفرد: (إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد.. ممـا لاشك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقـة، وكـانت تجـري بين الناس على غير عدل)

وهكـذا اجتمـع لمصـر من الاضـطهاد الـديني، والاسـتبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي ما شغلها بنفسها، وكـدر عليهـا صفو حياتها، وألهاها عن كل مكرمة.

***

أشار (توماس) إلى بقعـة أخـرى في خارطـة العـالم القـديم، وقال: هذه هي **أوروبا**، وهذه بالتحديد أقاليمها الشمالية الغربية.

قلت: أوروبا بلد الحضارة الراقية والطبيعة الفاتنة.. إنها بلادنـا التي غذونا من لبانها.

قال: لقد كانت ــ في ذلـك الحين ــ تتسـكع في ظلام الجهـل المطبـق، والأميـة الفاشـية، والحـروب الداميـة.. يقـول (Robert

1) حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر: 336.

Briffault): (لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً، قد كانت همجية ذلك العهد أشد هولاً وأفظع من همجية العهد القديم، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضي عليها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي، كإيطاليا وفرنسا، فريسة الدمار والفوضى والخراب)

***

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه **آسيا الوسطى** وهذا بالتحديد شرقها.

قلت: إنها بلد المغول والترك واليابانيين.

قال: لقد كانت هذه الشعوب ـ في ذلك الوقت ــ بين بوذية فاسدة، ووثنية همجية، لا تملك ثروة علمية، ولا نظاماً سياسياً راقياً، إنما كانت في طور الانتقال من عهد الهمجية إلى عهد الحضارة، ومنها شعوب لا تزال في طور البداوة والطفولة العقلية.

***

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه هي **بلاد العرب**، وهذه هي جزيرتهم.

قلت: إنها بلاد محمد، وقد امتازوا ـ في ذلك الحين ــ بأخلاق كادوا يتفردون بها، كالفصاحة وقوة البيان وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة في سبيل العقيدة والصراحة في القول وجودة الحفظ وحب المساواة وقوة الإرادة والوفاء والأمانة.

قال: لكنهم ـ في ذلك الحين أيضا ــ ولشدة تمسكهم بدين آبائهم وتقاليد أمتهم أصيبوا بانحطاط ديني شديد، ووثنية سخيفة، قلما يوجد لها نظير في الأمم المعاصرة لهم.

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان فيهم أدواء كثيرة متأصلة:

لقد كان شرب الخمر واسع الشيوع، شديد الرسوخ فيهم، يتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء، وقد شغلت جانباً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم، وكثرت أسماؤها وصفاتها في لغتهم، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائماً.

قال قتادة: كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزيناً سلبياً ينظر إلى ماله في يد غيره، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً.

وكان أهل الحجاز، العرب واليهود، يتعاطون الربا، وكان فاشياً فيهم، وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حد الغلو والقسوة.

أما المرأة، فقد كانت في ذلك المجتمع عرضة غبن وحيف، تؤكل حقوقها وتُبْتز أموالها، وتُحرم إرثها، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة.

لقد ذكر القرآن كل ذلك مصححا له، ففي القرآن: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (النساء:19)

قال ابن عباس في تفسيرها: (كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضُهم تزوجها، وإن شاءوا زَوَّجُوها، وإن شاؤوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك)(1)

وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد، وقد ذكره القرآن، ففيه: وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ(8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) (التكوير)، وفيه: وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (الاسراء:31)

وكانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة، وكان شعارهم في ذلك قولهم (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فكانوا يتناصرون ظالمين أو مظلومين.

قلت: لقد ورد في حديث محمد هذا الشعار!؟

قال: لقد قاله محمد مصححا له، فقد ورد في الحديث: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما)، قيل: كيف أنصره ظالما؟ قال: (تحجزه عن الظلم، فان ذلك نصره)(2)

استأنف توماس حديثه عن طبيعة العرب قائلا: وفوق ذلك كان الحرب والغزو مما طبعت عليه طبيعتهم العربية، وألهمتهم إياه معيشتهم البدوية، حتى صارت الحرب مسلاة لهم، قال قائلهم:

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

1) رواه البخاري وأبو داود، والنسائي، وابن مَرْدُويه، وابن أبي حاتم.
2) رواه أحمد والبخاري والترمذي.

لقد هانت عليهم الحرب وإراقة الـدماء حـتى كـانت تثيرهـا حادثة ليست بـذات خطـر، فقـد وقعت الحـرب بين بكـر وتغلب ابني وائل ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء غزيرة، وما ذاك إلا لأن كليباً، وهو رئيس معدّ رمى ضلع ناقة البسوس بنت منقذ فاختلـط دمهـا بلبنهـا، وقتـل جسـاس بن مـرة كليبـاً،واشـتبكت الحرب بين بكر وتغلب.

ديانات:

التفت إلي توماس، وقـال: هـذه هي دول العـالم.. وتلـك هي حضارتها وانحطاطها.. لقد كانت أشبه شيء بتلك الشجرة قبـل أن أعالجها بذلك الإكسير.

قلت: والأديـان.. أين ذهبت الأديـان؟.. وأين ذهب رجالهـا من الأحبار والرهبان؟

قال: لقد تحول الـدين إلى تجـارة لا تختلـف عن سـائر أنـواع التجارة..

لقد ذكر القرآن هذا، ففيه: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ كَثِـيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِـلِ وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ (التوبة:34)

وقد دفعهم حبهم للمال وتعظيمهم له إلى تحريـف الـدين من أجلـه، كمـا في القـرآن: فَوَيْـلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُـونَ الْكِتَـابَ بِأَيْـدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْـتَرُوا بِـهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً فَوَيْـلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (البقرة:79)

قلت: هذا النقد القرآني قد يصـح مـع اليهـود.. ولكنـه لا يصـح أبدا عن **المسيحية** التي هي دين الزهاد والرهبان والعباد.

قال: اسمح لي أن أصارحك بموقفي من المسيحية..

قلت: لا بأس.. تحدث كما تشاء.

قــال: لم تكن المســيحية في يــوم من الأيــام أهلا لخلاص الإنسان.

قلت: ما تقـول؟.. والمسـيحية هي الـدين الوحيـد في العـالم الذي يصيح بالخلاص، ويستعمل مصطلح الخلاص.

قال: الخلاص الذي يصيحون به أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة..

سكت قليلا، ثم قال بأسف(1): لقد كـان في المسـيحية أثـارة

---

1) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، وانظر تفاصيل أخـرى في الفصـول القادمة.

من تعليم المسيح كان يمكنها أن تخلص البشرية، لكن بولس جاء، فطمس نورها، وطعّمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها والوثنية التي نشأ عليها، وقضى قسطنطين على البقية الباقية، حتى أصبحت المسيحية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية والرهبانية، اضمحلت في جنبها تعليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة من اليم، وعادت نسيجاً خشبياً من معتقدات وتقاليد لا تغذي الروح، ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة، ولا تحل معضلات الحياة، ولا تنير السبيل، بل أصبحت بزيادات المحرفين، وتأويل الجاهلين، تحول بين الإنسان والعلم والفكر، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية.

ثم ثارت حول الديانة، وفي صميمها مجادلات كلامية، وسفسطة من الجدل العقيم شغلت فكر الشعوب، واستهلكت ذكاءها، وابتلعت فدرتها العملية، وتحولت في كثير من الأحيان حروباً دامية وقتلاً وتدميراً وتعذيباً، وإغارة وانتهاباً واغتيالاً، وحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينية متنافسة، وأقحمت البلاد في حرب أهلية.

وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين مسيحيي الشام والدولة الرومية، وبين مسيحيي مصر، أو بين (الملكانية) و (المنوفيسية)

لقد كان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح، وكان المنوفيسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة، وهي الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة المسح البشرية، كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له.

وقد اشتد الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين، أو كأنه خلاف بين اليهود والمسيحيين، كل طائفة تقول للأخرى: (إنها ليست على شيء)

لقد ذكر القرآن هذا، ففيه: ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (مريم:37)

لقد حاول الإمبراطور هرقل (610-641) بعد انتصاره على الفرس سنة 638 جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها، وأراد التوفيق بينها، وتقررت صورة التوفيق، وهي أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة المسيح، وعما إذا كانت له صفة واحدة، أم صفتان، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة

واحدة أو قضاء واحد.

وفي صدر عام 631 حصل وفاق على ذلك وصار المذهب المنوثيلي مذهباً رسمياً للدولة، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية، وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المختلفة له متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل، ولكن القبط نابذوه العداء، وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف، وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة.

وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف، فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة، وأما المسألة الأخرى، وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل، فأرجأ القول فيه، ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراتها، وجعل ذلك في رسالة رسمية، وبعث بها إلى جميع جهات العالم الشرقي، ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر ووقع اضطهاد فظيع على يد قيرس في مصر واستمر عشر سنين، وقع خلالها ما تقشعر منه الجلود، فقد كان الرجال يعذبون ثم يقتلون إغراقاً، وتوقد المشاعل وتسلط نارها عليهم حتى يسيل الدهن على الأرض، ويوضع السجين في كيس مملوء من الرمل ويرمى به في البحر.. إلى غير ذلك من الفظائع.

قلت: **واليهود**؟

ابتسم، وقال: ألا تعرف اليهود!؟.. إنهم وباء العالم وسرطانه القاتل، وقد كانوا في ذلك الوقت أضعب الأمم، فقد كانوا عرضة للاضطهاد والاستبداد، والنفي والجلاء، والعذاب والبلاء.

وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع والكبرياء القومية، والإدلال بالنسب، والجشع وشهوة المال وتعاطي الربا، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد في أمة وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعاراً على تعاقب الإعصار والأجيال، منها الخنوع عند الضعف، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة، والختل والنفاق في عامة الأحوال، والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل.

وقد وصفهم القرآن في آيات كثيرة وصفاً دقيقاً عميقاً يصور ما كانوا عليه في القرنين السادس والسابع من تدهور خلقي، وانحطاط نفسي، وفساد اجتماعي، عزلوا بسببه عن قيادة العالم.

وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم إلى المسيحيين، وبغض المسيحيين إليهم وشوه سمعتهم، ففي

السنة الأخيرة من حكم فوكاس (610 م) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية، فأرسل الإمبراطور قائـده (أبنوسـوس) ليقضـي على ثورتهم، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة، فقتل الناس جميعـاً، قتلاً بالسيف، وشنقاً وإغراقاً وتعذيباً، ورمياً للوحوش الكاسرة.

قلت: **والــديانات الأخــرى**.. ورجالهــا.. ألم يكن فيهم من يصلح لإنقاذ البشرية؟

أشار توماس إلى بقعـة من الأرض، وقـال: هنـا كـانت تنتشـر **المجوسية.**

قلت: ألم يكن في المجوسية ما يصلح لإنقاذ البشرية؟

قال: لقد جاء زرادشت، ودعا إلى التوحيد، وأبطل الأصنام(1)، وقال: (إن نور الله يسطع في كل ما يشــرق ويلتهب في الكــون)، وأمر بالاتجاه إلى جهة الشـمس والنـار وسـاعة الصـلاة، لأن النـور

---

1) ذكر كثير من علمـاء المسـلمين إلى نبـوة زرادشـت، ويسـمونه (نـبي المجـوس)، وممن انتصر لذلك، وقد توفر له من (العلم بالملل والنحل ما يؤهله لذلك ابن حزم، فقــد قال في الفصل: (أما زرادشت فقد قال كثير من المسلمين بنبوته) ثم عقب على ذلــك بقوله:(ليست النبوة بمدفوعة قبل رسول الله ﷺ لمن صحت عنه معجزة، قـال تعـالى: { وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}(فاطر:24)، وقال تعـالى:﴿ وَرُسُـلًا قَـدْ قَصَصْـنَاهُمْ عَلَيْـكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾(النساء:164))

ثم بين أن الذي ينسب إليه المجوس من الأكذوبات باطل مفترى منهم، واسـتدل على ذلك بالتحريفات الواقعة في الـديانات المختلفـة،، ثم بين قاعـدة جليلـة في ذلـك فقـال: (وبالجملة فكل كتاب وشريعة كانا مقصورين على رجال من أهلها، وكانا محظورين على من سواهما فالتبديل والتحريف مضـمون فيهمـا، وكتـاب المجـوس وشـريعتهم إنمـا كـان طول مدة دولتهم عند المؤبذ، وعند ثلاثة وعشرين هربذا، لكـل هربـذ سـفر قـد أفـرد بـه وحده لا يشاركه فيـه غـيره من الهرابـذة ولا من غـيرهم، ولا يبـاح بشـيء من ذلـك لأحـد سواهم، ثم دخل فيـه الخـرم بـإحراق الإسـكندر لكتـابهم أيـام غلبتـه لـدارا بن دارا، وهم مقرون بلا خلاف منهم أنـه ذهب منـه مقـدار الثلث ذكـر ذلـك بشـير الناسـك وغـيره من علمائهم)(الفصل في الملل والأهواء والنحل:1/90)

ونفس مـا دفـع بـه ابن حـزم عن زرادشـت مـا نسـبه إليـه المجـوس ذكـره غـيره من العلماء، قال الباقلاني:(وكذلك الجواب عن المطالبة بصحة أعلام زرادشت إما أن نقـول إنها في الأصل مأخوذة عن آحاد، لأن العلم بصدقهم غير واقع لنا، أو نقول إنه نبي صـادق ظهرت على يده الأعلام، ودعا إلى نبوة نوح وإبـراهيم، وإنمـا كـذبت المجـوس عليـه في إضافة ما أضافته إليه من القول بالتثنية وقدم النور والظلام وحدوث الشيطان من فكـرة وشكة شكها بعض أشخاص النور، وهو بمنزلة كذب النصارى على المسيح عليه السلام من دعائـه إلى اعتقاد التثليث والاتحاد والاختلاط، وأن مريم ولدت مسيحا بلاهوته دون ناسوته وغـير ذلك)(تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل:203)

وقد ذكر ابن حزم أن هذا القول ليس بدعـة للمتـأخرين، بـل أن من السـلف من قـال بذلك، قال:(وممن قال أن المجوس أهل كتاب علي بن أبي طالب وحذيفـة ، وسـعيد بن المسيب وقتادة وأبو ثور وجمهور أصحاب أهل الظاهر، وقد بينا البراهين الموجبـة لصـحة هذا القول في كتابنا المسمى الإيصال في كتاب الجهـاد منـه وفي كتـاب الـذبائح منـه ثم قال:(ويكفي من ذلك صحة أخذ رسول الله ﷺ الجزية منهم، وقد حرم الله عز وجل في نص القرآن في آخر سورة نزلت منه وهي براءة أن تؤخذ الجزية من غير كتابي)(الفصل في الملل والأهواء والنحل:1/90)

رمز إلى الإله وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهي: النار والهواء والتراب والماء.

وجاء بعده علماء سنوا للزرادشتيين شرائع مختلفة، فحرموا عليهم الاشتغال بالأشياء التي تستلزم النار، فاقتصروا في أعمالهم على الفلاحة والتجارة.

ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة في العبادات تدرج الناس إلى عبادتها حتى صاروا يعبدونها عيناً ويبنون لها هياكل ومعابد، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وجُهلت الحقيقة ونسي التاريخ(1).

ولما كانت النار لا توحي إلى عبّادها بشريعة ولا ترسل رسولاً، ولا تتدخل في شئون حياتهم ولا تعاقب العصاة والمجرمين أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة في ساعات خاصة، أما في خارج المعابد، وفي دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم، وفي السياسة والاجتماع، فكانوا أحراراً يسيرون على هواهم، وما تملي عليهم نفوسهم، أو ما يؤدي إليه تفكيرهم، أو ما توحي به مصالحهم ومنافعهم، شأن المشركين في كل عصر.

وهكذا حُرِم الفرس في حياتهم ديناً عميقاً جامعاً يكون تربية للنفس، وتهذيباً للخلق، وقامعاً للشهوات، وحافزاً على التقوى وفعل الخيرات، ويكون نظاماً للأسرة وتدبيراً للمنزل وسياسة للدولة، ودستوراً للأمة، ويحول بين الناس وطغيان الملوك، وعسف الحكام، ويأخذ على يد الظالم، وينتصف للمظلوم، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين اللادينيين والإباحيين في الأخلاق والأعمال.

أشار إلى بقعة أخرى من العالم، وقال: هذه هي الصين القديمة، وهنا ـ وفي ذلك الزمان ـ كانت تنتشر ثلاث ديانات: ديانة (لا وتسو)، وديانة (كونفوشيوس)، والبوذية:

أما **ديانة (لا وتسو)،** فقد تحولت إلى ديانة وثنية في عهد قريب، فهي تُعني بالنظريات أكثر منها بالعمليات، وكان أتباعها متقشفين زاهدين، لا يتزوجون ولا ينظرون إلى المرأة، ولا يتصلون بها، فلم يكن لها أن تكون أسّاً لحياة سديدة أو حكومة رشيدة، حتى التجأ الذين جاءوا بعد مؤسسها إلى مخالفته والعدول عنه إلى غيره.

---

1) انظر تاريخ إيران تأليف شاهين مكاريوس: 221 – 224.

أما **(كونفوشيوس)** فقـد كـان يعـني بالعمليـات أكـثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمـه في شـؤون هـذه الـدنيا وتـدبير الأمور المادية والسياسية والإدارية، وقـد كـان أتباعـه لا يعتقـدون ـ في بعض الأزمنـة ــ بعبـادة إلـه معين، فيعبـدون مـا يشـاءون من الأشجار والأنهار، وليس فيها نور من يقين ولا بـاعث من إيمـان ولا شرع سماوي، وإنما هي حكمـة حكيم وتجـارب خبـير، يسـتفيد بهـا الإنسان إذا شاء ويرفضها إذا شاء.

أمـا **البوذية**، فقــد فقــدت بســاطتها وحماســتها، وابتلعتهــا البرهمية الثائرة الموتورة، فتحولت وثنية تحمل معها الأصـنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت.

وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي ظهــرت في عهد ازدهار البوذية.

ولم يزل وجود الإله الإيمان به في البوذية موضع خلاف وشك عند مؤرخي هذه الديانة ومترجمي مؤسسـها، حـتى يحـار بعضـهم ويتساءل: كيف قامت هذه الديانة العظيمة على أساس رقيــق من الآداب الـتي ليس فيهـا الإيمـان باللـه، فلم تكن البوذيـة إلا طرقـاً لرياضة النفس وقمـع الشـهوات، والتحلي بالفضـائل، والنجـاة من الألم، والحصول على العلم.

أشار إلى جزيرة العرب، وقال: في هـذه المنطقـة الـتي ولـد فيها محمد لم يكن يعبد إلا التماثيل التي يصنعها الناس بأيديهم.

لقد كان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصي.

وقد استهترت العـرب عبـادة الأصـنام، فمنهم من اتخـذ بيتـاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بنـاء بيت نصـب حجـراً أمـام الحـرم، وأمـام غـيره، ممـا استحسـن، ثم طـاف بـه كطوافه بالبيت وسـموها الأنصـاب، وكـان في جـوف الكعبـة وفي فنائها ثلاث مائة وستون صنماً، وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة.

وكان للعرب آلهة شتى غير هذه الأصـنام من الملائكـة والجن والكـواكب، فكـانوا يعتقـدون أن الملائكـة بنـات اللـه، فيتخـذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ويتوسـلون بهم عنـد اللـه، واتخـذوا كذلك من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم(1).

أشار إلى مناطق أخرى، وقال: لم تكن الوثنية سائدة في بلاد

1) كتاب الأصنام: 44.

العرب وحدها، بل كل هذه المناطق كانت لا تعرف دينا غير الوثنية المتطرفة.

لقد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس، فقد كان عدد الآلهة في (ويد) ثلاثة وثلاثين، وقد أصبحت في هذا القرن 330 مليون.

وقد أصبح كل شيء رائع، أو كل شيء جذاب، بل كل مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد.

ولهذا جاوزت التماثيل والآلهة والإلاهات الحصر، وأربت على العد، فمنها أشخاص تاريخية، وأبطال تمثل فيهم الله في عهود وحوادث معروفة، ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس (مهاديو) الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية وغير ذلك، وأصبحت الديانة نسيجاً من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات لم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان.

وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد، وبلغت أوجها في القرن السادس والسابع، حتى فاق هذا العصر في ذلك العصور الماضية.

وقد عكفت الطبقات كلها، وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأصنام، حتى لم تجد الديانة البوذية والجينية منها بدا، وتذرعت هاتان الديانتان بهذه الوسيلة للاحتفاظ بحياتهما وانتشارهما في البلاد.

ولعل أشهر ديانة ارتبطت بذلك ديانات الهند منذ العهد القديم، فقد تناقلت الكتب الهندية، وتحدثت الأوساط الدينية عن ظهور صفات الإله، وعن وقوع الحوادث العظيمة وعن تعليل الأكوان روايات وأقاصيص عن اختلاط الجنسين من الآلهة وغارة بعضها على البيوت الشريفة تستك منها المسامع ويتندى لها الجبين حياء.

وتأثير هذه الحكايات في عقول المتدينين المخلصين المرددين لهذه الحكايات في إيمان وحماسة دينية وفعلها في عواطفهم وأعصابهم واضح، زاد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل لإلههم الأكبر (مهاديو)، وتصويرها في صورة بشعة، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات.

أضف إلى ذلك ما يحدث به بعض المؤرخين من أن رجال

بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات، والنساء يعبدن الرجال العراة.

وقد أصبح كثير من المعابد مواخير فساد، يترصد فيها الفاسق طلبته، وينال فيها الفاجر بغيته، وإذا كان هذا شأن البيوت التي رفعت للعبادة والدين، فما ظنك ببلاط الملوك وقصور الأغنياء!؟

إكسير الإسلام

بعد أن استعرض توماس من ذاكرته التاريخية ما كان عليه أهل العصر الذي ولد فيه محمد ﷺ من انحطاط وارتداد وسقوط، قال لي: في هذا الوضع الذي ذبلت فيه شجرة البشرية جاء الإكسير الذي أعاد لها الحياة.

قلت: تقصد الإسلام.

قال: أجل.. لقد جاء الإسلام بتلك القيم النبيلة.. ولم يكتف بأن يبشر بها في جزيرة العرب، بل راح ينشرها على العالم.

فقد كان من مزايا الإسلام الكبرى التي خولت له هذا الدور كونه دينا عالميا.. لا يدين به قومية من القوميات.. ولا شعب من الشعوب.

قلت: لقد تم ذلك بحد السيف؟

قال: لقد فعل ذلك التاريخ، وليس الإسلام.. ذلك أنه يستحيل أن تحصل أي قناعة بالسيف.

الدعوة:

قلت: ولكن .. ما سر انتشار الإسلام مع كونه لم يستعمل أي شدة أو عنف في فرضه؟

قال: شيئان، كلاهما يطلق عليه الإسلام (الدعوة)

قلت: ما هما؟

قال: السلوك الطيب الذي أبداه المسلمون مع أهل البلاد التي دخلوا إليها، ووسائل الإقناع بالحجة والبراهين التي مارسوها.

قلت: فحدثني عنهما.

قال: أما في عهد محمد.. فقد كانت سيرة محمد الممتلئة بالطهارة والصدق والإيمان تجذب القلوب إليه جذبا.. فلذلك دخل الكثير إلى الإسلام بسبب سلوكه وأخلاقه وإيمانه وما كان له من الدلائل الكثيرة التي أرشدتهم إلى نبوته.

وأما في عهد من بعده.. فقد كان سلوك محمد الذي ورثه

أتباعـه وراحـوا ينشـرون طيبـه هـو السـر في دخـول النـاس في الإسلام أفواجا.

لقد شهد أصدقاؤنا من المستشرقين للإسلام بهذا..

لقد قال أوليفر: (إن الإسلام لم يأخذ طريقـه خلـف الصـحراء بإفريقية، إلا بعد انحلال دولته الكبرى في المغرب، وكـانت وسـيلة الإسلام لهذه البقاع هي الثقافة والفكر والـدعوة، فانتشـر الإسـلام بين شعوب البربر، وقامت خلف الصـحراء دول إسـلامية لعبت في التاريخ دورا كبيرا)

وقال اللورد هـدلي: (لا أظن أبـدا أن المسـلمين اجتهـدوا في حين من الأحيان أن يحشوا أفكارهم ومعتقداتهم الدينية في حلـوق الناس وصدورهم بالقوة أو الفظاعة أو التعذيب، ولم يشهر محمـد السـلاح إلا حين الحاجـة القصـوى لحمايـة البشـرية، وإن أعـداء الإسلام لأعجز من أن يأتوا بدليل أومثل من الأمثلة التي أثرت فيها الحرب على هداية قبيلة واحدة أو شخصواحد)

ويقول المسيو (هنري ديو كاستري)، وهو أحد حكـام الجزائـر الفرنسيين في كتابه عن الإسلام: (هكذا كانت تعاليم النـبي محمـد بعد أن دخل العرب في الإسلام، وقد اقتفى أثره خلفاؤه من بعده، وذلك يضـطرنا الى القـول بمـا قالـه (روبنسـون) قبلنـا: أن شـيعة محمـد هم وحـدهم الـذين جمعـوا بين محاسـنة الأجـانب، ومحبـة انتشار دينهم، هذه العاطفة هي التي أثرت دفعتهم في سبيل الفتح وهـو سـبب لا حـرج فيـه... فنشـر القـرآن جناحيـه خلـف جيوشـه الظافرة، وانقضوا انقضـاض الصـاعقة على افريقيـا الشـمالية من البحر الاحمر الى المحيـط الاطلسـي، ولم يـتركوا أثـرا للعنـف في طريقهم، إلا ما كان لا بد منه في كل حرب، ولكنهم لم يبيـدوا أمـة قط أبت الإسلام)

أنا لم أكتف بالشهادات وحدها.. وإن كان لها تأثيرهـا الخطـير في إبراز الحقائق..

ولكني رحت أتتبع مسيرة الدعوة الإسلامية في كل مراحلها.. وقد تبين لي ـ بعـد البحث الطويـل ــ أن الإسـلام لم يكـره في أي فترة من فترات تاريخه أي أحد في الدخول للإسلام..

حتى مـا أظهـر المتطرفـون الـذين يطلـق عليهم المسـلمون (الخوارج)، فقـد كـانوا مـع شـدتهم مـع مخـالفيهم من المسـلمين متسامحين مع غيرهم من أهل الديانات الأخرى ممـا اضـطر بعض المسلمين إلى التظاهر بالكفر حتى يحتموا منهم.

لقد كان حاديهم إلى ذلك ما ورد في القرآن من تأمين المخالفين، ففيه: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (6)﴾ (التوبة)

وقد روي أن واصل بن عطاء أقبل في رفقة فلقيهم ناس من الخوارج، فقالوا لهم: من أنتم؟ قال لهم واصل: مستجيرون حتّى نسمع كلام اللّه، فاعرضوا عليّنا. فعرضوا عليهم فقال واصل: قد قبلنا. قالوا: فامضوا راشدين، قال واصل: ما ذلك لكم حتى تبلغونا مأمننا. قال اللّه تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، فأبلغونا مأمننا)، فجاءوا معهم حتى بلغوا مأمنهم(1).

سكت قليلا، ثم قال: تلك الآية تمثل حقيقة الدعوة في الإسلام.. وعلاقة السيف بها.

الإسلام ــ إذا استعمل السيف ــ لا يستعمله إلا ليوفر للمخالفين الجو المناسب الذي يتيح لهم أن يسمعوا القرآن.. هذه الآية تشير إلى ذلك.

ولهذا كان محمد يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشدًا، ولو كان من المحاربين، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومِكْرَز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحدًا بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين لمحمد ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

وقد استنتج الفقهاء من هذا أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أمانًا، أعطي أمانًا ما دام متردّدًا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه.

التفت إلي، وقال: قلب الطرف في جغرافية البلاد التي انتشر فيها الإسلام لتعلم أن الدعوة هي التي جذبت قلوب الناس للإسلام لا السيف..

فأكثر المسلمين في العالم ينتشرون في بلاد لم تطأها جيوش المسلمين..

---

1) رواه المدائني.

لقد دخلت شعوب عظيمة في الإسلام دون أن تطأ أرضها جيوش المسلمين كشعوب جنوب شرقي آسيا التي انتشر فيها الإسلام على أيدي التجار والدعاة، وتفوق الإسلام في أندونيسيا، وتفوق على الديانات الكنفوشية والبوذية والمسيحية.

حتى المغول الذين اكتسحوا العالم الإسلامي فقتلوا وحرقوا ودمروا، نجدهم بعد ذلك يدخلون في الإسلام، وينضوون تحت لوائه، ويكونون من حماته.. لقد قلت في كتابي (الدعوة إلا الإسلام) أذكرهم: (لا يعرف الإسلا م بين ما ترك به خطوب وويلات خطبا أعنت قسوة من زوات المغول.. على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته، وظهر بين الأطلال، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب هؤلاء الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه)

أتدري السر في كل ذلك؟

قلت: ما سره؟

قال: تلك السماحة والسلام والنبل والترفع الذي ربى عليه محمد أتباعه.. لقد كانت البذور التي بذرها محمد في نفوس أتباعه، والتربية التي رباهم عليها هي السر في كل ذلك النجاح.

لقد أرسل البطريرك النسطورى الثالث إلى البطريرك (سمعان) زميله فى المجمع بعد ظهور الإسلام رسالة يقول فيها: (إن العرب الذين منحهم الرب سلطة العالم وقيادة الأرض أصبحوا معنا، ومع ذلك نراهم لا يعرضون النصرانية بسوء، فهم يساعدوننا ويشجعوننا على الاحتفاظ بمعتقداتنا، وإنهم ليجلون الرهبان والقسيسين، ويعاونون بالمال الكنائس والأديرة)

وقد قال المؤرخ العالمى (هـ. ج. ويلز) فى كتابه (معالم تاريخ الإنسانية): (لقد تم فى 125 عاماً أن نشر الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحيط الأطلسى وإسبانيا، ومن حدود الصين إلى مصر العليا، ولقد ساد الإسلام لأنه كان خير نظام اجتماعى وسياسى استطاعت الأيام تقديمه، وهو قد انتشر لأنه كان يجد فى كل مكان شعوباً بليدة سياسياً: تسلب وتظلم وتخوف، ولا تعلم ولا تنظم، كذلك وجدت حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أى شعب. فكان الإسلام أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سعة النشاط الفعلى فى العالم حتى ذلك اليوم، وكان يهب بنى الإنسان نظاماً أفضل من أى نظام آخر)

لقد كان ذلك العدل الذي طالما حلمت الشعوب به هو السر الأكبر في انتشار الإسلام..

لقد فتح المسلمون مصر، وكان سكانها على دين المسيحية، فلم يكرههم المسلمون على اعتناق الإسلام، ولو كان هناك إكراه ما بقى الأقباط على دينهم حتى هذه اللحظة.

إنما أقام المسلمون العدل الذي أمرهم به دينهم، فردوا للأقباط كرامتهم الإنسانية المفقودة التى سلبهم إياها حكامهم الرومان، وهم على نفس الدين، ولكن على مذهب مخالف.

لقد كان الرومان يلهبون ظهور الأقباط بالسياط لمخالفتهم إياهم فى المذهب، فلا يتحرك الأقباط لرد العدوان، ولا يجدون ملجأ يلجئون إليه يمنحهم الحرية الاعتقادية ويمنحهم العدل والكرامة، فلما جاء المسلمون منحوهم كل ذلك.

سكت قليلا، ثم قال: لقد بحثت في تاريخ الدعوات، فلم أجد دعوة اكتملت، واكتمل لها من أسباب النجاح ما اكتمل لمحمد، ولدين محمد.

قلت: أنت وصلت لهذا.. وغيرك ربما وصل إلى غيره.

قال: كل الصادقين من الباحثين من أصحابنا المستشرقين ومن غيرهم وصلوا إلى ما وصلت إليه.. ولكن منهم من كسر الحواجز، فأقر، ومنهم من كسرته الحواجز، فسكت، أو شهد بما لم يعلم..

سأنقل لك بعض شهادات(1)من عرفتهم من المستشرقين الذين كانوا يبحثون عن المثالب قدر ما استطاعوا.. لكنهم لم يجدوا غير المناقب، فراحوا يشهدون بما علموا(2):

لقد قال (رودي برت)، وهو من علماء ألمانيا المعاصرين: (كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة يعيثون فيها فساداً،حتى أتى محمد ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس)

ويقول (مارسيل بوازار)(3)، وهو مفكر، وقانونى فرنسى: (لم

---

1) سنحاول في هذه الرسالة جمع أكبر قدر من الشهادات المرتبطة بالثمرات المختلفة للإسلام، ولا يخفى ما لهذه الشهادات من اعتبار برهاني علمي، بالإضافة إلى اعتبارها التأثيري في المسلمين أنفسهم، وخاصة من بهرهم الغرب، والحضارة الغربية.

ويحضرني في هذا أن بنت الشيخ المراغي شيخ الأزهر، كانت مسافرة مع أبيها فصادفت في تلك الرحلة امرأة من (الخواجات) فراحت تذكر لابنة الشيخ إعجابها بالعقاد، وخصوصاً (العبقريات)، وهنا راحت ابنة الشيخ تطلب العبقريات من أبيها، فقال الشيخ بحسرة:(أنا شيخ الأزهر، وابنتي لم تسمع لي، وسبق أن كلمتها عن العقاد وكتبه، فلما حدثتها الخواجة استمعت لها وصدقتها) ، ثم عقب بألم ومرارة قائلاً:(يبدو أننا لن نؤمن ولن نصدق بالإسلام إلا إذا آمن الخواجة به)

2) هذه النقول من كتاب (قالوا عن الإسلام)، من مواضع متفرقة منه.

3) سنجري حوارنا الافتراضي معه في فصل (إنسانية)

يكن محمد على الصعيد التاريخي مبشراً بدين وحسب، بل كان كذلك مؤسس سياسة غيرت مجرى التاريخ وأثرت في تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق)

ويقول (أرنولد توينبي)، وهو المؤرخ البريطاني الشهير: (لقد كرس محمد حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية، وهما: الوحدانية في الفكرة الدينية، والقانون والنظام في الحكم، وتم ذلك فعلاً بفضل نظام الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معاً، فغدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب، ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة واستولى على العالم السوري بأسره من سواحل الأطلسي إلى شواطئ الأوراس)

ويقول الدكتور م. ج. دوراني: (وأخيراً أخذت أدرس حياة النبي محمد، فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني الذي أقام مملكة الله بين أقوام كانوا من قبل متحاربين لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال المشينة، فغيَّر طرق تفكيرهم، لا بل بدل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة وقانون واحد ودين واحد وثقافة واحدة وحضارة واحدة وحكومة واحدة، وأصبحت تلك الأمة التي لم تنجب رجلاً عظيماً واحداً يستحق الذكر منذ قرون، أصبحت تحت تأثيره وهديه تنجب ألوفاً من النفوس الكريمة التي انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه ونظام الحياة الإسلامية، وتعلم الناس أمور الدين الجديد)

ويقول (غوستاف لوبون)، وهو المؤرخ المعروف: (إنَّ هذا الكتاب (القرآن) تشريع ديني وسياسي واجتماعي).

ويقول (مونتجومري وات) عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبره سابقاً: (يعتبر القرآن قلاقل العصر نتيجة أسباب دينية بالرغم من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وأنه لا يمكن تقويمها إلا باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء، وإنه لمن الجرأة الشك في حكمة القرآن نظراً لنجاح محمد في تبليغ الرسالة)

ويقول العالم (مايكل هارت) الأمريكي الشهير: (إن محمداً كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي.. إن هذا الاتحاد الفريد الذي لا

نظير له للتأثير الديني والدنيوي معاً يخوله أن يُعْتَبَر أعظم شخصية ذات تأثير في تاريخ البشرية)

ويقول (إدوارد بـروي)، وهـو بـاحث فرنسـي معاصـر وأسـتاذ بهذه الجامعـة: (عنـدما قبض النـبي العـربي عـام 632م كـان قـد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسـمو كثـيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسـلام، وصـهرهم في وحدة قوية وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة لم تعرف مثلها من قبل)

ويقـول (فيليب حـتي): (إذا نحن نظرنـا إلى محمـد من خلال الأعمال التي حققها فإن محمـداً الرجـل والمعلم والخطيب ورجـل الدولة والمجاهد يبدو لنا بكل وضوح واحـداً من أقـوى الرجـال في جميع أحقاب التاريخ، لقد نشر ديناً هو الإسـلام، وأسـس دولـة هي الخلافة، ووضـع أسـاس حضـارة هي الحضـارة العربيـة الإسـلامية، وأقام أمة هي الأمة العربية، وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالــة في حياة الملايين من البشر)

ويقــول (السـير لنتجنسـتادير): (إن تـاريخ الحكم الإسـلامي يدحض ظنون بعض الغربيين من أن الإسلام لا يصـلح لإقامـة دولـة تسـاس فيهـا الأمـور على قواعـد المصـلحة الاجتماعيـة وحسـن العشرة بين المسلمين وغير المسلمين، وأن مفكـري الإسـلام في جميع العصور بحثوا قواعد الحكم والعـرف من الوجهـة الفلسـفية، وأخرجوا لأممهم مذاهب في السياسة والولاية تسـمو إلى الطبقـة العليا)

ويقول (إدوارد كيبـون): (إن من عبقريـة النـبي العـربي وفي خلال أمته وفي روح دينه أسباب انحلال الدولة الرومانيـة الشـرقية وسقوطها، وإن أبصارنا لتتجه دهشة إلى ثـورة من أعظم الثـورات التي طبعت أمم الأرض بطابع خالد)

ويقول (برناردشو) بأسلوبه الساخر: (إنَّ محمداً أصلح العـالم وهو جالس يشرب قهوة في المدينة)

ويقــول (صـامويل هنتغتــون) المفكـر الأمـريكي في إحـدى محاضــراته: (لا آدم ســميث ولا تومــاس جيفرســون ســيفيان بالاحتياجات النفسـية والعاطفيـة والأخلاقيـة للإنسـان، ولا المسـيح سيفي بها على المدى الطويل، محمد سينتصر)

التنوير:

قلت: وعيت هذا.. وأحسـب أن كـل من قـرأ كتابـك (الـدعوة

إلى الإسلام) سيعيه مثلما وعيته.

قال: لقد كتبت ذلك الكتاب في بداية بحثي عن الحقيقة.. وقد ذكرت فيه بعض ما ندمت عليه بعد ذلك(1).. ولكن الحقيقة أعظم من أن يحتويها كتابي ذلك أو غيره.. إن الحقيقة أعظم من أن تحويها جميع كتب الدنيا.

قلت: لقد ذكرت لي الإكسير الذي استفاد منه من اهتدوا بهدي الإسلام، وانضموا تحت لوائه.. وبقينا نحن.. نحن الوحيدون.. أهل أوروبا.. الذين لم يصبنا إكسير الإسلام.. ولكنا مع ذلك من أكثر شعوب العالم تحضرا.

ابتسم، وقال: لولا إكسير الإسلام ما نال قومنا من الحضارة ما نالوا.. لولا الإسلام لظلت أوروبا في ظلمات القرون الوسطى.. أو لقضى بعضها على بعض.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد بحثت في هذا كما بحثت في غيره.. وسأعطيك خلاصة موجزة لأبحاثي في هذا المجال.

لقد قدم الإسلام لقومي خدمات لا يمكن إحصاؤها، وهي تشمل الجانبين: الدين والحياة.

الدين:

قلت: الدين!؟.. وما علاقة ديننا بإكسير الإسلام؟

قال: إن له علاقة وطيدة.. ليس بالمسيحية وحدها.. بل باليهودية أيضا..

وسأبدأ بتأثيره على اليهودية التي هم أم المسيحية الأولى..

لقد كان الإسلام والتعاليم العظيمة التي جاء بها سببا من أهم أسباب حركات التنوير التي حصلت في اليهودية(2).. فقد انطلق دعاة حركة التنوير اليهودية من المنطلقات نفسها التي انطلقت منها حركة الاستنارة الغربية بكل محاسنها ومساوئها وبكل تعميماتها وتناقضاتها.

فقد أنكر دعاة التنوير ما تصوروه طفيلية اليهود وهامشيتهم، وهي سمات مرتبطة بالوظائف التقليدية لليهود ومسألة التجارة والربا، فطالبوا بضرورة تغيير ذلك حتى يمكن تحويل اليهود من

---

1) مع شهرة توماس بالاعتدال إلا أن البعض شكك في ذلك (انظر:محمود حمزة عزوني، دراسة نقدية لكتاب الدعوة إلى الإسلام تأليف توماس ولكر آرنولد، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في الدعوة من المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة)

2) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري.

عناصر هامشية منعزلة إلى عناصر منتجة مندمجة.

كما طالبوا بضـرورة تشـجيع اليهـود على الاشـتغال بالزراعـة والحرف اليدوية.

ولم يكن للدعوة إلى تحديث وظائف اليهود وحــرفهم ومهنهم مضمون اقتصادي وحسب، وإنما كان لها مضمون ثقـافي ونفسـي عميق، إذ كانت دعوة إلى أن يتحـرك أعضـاء الجماعـة من مسـام المجتمع كجماعة وظيفية وسيطة منعزلة لهـا ثقافتهـا الخاصـة إلى نخاعه أو صـلبه. فيصـبحون مثـل بقيـة أعضـاء المجتمـع، يتحـدثون بلغته ويرتدون أزياءه وينتمون إليه ويدينون له وحده بالولاء.

وقد طالب هؤلاء التنويريون بأن تتم العمليـة التعليميـة خـارج الإطـار الـديني وأن تشـمل الجمـاهير كلهـا وليس الأرسـتقراطية الفكرية وحدها من الحاخامات وغـيرهم، كمـا طـالبوا إخـوانهم في الدين بأن يرسلوا أولادهم إلى المدارس غير اليهوديـة حـتى يتقنـوا كل الفنون العلمانية، مثـل الهندسـة والزراعـة، وشـجعوا ممارسـة الأعمال اليدوية، كما دافعوا عن تعليم المرأة.

وبالفعل، بدأت المدارس اليهودية العلمانية تظهـر، لأول مـرة في تاريخ الجماعات اليهودية الأوربية، مـع منتصـف القـرن التاسـع عشــر الميلادي، وافتُتحت أول مدرسـة يهوديـة لتعليم المـرأة في روسيا عام 1836. وكان دعـاة التنـوير يـرون أن التعليم العلمـاني هو السـبيل إلى تحـديث اليهود ودمجهم وعلمنتهم.

وقد حـاولوا أن يُـدخلوا نزعـة عقلانيـة على اليهوديـة، فـأحيوا كتابات المفكر العـربي (الإسـلامي) المـؤمن باليهوديـة موسـى بن ميمون الذي كان يطالب منذ العصور الوسطى بإدخال التعليم غير الديني على الدراسات الدينية اليهودية.

ويُعَدُّ المفكر الألماني موسـى مندلسـون، الـذي تـأثر بأعمـال موسى بن ميمون، أباً للتنوير اليهودي.

وقد صاغ موسى بن ميمون المبادئ الثلاثة عشر الـتي جعلهـا أساس الدين اليهودي وأركان الإيمان فيه على غرار أصول الإيمان في الإسلام، وأدرج فيها بعض أصول الإيمان الإسلامية مما لم يكن معروفًا في اليهودية من قبل أو مدرجًا في العهد القديم، كالاعتقـاد بأن الله عالم، وبـالثواب والعقـاب في الآخـرة، والاعتقـاد في بعث الموتى.

وحدد مفهوم النبوة والمعجـزة لأول مـرة في اليهوديـة، وقـد جاء إما متأثرًا بنظريـة الفلاسـفة المشـائين كالفـارابي وابن سـينا،

وإمـا متابعًـا لجمهـور علمـاء الإسـلام في اسـتدلالهم على هـذه المعتقدات بالنصوص القرآنية.

وقد أقر ابن كمونة بعدم ذكر الثـواب والعقـاب الأخـروي في التوراة وراح يعتذر عن ذلك ويحاول تسـويغه، وهـذا يؤكـد اقتبـاس ابن ميمون هذه الأصول من الإسلام.

بالإضافة إلى هذا، فقـد بـدأ نقـد التـوراة، يقـول (واكسـمان) صاحب كتاب (الأدب اليهـودي): (في القـرن الحـادي عشـر دخلت الفلسـفة اليهوديـة مرحلـة جديـدة متـأثرة بالمؤلفـات الفلسـفية الإسلامية والأفكار الإسلامية، وكان من أثر هـذا أن بـدأ الشـك في التلمود، وبدأت تظهر أفكار حرة، ولم يقتصر الهجوم والنقـد الـذي قام به القراءون والطوائف المتصلة بهم على التلمـود، بـل شـمل الكتاب المقدس أعظم إنتاج عقلي في الدين اليهودي)(1)

أما التأثير الإسلامي على المسيحية، فواضح لا شك فيه.

ولعـل أهم هـذه الآثـار هـو حمايـة الإسـلام المسـيحية من السقوط في حمأة الوثنية التي كـان لا يفـرق بينهـا وبينهـا إلا قـاب قوسين أو أدنى.

قلت: إن ما تقوله غير صحيح.. فلم تقترب المسيحية في يوم من الأيام من رجس الوثنية.

وكيف تقترب من الوثنية، وكتابها المقدس يقول لها: (لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة ما مما في السماء من فـوق، ومـا في الأرض من أسفل، ومـا في المـاء من تحت الأرض. لا تسـجد لهن، ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك غيور) (سفر التثنية: 5: 8)

ويقول لها: (فاحذروا لأنفسكم جدا، فأنتم لم تـروا صـورة مـا حين خاطبكم الرب في جبل حوريب من وسط النـار. لئلا تفسـدوا فتنحتوا لكم تمثالا لصورة ما لمثال رجل أو امرأة)(تثنية: 4: 15)

ويقـول لهـا: (لا تصـنعوا لكم أصـناما، ولا تقيمـوا لكم تماثيـل منحوتة، أو أنصابا مقدسـة، ولا ترفعـوا حجـرا مصـورا في أرضـكم لتسجدوا له) (اللاويين: 26: 1)

هـذه هي نصـوص التـوراة الـتي وردت في النهي عن عمـل الصـور والتماثيـل وعن عبادتهـا، والسـجود لهـا.. وأنت تعـرف أن التوراة تعتبر كتابا مقدسا لدى المسيحيين، بالإضـافة إلى أن العهـد الجديد خال من أي دعوة لعبادة الأوثان.

---

1) نقلا عن إبراهيم موسى هنداوي، الأثر العربي في الفكر اليهودي. ص 144، مكتبة الأنجلو المصرية 1963 م.

قـال: ولكن المسـيحيين اقتبسـوا هـذه العبـادة كمـا اقتبسـوا غيرها.. بل كادت تصبح ديانة وثنية لولا أن حماها الله بالإسلام.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا تسمع بالأيقونات(1)؟

قلت: بلى..

قال: ألم تسمع بأنه مر بها يوم من الأيام صارت تعبد فيه من دون الله؟

سكت، فقال: لقد جاء يوم على المسيحية عبدت فيه الصــور والتماثيـل، فلا تكـاد تجـد ديـراً أو كنيسـة إلا وهمـا ممتلئـان بشـتى الصور والتماثيل، للمسيح، ولمريم، والقديسين منهم، وهي موضـع تقديسهم وعبادتهم.

وبـالتتبع التـاريخي لهـذه الشـعيرة نجـد أنهـا لم تكن في أول أمرها كما هي عليه الآن، بل قد كانت نشـأتها في البدايـة محـدودة النطاق، ثم ما لبثت أن نمت تدريجيا، وانتشرت انتشارا واسـعاً، ثم أصبحت من ضمن شعائر المسيحية، وذلك عن طريق مجامعهم.

هذا ليس كلامي.. بل إن الشهود من المسيحيين يثبتون هذا.. يقول المؤرخ المسيحي (ول ديورانت): (كانت الكنيسة أول أمرهـا تكره الصور والتماثيل، وتعدها بقايا من الوثنية، وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثني الذي يهدف إلى تمثيل الآلهـة، ولكن انتصـار المسيحية في عهد قسطنطين، وما كان للبيئة والتقاليـد والتماثيـل اليونانية من أثر.. كل هذا قد خفف من حدة مقاومـة هـذه الأفكـار الوثنية.

ولما تضاعف عدد القديسين المعبـودين، نشـأت الحاجـة إلى معرفتهم وتذكرهم، فظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصــور، ولم يعظم الناس الصور التي يزعمون أنها تمثل المسيح فحسـب، بل عظموا معها خشبة الصليب، حتى لقد أصبح الصـليب في نظـر ذوي العقول الساذجة طلسماً ذا قوة سحرية عجيبة.

وأطلــق الشـعب العنـان لفطرتـه، فحـول الآثـار، والصـور، والتماثيل المقدسـة إلى معبـودات، يسـجد النـاس لهـا، ويقبلونهـا، ويوقدون الشـموع ويحرقـون البخـور أمامهـا، ويتوجونهـا بالأزهـار،

1) (الأيقونة) باليونانية (آيكون) بمعنى (صورة) أو (تمثيل)، ومنهـا (التـأيقن) بـالنحت. وفي السياق المسيحي، تشير كلمة (أيقونة) إلى (لوحة) أو (رسـم بـارز) (بالفرنسـية: بـا رليـف bas-relief) أو "لوحـة فسيفسـائية للمسـيح أو العـذراء (وأحيانـاً أحـد القديسـين). وكانت الأيقونات تُعتبَر أداة مساعدة أو وسيطاً للعابـدين حـتى يمكن للشـخص المقـدَّس المصوَّر في الأيقونة والمتجسِّد فيهـا، أن يسـتمع لـدعواتهم، انظـر: الموسـوعة اليهوديـة للمسيري.

ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفي.

وفي البلاد التي تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص، تستطيع أن ترى الصور المقدسة، في كل مكان، في الكنائس، والأديرة، والمنازل، والحوانيت، وحتى أثاث المنزل، والحلي، والملابس نفسها لم تخل منها.

وأخذت المدن التي تتهددها أخطار الوباء، أو المجاعة، أو الحرب، تعتمد على قوة ما لديها من الآثار الدينية أو على ما فيها من الأولياء والقديسين للنجاة من هذه الكوارث)

ولكنه ما إن انتشر الإسلام، وعم أرجاء المعمورة، وخاصة في القرن الثامن الميلادي، وعرفت تعاليمه لغير أهله ــ وما فيه من النهي عن اتخاذ الصور والتماثيل فضلا عن تقديسها ـ حتى بدأ بعض المنصفين من المسيحيين وأرباب السلطان في نبذ هذه البدعة والعمل على إزالتها.

ومن هؤلاء الإمبراطور (ليو الثالث)، الذي تشبعت نفسه بفكرة سرت إليه من المسلمين وغيرهم الذين ذموا عكوف جمهرة المسيحيين على تعظيم الصور والتماثيل في الكنائس وفي خارجها، فعقد مجلسا من الأساقفة وأصدر مرسوما عام (726م) يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس، وحرم تصوير المسيح والعذراء، وأمر بأن يغطي بالجص ما على جدران الكنائس من صور، لكن لم يقابل هذا المرسوم بالموافقة الجماعية، فكان أن عارضته الكنيسة، وثار عليه الشعب. واتفقوا على عزل (ليو) وطرده من الحكم.

واجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا (جريجوري الثاني)، وصب اللعنة فيه على محطمي الصور والتماثيل، إلا أن أولاد (ليو الثالث) ساروا على نهجه، منهم ابنه (قسطنطين الخامس 741 – 775م) حيث جمع هذا الإمبراطور مجلسا من أساقفة الشرق في القسطنطينية سنة (754م) قرر فيه بصفة قاطعة: تحريم اتخاذ الصور والتماثيل في العبادة، ووصفها بأنها عمل ممقوت، وحرم طلب الشفاعة من العذراء، وأمر بأن يمحى أو يدمر كل ما في الكنائس من صور وتماثيل.

وعلى هذا سار أحفاده من بعده حتى كان عام (787م) حيث دعت الإمبراطورة (إيريني) ـ التي كانت معاصرة لهارون الرشيد ـ رجال الدين في العالم المسيحي إلى عقد مجمع عام للبحث في مسألة (الصور والتماثيل)، واتخاذ قرار حاسم بشأنها. فاجتمع في

مدينة نيقية عام (787م) حـوالي (377) أسـقفا، وأصـدروا قـرارا بتعظيم صور المسيح وأمه والقديسين، لا بعبادتها.

وجاء في قرار هذا المجمع ما يلي: (نحكم بـأن توضـع الصـور ليس في الكنائس والأبنية المقدسة والملابس الكهنوتية فقط، بـل في البيوت وعلى الجدران في الطرقات، لأننـا إن أطلنـا مشـاهدة ربنا يسوع المسيح ووالدتـه القديسـة والرسـل، وسـائر القديسـين في صورهم، شـعرنا بالميـل الشـديد إلى التفكـير فيهم، والتكـريم لهم، فيجب أن تؤدى التحية والإكرام لهذه الصور)

واستمر الحال هكذا، حتى قامت حركة الإصـلاح الكنسـي في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان من مبادئها منع اتخـاذ الصـور والتماثيل في الكنائس والسجود لها متأثرين في ذلك بمـا رأوه من المسلمين عن طريق الحروب الصليبية.

بالإضافة إلى هذا، فقد ظهر لمقاومة هذه الظـاهرة الخطـيرة حركة تُسمَّى (أيكونوكلازم) (iconoclasm)، أي (تحطيم الأيقونـات) أو (تحطيم الأوثان)، وقد ظهرت حـول القسـطنطينية في القـرنين الثامن والتاسع تحت تأثير الإسلام.

لقد رأت هذه الحركة أن الأيقونات تشكل سقوطاً في الوثنية باعتبـار أن كثـيراً من المصـلين أصـبحوا يظنـون أن الأيقونـة هي نفسها الشخص المقدَّس المرسوم عليها.

وقد نجحت الحركة بشـكل مـؤقت إذ ظهـر أبـاطرة معـادون للأيقونـات، وحـتى بعـد قمـع الحركـة، كـان الفنـانون البـيزنطيون يحاولون الابتعاد عن التصوير الواقعي والميل نحـو التجريـد، وذلـك حتى يبتعدوا عن التجسيم والتوثين.

ليس هذا فقط هو تأثير الإسلام في المسيحية..

فمن تأثيره فيها مـا دعـا إليـه البروتسـتانت من حريـة قـراءة الكتاب المقدس، ورفض احتكـار الكنيسـة تفسـيره، والـتي فتحت الباب أمام حركة نقد الكتـاب المقـدس في الغـرب، تلـك الحركـة المنهجية التي تدين بالفضل لعلماء الإسـلام الـذين كتبـوا في الـرد على هذا الاحتكار كابن حزم والغزالي والقرطـبي وابن تيميـة وابن القيم، وغيرهم.

لقد شهد قـاموس (بـرتلس مـان) لـديانات العـالم على تـأثير الإسلام في المسيحية، فقال: (لقـد أثَّر الإسـلام تـأثيرًا عظيمًـا في العقيدة المسيحية والفلسفة، وقاد على سـبيل المثـال إلى نقـاش جديد حول عبادة الصور وتقديسها في المسيحية)

الحياة:

قلت: وعيت كلامك في تأثير الإسلام في الإصلاح الديني.. فما تأثيره في إصلاح الحياة.. حياتنا نحن الأوروبيين؟

قال: لهذا أيضا بعض علاقة بالدين.. وبالخصوص بالكنيسة.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أنت تعلم أن الكنيسة كانت ذات سطوة عنيفة على كل مرافق الحياة فى أوروبا فى قرونها الوسطى المظلمة.. وكان سبب ذلك سيطرة الفساد الكامن فى الكنيسة على كل مرافق الحياة.

لقد أخطأ بعض قومنا، أو كثير منهم، فتصوروا أن الدين هو سبب ذلك التخلف، وسبب ذلك الظلام الذي غمر قروننا الوسطى بينما الدين بريء من ذلك..

لقد كان المسلمون في تلك العصور في أزهى فترات حياتهم مع كونهم كانوا ملتزمين بدينهم.

وقد ذكر التاريخ ــ الذى تكره أوروبا الاعتراف به إلا القلة المنصفة ـ أن أوروبا بدأت تخرج من ظلمات قرونها الوسطى المظلمة حين احتكت بالمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، سواء فى الحروب الصليبية، أو البعوث التى بعثتها للتعلم فى مدارس المسلمين فى الأندلس بصفة خاصة، وفى صقلية وغيرها من البلاد التى نورها الإسلام.

بل تذكر الروايات التاريخية أن رجال الدين المسيحى أنفسهم كانوا يتعاطون الثقافة الإسلامية فى تلك المدارس، أو فيما ينقل منها إلى اللغات الأوروبية، وأنهم كانوا يترقون فى مناصب الأكليروس بقدر ما يحصلون عليه من تلك الثقافة.

وقد قال روجر بيكون فى القرن الثالث عشر الميلادى: (من أراد أن يتعلم، فليتعلم العربية لأنها هى لغة العلم)

لقد وجدت أوروبا عندما احتكت بالمسلمين ــ في المواطن المختلفة التي أتيح لها أن تحتك بهم فيها(1) ـ عالما عجيبا بالنسبة لها، ليس فيه بابورات، ولا رجال دين.. وليست فيه أسرار عقدية يختص بعملها فريق من الناس دون فريق.. وليس فيه نبلاء يستعبدون الناس فى إقطاعياتهم.. وليس فيه حجر على العقول أن تفكر، ولا حجر على العلم أن يبحث ويجرب وينشر أبحاثه على الناس.

---

1) سنذكر بعض هذه المواطن في هذا المبحث.

قـال (رانـدال) فى كتابـه (تكـوين العقـل الحـديث): (وبنـوا ـ يقصد المسلمين ـ فى القرن العاشـر فى أسـبانيا حضـارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب، بل كـان علمـا طبـق على الفنـون والصناعات الضرورية للحياة العمليـة، وعلى الإجمـال كـان العـرب يمثلـون فى القـرون الوسـطى التفكـير العلمى والحيـاة الصـناعية العلمية اللذين تمثلهما فى أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة)(1)

وقال ليوبولد فايس ـ الـذي بهـره الإسـلام، فأسـلم، وتسـمى محمد أسد ـ فى كتابه (الإسلام على مفترق الطرق): (إن العصـور الوسطى قد أتلفت القوى المنتجة فى أوروبـة.. كـانت العلـوم فى ركود، وكانت الخرافة سائدة، والحياة الاجتماعية فطرية خشنة إلى حد من الصعب علينا أن نتخيله اليوم، فى ذلـك الحين أخـذ النفـوذ الإسـلامى فى العـالم ــ فى بـادئ الأمـر بمغـادرة الصـليبيين إلى الشرق، وبالجامعات الإسـلامية الزاهـرة فى أسـبانيا المسـلمة فى الغـرب، ثم بالصـلات التجاريـة المتزايـدة الـتى أنشـأتها جمهوريتنـا جنـوة والبندقيـة ــ أخـذ هـذا النفـوذ يقـرع الأبـواب الموصـدة دون المدنية العربية.

وأمـام تلـك الأبصـار المشـدوهة، أبصـار العلمـاء والمفكـرين الأوروبيين، ظهرت مدنية جديدة، مدنية مهذبة راقية خفاقة بالحياة، ذات كنوز ثقافية كانت قد ضاعت، ثم أصبحت فى أووربة من قبـل نسيا منسيا، ولكن الذى صـنعه العـرب كـان أكـثر من بعث لعلـوم اليونان القديمـة.. لقـد خلقـوا لأنفسـهم عالمـا علميـا جديـدا تمـام الجدة.. لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها، ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة إلى الغرب، ولسنا نبالغ إذا قلنـا إن العصر العلمى الحديث الذى نعيش فيه لم يدشن فى مـدن أوروبـا النصــرانية، ولكن فى المراكــز الإســلامية: فى دمشــق وبغــداد والقاهرة وقرطبة)(2)

قلت: فكيف تسـنى لأوروبـا أن تتصـل بالمسـلمين، وتسـتفيد منهم، بالرغم مما كان بينهما من شحناء وبغضاء لا تزال أثارة منهـا إلى يومنا هذا؟

قال: لقد كانت لـذلك طـرق كثـيرة.. وجسـور ممتـدة.. وأنت تعرف المسلمين.. فهم أكثر الناس طيبة ولو مع أعدائهم.

لقد كان من تلك الجسور التي وصلت أوروبا بالإسـلام جسـر

---

1) تكوين العقل الحديث، ترجمة جورج طعمة: 1 / 314.
2) الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص 39 – 40.

الأندلس(3).. أو إسبانية حالياً.. فالأندلس قطعة من أوروبـة، تجـاور فرنسـا وهي قريبـة من إيطاليـا وإنكلـترا وغيرهـا من الأقطـار الأوروبية.

وقد أرسلت كثير من البلاد الأوروبية أبناءها على شكل بعثات ترعاهـا مسـتويات رسـمية عاليـة، للدراسـة في بلاد الأنـدلس.. وتصـدى كثـيرٌ منهم للقيـام بعمليـة ترجمـة لأمهـات كتب الـتراث العـربي الإسـلامي إلى اللاتينيـة وغيرهـا، وعلى رأس ذلـك كلـه القرآن، وقد بدأوا بدراسة العلوم، واستمر الانتفاع ممـا لـدى أهـل الأندلس من علوم نظرية وفلسفية وعلـوم ماديـة وتطبيقيـة طيلـة وجود العرب في الأندلس.

وبذلك تعتبر المكتبة الإسبانية العامة في مدريد من المكتبـات المهمـة الـتي تحتـوي على الكثـير من المخطوطـات العربيـة والإسلامية، التي تصدى الغرب لدراستها والانتفـاع منهـا بعـد نقلهـا إلى لغاتهم، وهكذا كانت بذور النهضة الأوروبية.

ومن تلك الجسور الحروب الصليبية الـتي وضـعت الأوروبـيين في مواجهة مباشرة مع الشرق وحضارته وعلومـه، ورغم الإسـاءة في البداية إلى الـتراث العـربي الإسـلامي إذ حـرق الصـليبيون في أنطاكيـة عنـد الاسـتيلاء عليهـا الكثـير من المخطوطـات العربيـة الإسـلامية، فقـد التفت الأوروبيـون إلى ضـرورة الانتفـاع من هـذا التقدم الذي يشاهدونه، فنقلوا في سفنهم كل مـا اسـتطاعوا نقلـه من كتب، وأدوات، ومحاصـيل يمكن زراعتهـا في بلادهم، حـتى الحِرَف المختلفة نقلوهـا إلى بلادهم، ونشـطوا في إقامـة المعاهـد والجامعات وتدريس كتب العرب المسلمين في جامعاتهم.

لقـد بقي كتـاب (القـانون) في الطب لابن سـينا يُـدرّس في بروكسـل ــ بلجيكـا ــ حـتى 1909م، ومثـل ذلـك كتب الجـبر، والرياضيات، وعلـوم الطب، والصـيدلة، وعلم الحيـل (الميكانيـك)، والكيمياء، والنبات، كل ذلك انتقل إلى جامعاتهم، واسـتمر تـدريس تلك الكتب لعدة قرون، وبذل علماؤهم جهوداً كبـيرةً في الدراسـة التطبيقيـة والتجريبيـة حـتى وضـعوا بلادهم على عتبـة الحضـارة الحديثة والمعاصـرة، وعجّت معـاجمهم بـالمفردات والمصـطلحات العربيـة الإسـلامية العلميـة، على اختلاف أنواعهـا مـع شـيء من تطويع هذه المفردات لإدخالها في لغتهم.

ومن تلـك الجسـور جسـر صـقلية وجنـوب إيطاليـا، فقـد فتح

3) انظر: الثقافة الإسلامية وأثرها في الحضارة، الأستاذ محمود الشرقاوي.

العرب المسلمون صقلية في العهد العباسي، وحيثما حلّ العرب حلّت معهم رسالتهم وعلومهم.

وحتى عندما غادر العرب جنوب إيطاليا وصقلية على يد روجر النورمندي، حرص روجر على تشجيع العرب المسلمين للبقاء في صقلية، وذلك لعلمه بغزارة علومهم وعظمة حضارتهم، ومنهم الشريف الإدريسي الذي رسم العالم المعروف لديه على لوح من الفضة وأهداه للملك، كما أهداه كتاباً في الجغرافية هو (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)(1)

كما شجع روجر ترجمة العلوم العربية الإسلامية إلى لغتهم، وسار على نهجه من بعده، أمثال فريدريك ملك صقلية، الذي بشّر بالحضارة الإسلامية في أوروبة، وبنى مدرسة للطب في سالرنو، وأسس جامعة نابولي.. وهكذا وجدت الحضارة العربية الإسلامية طريقاً ثالثاً سلكته إلى أوروبة.. فكانت ولادة الحضارة الأوروبية.

قلت: ولكن الأوروبيين اليوم ينكرون ذلك أعظم إنكار؟

قال: دعهم ينكروا.. فلا خير فيمن ينكر خير غيره..

ومع ذلك، فليس كل الأوروبيين بذلك الحقد.. لقد كان هناك علماء منصفون شهدوا بتأثير الحضارة الإسلامية العظيم في أوروبا وحياة أوروبا ونهضة أوروبا.

ومنهم المؤرخ الفرنسي المعروف (جوستاف لوبون) الذي تناول في كتابه (حضارة العرب) تأثير حضارة الإسلام في الغرب وأرجع فضل حضارة أوربا الغربية إليها وقال: (إن تأثير هذه الحضارة بتعاليمها العلمية والأدبية والأخلاقية عظيم، ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذي أثره العرب في الغرب الا إذا تصور حالة أوربا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة)(2)

وقد ذكر في كتابه هذا بأن عهد الجهالة قد طال في أوربا العصور الوسطى، وأن بعض العقول المستنيرة فيها لما شعرت بالحاجة إلى نفض الجهالة عنها، طرقت أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذلك العهد.

ويقرر لوبون أن العلم دخل أوربا بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا، وأنه في سنة 1120م أنشئت مدرسة للترجمة في طليلة بالأندلس بعناية (ريمولة) رئيس الأساقفة، وأن هذه المدرسة أخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفات المسلمين، ولم

---

1) انظر: الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي: 1/284.

2) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص 26.

يقتصر هذا النقل على كتب الرازي وابن سينا وابن رشد فحسب بل نقلت اليها كتب اليونان التي كان العرب قد نقلوها إلى لسانهم.

ويضيف لوبون أن عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللاتينية يزيد على ثلثمائة كتاب.

وهو يؤكد فضل العرب على الغرب في حفظ تراث اليونان القديم بقوله: (فإلى العرب، وإلى العرب وحدهم، لا إلي رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية، يرجع الفضل في معرفة علوم الأقدمين، والعالم مدين لهم على وجه الدهر لإنقاذهم هذا الكنز الثمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة قرون، موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم وأنهم هم الذين مدنوا أوربا مادة وعقلاً، وأخلاقًا، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفوقهم قوم في الإبداع الفني)(1)

وأكد لوبون أثر الاسلام وأثر حضارته في كل بلد استظلت برايته قائلاً: (كان تأثير العرب في عامة الأقطار التي فتحوها عظيمًا جدًا في الحضارة، ولعل فرنسا كانت أقل حظاً في ذلك، فقد رأينا البلاد تتبدل صورتها حينما خفق علم الرسول الذي أظلها بأسرع مايمكن، ازدهرت فيها العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة أي ازدهار)(2)

وأشاد لوبون بفضل العرب في نشر العلوم وفتح الجامعات في البلاد التي استظلت برايتهم فيقول: (ولم يقتصر العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نشروها، كذلك بما أقاموا من الجامعات وما ألفوا من الكتب، فكان لهم الأثر البالغ في أوربا من هذه الناحية، ولقد كان العرب أساتذة للأمم المسيحية عدة قرون، وأننا لم نطلع على علوم القدماء والرومان الابفضل العرب، وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نقل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب)(3)

ومن الشهداء المنصفين الفيلسوف الفرنسي (رينيه جينو)، الذي أسلم، وتسمى (عبد الواحد يحيى)، فقد قال: (والأثر الواضح الذى يثبت لنا انتقال المؤثرات الثقافية من المسلمين إلى أوربا هو تلك الكلمات العربية الأصل التي تستعمل لنقل الأفكار وإظهار ما

1) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص 26.
2) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص 66.
3) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص569.

تكنه النفوس، فإن من السهل علينا أن نستنتج انتقال تلـك الأفكـار والآراء الإسلامية نفسها، وفي الحق أن تأثير الحضارة الإسلامية قد تناول إلى درجـة بعيـدة، وبشـكل محسـوس كـل العلـوم والفنـون والفلسفة وغير ذلك، وقد كانت إسبانيا مركز الوسـط إلهـام الـذي انتشـرت منـه تلـك الحضـارة، فالكيميـاء احتفظت دائمـا باسـمها العربي، وعلم الفلك أكثر اصطلاحاته الخاصة ماتزال محتفظـة في كل اللغات الأوربية بأصلها العربي، كما أن كثيرا من النجوم مايزال علمـاء الفلـك في كـل الأمم يطلقـون عليهـا أسـماء عربيـة، ومن السهل جدًا أن نوضح أن كثيرًا من المعارف الجغرافية عـرفت من الرحالـة العـرب الـذين جـابوا كثـيرًا من الأقطـار وحملـوا معهم معلومات جمة.. وإننا لنجـد أثـر الثقافـة الإسـلامية في الرياضـيات أكـثر وضـوحًا، وهـذا علم الحيـوان الـذي يسـهل علينـا من اسـمه العـربي أن نعـرف طريـق انتقالـه إلى الغـرب، كمـا أن الأرقـام الحسابية التي يستعملها الأوربيون هي نفس الأرقام التي استعملها العـرب، وأن كثـيرًا من المعـاني الـتي جـادت بهـا قـرائح الكتـاب والشـعراء المسـلمين أخـذت واسـتعملت في الأدب الغـربي، كمـا نلاحظ أن أثر الثقافة الإسلامية واضح كل الوضـوح وبصـفة خاصـة في فن البناء وذلك في العصور الوسطى.

ولم تكن هناك وسيلة لتعرف أوربـا الفلسـفة اليونانيـة الا عن طريق الثقافة الإسلامية، لأن التراجم اللاتينيـة لأفلاطـون وأرسـطو لم تنقل أو تترجم من الأصـل اليونـاني مباشـرة، وإنمـا أخـذت من التراجم العربية، وأضيف إليها ماكتبه المعاصرون المسـلمون مثـل ابن رشد وابن سينا في الفلسفة الإسلامية.

ويختم رينيه جينو شهادته بقولـه: (هـذا جـزء من كـل من أثـر الثقافة الإسلامية في الغرب، ولكن الغربيين لايريدون أن يقولوا به لأنهم لا يريدون الاعتراف بفضل الشرق عليهم، ولكن الزمن كفيل بإظهار الحقائق)(1)

ليس العلماء وحدهم هم الـذين شـهدوا لفضـل الإسـلام على الغرب.. هناك ساسة منصفون شهدوا له أيضا.. ففي مطلع القرن الحادي والعشـرين الميلادي، ظهـر كتـاب (توكيـد الـذات الأوربيـة: آفـاق القـرن الحـادي والعشـرين) للمستشـار الألمـاني هيلمـوت شميت، وقـد وضـح فيـه مسـاهمة الثقافـة الإسـلامية العربيـة في

1) انظر: الفيلسوف رينيه جينو أو عبد الواحد يحيى، للدكتور عبد الحليم محمـود، ص 50 – 60.

روافد الثقافة الأوربية، وضرورة الإسلام في تطور أوروبا مستقبلاً.

وقد أفرد لهذه النقطة عشر صفحات في كتابه الذي يقع في 255صفحة، وهو يقول في ختام معالجة هذه النقطة: (خلال القرن الجديد سيصبح الجوار الجديد مع الإسلام أحد الشروط الأساسية لتأكيد الذات الأوربية والحفاظ عليها، ومن المحتمل أن يعتمد إحلال السلام والاستقرار في أوروبا على هذا الشرط)

في حفل تكريم المستشرقة الألمانية (آنا ماري شميل) وتسليمها جائزة السلام من (رابطة الكتاب الألمان)، في 10/1/1995م، لمناصرتها الفكر الإسلامي، ودعوتها إلى فهمه وتغيير الصورة الشوهاء التي شكلها الإعلام الأوربي عن الإسلام والمسلمين، ألقى الرئيس الألماني (رومان هوتسوج) كلمة دعى فيها إلى أهمية فهم الإسلام فهماً صحيحاً، وأشاد فيها بالتنوير الإسلامي الذي حفظ للغرب ـ قبل ستة أو سبعة قرون ــ أجزاء عظيمة من التراث القديم

وقال الرئيس الألماني: (هل يجوز لنا أن نصنف المسلمين الأتقياء مع (الأصوليين الإرهابيين) فقط لمجرد افتقادنا نحن للإحساس السليم تجاه استهزاء بالمشاعر الدينية للآخرين، أو لكوننا لم نعد قادرين على التعبير عن هذا الإحساس السليم)

وفي الختام دعا الرئيس الألماني إلى فهم الإسلام فهماً صحيحاً لتحديد موقف آخر منه غير الموقف الذي بنى على الجهل به.

بالإضافة إلى هؤلاء ألقى الأمير تشارلز (ولى عهد بريطانيا) خطاباً في قسم الدراسات الإسلامية بإحدى الجامعات البريطانية في بدايات النصف الثاني من تسعينات القرن العشرين الميلادي، تحدث فيه عن جوانب في علاقة الغرب بالإسلام ودعا إلى ضرورة التعاون بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، وأهمية التواصل فيما بينهما، ونبذ ما تركته الحروب الصليبية في العالم الإسلامي من آثار سيئة لا تزال متبقية في النفوس.

وقد أشار إلى وجود نقاط اتفاق بين الإسلام والغرب أكثر من وجود نقاط اختلاف فيما بينهما، وانتقد الصورة الشوهاء التي يروجها البعض، فيقول: (والكثيرون في الغرب يرون الإسلام على أنه حرب أهلية دامية في الشرق الأوسط، وأصولية إسلامية إن حكمنا قد شابه التشوه لاعتبار أن التطرف هو القاعدة، ويظن الكثيرون أن أحكام الشريعة غير عادلة، ولكن ينبغي أن نتدارس

تطبيقاتهـا قبـل أن نصـدر أحكامـاً.. إن هنـاك عـدداً من الـدول الإسلامية أعطت حق التصويت للمرأة في نفس الوقت مع أوروبا، كما أن النساء المسلمات لا يعتبرن مواطنات من الدرجة الثانية)

ولم يتوقف إنصاف الأمير تشارلز للإسلام عند هذا الحـد، بـل أكد فضـل الإسـلام والحضـارة الإسـلامية على أوروبـا في نهضـتها الحديثة، وقال بصراحة: (كثير من السمات الـتى تفخـر بهـا أوروبـا الحديثة جاءت إلينا من الأندلس.. إن الإسلام جزء من ماضـينا ومن حاضرنا)

وأخذ الأمير في خطابـه يلح على الحـوار بين الإسـلام (يقصـد المسـلمين) والغـرب ويوضـح أهميـة اتسـام هـذا الحـوار بالصـبر، ويقول: (لكن ذلك يتطلب جهداً شاقاً لكي يفهم بعضنا الآخر، ولكي نتمكن من إبعاد شبح الخوف والتشكك)

كما دعـا الأمـير تشـارلز في كلمـة ألقاهـا في مـؤتمر سـنوي للخارجية البريطانية بمـــركز (ويلتون بارك) بلندن، في عام 1997 م، رجـال الـدين من بـني جنسـه، وكـذلك خـبراء الاقتصـاد، إلى الاستعانة بالمسلمين في حماية القيم لدى الصغار، وقال: (في كل أنحاء العالم يمكننا أن نجد من يريد تعلم الإنجليزيـة، لكننـا هنـا في الغرب نحتاج إلى التعلم على أيدي مدرسين مسـلمين كيـف نتـدبر الأمور مرة أخرى، بقلوبنا لا بعقولنا فقط)

كما أردف قائلاً: (إننا في الغرب يمكننا الاستفادة من الرسالة الإسلامية في اكتشاف جذور مفاهيمنا الحالية التي ندين فيها للقيم الإسلامية التي تحترم الطبيعية الثابتة للقوانين الطبيعية)

قلت: ذكرت لي الجسـور الـتي كـانت صـلة وصـل بيننـا وبين المسلمين، وذكرت لي الشهادات المنصفة التي تثبت حصول ذلـك التأثير، ولم يبق إلا أن تحـدثني عن نمـاذج عن بعض ذلـك التـأثير.. فالنماذج هي التي تحدد المدى الذي وصل إليه التأثير.

قــال: لا يمكنــني في هــذا المجلس أن أعــدد لــك إلا بعض النماذج التي يظهر فيهـا أثـر المسـلمين علينـا.. وكـل نمـوذج منهـا سيل من السيول تكونت بعده أنهار كثيرة لا نزال نستقي منها.

لقد كان تأثير الثقافة الإسـلامية على أوربـا تـأثيرًا عميقًـا في شتى نواحى الحياة.. وسأختار لك منها ما يرتبط بالمعارف والعلوم والفنون:

ففي **الأدب**.. قـامت صـلة وثيقـة بين طائفـة من عبـاقرة الشعر في أوربا بأسـرها، خلال القـرن الرابـع عشـر الميلادي ومـا

بعـده، وموضـوعات الأدب العـربي والثقافـة الإسـلامية على وجـه لايقبل التشكيك.

ومن هـؤلاء (بوكاشـيو) و(بـترارك) و(دانـتي) وهم من أعلام النهضـــة الايطاليـــة، و(شســـر) الكـــاتب الانجلـــيزي الشـــهير، و(سرفانيتس) الإسباني، وإلى هؤلاء يرجـع التـأثير البـارز في قيـام النهضة الأدبية في أوربا.

ففي عام 1346م كتب بوكاشيو حكاياته التي سماها (الليالي العشرة)، وحذا فيها حذو ليالي ألف ليلة وليلة، التي كانت منتشـرة حكاياتها في مصر والشـام، وقـد ضـمن حكاياتـه مائـة حكايـة على غرار ألف ليلة وليلـة، وأسـندها إلى سـبع من السـيدات وثلاثـة من الرجال الذين اعتزلوا في بعض ضواحي المدينـة فـرارا من مـرض الطاعون، وفرضوا على كل منهم حكايـة يقصـها على أصـحابه في كل صباح لقضـاء وقت الفـراغ، وقـد ملأت هـذه الحكايـات أقطـار أوربـا، واقتبس منهـا الكـاتب الإنجلـيزي (وليم شكسـبير) موضـوع مســرحية (العــبرة بــالخواتيم)، واقتبس منهــا (ليســينج) الألمــاني مسرحية (ناتان الحكيم).

وكان شوسر إِمـام الشـعر الحـديث في اللغـة الإنجليزيـة من أكـبر المقتبسـين من بوكاشـيو في زمانـه، لأنـه التقى بـه حين زار إيطاليا، ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم (قصص كانتربري)

وكانت صلة دانتي(1) بالثقافة الإسلامية وثيقـة، لأنـه أقـام في صــقلية في عهــد الملــك فردريــك الثــاني، الــذي درس الثقافــة الإســلامية في مصــادرها العربيــة الأصــيلة، وقــد لاحــظ أحــد المستشـرقين أن الشـبه قـريب جـدًا بين وصـف الجنـة في كلام الصوفي الكبير محي الدين بن عربي (1164-1240م) في مؤلفه الكبير (الفتوحات المكية) وأوصاف دانتي لها في الكوميديا الالهية.

وقد كان دانتي يعرف شيئا غير قليل من سيرة محمد، فاطلع على الأرجح من هذا الباب على قصة الإسـراء والمعـراج ومـراتب السـماء، ولعلـه اطلـع على رسـالة الغفـران لأبي العلاء المعـرى، واقتبس من كـل هـذه المصـادر معلوماتـه عن العـالم الآخـر الـتي أوردهـا في الكوميـدا الالهيـة، وأكـبر القـائلين بالاقتبـاس على هـذا النحو هو عالم من أمـة الأسـبان انقطـع للدراسـات العربيـة، وهـو

1) هو دانتى البجيري (1265-1321م) وهو من مفـاخر عصـر النهضـة، وهـو صـاحب الكوميديا الالهية، وقد قام بترجمتها إلى اللغة العربية الدكتور حسن عثمان.

الأستاذ آسين بالسيوس(2).

وقـد عـاش بـترارك في عصـر الثقافـة الإسـلامية بإيطاليـا وفرنسا، ودرس العلم بجامعتي مونبلييه وباريس بفرنسـا وكلتاهمـا قامتا على تلاميذ علماء المسلمين في الجامعات الأندلسية.

أما سرفانتيس فقـد عـاش في الجزائـر بضـع سـنوات وألـف كتابه (دون كيشوت) بأسلوب لا يشـك من يقـرأه في اطلاع كاتبـه على العبارات العربية والأمثال التي لاتزال شائعة بين العرب حـتى هذه الأيام. وقد جزم برسكوت صاحب الاطلاع الواسـع على تـاريخ الأسبان بأن فكاهة (دون كيشوت) كلها أندلسية في اللباب.

أما عن الشعر، فقد ذكر دانـتى أِنّ الشـعر الايطـالي ولـد في صقلية بفضل الشعر العربي وبتأثير منـه، ولقـد شـاع نظم الشـعر بالعامية في إقليم بروفانس في جنوب فرنسا، وانتشر الشـعر في ذلـك الإقليم على يـد الشـعراء الجـوالين الـذين عرفـوا باسـم (التروبـادور) وواضـح أن الأوربـيين اشـتقوا هـذا الاسـم من كلمـة طروب العربية، وقد وجدت في أشعار الأوربـيين بشـمال الأنـدلس كلمات عربية وأشارات لعادات إسلامية.

والشـعر العـربي الأندلسـي في الموشـحات والزجـل كـان السـبب في نشـأة الشـعر الأسـباني نفسـه، والزجـل يكـون عـادة باللغة الدارجـة، بينمـا يكـون الموشـح بالعربيـة الفصـحى، وهـذان اللونان من النظم من ابتكار أهل الأنـدلس، وهمـا اللـذان أثـرًا في نشـأة الشـعر الأوربي، وقـد أثبت البـاحثون انتقـال بحـور الشـعر الأندلسي والموسيقي العربية إلى أوربا.

وامتـد التـأثير العـربي في نشـأة الشـعر الأوربي إلى بعض الموضوعات كالمغامرات، وطريقـة علاج هـذه الموضـوعات، كمـا يتمثل هذا في فكرة الحب العذري الـتي تسـود الغـزل في الشـعر البروفنسالي، فإنه يرتد إلى الشعر الأندلسي، وأزجال ابن قزمـان، وقـد عـرض فكـرة الحب العـذري، ابن حـزم في كتابـه (طـوق الحمامة).

أما في مجال القصة الأوربية، فنجد أن هذه القصة تأثرت في نشـأتها بمـا كـان عنـد العـرب من فنـون القصـص في العصـور الوسـطى وهي: المقامـات، وأخبـار الفروسـية، وأمجـاد الفرسـان مغامراتهم لإحراز المجد أو في سبيل الحب.

---

2) انظر: عبد الرحمن بدوي: دور العـرب في تكـوين الفكـر الأوربي، بـيروت 1965، ص 63-84.

وتـرى طائفـة من النقـاد الأوربـيين أن رحلات (جليفـر) الـتي ألفها سويفت، ورحلة (روبنسون كروزو) التي ألفهـا ديفـوى، تـدين لقصـص ألـف ليلـة وليلـة، ولرسـالة حى بن يقضـان الـتي ألفهـا الفيلسوف الأندلسـي المسـلم ابن الطفيـل، وقـد وضـح أنـه كـان لترجمة ألف ليلة وليلة إلى اللغات الأوربية أول القرن الثاني عشـر أثر عظيم وبالغ الخطورة على الأدب الأوربي.

ولم تنقطــع الصــلة بين الأدب الإســلامي والآداب الأوربيــة الحديثة حتى اليوم، ويكفي لبيان الأثر الذي أبقاه الأدب الإسـلامي في آداب الأوربيين أننا لا نجد أديبا واحدا من نوابغ الأدباء عندهم قد خلا شــعره أو نــثره من الإشــارة إلى بطــل إســلامي، أو نــادرة إسلامية، ومن هؤلاء: شكسبير، أديسون، بايرون، سودى، كـولردج، شيلي من أدباء الإنجليز، ومن أدباء الألمان، جيته، هـرور، وليسـنج، ومن أدباء فرنسا: فولتير، لافونتين.

وقد صرح لافونتين باقتدائه في أسـاطيره الـتي ألفهـا بكتـاب (كليلة ودمنة) الذي عرفه الأوربيون عن طريق المسلمين.

وقــد ذكــر (ألفــارو القرطــبي) اهتمــام أهــل الأنــدلس من المسيحيين بالآداب العربيـة، فقـال: (يطـرب إخـواني المسـيحيون بأشعار العرب وقصصـهم، فهم يدرسـون كتب الفقهـاء والفلاسـفة المحمديين لا لتفنيـدها، بـل للحصـول علي أسـلوب عـربي صـحيح رشيق، فأين تجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللاتينيــة علي الكتب المقدسة؟ وأين ذلك الذي يدرس الإنجيل وكتب الأنبيـاء والرسـل؟ وأسـفاه! إن شـباب المسـيحيين الـذين هم أبـرز النـاس مـواهب، ليسوا علي علم بأي أدب ولا أية لغة غير العربية، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملـة تكلفهم نفقات باهضة ن وإنهم ليترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب. وإنـك لـتراهم من الناحيـة الأخـري يحتجـون في زرايـة إذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفـات غـير جـديرة بالتفـاتهم، فواحر قلباه! لقـد نسـب المسـيحيون لغتهم، ولا يكـاد يوجـد منهم واحــد في الألــف قــادر علي إنشــاء رســالة إلي صــديق بلاتينيــة مستقيمة! ولكن إذا استدعي الأمر كتابة العربيــة ن فكم منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسـه في تلـك اللغـة بـأعظم مـا يكـون من الرشاقة، بل لقد يقرضون من الشـعر مـا يفـوق في صـحة نظمـه شعر العرب أنفسهم)(1)

1) حضارة الإسلام، جرونيباوم، ص 81- 82 م.

أمـا في **الفلسـفة**، فقـد كـان أثـر المسـلمين في التفكـير الفلسفي لأوربا عظيمًا، وكـانت أسـبانيا هي مركـز تـأثير الفلسـفة الإسلامية على الفكر الأوربي الغربي، لأن أوربا لم تعـرف فلاسـفة الشــرق إلا عن طريــق الأنــدلس حيث أشــرف ريمونــد أســقف طليطلة على ترجمة أعمال الفارابي وابن سينا والغزالي وغيرهم.

والمسلمون هم الذين حفظوا فلسـفة كبـار فلاسـفة اليونـان وعلى ما سطروه في كتبهم وبخاصة أرسطو وأوصلوا هذا الــتراث إلى الغرب، فاتصـال العقليـة الأوربيـة الغربيـة بـالفكر العـربي هـو الذي دفعها لدراسة الفلسفية اليونانية.

وقد قرر روجر بيكون أن معظم فلسفة أرسطو ظلت عديمة الأثر في الغرب لضياع المحفوظات الـتي حـوت هـذه الفلسـفة أو لندرتها وصعوبة تذوقها حتى ظهر فلاسفة المسلمين الـذين قـاموا بنقل فلسفة أرسطو وشرحها وعرضها على الناس عرضًا شاملاً.

ومن فلاسفة الأندلس الذين كان لهم أعمـق الأثـر في الفكـر الأوربي، ابن باجه، وابن الطفيل، وابن رشد.

ويعد ابن رشد الشـارح الأعظم لفلسـفة أرسـطو، وكـان أول من أدخل فلسفته إلى أوربا (ميخائيل سكوت) سـنة 1230م، ولم يـأت منتصـف القـرن الثـالث عشـر حـتى كـانت جميـع كتب هـذا الفيلسوف قد ترجمت إلى اللاتينية، ولم ينتصـف القـرن الخـامس عشر حتى صار ابن رشد صاحب السلطان المطلق في كلية بــارو بإيطاليا والمعلم الأكبر دون منازع(1).

ويبدو أثر ابن رشد واضحًا في خروج كثـير من الغربـيين على تعاليم الكنيسة وتمسـكهم بمبـدأ الفكـر الحـر وتحكيم العقـل على أساس المشاهدة والتجربة.

وقد ظهر أثر آراء ابن رشد واضحًا في فلسفة القـديس تومـا الأكويني (1125-1274م) حتى أن الفصـول الـتي كتبهـا تومـا في العقل والعقيدة وعجز العقل عن إدراك الأسـرار الإلهيـة ليسـت إلا مقابلاً لما كتبه ابن رشد في باب (فصل المقـال فيمـا بين الحكمـة والشريعة ومن الاتصال)

وبلغ تأثر توما بفلسـفة ابن رشـد أن كتـاب (الخلاصـة) لتومـا يحوي بعض مذاهب إسلامية الأصل، مما يثبت أن الأثر الـذي تركـه ابن رشد في عقلية الغرب لم يكن مجرد شروح كتابـات أرسـطو،

---

1) جوده هلال ومحمد صبح: قرطبة في التاريخ الإسلامي، ص104-105.

وإنما كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير(1).

ويعد الفيلسوف الألماني المعاصر كانت من أكبر تلاميذ ابن رشد، وقد قال جوستاف لوبون عن ابن رشد: (إنه كان الحجة البالغة للفلسفة في جامعاتنا منذ أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، لما حاول لويس الحادي عشر تنظيم أمور التعليم في سنة 1473م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربي ومذهب أرسطو)(2)

وكان للفيلسوف الصوفي المسلم محي الدين بن عربي (560هـ ـ 638هـ) أثر كبير في عقول النساك والمتصوفة من فقهاء المسيحية الذين ظهروا بعده، وقد ذكر (آسين بلاسيوس) المستشرق الأسباني أن نزعات دانتى الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محي الدين بن عربي بغير تصرف كثير.

ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين هو جوهان أكهارت الألماني، فقد نشأ في القرن التالي لعصر ابن عربي ودرس في جامعة باريس، وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في الحكمة والعلوم، وأكهارت يقول كما يقول ابن عربي: (إن الله هو الوجود الحق ولا موجود سواه(3)، وأن الحقيقة الإلهية تتجلى في جميع الأشياء، ولا سيما روح الإنسان التي مصيرها إلى الاتصال بالله من طريق الرياضة والمعرفة والتسبيح، وأن صلة الروح بالله ألزم من صلة المادة بالصورة، والأجزاء بالكل، والأعضاء بالأجسام)(4)

وقد اقتبس الفيلسوف المتصوف الأسباني ـ رايموندلول ـ من ابن عربي خاصة في كتابه (أسماء الله الحسنى) لأنه كان يحسن العربية، وعاش بعد ابن عربي بقرن واحد، وجعل أسماء الله مئة، وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل ذاك.

أما في **الطب**.. فقد عرف في طب العرب موسوعات طبية إسلامية ترجمت كلها إلى اللاتينية، اطلع عليها أطباء أوربا، ونهلوا من معينها حتى مطلع العصور الحديثة، كان في مقدمتها كتاب (القانون) لابن سينا في القرن الثاني عشر، وقد جمع خلاصة

---

1) سعيد عاشور: فضل العرب على الحضارة الأوربية. القاهرة 1957، ص 36.

2) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص 569.

3) ذكرنا المعاني الحقيقية المقصودة من كلام العارفين في هذا المجال الذي أساء البعض فهمه، فراح يرميهم بالكفر والبدعة من غير فهم لمقاصدهم، ولا ذوق لمشاربهم في رسالة (أكوان الله) من (رسائل السلام)

4) عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية. القاهرة 1963، ص 98-99.

الطب عند العرب واليونان والسـريان والأقبـاط، وضـم ملاحظـات جديدة عن الالتهاب الرئوي وعـدوى السـل، مـع وصـف لسـبعمائة وسـتين دواء، وقـد ترجمـه جـيرار الكريمـوني إلى اللاتينيـة وطبـع عشرات المرات.

كما ترجم الحاوي للرازي (ت 320هـ/ 926م) وهـو أكـبر من القانون وأوسع مادة وموضوعًا، وقد أكمله تلاميذ الرازي بعد موته، وترجم إلى اللاتينية في عام 1486م، وفيه آراء جديـدة عن الفتـق والحجامة والحميات وأعصاب منطقة الحنجرة وعضلاتها، وله كتاب (المنصـوري) الـذي تـرجم عـام 1481م ورسـالة عن الجـدري والحصبة بوصف وتشخيص آية في الدقة لأول مرة.

وكان الكتاب الملكي في الطب لعلي بن عباس (ت 384هـ / 994م) شائعًا عند الأوربيين لستة قرون من الزمـان(1)، كمـا كـان خلـف بن قاسـم الزهـراوي (ت414هـ/1013م) معروفـاً عنـد الأوربيين بكتابه (التصريف لمن عجز عن التـأليف) بأجزائـه الثلاثـة، وقـد أفـرد القسـم الأخـير منهـا للجراحـة، وفيـه أشـار إلى أهميـة التشريح للجراح، ووصـف كثـيرًا من الجراحـات باسـهاب، وأجـرى جراحات في شق القصـبة الهوائيـة وتفـتيت الحصـارة في المثانـة وخاصة عند النساء عن طريق المهبل، وسـبق إلى اسـتخدام ربـط الشرايين، ووصف استعداد بعض الأجسام للنزيف وعلاجـه بـالكى، وقد زود كتابه برسـوم للآلات الجراحيـة، وقـد ترجمـه إلى اللاتينيـة جيرار الكريموني وطبع في أوربا عشـرات المـرات، وكـان مرجعًـا في جامعات سالرنو ومونيليه وغيرهما.

وفطن المسلمون إلى أمراض النساء والولادة، وقد كتب في هـذا المجـال علي بن عبـاس في توليـد الجـنين الميت، والأدويـة المانعة للحمل، أو النصائح التي تتعين مراعاتها عند التوليد.

وكان الأطباء في البلاد الإسلامية في القرن العاشـر، يعلمـون تشـريح الجثث في قاعـات مدرجـة خصصـت لـذلك في جامعـة صقلية، واكتشف ابن النفيس الدمشقي المصري الـدورة الدمويـة الصغرى، ونقلها عنه (هارفن) الإنجليزي وعزاها لنفسه ومثل ذلـك فعل (سرفينوس) الإيطالي، ويدعم ذلك ما قاله المـؤرخ المعاصـر (مـايرهوف): (إن مـا أذهلـني حقًـا، مماثلـة الجمـل الأساسـية في أقوال هذين الطبيبين لما كتبه ابن النفيس وكأنهـا تـرجمت ترجمـة حرفية)، ويؤيد ذلك ايضًـا العـالم (الـدوميالي) في كتابـه عن علـوم

1) سيديو، تاريخ العرب العام: 2/77.

العرب، كما يؤيده الأستاذ الدكتور (ليون بينـه) أسـتاذ الفسـيولوجيا بباريس.

قلت: أهذه هي العلوم التي برع فيهـا المسـلمون.. واقتبسـها منهم أجدادنا؟

قـال: هـذه بعض العلـوم فقـط.. والأهم من ذلـك كلـه هـو المناهج التي كان يمارس بها المسلمون تفكيرهم، وكنا نفتقر إليها.

قلت: تقصد المنهج العقلي.

قال: لا.. أقصد المنهج التجريبي(1).

قلت: ذلك منهجنا.. به عرفنا.. وعليـه قـامت حضـارتنا.. فقـد أسسه في بلادنا (روجر بيكون) و(فرنسيس بيكون)

قال: لقد اعترف الأول بأنه اقتبس هذا المنهج من المسلمين.

يقـول دوهـرنج: (إن آراء روجـر بيكـون فى العلـوم أصـدق وأوضـح من آراء سـميه المشـهور(فرنسـيس بيكـون).. ومن أين اسـتقى روجـر بيكـون مـا حصـله فى العلـوم؟)، ثم يجيب: (من الجامعات الإسلامية فى الأندلس)

ويقول بريفولت فى كتابه: (بناء الإنسانية): (إن روجر بيكون درس اللغة العربية، والعلم العـربى، والعلـوم العربيـة فى مدرسـة أكسفورد، على خلفاء معلميه العـرب فى الأنـدلس، وليس لروجـر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريـبى، فلم يكن روجـر بيكـون إلا رسـولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمـل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغـة العربيـة وعلـوم العـرب، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة0 والمناقشات التى دارت حـول واضعى المنهج التجريبى، هى طرف من التحريـف الهائـل لأصـول الحضـارة الأوروبيـة، وقـد كـان منهج العـرب التجريـبى فى عصـر بيكون قـد انتشـر انتشـاراً واسـعاً، وانكب النـاس، فى لهـف، على تحصيله فى ربوع أوروبا)(2)

ويقول: (لقد كـان العلم أهم مـا جـادت بـه الحضـارة العربيـة على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقريـة التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا، لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضـارة وراء سـحب الظلام، ولم يكن العلم وحـده هـو الـذى أعـاد إلى أوروبـا الحيـاة، بـل إن

1) سنتحدث عن المناهج المختلفة، ونقارن بينها وبين المناهج التي قررهـا الإسـلام، وأخذ بها علماء المسلمين في فصل (معارف) من هذه الرسالة.

2) بناء الإنسانية، ص202.

مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت بـاكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية)(1)

ويقول: (إنه على الرغم من أنـه ليس ثمـة ناحيـة واحـدة من نــواحى الازدهــار الأوروبى إلا ويمكن إرجــاع أصــلها إلى مــؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هذه المـؤثرات توجـد أوضـح ما تكون وأهم ما تكون، فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة، وفى المصدر القـوى لازدهـاره، أى فى العلوم الطبيعية، وفى روح البحث العلمى)(2)

ويقول: (إن ما يدين به علمنا للعرب ليس فيمـا قـدموه إلينـا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين لها بوجوده نفسـه، فالعالم القديم ـ كما رأينا ـ لم يكن للعلم فيه وجـود، وعلم النجـوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علومـاً أجنبيـة اسـتجلبوها من خـارج بلادهم، وأخــذوها عن ســواهم، ولم تتــأقلم فى يــوم من الأيــام، فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية، وقـد نظم اليونـان المـذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات، ولكن أساليب البحث فى دأب وأنـاة وجمـع المعلومـات الإيجابيـة وتركيزهـا، والمنـاهج التفصـيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبى، كـل ذلـك كان غريبـاً تمامـاً عن المـزاج اليونـانى، ولم يقـارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية فى عهدنا الهليـنى، أمـا مـا نـدعوه (العلم) فقـد ظهـر فى أوروبـا نتيجـة لـروح من البحث جديــدة، ولطــرق من الاستقصــاء مســتحدثة، بطــرق التجربــة والمقاييس وتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان، وهــذه الروح، وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوروبى)(3)

التفت إلي، وقال: هذا في الماضـي.. ونحن إلى الآن لا نـزال نسـتفيد من خـبرات المسـلمين وعلمـائهم وبـاحثيهم.. بـل نحن نمارس كل الوسائل لنمتص كل القدرات والكفاءات لننعم بها نحن دونهم(4).. ثم نظل على جحودنا وكبريائنا وحقدنا.

---

1) بناء الإنسانية، ص202.
2) بناء الإنسانية، ص190.
3) بناء الإنسانية، ص109.
4) أشير بهذا إلى هجرة الكفاءات والعقول.. فـالغرب إن كـان قـد اعتمـد في تشـييد النهضة الحديثة على إنجازات الحضارة الإسـلامية في العصورالوسـطى، فإنـه لم يتوقـف عند ذلك الحد.. بل هاجرت إلى الـدول الغربيـة والأمريكيـة أعـداد من الكفـاءات العلميـة والخـبرات التقنيـة، تحصـيها مجلـة (العلم والمجتمـع) في عـددها الصـادر في ديسـمبر 1977م بثلاثين ألفا، كما ذكر كتاب (رجـال ونسـاء العلم الأمريكـيين) 754 من العلمـاء المتخصصــين في مجــالات متنوعــة، منهم 321 من الــدول العربيــة، 167 من الهنــد وباكسـتان، 106 من إيـران وأفغانسـتان، 76 من تركيـا (وهى دولـة إسـلامية) وحصـى

***

ما وصل (توماس) من حديثه إلى هذا الموضع حتى انهمـرت دموع حارة من عينيه، فأخرج منديلا من جيبه، وراح يمسحهما به.

قلت له: ما الذي دعاك إلى البكاء؟

قال: أمران طالما هطلت دموعي بسببهما.

قلت: مــا همــا؟.. فعســاك تهيج من دمــوعي مــا هيج من دموعك.

قال: أولهما.. أني ذكرت تلك النفوس الطيبة التي ربيت على يدي محمد.. فـراحت تنشـر خيرهـا وخلاصـها للأمم لا تبتغي بـذلك أجـرا.. فحـررت العبيـد.. وأنـارت الـدنيا.. ونشـرت من القيم مـا لا تستطيع الدنيا جميعا إحصاءه.

قلت: فما يبكيك من هذا؟

قال: لم يبكـني مـا فعلـوا بنـا.. ولا بأهـل الأرض من إخواننـا.. ولكن يبكيني ما فعلنا بهم..

لقد رحنا بجشـعنا وحرصـنا وطمعنـا ننهب خـيرات البلاد الـتي آوتنا وعلمتنا.. ورحنا نعض الأيـدي الـتي تـوجهت لتحريرنـا من كـل القيود التي طوقت أعناقنا.. ورحنا نقتل أحفاد من سـالت دمـاؤهم في سبيل خلاصنا.

قلت: هذا الأول.. وهو جدير بأن يجعلني أشاركك في بكائـك.. فما الثاني؟

قال: أبكاني قـومي الـذين نهلـوا من خلاص محمـد القشـور، وتركوا اللباب.. لقـد اهتمـوا بـالظواهر، ونسـوا البـواطن، واهتمـوا بالعلوم، ونسوا القيم، واهتموا بالدنيا، ونسوا الآخرة.

قلت: فما كنت فاعلا لو رجعت إلى ذلك الزمان؟

قال: آخذ بخلاص المسلمين روحه وجسده.. باطنه وظاهره.

قلت: أتسمح لي حضرة العلامة الجليل أن أسألك سـؤالا قـد يحرجك؟

قال: سل ما بدا لك.

قلت: أنا أتعجب من كل هذه الحماسة الـتي تبـديها للإسـلام، ولكني مع ذلك أراك تحتفظ بصـليبك، ودينـك.. هـل تـرى أن الـذي قدم كل هذا الخلاص للبشرية كان كاذبا في دعوى النبوة؟

انتفض، وقال: يستحيل ذلك.. يستحيل ذلك..

الكتاب من العلماء المسـلمين 226 مهندساً، 313 في العلـوم الطبيـة البيولوجيـة، 255 في العلوم الطبيعية والرياضية.

قلت: ولكني لا أزال أراك على دينك.. كيف هذا؟

صمت قليلا، ثم قال: لن أحدثك عن نفسي.. سأذكر لك ما قال (اللورد هدلي).. وافهم أنت ما تشاء.

قلت: أعرفه.. فما قال؟

قال: لقد قال: (إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً، مسلمون قلباً، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير، تآمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم)

قلت: لكن (اللورد هدلي) أظهر إسلامه، وتحدى كل من وقف في طريقه.. وقد كان لإسلامه ضجة كبيرة، وذلك لمكانته بين قومه، وعلو قدره العلمي، وقد حج بيت الله الحرام، ومر في طريقه بالإسكندرية، فأقام له أهالي الثغر حفلة كبيرة برعاية الأمير عمر الطوسوني، وبرئاسة الشيخ عبد الغني محمود شيخ علماء الإسكندرية آنذاك.

قال: لقد قال في سبب اعتناقه الإسلام: (عندما كنت أقضي ـ أنا نفسي ــ الزمن الطويل من حياتي الأولى في جو الكنيسة كنت أشعر دائماً أن الدين الإسلامي به الحسن والسهولة، وأنه خلو من عقائد الرومان والبروتستانت، وثبتني في هذا الاعتقاد زيارتي للشرق التي أعقبت ذلك، ودراستي للقرآن الكريم)

ويقول: (فكرت وصليت أربعين سنة كي أصل إلى حل صحيح)

ويقول: (إذا أصبح كل فرد في الإمبراطورية الإنجليزية محمدياً حقيقياً بقلبه وروحه لأصبحت إدارة الأحكام أسهل من ذلك، لأن الناس سيقادون بدين حقيقي)

ويقول: (ليس هناك في الإسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه، إنه أمام الجميع وفوق الجميع، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه، إنه لمن المدهش حقاً أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة، فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء)

ويقول في شعوره بعد إسلامه: (إن الدين الإسلامي تملك رشدي صدقاً، وأقنعني نقاؤه، وأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي، إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتها قط من قبل، كما استنشق هواء البحر الخالص النقي، وبتحققي من سلامة وضياء وعظمة الإسلام ومجده، أصبحت كرجل فر من سرداب مظلم

إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار)

كانت هذه النصوص تخرج من أعماق أعماق قلبه.. وكأنها قـد ولدت تلك اللحظة، قلت: لقد سمعت بكل ما قال من هذا وغيره.. وأنا لا أسألك عنه.. وإنما أسألك عن نفسك.

قال: أحيانا تجد غيرك يوفق في التعبير عما في نفسـك أكـثر من قدرتك.. فتكتفي بتعبيره عن تعبيرك.. وبلسانه عن لسانك.

قلت: فأنت مقتنع بما قال؟

قال: وأنا حزين لما أفعل.

قـال ذلـك.. ثم صـمت صـمتا طـويلا.. اسـتحييت أن أقطعـه عليه.. فخرجت، ومعي بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلــك إلى شمس محمد ﷺ.

ثانيا ـ صمود

في اليـوم الثـاني من تلـك الأيـام العشـرة المباركـة، التقيت المستشـرق الـذي قطفت على يـده ثمـرة الصـمود من شـجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَـا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:9)، وسر قولـه تعـالى: ﴿ يُرِيـدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُـورَ اللَّهِ بِـأَفْوَاهِهِمْ وَيَـأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُـورَهُ وَلَـوْ كَـرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُـدَى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33) ﴾(التوبة)

وعرفت بها سر قوله ﷺ: (لن يـبرح هـذا الـدين قائمـا يقاتـل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة)(1)

وقوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمـر الله، وهم ظاهرون)(2)

وقوله ﷺ: (ليبلغن هذا الأمرُ مـا بلـغ الليـلُ والنهـار، ولا يـترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعِزِّ عزيـز، أو بِـذُلِّ ذليـل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر)(3)

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن التأييد الذي أمد الله به هذا الدين، فقام صامدا في وجه كـل المـؤمرات الـتي كـانت ولا تـزال تحاك ضده.

وإلى جنب هذا عرفت سر تلك النصوص الكثـيرة الـتي تنـبئ المسلمين عن العداوات الكثـيرة الـتي تختزنهـا لهم الأيـام، والـتي عبرت عنها النصوص القرآنية والنبوية خير تعبير:

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَـرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَـافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ (217)﴾(البقرة)

وقـال تعـالى: ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَـوْ تَغْفُلُـونَ عَنْ أَسْـلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُـونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَـةً وَاحِـدَةً وَلَا جُنَـاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَـانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُـذُوا حِـذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (102)﴾(النساء)

---

1) رواه مسلم.
2) رواه البخاري ومسلم.
3) رواه أحمد .

وقال تعالى: ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2)﴾(الممتحنة)
وقال تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (8)﴾ (التوبة)

فهذه النصوص المقدسة جميعا تقريرات ربانية تخبر المسلمين عبر التاريخ عما يريد الجاهلون والجاهليون أن يفعلوه بالشجرة المباركة التي بذر بذورها نبيهم ﷺ.

***

سمعت بـ (جابرييلي فرانشيسكو)(1) وهو مستشرق إيطالي كان من النوع الذي حدثني عنه مدير جامعة السربون، واسمه من الأسماء التي وضعت في الدفتر الذي سلمني إياه المرشد، وقد كنت أتحين الفرص للقائه والاستماع إليه، ولكني لم أظفر بذلك إلا في ذلك اليوم الجميل...

في صباح ذلك اليوم سرت إلى حديقة جميلة بضاحية باريس، سمعت أن بها شجرة ولدت قبل أن تولد أكثر مباني المدينة، كان يأتيها الشيوخ ليتذكروا شبابهم، ويأتيها الشباب، ليسألوا الله أن يمدهم من العمر ما أمدها.

عندما رأيتها لم أصدق أنها شجرة عجوز، فقد كانت نضارة الشباب تملؤها، فأوراقها لا تزال غضة طرية، وسيقانها الجديدة تضاهي سيقان أصغر الأشجار وأرقها، وثمارها لا تزال تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ولكن ما أكد لي هذا العمر الطويل الذي رزقها الله إياه هو ضخامة أصولها، وامتداد جذورها، وتعالي هامتها، ورسوخها الشديد في أرضها، فهي لا تهزها العواصف، ولا تعبث بها الأعاصير، ولا تميد بأغصانها الرياح.

وفوق ذلك، فقد اكتسبت مقاومة فعالة ــ لست أدري مصدرها ــ ضد كل تلك الحشرات الضارة التي عبثت بصحة نظيراتها، فأسلمتها إلى الموت المحتوم.

هناك رأيت (جابرييلي فرانشيسكو) المستشرق الإيطالي،

---

1) هو في الأصل abrieli Francesco. (1904 ـ 1997) مستشرق إيطالي، كان مهتماً باللغة العربية وآدابها حتى عيّن كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها بجامعة روما، عرف بدراسته للأدب العربي، وفي تحقيق التاريخ الإسلامي، انتخب عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي بدمشق عام 1948. واشتهر فرانشسكو بمواقفه المعتدلة من التاريخ الإسلامي. (انظر: سمير القريوتي، (رحيل فرانشسكو جابرييلي) في الشرق الأوسط، عدد:6592، 5شعبان 1417(15ديسمبر 1996م)

جالسا على عشب تلك الحديقة، يحـدق بشـدة إلى تلـك الشـجرة، وكأنه يرى في أوراقها وأغصانها وهامتها ما لا يرى سائر الناس.

فرحت فرحا شديدا للقائه، فحييته باللغة العربية، لأنال فرصة الحديث معه، فقد كنت أعلم هيامه الشديد بها.

عندما سمعني أتحدث بالعربية، طلب مني أن أجلس بجانبـه، فجلست، وبـدأ يسـألني عـني، فـذكرت لـه مـا أذن لي في ذكـره، وحجبت عنه ما نهيت عن ذكره.

قلت له بعدها: أراك مستغرقا في هذه الشجرة، أتتـذكر فيهـا شبابك؟

قال: لا.. أتذكر فيهـا رجلا غـرس شـجرة لا تختلـف كثـيرا عن هذه الشجرة.. لقد غرسها منـذ قـرون طويلـة، ومـع ذلـك لا تـزال غضة طرية ممتلئة شبابا.

مرت عليها الأعاصير.. كل الأعاصير.. فلم تجتثها.

أصيبت الأرض بجانبها بالزلازل، ولكن أرضها لاتـزال مسـتقرة ثابتة.

اجتمعت جميع أسود الدنيا وسباعها لتغرز أنيابهـا في أصـولها، وتقطع منابع الرزق عن فروعها، فعادت إليها أنيابها خاسئة حسيرة عاجزة.

صــوبت في وجههــا المــدافع.. فلم تفلح المــدافع، ولم يفلح القائمون عليها.

أضرمت حولها النيران، فلم تحرقها، ولم تجفف أوراقهـا، ولم تشوه صورتها.

ثم نظـر إلى، وقـال: هـذه الشـجرة تـذكرني بتلـك الشـجرة العظيمة.

قلت: من ذلك العظيم الذي غرس تلك الشجرة العظيمة.

قال: صدقت، فالشجرة العظيمة لا يغرسها إلا عظيم.

قلت: فمن هو؟

قال: محمد.

قلت: أي محمد تقصد؟

قال: وهل هناك غير محمد؟

قلت: لعلك تقصد نبي العرب.

قـال: بـل نـبي العـالم.. نعم إن شـجرة محمـد نبتت في بلاد العرب، ولكن أغصانها وأوراقها وثمارها شملت العالم أجمع.

قلت: أي شيء أغراك بتلك الشجرة حتى نالت منك كل هــذا

الاهتمام؟
قال: الصمود..
قلت: الصمود!؟.. ما تعني بالصمود؟
قال: لقد كنت مغرما منذ صغري بالأبطال الصامدين الـذين لا يهتزون لشيء، ولا يتأثرون لشيء.. الأبطال الثابتون على مبـادئهم أمام كل ترغيب، وأمام كل ترهيب.
وقد كان من الأبطال الـذين امتلأ قلـبي تعظيمـا لهم محمـد.. لقد سمعت قوله لعمه الذي جاء يخبره بما أغـراه قومـه بـه، وبمـا رهبـوه.. فقـال: (يـا عم.. واللـه لـو وضـعوا الشـمس في يمينـي، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمـر حـتى يظهـره اللـه أو أهلك فيه ما تركته)(1)
قلت: والمسيح ـ أيضا ـ ثبت أمام خشبة الصليب.. لقد قضـى ست ساعات على الصليب، وقد تألم فيها بـأنواع عديـدة من الآلام لم تزعزعه، ولم تهد كيانه المقدس.
لقد تألم آلاما كثيرة.. آلاما في جسده.. وآلاما في نفسه.
لقد تفل عليه، وضرب بالسياط، ووضعوا إكليـل شـوك فـوق رأسه القدوس، وهو الملك صاحب التيجان الكثيرة.
وطعنوه بحربة في جنبه، وسالت منه ينابيع الغفران من خلال ذلك الدم الذي يطهر من كل خطية، والـذي لا يـزال يتكلم ويطلب الغفران لأجلنا.
ثقبوا يديه ورجليـه بمسـامير حديديـة غليظـة بواسـطة أيـدي الجنود الرومانيين الذين كانت قلوبهم غليظة.
رددت هـذا الكلام من غـير شـعور، فقـال: أنت مهتم بالـدين المسيحي إذن؟
قلت: وكيف لا أهتم، وأنا مسيحي؟
قـال: وأنـا مثلـك مسـيحي.. أذهب كـل أحـد إلى الكنيسـة.. ولكني لا أشعر بأي اهتمام بالمسيحية.
قلت: لم؟
قال: ألم أذكر لك بأني مغـرم بالبطولـة والصـمود إلى الغايـة التي لا تتصورها؟
قلت: ولم تتجل البطولة في أحد كما تجلت في المسيح، وهو على خشبة الصليب.
قال: إن شئت الحق، فإن هنـاك آلاف المصـلوبين في العـالم

1) رواه ابن إسحق وغيره.

أبدوا من البطولة والصمود على ما هو أخطر من الصليب أضعاف ما ذكر عن المسيح..

بل إنه لا أحد من المجرمين المصلوبين من صاح بذلك الرعب الذي صاح به المسيح عندما قوّله كتبتنا قوله: (إيلي إيلي.. لماذا شبقتني!؟ أي إلهي إلهي لماذا تركتني) (متى:27)(1)

ثم التفت إلي، وقال: حتى لو فرضنا أن ما حصل من المسيح صمود لا نظير له، فإنه صمود شخص يبعث على الإعجاب.. لا صمود أمة..

قلت: ولكن أتباع المسيح أبدوا من الصمود والثبات ما لا نظير له.

إن التاريخ يشهد بالبطولات العظيمة التي أبداها أتباع المسيح في القرون الثلاثة الأولى تجاه جميع أنواع المحن والبلايا والاضطهادات التي مورست عليهم.

قال: ولكنهم ـ في الأخير ـ تزعزعوا أمام إرادة الامبراطور..

نعم.. لم تطق معهم أسلحة الترهيب.. ولكن أسلحة الترغيب جذبتهم.. فتحولت المسيحية من دين المسيح إلى دين قسطنطين.. يغير فيها ما يشاء، ويثبت ما يشاء.

قلت: كيف تقول هذا؟

قال: أنا مؤرخ.. ولا أتعامل إلا مع الوثائق التاريخية، ولدي من الوثائق الكثيرة ما يثبت تلك الانحناءات الخطيرة التي انحناها ورثة المسيح، ليتركوا ـ في الأخير ـ الأمر للبابا الأول حضرة الامبراطور قسطنطين ليتصرف في دينهم كيف يشاء.

اسمح لي.. يا أخي.. أن أقول لك بأن ديننا الذي ندين به ورثناه من الامبراطور، لا من المسيح.

قلت: إن هذا الكلام الذي تقوله خطير جدا.

قال: ولكنه صحيح جدا للأسف..

قلت: لا بأس قد أقر لك بما ذكرت .. ولكن كيف صمدت الثمار التي جاء بها الإسلام؟

نظر إلى الشجرة برهة، ثم قال: ألم تتساءل عن سر نشاط هذه الشجرة وحياتها واستمرارها في العطاء طول تلك السنين التي مرت بها؟

قلت: لا أحتاج إلى التساؤل عن ذلك.. فهو واضح.. فأرضها

---

1) هذا بناء على ما يعتقده المسيحيون، أما المسيح.. فقد كان سيد الأبطال الثابتين، والبطولة لا تتجلى على الصليب وحده..

طيبة تمـدها بالمـاء ومـا تحتاجـه من غـذاء الأرض، وهواؤهـا عليـل يمدها بما تحتاجه من غذاء السماء.. وهي مع ذلك كريمة لا تحتفظ بهذه الأقوات لنفسـها.. بـل تمـد بهـا من قصـدها، فتحييـه بحياتهـا، وتشمله ببركاتها.

قال: فكذلك الشجرة التي غرسها محمد.. لقـد كـان لصـمود المصادر التي تغذت بها شجرته أثرها الكبير في حفـظ حيـاة دينـه، وحفظ ثمراته.

قلت: ولكنا نرى الإسلام تقزم بعد أن كان عملاقا، وهرم بعــد أن كان شابا.

قال: هـو هـرم مزيـف، وهـو تقـزم تكـذب العين في رؤيتـه.. الإسلام في حقيقتـه لا يـزال يحتفـظ بكـل مقومـات حياتـه.. ولكن الحروب العظيمة الـتي ووجـه بهـا جعلتنـا نـرى في المسـلمين مـا نـراه.. ولـو أن هـذه الحـروب تـوقفت أيامـا، وتـركت المسـلمين لأنفسهم لعادوا إلى قوتهم التي تختزن في مصادرهم.

إن الشـجرة الـتي غرسـتها المصـادر المقدسـة لهـذا الـدين شجرة لا تنتج إلا الثمار الطيبة.. وهي ثمار قـد يعـرض عنهـا البعض في وقت من الأوقات، ولكنهم سرعان ما يحنون إليها، ويحــدو بهم الشوق للأكل منها.

قلت: هذا كلام عام أريد تفاصيله.

قـال: ولن تجـد عنـدي إلا تفاصـيله.. لقـد عشـت كثـيرا في المجتمعات المسلمة.. ومع كونها تخلفت كثيرا عن دينها، ولكنها مع ذلك لا تزال تحتفظ بكل المقومات التي يمكن أن تعيـد لهـا الحيـاة من جديد، وتعيد لهذا الدين دوره الرائد في العالم.

العقيدة:

قلت: فلنبدأ بالعقيدة.. والتي هو أصل أصول الدين، وأســاس أسسه.

قال: لقد بحثت في الأديان جميعا.. وقرأت تراثهـا المقـدس.. وتغلغلت في أديرتها ومعابدها لأبحث عن صورة مقدسة للــه.. فلم أجدها إلا في دين محمد..

إنه الدين الوحيد الذي يعرض تعريفا لله ينسـجم مـع الفطـرة والعقل والكون والحياة..

إن كل شيء يـبرهن على كـل كلمـة يحملهـا دين محمـد عن الله.

والمسـلمون في جميـع فـترات تـاريخهم يحملـون تصـورات

مقدسة عن الله تسمو كثيرا عن كل مـا حصـل في جميـع الأديـان من تحريفات.

أنت مثلي تحب التفاصـيل.. ولا تقنـع بالأسـلوب الخطـابي.. فلذلك سأذكر لك مـا يـبرهن لـك على أن الشـجرة الوحيـدة الـتي صمدت في وجه جميع التحريفات هي الشجرة التي غرسها محمد.

إن أهم ما يميز العقيـدة الإسـلامية هـو تناسـبها مـع الفطـرة السليمة التي يلتقي فيها العقل والروح والنفس من غير أن يحصل بينهـا أي اضـطراب.. لقـد عـبر القـرآن عن هـذه الخاصـية بقولـه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَـكَ لِلـدِّينِ حَنِيفـاً فِطْـرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ﴾ (الروم:30)

هذه العقيدة الفطرية تشـرحها سـورة قصـيرة قـل أن يوجـد مسلم لا يستظهرها هي سورة الإخلاص.. وهي السورة التي نزلت جواب إلهياً للمشركين عندما سألوا محمدا أن يصف لهم ربه.

وهذه الحقيقة هي التي تجذب اهتمام وتركيز دارسي الإسلام من أول لحظة، وتدفع من كتبت له الهداية منهم إلى نفض ما علق بفطرته من ركام والدخول في دين اللـه بطمأنينـة، ذلـك أن (أول ما يستشعره القلب والعقل أمام العقيدة الإسلامية هـو الاسـتقامة والبسـاطة والوضـوح..وهـذه السـمة الـتي تجتـذب الأفـراد الـذين يـدخلون في هـذا الـدين من الأوربـيين والأميركـيين المعاصـرين فيتحدثون عنها بوصفها أول ما طـرق حسـهم من هـذا الـدين وهي ذاتها السمة التي تجتـذب البـدائيين في إفريقيـا وآسـيا في القـديم والحديث لأنهـا سـمة الفطـرة الـتي يشـترك فيهـا النـاس أجمعين متحضرين وبدائيين)[1]

لقـد قـال بعض قومنـا من المسـيحيين ممن عشـقوا هـذه العقيـدة الفطريـة المنطقيـة: (بـدأت أدرس الأديـان بصـفة عامـة، والإسلام على وجه الخصوص، فأيقنت في غضون دراستي أن دنيـا تفكـيري وإحساسـي أقـرب للإسـلام منهـا للمسـيحية، وبالتـدريج اكتشفت أن الإسلام كمنهج حياة كان ينسجم من كافة الوجوه مـع فطرتي البشرية)

ويقول: (عندما درسـت وجهـة النظـر الإسـلامية حـول النـبي عيسـى عليـه السـلام ابن اللـه، كمـا عـرفت فيمـا بعـد من أسـتاذ بروتستانتي أن عدداً كبيراً من المسـيحيين ــ حـوالي 80 بالمائـة ـ

1) خصائص التطور الإسلامي:228.

منهم أقرب إلى الإسلام منه إلى المسيحية في هذه الناحية على الأقل من عقيدتهم، أما من الناحية العملية فحتى قبل إسلامي كنت أنفر من الخمور والرقص وما شابه ذلك من الأمور التي عرفت فيما بعد أنها محرمة في الإسلام، وهكذا كان الإسلام بالنسبة لي كعملية اكتشافي لفطرتي)(1)

ويقول: (والعجيب في قضية التثليث التي تنسب أوروبا الفضل في إنكارها إلى فلاسفة عصر التنوير (ق18) من أمثال فولتير، ويعرب بعض الباحثين عن دهشتهم لان عقلية جبارة كتلك التي يتمتع بها ديكارت لم تستنكر هذه العقيدة ولو بكلمة واحدة.. هذا في حين أن الإسلام ـ دين الله الحق ــ سبق إلى نقص هذه العقيدة وإبطالها ليس من خلال تنفيره العام من الشرك وإنكاره المطلق فحسب بل أفرد الحديث عنها استقلالاً وفصله من وجوه منوها بأنها عقيدة وثنية قديمة وهي الحقيقة التي لم تعرفها أوروبا إلا بعد ظهور علم مقارنة الأديان الذي يعد من أحداث علومها النظرية، قال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (التوبة:30))(2)

هذا في العقيدة في الله التي هي أصل العقائد ولبابها.. وهكذا في سائر العقائد.

قارن بين موقفنا من الخطيئة الموروثة التي تنبني عليها المسيحية، وبين قول القرآن: قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (الأنعام:164).. وقوله: مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (الاسراء: 15).. وقوله: إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (الزمر:7)

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تنفي مسؤولية الإنسان على ما لم يعمله.. بل إن القرآن ينفي مسؤولية الإنسان على ما أكره عليه.. لأن العمل لايعتبر عملا يستحق الجزاء إلا إذا كان عن

1) رجال ونساء اسلموا، عرفات كامل العشي:1/24-25.
2) رجل ونساء اسلموا،عرفات كامل العشي:1/24 – 25.

طواعية تامة.. يقول القرآن: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل:106).. ويقول: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء:65)

قارن هذه العقيدة التي تنسجم مع المنطق العقلي بعقيدتنا في الخطيئة الموروثة..

لقد أزعجت الخطيئة الموروثة فولتير وباسكال.. بل أقلقت الضمير الأوروبي كله وأرقته منذ أن اعتنقها إلى الآن..

أما القرآن، فإنه يذكر الحادثة باعتبارها حدثا تاريخيا يذكر للعبرة.. لا لتبنى حياة البشر كلها على أساسه..

بالإضافة إلى ذلك.. فالقرآن ذكر القصة مذيلة بذكر التوبة والاستغفار وبيان أن الله قبل التوبة وغفر الخطيئة، ففي سورة البقرة ينتهي سياق القصة إلى قوله: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:37)

وفي سورة الأعراف تنتهي القصة بقوله: ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (لأعراف: 23)

وفي سورة طه يقول: ﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(121)ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122)﴾(طه)

انظر.. إن الآيات القرآنية لا تعطي الخطيئة ذلك الحجم الضخم الذي تعطيها إياه تعاليم الكنيسة، فهي أمر عرضي في حياة آدم، بل في حياة كل بشر، تمحوه التوبة ويذهبه الاستغفار.

أما الهبوط إلى الأرض ـ على حسب القرآن ــ فقد كان هو الغرض الأصلي من خلق آدم.. فقد قال الله للملائكة قبل خلق آدم: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:30).. ولم تكن المعصية إلا سببا لذلك(1)..

إن هذه العقيدة المنطقية ــ مقارنة بعقيدتنا ــ هي الأساس السليم الذي بني عليه السلوك الإسلامي الرفيع.

أما تصوراتنا.. فقد كانت محل سخرية من المسلمين.. ومحل

---

1) ويدل لهذا ما روي من محاجة آدم موسي ـ عليهما السلام ــ حين عاتبه على أنه تسبب في إخراج بنيه من الجنة، فرد عليه آدم كما ذكر النبي ﷺ:(أفليس تجد فيما أنزل الله عليك أنه سيخرجني منها قبل أن يدخلينها)، قال: بلى قال ﷺ:(فحج آدم موسى (ثلاثاً)) رواه البخاري.

نقد لاذع.. وقد كان علماء المسلمين أسبق من فلاسفة عصر التنوير وأتباع مدرسية النقد التاريخي في هذا المضمار.. كما قال ابن القيم: (فنسبوا الإله الحق سبحانه إلى ما أنف أسقط الناس وأقلهم أن يفعله بمملوكة وعبده، وإلى ما يأنف عباد الأصنام أن ينسبوا إليه.. ونسبوه إلى غاية السفه حيث خلصهم من العذاب بتمكينه أعداءه من نفسه حتى قتلوه وصلبوه وأراقوا دمه، ونسبوه إلى غاية العجز حيث عجزوه أن يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة ونسبوه إلى غاية النقص حيث سلط أعداءه على نفسه وابنه ففعلوا به ما فعلوا.. وبالجملة فلا نعلم أمة سبت ربها ومعبودها وإلهها بما سبت به هذه الأمة)

هذا الكلام نموذج من بين انتقادات عقلية لا حصر لها دونها علماء المسلمين قبل أن يخلق سبينوزا وباسكال وفولتير بقرون، وقبل أن تفكر أوروبا في شيء اسمه (النقد التاريخي) أو حرية التفكير.

قلت: أنا أقر بالكثير مما ذكرت من الانحرافات الخطيرة التي دخلت المسيحية.. ولكنها مع ذلك لا تقل عن الانحرافات التي دخلت الإسلام.. وبذلك انحنى الإسلام أمام الهرطقات الكثيرة التي دخلته كما انحنت المسيحية..

قال: لا.. لقد أتيحت لي فرصة الاطلاع على مقولات الفرق الإسلامية المرتبطة بهذا الجانب.. فوجدتها كلها تصب في بحر واحد هو بحر الوحدانية والتقديس والتعظيم.. المسلمون كلهم موحدون لله.. يحملون تصورات غاية في القداسة عن الله.

قلت: ولكني قرأت الكثير من الكتب والمطويات التي تحذر من طوائف المبتدعة من المؤولة والمفوضة والمشبهة والمجسمة..

قال: تلك ـ كما يقال ــ زوبعة في فنجان.. وأولئك قوم من المتطرفين.. هم أشبه الناس بأولئك الذين اجتمعوا بأمر قسطنطين في مجمع نيقية.. ليس لهم من هم إلا التفريق بين صفوف إخوانهم..

قلت: ولكن لقولهم مصداقية عظمى.

ابتسم، وقال: لقد أتيحت لي مخالطة بعضهم.. وقد رأيت من قصر عقولهم ما صرفني عن الاستماع لهم..

قلت: ولكن كلامهم مهم جدا.. لقد لاحظت اهتمام الكنيسة به.

قـال: إن الكنيسـة تهتم بمقـولاتهم لأنهـا من التبشـير غـير المباشر.. أما الحقيقة.. فلا خلاف بين المسلمين جميـع المسـلمين في جميع مسائل العقيدة.

قلت: الشيعة والسنة والمعتزلة والخوارج..

قال: أجل.. جميعهم يعبدون إلها واحدا.. ويؤمنون بنبي واحد.. وكل الذي يثار ليس إلا زوبعة في فنجان(1).

الشعائر:

قلت: عرفت صمود ثمار عقائد الإسلام.. فهـل صـمدت ثمـار شعائره؟

قال: أجل.. وبنفس صمود عقيدتـه.. ذلـك أن كليهمـا يسـتمد من مصادر ثابتة صحيحة غاية في القوة..

قلت: فهل صمد الإسلام في هذا الميدان؟

قال: كما لم يصمد دين من الأديان.. بل هو لا يزال غضا طريا كما جاء.. وقد كان للنظام الذي اتسمت به شـعائر الإسـلام السـر الأكبر في بقائها وصمودها.

فكـل الشـعائر الـتي وضـعت النصـوص الإسـلامية المقدسـة طرقها وأساليبها ليس لها إلا هدف واحد هو ربط المسلمين بـربهم ورسولهم ودينهم، فلا يمـر وقت من الأوقـات على المسـلم يكـون فيه بعيدا عن ربه وذكره وعبادته(2):

فارتباط المسلم بربه مستمر دائم في كل لحظة من لحظات عمره، بل هو على صلة دائمة به: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِـرْتُ وَأَنَـا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) ﴾ (الأنعام)

فهو يصلي كل يوم وليلة خمس صلوات مفروضة، في أوقات محـددة موقوتـة، ليس لـه أن يتقـدم عليهـا أو يتـأخر بـدون عـذر شـرعي.. وهـو مـأمور بالطهـارة الكـبرى والصـغرى لكـل صـلاة منها..هذا عدا نوافل الصلاة المؤكدة وغيرها مما لا حصر له منها..

وهـو يصـوم شـهرا كـاملا في السـنة فرضـا لا يسـقطه عنـه سقوطا مؤقتا أو مطلقا إلا عذر شـرعي..هـذا عـدا نوافـل الصـوم التي أفضلها صوم يوم وإفطـار يـوم على القـادر في عمـره كلـه.. وهناك أيام محـدودة في الأسـبوع وفي الشـهر وفي العـام يشـرع للمسلم صيامها..

---

1) هنـاك تفاصـيل كثـيرة ترتبـط بهـذا، وتجيب عن الشـبه المتعلقـة بـه في رسـالة (الباحثون عن الله)

2) انظر: الإسلام دين هداية ورحمة واستعصاء، د. عبد الله قادري الأهدل.

وهو يحج حجا مفروضا عليه مرة في عمره، لا يجوز له تركه إلا بعذر شرعي.

وهو يخرج زكاة ماله في أوقاته المحددة، لا يجوز له تأخير ذلك، وأمره الله تعالى بنوافل الصدقات والإنفاق مما رزقه الله، في كل ما يحقق الخير للإسلام والمسلمين..

وهو مأمور بذكر الله تعالى الواجب والمندوب، بحيث لا يزال لسانه رطبا بذكر ربه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42)﴾ (الأحزاب)

وهو مأمور بتعاطي ما أحل الله، وترك ما حرم الله في كل تصرفاته، فلا يخلو المسلم في أي وقت من أوقاته من فعل طاعة أو ترك معصية.

فليس له أن يعصر خمرا ولا يبيعها ولا يعلن عنها ولا يسقيها ولا يملكها..

وليس له أن يصنع سلاحا أو يبيعه لمن يقتل به نفسا حرم الله قتلها مسلما كان أو غير مسلم بغير حق، ولا يتلف به مالا ولا حرثا ولا حيوانا..

وليس له أن يبيع أو يشتري بيعا أوشراءا فيه غش للناس، وضرر بهم.

وليس له أن يسرق مال غيره ولا يغتصب أرضه ولا يستحل عرضه ولا يطلع على عورات جاره..

فهو في كل حال من أحواله مرتبط بربه، لأنه يضبط جميع تصرفاته بطاعته وترك معصيته..

وهو مرتبط بجماعة المسلمين من أي جنس كانوا، وفي جميع أنواع الشعائر.. ففي الإسلام عبادات جماعية، يقوم بها المسلمون قياما جماعيا، سواء كان التكليف بها فرض عين أو فرض كفاية أو مندوبا..

ولهذا شرع للمسلمين عمارة الجوامع والمساجد في مدنهم وأحيائهم، وشرع لهم عمارتها بذكر الله فيها، وبخاصة صلوات الجماعات خمس مرات في اليوم والليلة، وصلوات الْجُمَع الأسبوعية، التي ينادي المؤذنون فيها لكل صلاة من تلك الصلوات.

وشرع لهم أن يكون أئمتهم من القراء الذين يحفظون كتاب الله أو كثيرا منه، ويفقهون أحكام الله، فيسمع منهم المصلون في الصلوات الجهرية ما يقرؤون من كتاب الله، فيتدبرونه وينتفعون به..

والمسلم في هذه الحالة العباديـة الخاشـعة الراغبـة الراهبـة، شديد البحث والتفتيش عن نفسه في آيات كتاب ربه، ليعـرف أين هو فيهـا من النـواحي الإيمانيـة والعباديـة والأخلاقيـة، والاجتماعيـة، والفقهية والدعوية، أين هو من رضا ربه أو سـخطه.. وهـل يتصـف بصفات من رضي الله عنهم من المؤمنين، أو بصـفات من سـخط الله عليهم من الكافرين والمنافقين، وهل صلته بالله تؤهله لدخول الجنان أو لعقاب ربه في النيران.

ويتـدبر ذكـر ربـه المشـروع في قيامـه وركوعـه وسـجوده وقعوده، فيمتلئ قلبه حبا لله ورغبة فيمـا عنـده وخوفـا ورهبـة من قوته وجبروته، وطمعا في عزته ونصره على أعدائـه، فلا يخـاف إلا اللـه ولا يطلب العـزة إلا من مـولاه، فلا يخـرج من صـلاته إلا وقـد تحقق له الهدف من إقامتها والحكمة من أدائهـا.. ﴿ اتْـلُ مَـا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَـرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:45)

يضـاف إلى هـذه الصـلوات الخمس صـلوات أخـرى لهـا مناسبات معينة.. لا علاقة لأي منها بأي قومية أو عنصرية أو وثنية:

منها صلاة الاستسقاء عند الجـدب والقحـط لطلب الغيث من ربهم الذي يسـقي أرضـهم وينبت زرعهم ويـدر ضـرعهم ويغـذيهم ويغذي أنعامهم..

ومنهـا صـلاة الكسـوف والخسـوف عنـدما تكسـف الشـمس ويخسف القمر، تضرعا إلى الله تعـالى من أن لا يـنزل بهم غضـبه عقابا على معصيته، ففي الكسوف والخسوف تذكير لعباده بكمـال قدرته، وتغيير الأحوال المعتادة إلى غيرهما مما لا قدرة لأحـد على اتقائه إلا برحمة الله وفضله (1)..

ومنها صلاة العيدين: عيـد الفطـر وعيـد النحـر، اللـتين يؤديهـا المسـلمون في مشـارق الأرض ومغاربهـا، في يـوم واحـد أو أيـام متقاربة، بحسب المطالع.

وللمسلمين يومُ عيدٍ أسبوعي، وهو يوم الجمعة الـذي فـرض فيه على كل مكلف من رجالهم، حضور خطبتيه وصلاته، حيث يعلو خطباء الجوامـع الكبـيرة والصـغيرة في القـرى و المـدن و الأحيـاء المنابر، أمام الجموع الحاشدة، لتذكيرهم بكل ما يحتاجون إليه في حيـاتهم من أمـر الإيمـان والعبـادة والأخلاق والحلال والحـرام في

---

1) انظر مراعاة الشريعة للنواحي الصحية في صلاة الكسوف في رسـالة (معجـزات علمية) من هذه السلسلة.

المعاملات، والشئون السياسية والعلاقات الدولية، مبنية كلهـا على كثير من آيات القرآن والسنة وما استنبطه منهما علماء الإسلام.

إنهـا مظـاهرة مشـروعة في يـوم واحـد وفي كـل مكـان من الأرض لنصـر هـذا الـدين وجمـع كلمـة المسـلمين على الحـق، وتفقههم في دين الله، لا يستطيع أحد أن يمنعها.

وفـرض على المسـلمين جميعـا فـرض عين على كـل قـادر صيام شهر رمضـان كلـه، لـذلك تـرى المسـلمين في هـذا الشـهر المبارك، جميعا صائمين نهاره، تجتمـع أسـرهم في المنـازل لتنـال وقت الإفطـار ووقت السـحور، في غايـة من الفـرح والحبـور، يتسابقون في مناولة أحدهم أخاه حبات التمر أو لقمة العيش.

وهكذا تجد جماعاتهم في المساجد عند أذان المغرب، يمدون موائـدهم ويقربـون تمـرهم وأطعمتهم، ويتنافسـون في استضـافة المصلين على مشاركتهم في الإفطار معهم.

إنه شهر تربية وتدريب وإيمان وتقوى وعبادة جماعية ذات أثر عظيم في جمع الكلمة والثبات على هذا الدين وقـوة الصـلة بـرب العالمين..

وفـرض على الصـائمين في ختامـه حقـا لفقـرائهم، سـميت بزكاة الفطر، لتكون طهرة لهم وغناء لإخوانهم المحتاجين في يـوم العيد الذين يفرحون فيه بتوفيق الله لهم بإتمام الصـيام، فلا يفـرح فيه الغني دون الفقير، ولا يترك الفقـير فيـه يتكفـف لقمـة عيشـه وعيش أولاده.

وهكذا تراهم في الحج يفدون إلى الـبيت الحـرام من كـل فج عميق، يملأون الجو والبر والبحر، متحدين لباسا ونية وذكرا، مؤدين نسكهم في وقت واحد طوافا وسعيا ووقوفا، ومبيتـا ورميـا ونحـرا، بصفة قلما تجد لها نظيرا في أمة من الأمم، وهم يلهجون في كـل أوقاتهم بذكر الله.

يلتقي المسلمون ليحققـوا في لقـائهم مـا ذكـره القـرآن من حِكم الحج ومنافعـه: ﴿ لِيَشْـهَدُوا مَنَـافِعَ لَهُمْ وَيَـذْكُرُوا اسْـمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ (الحج:28)

يُعَلِّم عـالِمُهم جـاهلَهم، ويتحـاورون فيمـا يعـود عليهم وعلى أمتهم بالخير في دينهم ودنياهم.

التفت إلي، وقال: قارن هذا بشعائرنا وقداساتنا الـتي يتحـول فيها الخبز جسدا، والخمر دما.. أو قارنه بصكوك الغفران..

إن كثيرا من قومنا امتلأوا إعجابا بشـعائر المسـلمين التعبديـة

التي يتوجه فيها المسلم مباشـرة إلى اللـه من غـير حاجـة إلى أي وسائط..

يقول توماس أرنولد: (إنه لا يتـأتي لأحـد يكـون قـد رأى ذلـك المشهد أن يبلغ تأثره به أعمـاق قلبـه وأن لا يلحـظ ببصـره القـوة التي تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها)(1)

وقال رينان: (لم أدخل مسـجداً إلا شـعرت بانفعـالات نفسـية وأسف بالغ حينما أذكر أنني لست مسلماً)(2)

ويقــارن المستشــرق الأمــريكي (بــودلي) بين المســيحية والإسلام في ذلـك قـائلاً: (لـو أن القـديس بطـرس عـاد إلى رومـا لامتلأ عجبـاً من الطقـوس الضـخمة وملابس الكهنـوت المزركشـة والموسيقى الغربية في المعبد المقرونة باسمه، ولن يعيـد البخـور والصور والـرقى إلى ذهنـه أي شـيء من تعـاليم سـيده المسـيح.. ولكن إذا ما عاد محمد إلى أي مسجد من المساجد المنتشـرة بين لندن وزنجبار فإنه سيجد نفس الشعائر البسيطة التي كـانت تقـام في مسجده في المدينة الذي كان من الآجر وجذوع الشجر)(3)

أمـا المهزلـة العظمى (صـكوك الغفـران) الـتي تعـد صـفحة سوداء في تاريخ الإنسانية، فلا يستطيع أحـد من أعـداء الإسـلام أو دعاة العلمانية مهما بلغت بـه المكـابرة أن يـزعم أنهـا وجـدت في التاريخ الإسلامي فضلاً عن أصوله التشريعية ذاتها.

فهذه المهزلة لم يعرفهـا المسـلمون حـتى في أحـط وأحلـك عصورهم حين فشا الجهل وعلقت بعض الخرافات بأذهـان الجهلـة والعوام.. فلم يحدث قط أن كتب أحد ممن يسـمون أوليـاء وثيقـة غفران.. ذلـك أن الأمـة الإسـلامية مهمـا انحـرفت وتخبطت تظـل لديها مسكة من عقل وبقية من إيمان تمنعها عن ارتكاب مثل هذه الحماقات الصفيقة التي لم يتورع عنها بابوات الكنيسة قرابة ثلاثـة قرون.

قلت: ولكن مع ذلك.. فقد انتشرت بدع كثيرة بلاد المسلمين.

قال: لقد طفت المجتمعات الإسـلامية كمـا ذكـرت لـك.. بـل دخلت مساجدها.. فلم أر إلا صلاة واحـدة، لعلهـا هي الصـلاة الـتي صلاها محمد.. بل إن الأسانيد الكثـيرة تشـير إلى أنهـا نفس صـلاة محمد..

ولم أر المسلمين يصومون إلا شهرا واحـدا قـد يختلفـون في

1) إلى الدين الفطري الأبدي:الطرازي:263.
2) إلى الدين الفطري الأبدي:الطرازي:264.
3) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين:23-24.

يوم من أيامه.. ولكنهم يتفقون في كل أيامـه.. ويتفقـون مـع ذلـك في كل أحكامه..

وأنت ترى المسلمين يقصدون كعبـة واحـدة، ويصـلون خلـف إمام واحد، ويقفون على جبل واحد.. هو نفس الجبـل الـذي وقـف عليه محمد، وخطب خطبة الوداع.

ألا ترى في كل هذا دلائل صمود الإسلام؟

قلت: ولكني أرى حلقا كثيرة تعقد تختلف فيها المجتمعات..

قال: تقصد حلق الذكر التي قد يختلط فيها الرقص واللعب.

قلت: أجل.. أليس ذلك انحناء؟

قـال: لا.. تلـك عـادات توارثتهـا تلـك الشـعوب، وحـاولت أن تمزجها ببعض شـعائر الإسـلام.. والإسـلام يتسـاهل كثـيرا في هـذا الباب.

قلت: فهو انحناء إذن.

قال: ليس هذا انحنـاء.. وإن كـان انحنـاء فهـو انحنـاء عـادات الشعوب للإسلام وعقيدة الإسلام.

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن تلـك العـادات كـانت مملـوءة بالوثنيـة أو بغيرهـا من العناصر التي يرفضها الإسلام، وهي في حركاتهـا من اللهـو المبـاح الذي لا يرفضه الإسلام.. ولذلك وقف العدول من المسلمين موقفا وسطا.. حفظوا بها عادات تلـك الشـعوب.. وحفظـوا بـه في نفس الوقت سلامة عقيدتها.

قلت: فما هذا الموقف الوسط؟

قال: أقروا الحركات التي لا علاقة لها بالدين.. وأضـافوا إليهـا ذكر الله.. والترنم بحبه.. فتحولت العادة عبادة.. وتحولت الطقوس الوثنية طقوسا دينية.

قلت: لم أفهم ما تقصد.. فإني أرى البعض يعتبر هؤلاء مارقة من الدين.

قال: تلك نظرة المتطرفين.. وهم لا يشكلون إلا جزءا لا يكـاد يذكر أمام جماهير المسلمين.

أما عوام المسلمين.. وعلماء المسلمين.. فهم متشددون في أصول الدين.. متساهلون في العادات الـتي لا تمس جـوهر الـدين، ولا تؤذي حقيقته.

قلت: فأنت تقر كل ما يمارس في تلك المجامع.

قال: أنا ليس لي سلطة الإقرار ولا سلطة الإنكـار.. ولكـني لا

أرى في ذلك خطرا على الإسلام.. بل أرى فيه صمودا عجيبا للإسلام.

ذلك أن أولئك يمارسون كل شعائر الإسلام بحرص شديد.. ولا يكتفون بذلك، بل يحولون عاداتهم عبادة، ولهوهم ذكرا.

قلت: ولكن العوائد مختلفة.. وهي تفرق بين المسلمين.

قال: مفهوم الوحدة في الإسلام مفهوم أسمى من كل المفاهيم التي نعرفها.. ذلك أنه يقرر القواعد والأصول.. ثم يترك لأتباعه ميادين كثيرة يمكنهم أن يختلفوا فيها من غير أن ينكر بعضهم على بعض(1).

السلوك:

قلت: فلنتحدث عن الناحية الثالثة من نواحي الدين.. وهي السلوك.. وهي الناحية التي أرى أن حضارتنا المؤسسة على الكنيسة أفلحت فيها.. وخفق الإسلام.

قال: كيف عرفت ذلك؟

قلت: ألسنا أصحاب السلوك الحضاري الذي لم يصل أحد في الدنيا إلى سلوكه.

ابتسم، وقال: أي سلوك حضاري؟.. لو كنت قلت: إن هذه الحضارة التي سلمت زمامها للشيطان جمعت كل جرائم من سبقها من الحضارات كنت صادقا..

قلت: كيف ذلك؟

قال: تفصيل ذلك يطول.. وربما تجد من يتحدث لك عن تفصيل المقارنات في هذا الجانب(2).. ولكني أقول لك من وحي دراستي للمصادر الإسلامية والتاريخ الإسلامي.. بل والواقع الإسلامي لكثير من شعوب المسلمين:

ليس هناك في الدنيا.. ولا في التاريخ.. ولا في مصادر الأديان سلوك أنظف ولا أرفع ولا أسمى من سلوك المسلمين.. ذلك أن السلوك في الإسلام عبادة لا تقل عن أي عبادة شعائرية.

ولهذا وردت النصوص الكثيرة تخبر بأن أرفع المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، ففي الحديث: (خياركم أحاسنكم أخلاقا)(3)، وفي الحديث: (إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم)(4)

---

1) سنتحدث عن التفاصيل المرتبطة بهذا في فصل (الروحانية) من هذه الرسالة.
2) سنذكر الكثير من الأدلة المثبتة لهذا في الفصول القادمة.
3) أحمد.
4) الترمذي، وقال: حديث صحيح.

بـل ورد مـا هـو أعظم من ذلـك، وهـو أن درجـة القـرب من محمد ـ الذي يمثل الكمـال الإنسـاني ــ بقـدر حسـن الخلـق، ففي الحـديث: (إن من أحبكم إلي وأقـربكم مـني مجلسـا يـوم القيامـة أحاسنكم أخلاقا وإن من أبغضكم إلي وأبعـدكم مـني يـوم القيامـة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهـون) قـالوا: (يـا رسـول اللـه قـد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون) قـال: (المتكـبرون) (1)

ولذلك، فإن الدرجات العليا والأجور العظيمة لا يحوزها إلا من حسن خلقه، ففي الحديث: (ما من شيء أثقل في ميزان المـؤمن يـوم القيامـة من حسـن الخلـق، وإن اللـه تعـالى ليبغض الفـاحش البـذيء)(2)، وفي الحـديث: (أنـا زعيم بـبيت في ربض الجنـة لمن تـرك المـراء وإن كـان محقـا، وبـبيت في وسـط الجنـة لمن تـرك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنـة لمن حسـن خلقـه) (3)، فجعل البيت العلوي جزاء لأعلى المقامات الثلاثة، وهي حسـن الخلق والأوسط لأوسطها وهـو تـرك الكـذب، والأدنى لأدناهـا وهـو ترك المماراة وإن كان معه حق ولا ريب أن حسن الخلق مشـتمل على هذا كله.

وسئل محمد عن أكثر ما يدخل النـاس الجنـة، فقـال: (تقـوى الله وحسن الخلق)، وسئل عن أكثر ما يـدخل النـاس النـار فقـال: (الفم والفرج)(4)

بـل أخـبر أن (المـؤمن ليـدرك بحسـن خلقـه درجـة الصـائم القائم)(5)

ولهذا فإن القرآن يربط بين قضايا الإيمان والعبادة والسـلوك في كل آياته.. ففي الآية التي تصف أصول البر يقـول: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَلَكِنَّ الْبِـرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ وَالْمَلائِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَـالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَـاكِينَ وَابْنَ السَّـبِيلِ وَالسَّـائِلِينَ وَفِي الرِّقَـابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْـدِهِمْ إِذَا عَاهَـدُوا وَالصَّـابِرِينَ فِي الْبَأْسَـاءِ وَالضَّـرَّاءِ وَحِينَ الْبَـأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَـدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة:177)

وفي الآيـة الـتي تثـني على أوصـاف المؤمـنين يقـول: إِنَّ

1) الترمذي.
2) الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.
3) الطبراني، وإسناده صحيح.
4) الترمذي، وقال: حديث صحيح.
5) أبو داود.

الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (الأحزاب:35)

انطلاقا من هذا.. فإن للأخلاق الإسلامية مزايا كثيرة تميزها عن غيره من أنواع الأخلاق التي جاءت بها الأديان والمذاهب والفلسفات..

فمن مزاياها (1) الثبات.. فالثبات في الأخلاق ضرورة، لأنها الضوابط التي تضبط سلوك الناس، ولأنّها المقياس الذي يلتقي عنده الجميع.. وتتميز الأخلاق الإسلاميّة في ذلك على الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد، والتي هي متغيرة لأنها من وضع الإنسان القاصر.

ومن مزاياها الفطرية.. وذلك ما يجعلها يسيرة وفعّالة في حياة البشر.. أمّا الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد فتكون في أحيان كثيرة منافية للفطرة، وعلى وجه الخصوص في حالات انتكاس المجتمع وتدهور أخلاقياته، وتكون في أحيان أخرى مثاليّة ومجافية لواقع النفس البشريّة، وهذا يعني أنّ الأخلاق الإسلاميّة واقعيّة، لأنها تراعي واقع الإنسان وفطرته.

ومن مزاياها العملية.. فهي إيمان وعمل، وهي تختلف عن الأخلاق في المنظور الفلسفي، حيث أنّ الفلسفة تقدم الجانب المعرفي ولا تهتم بالجانب العملي التطبيقي.

ومن مزاياها.. أنها تستند إلى العقيدة، وتنبثق عنها، وهذا ما يجعلها قناعات قبل أن تكون سلوكاً، على خلاف الأخلاق التي تستند إلى العادات والتقاليد؛ فكثيراً ما تُمارس هذه الأخلاق على أساس من التقليد غير الواعي وبُحكم العادة، ويغلب أن يكون الدافع إليها الرغبة في إرضاء المجتمع.

ومن مزاياها.. أنها عبادة يثاب فاعلها، ويتقرب بها إلى الله تعالى، مما يجعلها ذات منفعة دنيويّة وأخرويّة، على خلاف الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد، ولذلك يسهل نبذها عندما تتعارض مع المصالح الدنيويّة للفرد أو الجماعة.

ومن مزاياها.. أنها مُلزمة، وتأتي سلطة الإلزام ابتداءً من القناعة الدينيّة، ثم من الرغبة في مثوبة الخالق والرهبة من

1) انظر: دراسات في الفكر الإسلامي، بسام نهاد جرار.

عقوبته، ثم من نظرة المجتمع المؤمن الـذي يعيش فيـه المسـلم، ثم ما يكون من قـانون يُنظّم المجتمـع ويحمي قيمـه.. أمّـا الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد فتضعف فيها سـلطة الإلـزام والـتي يغلب أن تكـون منحصـرة في نظـرة المجتمـع، حيث أنّ القـانون الوضعي لا يشمل الكثير من مسائل الأخلاق.

ومن مزاياها.. أنها شاملة لكل سلوكيات الإنسـان، لا يسـتثنى من ذلـك أي سـلوك.. ثم هي تشـمل الفـرد والجماعـة، والحـاكم والمحكوم، وتشمل جميع فئات المجتمع في جميع الظروف.. وهي تشمل ظاهر الإنسان وباطنه وجميع جوانب شخصـيّته، على خلاف الأخلاق المنبثقـة عن العـادات والتقاليـد والفلسـفات، حيث أنهـا قاصـرة ولا تشـمل كـل سـلوك، ثم هي تتعامـل مـع الظـاهر ولا سلطان لها على الباطن، ثم هي في ظروف الحرب، مثلاً، تختلـف عنها في ظروف السلم، ونجدها أحياناً تختلف بين حاكم ومحكـوم، وخادم ومخدوم، وصغير وكبير، وطبقة اجتماعيّة أخرى.

قلت: ولكن الواقع الإسلامي يختلف كثـيرا عن هـذه المثاليـة التي تذكرها.

قال: نعم.. الواقع الإسلامي متخلف كثـيرا عن هـذه المثـل.. ولكن.. ألم تتساءل عن سر ذلك؟

قلت: لم أتساءل.

قـال: أنـا تسـاءلت عن ذلـك، وبحثت عنـه، وقـد وجـدت أن أولئـك المتخلفين لم يتتلمـذوا على محمـد في سـلوكهم، ولم يتعرضوا لأشعة محمد حتى يرتفعوا إلى هذه المثل.

قلت: فعلى من تتلمذوا؟

قال: علينا نحن.. تتلمذوا على ما نبثه لهم عبر وسائل الإعلام الكثيرة التي لا هم لها إلا إفسادهم وتضليلهم.

قلت: فقد انحنى الإسلام في هذه الناحية إذن؟

قال: لا.. مدرسـة الإسـلام لم تنحن.. ولكن بعض المسـلمين انحنوا.. ولو أتيح لهم الجو المناسب، فسيقومون من جديد..

قلت: من ضمن لك ذلك؟

قال: أنـا لسـت في شـك من ذلـك.. لأن الفطـرة الـتي تملأ نفوسهم لن يؤثر فيها أي انحراف.

الانتشار:

قلت: فحدثني عن صمود الانتشار..

قال: لقد ذهبت إلى التاريخ أقارن أنواع البلاء الـتي تعرضـت

لها العقائـد والمـذاهب والأفكـار، فلم أجـد مواجهـات عنيفـة كتلـك المواجهات التي قوبل بها الإسلام.. ولم أجد صمودا كذلك الصـمود الذي أبداه المسلمون.

إن تــاريخ الإســلام حافــل بالمواجهــات بينــه وبين أعدائــه والمكيدين له والمتآمرين عليه.. وفي كل مرة كان الإسـلام يخـرج منتصرا شامخا(1)..

لقد اجتمع على محمد العدوان الثلاثي: المشــركون كلهم في جزيرة العرب، واليهـود والمنـافقون في غـزوة الأحـزاب، فخرجـوا من ذلك العدوان منتصرين.

وحاربتهم الدول العظمى في ذلك العهد: الروم في الشـمال، والفـرس في الشـرق، والأحبـاش في الجنـوب، فكـان النصـر لهم على تلك الدول جميعا.

واجتمعت على حربهم الـدول الصـليبية، وكـانوا في غايـة من الضعف والتفرق، ولكن أعداءهم خرجوا في النهايـة يجـرون أذيـال الهزيمة..

واجتــاح التتــار وزعيمهم هولاكــو عاصــمة الخلافــة بغــداد، وســيطروا على المســلمين ســيطرة لم يكونــوا يظنــون أنهم سيطردون منها شر طردة، ولكن النصر كان حليف المسلمين.

واســتجاب أتــاتورك لليهــود والصــليبيين، وأغلــق مــدارس المسلمين وغير مناهجهم وأكرههم على إظهار موافقتـه في كتابـة أغلى كتاب على وجه الأرض بغـير حروفـه العربيـة، وأرغمهم على الأذان بغــير ألفاظــه العربيــة، وأنــزل بالمســلمين من المحن والمصائب ما لا يخفى على قارئ التاريخ، ولكن المسلمين درَّسـوا أولادهم في دهاليز منازلهم، وفي حظائر دوابهم القرآن والحـديث، والفقه، والتفسير، والتـاريخ الإسـلامي، وإذا الجيـل الـذي نشـأ في عهده يظهر بعد إدباره حافظا للقرآن، متقنا للغة العربية، متمسـكا بدينــه.. رافضــا مبــادئ أتــاتورك وزمرتــه على رغم تســلطهم واستبدادهم الشامل الذي تدعمه القوة العسكرية..

وجثم الاتحـاد السـوفييتي على صـدور المسـلمين في آسـيا الوسطى سبعين عاما، قتل من قتـل، واعتقـل من اعتقـل، وشـرد من شرد، وحظر على المسـلمين حمـل القـرآن، ومـع ذلـك خـرج الجيل الذي نشأ في ظل هذا النظام الظالم، وهـو يحفـظ القـرآن،

---

1) انظر: العالم الإسلامي والمكائد الدولية، فتحي يكن، والإسلام دين رحمة وهدايـة واستعصاء.

ويحفظ أحكام دينه ويلتزم بها، وما جوهر دوداييف، وزملاؤه الذين سلكوا سبيله إلى الآن إلا دليل على أن المسلمين يستعصون على أي عدو يحاول القضاء عليهم وعلى دينهم..

والمحتلون الأوربيون البريطانيون، والفرنسيون والإيطاليون، والبرتغاليون، والألمان والأسبان، الذين اغتصبوا بلدان المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وبقوا فيها فترات طويلة، حتى أصبحت في ظاهر الأمر جزءا من بلد المحتل، خرجوا جميعا وهم يجرون أذيال الهزيمة..

وهاهم المسلمون اليوم، يجاهدون أعداءهم الأقوياء ماديا المعتدين عليهم في بلدانهم، في فلسطين والعراق والفيليبين والشيشان وأفغانستان وغيرها من البلدان، برغم ضعفهم المادي، صابرين مستبسلين، لا يخافون إلا ربهم، وسيبقون كذلك حتى يحقق الله لهم النصر على عدوهم..

ولم تكن الحرب حربا عسكرية فقط.. ولم يكن الصمود صمودا عسكريا فقط..

لقد وضعت مخططات كثيرة.. وحيكت مؤامرات كثيرة لينحرف المسلمون عن دينهم.. لكنها كلها باءت بالفشل..

لقد قال (زويمر) في بداية المؤتمر العالمي للتبشير في القدس سنة (1933) يفضح هذه المؤامرات، ويبين الهدف منها: (إن مهمتكم إخراج المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاقية التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، إنكم أعددتم شبابا في بلاد الإسلام لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقا لما أراده له الإستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور ويحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في الدنيا إلا في الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بأغلى ما يملك)

ويقول زويمر: (إن السياسية الإستعمارية لما قضت منذ سنة (1882) على برامج التعليم في المدارس الإبتدائية أخرجت منها القرآن، ثم تاريخ الإسلام، وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا هي يهودية، ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا للدين ولا للوطن حرمة)

ويقول (هاملتون جب) المستشرق الإنجليزي في كتابه (جهة الإسلام) سنة (2391م): (إن العالم الإسلامي سيصبح خلال فترة

قصيرة لا دينيا في كل مظاهر حياته)[1]

هذا ما كان قومنا يتوقعونه من الأجيال القادمة.. لقد عادوا يفركون أيديهم فرحا بعد أن رأوا مجموعات من خريجي جامعاتهم لا يعبأون بدين، ولا يهتمون بخلق ولا قيمة، ولكن كل تلك المخططات باءت بالفشل، وانحنت أمام صمود الإسلام.

لقد أنفقوا أموالهم وأحكموا خططهم ودبروا مكائدهم لإخراج جيل لا ديني، توقع سادته أن يكون سحق الإسلام في المنطقة على يده، وأقموا الجامعات وفرضوا الإختلاط وأقصوا الصادقين من حملة القيم والأخلاق عن كل المراكز الحساسة، وقربوا دعاة الإباحية والإلحاد والعلمانية والفساد إليهم، ونصبوهم قضاة وسادة وأقاموا حولهم الهالات، ونفخوا في الأقزام حتى أضحوا عمالقة في أعين الرعاع والدهماء، ولكن هل كان لهم الذي أرادوا؟ هل أقصي الإسلام نهائيا عن حياة الفرد والأسرة والمجتمع؟

قلت: نعم.. لقد نجحوا في كثير من ذلك..

قال: ولكن تلك المدارس التي خططوا لها أن تصير مدارس علمانية لا صلة لها بدين ولا خلق راحت تدفع بالأفواج إلى الإسلام.

لقد أضحت الجامعات التي سهروا على منهاجها وظنوها مراكز التدمير تقدم نماذج من الشباب الصادق الملتزم الذي يضحي بكل شيء من أجل عقيدته ودينه.

لقد أصبحت الجامعات كبلاط فرعون يربى فيه موسى عليه ليهدم بيده عرش فرعون ويسحب البساط من تحت رجليه.

أما سحر حضارتنا.. فلم يعد يخدع الأبصار.. فقد تفتحت أعين المسلمين على نور الإسلام، وانفتحت بصائرهم لتقبل الحق، بعد انبلاج الحق وسطوع نوره على القلوب والنفوس.

فحيثما تتوجه الآن في الكرة الأرضية تجد رجوعا إلى الإسلام.. تجد نفوسا متعطشة للدين، حتى تستظل بفيئه بعد أن أضناها لفح الهاجرة وأرهقها طول المشي في التيه[2].

قلت: ولكن الإسلام ـ الآن ـ يواجه حروبا عظيما.. حروبا في كل النواحي، ومن كل الجهات.. فهل تراه سيصمد لها؟

قال: لا أقول يصمد لها فقط.. بل إنه سينتصر فيها.. وسيعود أولئك المحاربون إلى الإسلام أفواجا كما عاد القرشيون..

هذا (ديباسيكييه) المفكر الفرنسي، يرشح الإسلام كمنقذ

---

1) انظر هذه المقولات وغيرها في كتاب (الخنجر المسموم) لأنور الجندي، و(أجنجة المكر الثلاث) لعبد الرحمن حبنكه، و(قادة الغرب يقولون) لجلال العالم.

2) انظر: الإسلام ومستقبل البشرية، عبد الله عزام.

وحيد للبشرية فيقـول: (إن الغـرب لم يعـرف الإسـلام أبـدا، فمنـذ ظهـور الإسـلام اتخـذ الغـرب موقفـا عـدائيا منـه، ولم يكـف عن الإفتراء عليه والتنديد به لكي يجد المبررات لقتاله، وقد ترتب على هـذا التشـويه أن رسـخت في العقليـة الغربيـة مقـولات فظـة عن الإسلام، ولا شك أن الإسلام هو الوحدانية التي يحتـاج إليهـا العـالم المعاصر ليتخلص من متاهات الحضارة الماديـة المعاصـرة الـتي لا بد أن استمرت أن تنتهي بتدمير الإنسان)(1)

إن هؤلاء الكتاب الغربيين يقفون نفس الموقـف الـذي وقفـه هرقل عندما وصله كتاب محمد، فقد سأل أبـا سـفيان عن أحـوال محمد، وبعد أن أخبره قال هرقل لأبي سفيان: (إن كـان مـا تقـول حقا، فسيملك موضع قـدمي هـاتين، وقـد كنت أعلم أنـه خـارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقـاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه)(2)

لقد كان هرقل عاقلا يدرك أن أمر العقائـد إلى إقبـال، وأمـر السلطان الذي لا يدعمه فكر وعقيدة إلى زوال، كان هرقل آنـذاك يحكم إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، ولكنه يراها متفسخة من داخلها، وسرعان ما تتهاوى على رؤوس أصحابها، ولأول ضربة من ضربات أعدائها.

ولهذا فإن أعداء الإسلام الذين درسوا تاريخه يعرفـون قدرتـه على الممانعـة والمواجهـة والخـروج من الأزمـات.. يقـول ابن غوريون: (نحن لا نخشى الإشـتراكيات ولا القوميـات ولا الملكيـات في المنطقة، إنما نخشى الإسلام، هذا المارد الذي نام طويلا وبدأ يتململ في المنطقـة، إني أخشـى أن يظهـر محمـد جديـد في المنطقة)

وبمثل هذا شهد أصدقاؤنا من المستشرقين، يقول (كوستاف لوبون): (مع ما أصاب حضارة العرب من الدثور، كالحضارات التي ظهرت قبلها: لم يمس الزمن دين النبي الذي له من النفوذ مـا لـه في الماضي، والذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفـوس، مـع أن الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تخسر كل يوم شيئًا من قوتهـا.. وتجمع بين مختلف الشعوب التي اتخذت القرآن دستورًا لها وحـدة اللغة والصلات التي يسفر عنها مجيء الحجيج إلى مكـة من جميع بلاد العالم الإسلامي. وتجب على جميـع أتبـاع محمـد تلاوة القـرآن

1) مجلة الإيمان اللبنانية عدد (75) السنة الثانية آذار سنة (0891م)
2) رواه البخاري ومسلم.

باللغة العربية بقدر الإمكان، واللغة العربية هي لذلك أكثر لغات العالم انتشارًا على ما يحتمل، وعلى ما بين الشعوب الإسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يمكن جمعها به تحت علم واحد في أحد الأيام)(1)

ويقول: (كان سلطان الإسلام السياسي والديني قويًا في بلاد الهند، ورسخ فيها ثمانية قرون بفضل ملوك الإسلام الذين تداولوا حكمها، ولا يزال سلطان الإسلام الديني قائمًا في بلاد الهند، وإن توارى سلطانه السياسي عنها، وهو يمضي قدمًا نحو الاتساع)(2)

ويقول: (تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدًا لها تعمل بإحكام كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنًا)(3)

ويقول: (دخلت حضارة العرب في ذمة التاريخ منذ زمن طويل، ولا نقول، مع ذلك أنهم ماتوا تمامًا، فنرى الآن ديانتهم ولغتهم اللتين أدخلوهما إلى العالم أكثر انتشارًا مما كانتا عليه في أنضر أدوارهم.. ولا يزال الإسلام جادًا في تقدمه.. واليوم يدرس القرآن، فيما عدا جزيرة العرب، في مصر وسورية وتركية وآسية الصغرى وفارس وقسم مهم من روسية وأفريقية والصين والهند، وتناول القرآن مدغشقر وأفريقية الجنوبية، وعرف في جزر الملايو، وعلمه أهل جاوة وسومطرة وتقدم إلى غينيا الجديدة، ودخل أمريكا مع زنوج أفريقية.. ويتقدم الإسلام في الصين تقدمًا يقضي بالعجب.. حيث اضطر المبشرون الأوروبيون إلى الاعتراف بالحدود وسيقوم الإسلام – كما يقول وازيليف – مقام البوذية، ومسلمو الصين لا يشكون في ذلك وهذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية. فإذا اعتنقت الصين دين الإسلام تغيرت علاقات العالم القديم السياسية تغيرًا عظيمًا وأمكن دين محمد أن يهدّد النصرانية من جديد)(4)

يقول جب في كتابه (Wither Islam)ـ (جهة الإسلام)، وهو كتاب كتبه مجموعة من المستشرقين نتيجة أبحاث قدمت لمؤتمر في جامعة (برنستون في أمريكا: (إن الحركات الإسلامية تتصور عادة بسرعة مذهلة مدهشة، فهي تنفجر انفجارا مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون من إماراتها ما يدعوهم إلى الإسترابة في أمرها،

1) حضارة العرب، ص 126.
2) حضارة العرب، ص 186.
3) حضارة العرب، ص 417.
4) حضارة العرب، ص 616 – 61 7.

فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة وظهور صلاح الدين)

***

عنـدما وصـل (جـابرييلي فرانشيسـكو) من حديثـه إلى هـذا الموضـع اسـتأذنني في الانصـراف، فقلت لـه: اسـمح لي حضـرة الأستاذ الفاضل أن أسألك هذا السؤال الذي حيرني..

قال: تريد أن تسأل عن سر عدم إسلامي مع هذه الحماسـة التي أبديها للإسلام.

قلت: أجل.. فأنا في غاية العجب منك.

قال: أنت تعلم ما قاله (اللورد هدلي)

قلت: تقصـد قوله: (إنـني أعتقـد أن هنـاك آلافـاً من الرجـال والنسـاء أيضـاً، مسـلمون قلبـاً، ولكن خـوف الانتقـاد والرغبـة في الابتعــاد عن التعب الناشــئ عن التغيــير، تــآمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم)

قال: أجل.. وهذا ما أستطيع أن أجيبك به، ولن أزيد.

قال ذلك.. ثم انصرف سائرا من غير أن يسألني عني..

بقيت أتأمل تلك الشجرة العظيمة لأرى فيها من عزة الإسلام وصموده ما كان محجوبا عن بصيرتي.

وفي تلك الأثناء تنزلت علي أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلــك إلى شمس محمد ﷺ.

ثالثا ـ قيم

في اليـوم الثـالث من تلـك الأيـام العشـرة المباركـة، التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة القيم من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُـو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِـهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْـوَانَهُ سُـبُلَ السَّـلَامِ وَيُخْـرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِـهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)﴾ (المائدة)

وسر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّـرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)﴾(الإسراء)

وعرفت بها سر قوله ﷺ: (إنما بعث لاتمم مكارم الاخلاق)(1)

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن مقصد شريف من مقاصـد الإسـلام، وهـو التزكيـة والتربيـة وبث القيم الرفيعـة في النفـوس والمجتمعات المسلمة، وهو هدف لم يتحقـق إلا في الإسـلام.. ولم أعرف برهان ذلك إلا في ذلك اليوم المبارك.

***

منذ وطئت قدماي أرض السربون كـان لي شـوق عظيم لأن ألتقي (آرثر جون آربري)(2).. لقد كنت أشعر بأن بيننا صلات قرابة كثيرة..

فهو يهتم بالقيم الإنسـانية الرفيعـة، ويعتبرهـا الثمـرة الكـبرى لكل دين، بل يقيم الأديان على أساسها، وكنت مثله في ذلك.

وقد كانت القيم الـتي يبشـر بهـا هي نفس القيم الـتي أشـعر بأهميتها الكبرى في بناء الحياة الإنسانية.

وقد كان مع ذلـك يتـألم كثـيرا لتخلـف القيم عن المجتمعـات المعاصرة التي باعت نفسها للشياطين الـذين وضـعوا لهـا دسـاتير

---

1) البخاري ومسلم.

2) هـو (1905-1969) Arthur John Arberry ولـد في مدينـة بورتسـموث بجنـوب بريطانيا، التحق بجامعة كامبريدج لدراسة اللغات الكلاسيكية اللاتينية واليونانيـة، وشـجعه أحد أساتذته (منس) على دراسة العربية والفارسية.

ارتحل إلى مصر لمواصلة دراسته للغة العربية. عاد إلى مصر ليعمـل في كليـة الآداب رئيساً لقسم الدراسات القديمة (اليونانية واللاتينية) وزار فلسطين وسوريا ولبنان.. اهتم بالأدب العربي فترجم مسرحية (مجنون ليلي) لأحمد شـوقي كمـا حقـق كتـاب (التعـرف إلى أهل التصوف)، واصل اهتمامه بالتصوف وذلك بنشره كتاب (المواقف والمخاطبـات) للنفري، وترجمه إلى الإنجليزية. (انظر: عبد الرحمن بدوي: موسـوعة المستشـرقين: 5-8)

تخالف دساتير الفطرة التي طبعت عليها.
في ذلك الصباح الجميل.. وفي حديقة من حدائق باريس تشتهر بأنواع جميلة من الأزهار.. تفوح بكل روائح العطر العذبة.. وتشرق منها جميع ألوان الابتسامة.. رأيته كراهب يجثو أمام زهرة من الزهرات يتأملها، ويغرق في تأمله.
كنت أعلم حبه للغة العربية.. فلذلك اقتربت منه، وأنشدته قول مسعود سماحة:

تمتعْ بأزهارِ هذي الحياة فإن حياتكَ بعضُ الزمنْ
وخلِّ النضارَ وجمعَ النضار فما زاد نفسكَ غيرُ الكفنْ

التفت إلي، وقال: صدقت.. ولا فض فوك..
ثم نظر إلى الأزهار، وقال: صدق مسعود سماحة.. لقد عبر خير تعبير عن جمال الحياة التي تختزنها هذه الأزهار.
قلت: أراك غارقا في التأمل فيها.. فهل ترى فيها ما لا نرى؟
قال: ربما ترى فيها أنت ـ ما دمت تتذوق الشعر ــ ما أرى.. ولكن الكثير ممن ترى لا يرى ما نرى.
قلت: أنا لا أرى إلا زهرة تفوح بأريج العطر، وتملأ العين بثغرها الجميل المبتسم.
قال: إن هذه الزهرة التي تراها تختزن جميع القيم الكريمة..
ثم التفت إلى البشر الذين حوله، وقال: لقد كان في إمكان كل فرد من هؤلاء أن يكون كهذه الزهرة.. وكان في إمكان البشر جميعا أن يتحولوا إلى أزهار طيبة تفوح بأعذب ألحان العطر.. وكان في إمكان الأرض أن تصبح بذلك حقلا كبيرا وحديقة عظيمة وجنة من الجنان لا تقل عن جنان الآخرة..
قاطعته قائلا: فما الذي حال بينهم وبين أن يكونوا كذلك؟
قال: الشهوات التي ملأتهم بها الشياطين، والأنانية التي جعلتهم يدوسون كل زهرة، ويخنقون كل عطر.
قلت: فأنت يائس إذن من البشر.. سلمت نفسك لعالم الأزهار..
قال: لا.. لست يائسا.. لقد ترك رجل من البشر وطئت قدماه ثرى الأرض ذات يوم بذورا كثيرا لأزهار جميلة ظلت تتفتح في كل العصور.. لعلها في يوم من الأيام تستطيع أن تحول الأرض حديقة غناء..
قلت: تقصد المسيح.. لا شك أنك تقصده.
قال: المسيح ترك بذورا كثيرا لأزهار جميلة.. لكن المجرمين

خنقوهـا في مهـدها، لعلهم حـافظوا على ألوانهـا وبعض روائحهـا، ولكنهم سقوها السم الزعاف، فلا يقـترب منهـا أحـد إلا أصـابه من سمها.

قلت: فمن هذا الذي بقيت أزهاره سالمة لم تخنق؟

قال: محمد.

قلت: نبي المسلمين.

قال: نـبي العـالمين.. إنـه النـبي الوحيـد الـذي لا تـزال بـذور أزهاره حية عطـرة جذابـة يمكنهـا أن تحـول الأرض جميعـا حديقـة غناء.

قلت: أنت مغـرم باللغـة والأدب.. وقـد قـرأت لـك ترجمتـك لمسرحية (مجنون ليلي) لأحمد شوقي.. فما الذي جعلك تربط بين تعاليم محمد، وبين الأزهار؟.. أو ما هو وجه الشبه بينهما؟

قـال: انظـر إلى هـذه الزهـرة الجميلـة.. وأخـبرني عن سـر جمالها.

قلت: أنت تكلفني عنتا.. فالجمـال ذوق من الصـعب الحـديث عن أسراره.

قال: أما أنا.. فقد حاولت أن أجعله علما.. وحـاولت أن أبحث عن سر أسراره.

قلت: لم؟

قال: لأبحث عن كيفية تحويل البشر إلى أزهـار.. لقـد وجـدت أثناء بحثي المضني سبعة أسرار.. فلمـا انتهيت من تحديـدها رحت أبحث في الفلسفات وفي الأديان عمن عبقت تلك الأسرار السبعة من تعاليمه، وفي الأجيال التي تربت على تعاليمه، فلم أجد ذلك إلا في دين محمد.

قلت: فما هذه الأسرار السبعة.

قال: العفاف، والكرم، والنبـل، والتضـحية، والقـوة، والأمانـة، والصدق.. وقد رأيت من خلال بحثي عن سـر الزهريـة في الأزهـار أنها كلها ترجع إلى العفاف.. أو كلهـا تنطلـق من العفـاف.. فـالفرد العفيف مأوى لكل فضيلة، والمجتمع العفيف مأوى لكل القيم.

لقد صدق محمد عندما عـبر عن ذلـك، فقـال: (إن ممـا أدرك الناس من كلام النبوة الاولى، إذا لم تسـتح فاصـنع مـا شـئت)(1).. فالحياء الذي أساس العفة.. هو الحـاجز بين الإنسـان وكـل رذيلـة، وهو الحامل لكل إنسان على كل فضيلة.

---

1) البخاري وغيره.

قلت: فهل ترى في هذه الأزهار ما تذكره من هذه الصفات؟
قال: لولا توفر الأزهار على هذه الصفات ما كانت أزهارا..
قلت: فحدثني عنها.
قال: حـديثها طويـل.. وسأختصـره لـك اختصـارا.. ولكـني لن أحدثك عن القيم التي جاء بها محمـد حـتى أحـدثك عن القيم الـتي نشرتها شياطين الرذيلة في مجتمعاتنا.. فلا يظهـر جمـال النـور إلا في الظلمة.

قيم الجاهلية

نظر إلى الأزهار بحزن، ثم قال: لقـد خلـق اللـه البشـر مثـل هذه الأزهار براءة وعذوبة وجمالا.. لقـد كـان عبـير البشـر الأزهـار يسيح في الأرض، فيملأها بالجمال..
لكن المجرمين الذين استسلموا لأهوائهم راحـوا يحولـون من تلك الأزهار الجميلة أشواكا وسموما.. فصـارت الأرض الـتي كـانت جنة سـجنا.. وصـارت الأرض الـتي كـانت مـأوى الطيبـة والعفـاف ماخورا للخبث والرذيلة..
لقد صارت كما ذكر القرآن في (جاهلية)..
قلت: نعم.. لقد وصف القرآن قوم محمد بأنهم كانوا يعيشون جاهلية.
قال: كمـا وصـف غـيرهم بـأنهم في جاهليـة.. فالجاهليـة في المفهوم القرآني لا تعني فترة زمنيـة.. ولا محلا مكانيـا.. بـل تعـني قيما منحطة، ونظما جائرة، وأخلاقا منحرفة، وفكرا شيطانيا..
إن الجاهلية في المفهوم القرآني هي الكلمة البديلـة عن كـل ذلك..
لقد ذكر القرآن جاهلية التصـور، فقـال: وَطَائِفَـةٌ قَـدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ (آل عمران:154)
وذكـر جاهليـة الحكم، فقـال: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُـونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (المائدة:50)
وذكر جاهلية التبرج، فقال: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى (الأحزاب:33)
وذكر جاهلية العصـبية والقوميـة والوطنيـة، فقـال: إِذْ جَعَـلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ (الفتح:26)
قلت: ولكن الجاهلية مشتقة من الجهل.. والجهـل لا يعـني إلا تخلف العلم.

قال: أعظم الجاهليات هي الجاهليـات الـتي تحـول من العلم حمارا تركبه لتنفذ به مآربها الخسيسة.. لا تحـول العلم فقـط.. بـل تحول كل مسؤولية تناط بها.

وقد كان قومنا من هؤلاء..

أما رجال ديننا، فحولوا من الكتاب المقدس شبكة يصـطادون بها أموال الناس وأعراضهم..

وأمـا رجـال دنيانـا، فحولـوا من السـلطات الـتي خـولت لهم وسيلة لجر رعاياهم إلى مستنقعات الشياطين، لأنه لا يستقيم لهم الأمر إلا إذا عبدت رعيتهم الشياطين.

قلت: أراك متحاملا على رجال الدين ورجال الدنيا!؟

قال: لست متحاملا.. ولكنها الحقيقة التي عرفتها بعد كل تلك السنين..

لقد عرفت أن القيم النبيلة لم تكن في يوم من الأيـام إلا في الإسلام.. وأنها لن تكون في يوم من الأيام إلا بالإسلام..

الإسـلام وحـده هـو الإكسـير الـذي يقضـي على كـل سـموم الجاهلية.

المسيحية:

نظر إلي، ثم قـال: قـد تتهمـني بالحيـاد.. وتخطئ في ذلـك.. لأني لم أكن في يوم من الأيام مسـلما، ولكـني أحـدثك عن جهـود وبحوث امتدت بي إلى ما تراه من عمر.

لقـد بـدأت بالمسـيحية.. بحكم كـوني من أسـرة مسـيحية.. وأعجبت بالرهبـان الـذين مثلـوا العفـاف والمـروءة والنبـل ــ في نظـري في ذلـك الـوقت ــ في أرقى درجاتهـا.. ولكـني بعـد ذلـك عرفت أن سلوك الرهبان لم يزد الفجور إلا انتشـارا، ولا الانحـراف إلا رسوخا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: حديث ذلك يطـول.. فالجاهليـة الـتي تغلغلت في جميـع مناحي الحياة من الصعب جمع جميع تفاصـيلها.. ولـذلك سـأحدثك عن بذرة خطيرة من بذور الجاهليـة، وهي في نفس الـوقت ثمـرة من أخطر ثمارها.

لقد اعتبرها الإسلام حماية الفرد والمجتمـع منهـا مقصـدا من مقاصده، بل من ضروريات مقاصده.

قلت: تقصد حفظ العرض والنسل.

قـال: أجـل.. لقـد قـال محمـد يـبين خطـورة هـذا النـوع من

الانحراف: (من وقاه الله شـر مـا بين لحييـه، وشـر مـا بين رجليـه دخل الجنة)[1]

وقد وضـع الإسـلام لأجـل وقايـة المجتمـع لأجـل تحقيـق هـذا المقصد منظومة كاملة من التشريعات.. لا يـزال قومنـا يسـخرون منها ويضحكون مع أنـه لا يمكن للبشـر أن يتحولـوا إلى أزهـار من دونها.

قلت: لقد كنت تحدثني عن الرهبان..

قال: أجل.. لقد أراد الرهبـان أن يصـادموا الفطـرة بمـوقفهم من المرأة، فصدمتهم.

لقد كان الرهبـان..حسـب مـا اسـتنتجت بعـد ذلـك سـببا من أسباب الرذائل التي تعيشها مجتمعاتنا.

لقد كانوا ينشرون إيحاء عاما في المجتمع بأن المرأة مخلوق شيطانى دنس ينبغى الابتعاد عنه.. وكانوا يرون أن الزواج ضـرورة غريزية حيوانية للعامة، ولكن السعيد الأتقى من استطاع أن يرتفـع عنها ولا يتزوج[2].

لقد قال أحد رجال الكنيسة لتلاميذه مرة: (إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائناً بشـرياً، بـل ولا كائنـا وحشـياً، وإنمـا الـذى ترون هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان)[3]

وقد عبرت (رأى ستراتشى) إحدى المطالبات بحقوق المـرأة فيمـا بين الحـربين، عن موقـف الرهبانيـة، فقـالت: (يسـتفاد من النظرية التى أوصت بهذا التطاول عن المرأة أن الشهوة الجنسـية هى أشنع الخطاياً جميعاً، وأنهـا كـانت فى الحقيقـة الخطيئـة الـتى سـببت سـقوط الإنسـان، وإن العفـة الكاملـة هى أعلى مثـل فى الحياة وأنه يجب أن يلعن النساء لأنهن سبب الغوايـة، وكـان يقـال أن الشيطان مولع بالظهور فى شكل أنثى وأنه طالما زار النسـاك بهذه الصورة فى كهوفهم الجبلية وصفوة القول أن مجرد التفكـير فى النساء كان خطراً وأن المرأة نفسها كان نحساً من النحـوس)[4]

ومضت الأمور على ذلك حيناً طويلا: مباذل شـنيعة بشـعة فى الإمبراطورية الرومانية على اتساعها، ورهبانية واسعة الآفـاق على حدود الصحارى، وفى داخل المدن، فراراً من الفساد.

---

1) رواه الترمذي والحاكم وابن حبان.
2) انظر: جاهلية القرن العشرين، لمحمد قطب.
3) أشعة خاصة بنور الإسلام: 29.
4) تاريخ العالم: 1/297.

لقـد ذكـر (ليكى) فى كتابـه (تـاريخ الأخلاق فى أوروبـا) تـأثير سلوك الرهبان السلبي في انتشار الرذائل، فقال: (كانت الدنيا فى ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانيـة القصـوى والفجـور الأقصـى، وإن المدن التى ظهر فيها أكبر الزهاد كانت أسبق المـدن فى الخلاعـة والفجور، وقد اجتمع فى هـذا العصـر الفجـور والـوهم اللـذان همـا عدوان لشرف الإنسان وكرامته)(1)

ويصور الكاتب النفور من المرأة وما يرتبـط بهـا من علاقـات فى ظـل الرهبانيـة، فيقـول: (وكـانوا يفـرون من ظـل النسـاء، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصـادفتهن فى الطريق والتحدث إليهن، ولـو كن أمهـات أو أزواجـاً وشـقيقات تحيط أعمالهم وجهودهم الروحية)

وقال ترتوليان Tertulian، وهـو أحـد أقطـاب المسـيحية الأول وأئمتها، مبينا نظرية المسيحية فى المرأة: (إنهـا مـدخل الشـيطان إلى نفس الإنسـان، وإنهـا دافعـة بـالمرء إلى الشـجرة الممنوعـة، ناقضة لقانون الله. ومشوهة لصورة الله ـ أى الرجل ـ)

وقال كرائى سوستام Chry Sostem الذى يعد من كبار أوليـاء الديانة المسيحية فى شأن المرأة: (هى شـر لابـد منـه، ووسوسـة جبلية، وآفة مرغوب فيهـا، وخطـر على الأسـرة والـبيت، ومحبوبـة فتاكة، ورزء مطلى مموه)

لقد كانت هذه أقوالهم.. ولكن أفعالهم لم تكن كأقوالهم..

فالتاريخ يشهد في جميع فتراتـه على الفضـائح الكثـيرة الـتي كانت تنتشر داخل دور العبادة وبين الرهبـان والراهبـات.. ولا تـزال مثل هذه الفضائح تنشرها الجرائد كل حين..

نظـر إلي، وقـال: لا تسـتغرب.. فمن يقـرأ مـا في الكتـاب المقدس من نصوص تكـاد تصـور الرذيلـة للعين، بـل تكـاد تجعلهـا شيئا مقدسا لا يستغرب أن يحصل كل ذلك.

ففي الكتاب المقدس نصوص كثـيرة تـبيح الرذيلـة، بـل تكـاد تقدسها(2).

فـ (البغـاء) من الوظـائف المحترمـة في الكتـاب المقـدس، والبغيُّ شخصـية مقبولـة فيـه، وإن كـانت مُحتقَـرة في المجتمـع العبراني القديم، ففي سفر التكوين (38/14 ـ 19) ذكـر أن يهـودا عاشر عاهرةً نظير أجر، ولا يوجد في السياق ما يدل على أن هـذا

1) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبى الحسن الندوى.

2) انظـر الأمثلـة الكثـيرة من الكتـاب المقـدس الدالـة على ذلـك في (الكلمـات المقدسة)، فصل(الأدب)

أمر مرفوض أخلاقياً، وقـد اتضـح فيمـا بعـد أن العـاهرة هي تامـار زوجة ابنه الذي مات، وقد أنجبت من والد زوجها طفلين.

ويـذكر سـفر يشـوع قصـة العـاهرة راحـاب الـتي سـاعدت العبرانيين على دخول أريحا (يشوع 2/1 ـ حتى نهاية السفر)، وترد في سـفر الملـوك الأول 3/16) ـ 27) قصـة سـليمان مـع الأمَّين اللتين تنازعتا طفلاً، وهما في القصة عاهرتان.

وتوجد في سفر القضاة (16/1) إشارة إلى زيـارة شمشـون لعاهرة في غزة.

ليس ذلك فقط.. بـل إن إبـراهيم ذلـك النـبي الـذي اجتمعت الأمم على فضله يتحـول في الكتـاب المقـدس إلى بـائع لعرضـه.. ففي العهد القديم إشارة صريحة إلى أن إبراهيم قد اسـتفاد ماليـاً من العلاقة الجنسية لزوجته بفرعون مصر.

وإستير البطلة اليهودية التي يوجد في الكتاب المقدس سـفر مسمَّى باسمها هي الأخرى عاهرة.

والإشارات والقصص في الكتاب المقدس كلهـا تـدل على أن مهنة البغاء مهنة طبيعية، قد تكون وضيعة ولكنها، مع هذا، جزء من البناء الاجتماعي والأخلاقي.

وقد ورد في العهد القديم فقرات لا تُحرِّم البغاء في حد ذاتـه، وإنما تُحرِّم على العبرانيين أن يدعوا بناتهم يعملن بهذه المهنـة: (لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنى لئلا تزني الأرض وتمتلئ الأرض رذيلة) (لاويين 19/29)

وهناك فقرات تُحرِّم على الكهنة الزواج من عاهرات: (امـرأة زانية أو مدنَّسة لا يأخذ ولا يأخذوا امرأة مطلقة من زوجها) (لاويين 21/7). وهي تحريمات ليست عامة أو مطلقة وإنما مقصورة على أفراد معيَّنين وتحت ظروف معيَّنة. ولذا، فإننا نجد إشـارات عديـدة في العهد القديم إلى عاهرات يقمن بوظيفتهن بشكل شـبه عـادي (أمثال 7/1. ـ 23، أشعياء 23/16، ملوك 22/38)[1]

طأطأت رأسي خجلا، فقال: ليت الأمر اقتصر على هذا.

قلت: أهناك ما هو أخطر من هذا؟

قال: أجل.. لقد تحولت الكنائس الـتي يـأوي إليهـا الشـاردون الذين غلبتهم شهواتهم لتملأهم بالعفاف محال لا تكتفي بالسـكوت على الرذائل فقط.. بل تيسر الطريق إليها..

سأذكر لك شهادة رجل مسلم عاش في أمريكا مدة، واختلط

1) انظر: الموسوعة اليهودية لعبد الوهاب المسيري.

ببعض كنائسها، وقد وصف بدقة ما رآه (2)..

لقد قال يقدم لتلك الشهادة: إن كثيرين ممن لم يعيشوا بعض الوقت فى أوروبا أو أمريكا ـ أو ممن عاشوا هناك ولكنهم لم يتعمقوا وراء الظواهر ـ كثيراً ما تخدعهم كثرة الكنائس وانتشارها ـ وبخاصة فى الولايات المتحدة ـ حيث تقوم فى البلد الصغير الذى لا يتجاوز تعداده عشرة آلاف نسمة أكثر من عشرين كنيسة أحياناً.. وكثيراً ما تخدعهم كثرة مظاهر الاحتفالات الدينية والمراسم والأعياد الدينية.. وكثيراً ما تخدعهم كثرة الأحزاب التى تحمل أسماء (المسيحية).. ثم كثيراً ما يخدعهم ما يكتبه ويذيعه رجال الدين من كتب ومقالات وبحوث وإذاعات فى موضوعات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية البحتة أحياناً..

كثيراً ما يخدعهم هذا كله فيحسبون أن للدين شأناً فى أوروبا وأمريكا، وأن لرجال الدين أثراً فى الحياة الاجتماعية هناك.. وهذه نظرة سطحية لا تدرك حقيقة ما هو واقع هناك.

إن الكنيسة ـ بعد أن ذاقت مرارة الإهمال، ووحشة البعد عن الحياة الاجتماعية، بعد شرود الناس منها منذ عصر النهضة، وخاصة منذ عصر التنوير، ثم عصر الفلسفة الوضعية المادية ــ قد عادت تلهث وراء المجتمع، وتتعلق بأهداب الناس. لا لتقود المجتمع ولا لتنقل الناس إلى الدين. ولكن لتجرى وراء المجتمع، ولتتملق شهوات الناس!

عادت لتقيم فى الكنائس ــ بعد القداس ــ حفلات مختلطة للجنسين يشرب فيها النبيذ، وتدور حلقات الرقص، وتعرض فيها ألعاب التسلية، ويتخاصر فيها الفتيان والفتيات المخمورين، ويلتذون نشوة المخاصرة والعناق حتى الفجر.. كل أولئك لاجتذاب الشبان والشواب إلى الكنيسة!

لقد جربت الكنيسة حين وقفت ـ بالباطل ــ فى وجه ميول الناس الفطرية، كيف خرجوا عليها وداسوها وأهملوها، فعادت الآن تتجنب أن تقف ـ بالحق ـ فى وجه شهواتهم ونزواتهم، فيدوسوا عليها ويهملوها!

لقد عادت أوروبا إلى حياة الرومان القديمة التى تسمح للآلهة والأرباب أن تنطق بالرجز على ألسنة الكهان، وأن تكون مواسمها مواسم بهجة ولذة ومتاع.. وذلك دون أن يسمحوا لها بالتدخل فى

---

2) هو سيد قطب، وقد ذكر ذلك في كتابيه: الإسلام ومشكلات الحضارة، وأمريكا التي رأيت.

شئون حياتهم أو توجيهها وجهة تنافى اللذة والمتاع.

بعد هذه المقدمة ذكر بعض مشاهداته في كنائس أمريكا، فقال: (إذا كانت الكنيسة مكاناً للعبادة فى العالم النصرانى ــ على تفاوت ـ فإنها فى أمريكا مكان لكل شىء إلا للعبادة، وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أى مكان آخر معد للهو والتسلية، أو ما يسمونه بلغتهم good (fun) time ومعظم قصادها إنما يعدونها تقليداً اجتماعياً وضرورياً، ومكاناً للقاء والأنس، ولتمضية (وقت طيب) وليس هذا شعور الجمهور وحده، ولكنه كذلك شعور سدنة الكنيسة ورعايتها.

ولمعظم الكنائس ناد يتألف من الجنسين ــ شباناً وشواب ـ ويجتهد راعى كل كنيسة أن يلحق بالكنيسة أكبر عدد ممكن، وبخاصة أن هناك تنافساً كبيراً بين الكنائس المختلفة بالمذاهب والنحل.

ولهذا تتسابق جميعاً فى الإعلان عن نفسها بالنشرات المكتوبة، وبالأنوار الملونة على الأبواب والجدران، للفت الأنظار، وبتقديم البرامج اللذيذة المشوقة، لجلب الجماهير، بنفس الطريقة التى تتبعها المتاجر، ودور العرض السينمائى والتمثيل.. وليس هناك من بأس فى استخدام أجمل فتيات المدينة وأرشقهن وأبرعهن فى الغناء والرقص والترويح.. تماماً كما تقف فتيات فى ثياب شديدة اللمعان والإثارة فى مداخل وطرقات دور السينما لجذب الأنظار..

وهذه ـ مثلاً ـ محتويات إعلان عن حفلة كنيسة، كانت ملصقة فى قاعة اجتماع الطلبة فى إحدى الكليات،لجذب طلبة الكلية وطالباتها إلى كنيسة معينة فى المدينة الجامعية الصغيرة: (يوم الأحد ــ أول أكتوبر سنة 1950ــ فى الساعة السادسة مساء.. عشاء خفيف. ألعاب سحرية. ألغاز. مسابقات. تسلية. رقص)

وليس فى هذا أى غرابة. لأن راعى الكنيسة لا يحس أن عمله يختلف فى شئ عن مدير المسرح، أو المدير المتجر.. النجاح أولاً وقبل كل شئ.. ولا تهم الوسيلة.. وهذا النجاح يعود عليه بنتائجه الطيبة: المال، والجاه، فكلما كثر عدد الملتحقين بكنيسته عظم دخله وزاد كذلك احترامه ونفوذه فى البلدة. لأن الأمريكى بطبيعته يؤخذ بالضخامة فى الحجم والعدد. وهى مقياسه الأول فى الشعور والتقدير)(1)

1) من كتاب (أمريكا التي رأيت) لسيد قطب.

قلت: علمت ما حصل للعفة.. فما حصل لغيرها؟

قال: لقد ذكرت لك أن العفاف هو الأساس الذي تقوم عليه القيم.. فمن ذهب العفاف عنه تملكته الشياطين، ولم يدر في أي واد من أوديتها يهلك.

ولهذا كان محمد يحذر من الوقوع في الفواحش.. وكان يقول: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعلمون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فان أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)(1)

اليهودية:

التفت إلي، فرآني صامتا لا أجد كلمة أستطيع أن أرد بها على ما ذكره من فضائح الكنيسة.. فقال: ذلك عندنا.. معشر أتباع المسيح.. أو معشر عبدة المسيح..

أما عند اليهود.. فالأمر لا يختلف كثيرا.. ولا يستغرب ذلك من دين يمتلئ كتابه المقدس بكل تلك الرذائل الخلقية.

ولهذا كان من أهم الوظائف التي مارسها اليهود في المجتمعات التي حلوا فيها في جميع فترات التاريخ تجارة الرقيق الأبيض(2).

نظر إلى الأزهار الجاثية أمامه بألم، ثم قال: ليت الأمر اقتصر على البغاء المجرد.. لقد حاول هؤلاء الذين لم ينالوا من أنبيائهم غير اللعنات أن يجعلوا الأرض جميعا ماخورا من مواخير الرذيلة.

لقد نقلوا فن الرذيلة إلى الجامعات والمدارس.. بل إلى المستشفيات والعيادات النفسية.. ليجعلوا الإنسان كائنا جنسيا لا هم له إلا إرواء شهواته.. وبأي السبل؟

قلت: أراك تلمح إلى فرويد!؟

قال: فرويد وغيره من الذين أرادو أن يمسحوا كل براءة لا زالت تطبع وجه البشرية.

قلت: ولكن ما علاقة فرويد وأوليائه باليهود؟

ابتسم، وقال: لم يكن فرويد إلا ثمرة من الثمار اليانعة التي أثمرتها شجرة اليهودية الملقحة ببراعم الوثنية.

قلت: نعم.. فرويد نبت بين اليهود.. ولكنه ليس واحدا منهم.. ولا ينبغي أن نتهم دينا من الأديان لانحراف فرد من أفراده.. وإلا لم يبق دين في الأرض.. بما فيها الإسلام.

---

1) رواه مسلم.

2) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

قال: لقد كنت أقول قولك هذا إلى أن بان لي وجه الحق الذي حاول البعض ستره.

قلت: فما بان لك(1)؟

قال: لقد قرأت أقوال الكثير من المحللين الذين ربطوا بين فرويد واليهودية (2).. ولم أقتنع بكل ما قالوا إلى أن سمعت ما قال فرويد نفسه.

قلت: فما قال؟

قال: لقد رأيت فرويد يربط كثيرا بين التحليل النفسي وانتمائه اليهودي، فالمقاومة التي لاقاها التحليل النفسي كانت، في تَصوُّره، جزءاً من رفض الحضارة الغربية لكل ما هو يهودي، والتحليل النفسي في تصوره كان من إبداعه.. لقد قال: (لمدة عشر سنوات كنت أنا الشخص الوحيد الذي انشغل به ولا أحد يعرف أكثر مني ما هو التحليل النفسي)

وكان فرويد يتصور أن عالم الأغيار (غير اليهود) سيرفض التحليل النفسي بسبب يهوديته، ولذا كان يتصور أنه لابد من إعطائه واجهة (مسيحية)، وكان هذا هو الدور المُوكَل ليونج ابن الراعي السويسري.

فكتب فرويد إلى كارل أبراهام خطاباً يحثه فيه على كسب مودته، (فيونج مسيحي وابن قسيس (ولذا فهو) يجد عناصر مقاومة داخلية شديدة تعوق اقترابه مني. ونحن لا غنى لنا إطلاقاً عن رفاقنا الآريين كافة، وإلا سقط التحليل النفسي ضحية معاداة

---

1) انظر: الموسوعة اليهودية، البُعد اليهودي في رؤية فرويد The Jewish Dimension Of Freud's World VIEW.

2) ذكر المسيري في (الموسوعة اليهودية) أن الكثير من مؤرخي الأفكار يذهبون إلى القول بأن التحليل النفسي (علم يهودي) يضرب بجذوره في طبيعة اليهود النفسية (وهذه مقولة أخذ بها النازيون وكثير من الصهاينة).

والمدافعون عن هذا الرأي (أ. روباك A.Roback ـ إيزيدور سادجر Sadger ـ إرنست جونز Jones)، وهم يسوقون قرائن عديدة من بينها أن اليهود دائمو التأمل في أسباب الظواهر، ويتضح هذا في مزامير داود وفي التلمود، وهذا التفسير يربط بين التحليل النفسي وبعض الصفات الأزلية الثابتة في طبيعة اليهود.

وهناك من يحاول أن يُدخل بُعداً تاريخياً فيذهب إلى القول بأن التحليل النفسي هو محاولة اليهودي أن يعالج عُصابه الناجم عن وجوده الدائم في المنفى.

وتذهب سوزان هانـدلمان إلى أن فرويد إن هو إلا تعبير عن تقاليد الهرمنيوطيقا المهرطقة، وهو جزء من انتقام اليهودي من مجتمع الأغيار الذي اقتلعه من مكانه، ولذا فاليهودي يقوم بتفكيك الحضارة الغربية المسيحية، تماماً كما قامت هذه الحضارة بتفكيكه.

وقد ذكر المسيري أن مثل هذه الأفكار تلاقي رواجاً غير عادي في بعض الأوساط في العالم العربي، وتُستخدَم في تدعيم الرأي القائل بوجود (مؤامرة يهودية) تعبِّر عن الجوهر اليهودي.

اليهود)

وحينما اعترض أتباع فرويد على ترشيح يونج لرئاسة الجمعية الدولية قال لهم فرويد: (إن معظمكم من اليهود، ومن ثم فإنكم لن تستطيعوا ضم أصدقاء للفكر الجديد، على اليهود أن يَقنَعوا بدورهم المتواضع في تمهيد الطريق، فمن أشد الأمور أهمية بالنسبة لي أن أستطيع إيجاد روابط مع دنيا العلم. وها أنتم ترون أني أتقدم في السن وأشعر بالتعب من الهجوم المتواصل. إننا جميعاً (أي اليهود العاملين في حقل التحليل النفسي) في خطر)

ثم أمسك فرويد بثنية سترته، ومضى يقول بطريقة مسرحية: (إنهم لن يتركوا لي سترة أغطي بها ظهري ولكن السويسريين (أي المسيحيين) سينقذوننا سينقذونني، وسينقذونكم جميعاً أيضاً)

وكان فرويد كثيراً ما يتباهى باليهودية وبانتمائه اليهودي، فكان يرى أن الشعب اليهودي قَدَّم التوراة للعالم، وأن اليهودية مصدر طاقة لكثير مما كتب.

وقد أكد أكثر من مرة أنه كان دائماً مخلصاً لشعبه (ولم أتظاهر بأنني شيء آخر: يهودي من مورافيا جاء أبواه من جاليشيا)

وحينما سأله صديق يهودي عما إذا كان من الواجب على اليهود أن يوجهوا أولادهم لاعتناق المسيحية، وهو أمر كان شائعاً بين اليهود آنذاك، بل من المعروف أن بعض أقارب فرويد قد تَنصَّروا، رد قائلاً: (اليهودية مصدر طاقة لا يمكن أن تُعوَّض بأي شيء آخر، (فاليهودي) عليه كيهودي أن يكافح، ومن الواجب أن يُنمِّي في نفسه كل هذا الكفاح، فلا تحرمه من هذه الميزة)

وقد انضم فرويد لجماعة (بناي بريت) عام 1895 وفيها ألقى أولى محاضراته عن تفسير الأحلام. وفي 6 مايو عام 1926 أقامت الجمعية حفلاً خاصاً بمناسبة بلوغه السبعين من عمره، ولم يَحضُر فرويد هذا الحفل وأناب عنه في حضوره طبيبه الخاص البروفسور لدفيج براون الذي ألقى كلمته والتي تضمنت قوله (.. إن كونكم يهوداً لأمر يوافقني كل الموافقة لأنني أنا نفسي يهودي. فقد بدا لي دائماً إنكار هذه الحقيقة ليس فقط أمراً غير خليق بصاحبه، بل هو عمل فيه حماقة أكيدة. إنني لتربطني باليهودية أمور كثيرة تجعل إغراء اليهودية واليهود أمراً لا سبيل إلى مقاومته، قوى انفعالية غامضة كثيرة كلما زادت قوتها تَعذَّر التعبير عنها في كلمات. بالإضافة إلى شعور واضح بالذاتية الداخلية، الخلوة الآمنة

لتركيب عقلي مشترك. ثم بعد هـذا كلـه كـان إدراكي أنـني مـدين بالفضل لطبيعتي اليهودية فيما أملك من صـفتين مميـزتين لم يكن في وسعي الغناء عنهما خلال حياتي الشاقة: فلأني يهـودي وجـدت نفسـي خلـواً من التحـيزات الـتي أضـلت غـيري دون اسـتخدام ملكاتهم الذهنية، وكيهودي كنت مسـتعداً للانضـمام إلى المعارضـة وللتصرف دون موافقة الأغلبيـة السـاحقة. وهكـذا وجـدت نفسـي واحـداً منكم أقـوم بـدوري في اهتمامـاتكم الإنسـانية والقوميـة، واكتسبت أصدقاء من بينكم، وحثثت الأصدقاء القليلين الذين تبقـوا على الانضمام إليكم)

ولكنه بعد خمسـة أعـوام نجـده يكتب رداً على تهنئـة حاخـام فيينا له بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسبعين يقـول: (في مكـان مـا في أعمـاق روحي أشـعر أني يهـودي متعصـب.. وأني شـديد الدهشـة أن أكتشـف نفسـي هكـذا، رغم كـل جهـودي للوصـول للموضوعية ولإنكار التحيز)، أي أن اليهوديـة الـتي جعلتـه خلـواً من التحيزات في سن السبعين، جعلته غير قادر على إنكار التحـيز في سن الخامس والسبعين.

بل إن فرويد كان يغازل الصهيونية ويظهر هذا في تباهيـه بمـا يُسـمَّى (الشـعب اليهـودي)، وكـان يعـرف تيـودور هرتـزل ويوليـه الاحـترام ويشـير إليـه باعتـباره (الشـاعر والمحـارب من أجـل حقوق شعبنا)، وأرسل إليه أحد كتبه مع عبارة إهداء شخصي عليه، وكان أحد أبناء فرويد عضواً في جماعة قديما الصهيونية، كمـا كـان هو نفسه عضواً فخرياً بها.

وقد كتب فرويـد إلى إحـدى تلميذاتـه من العـاملات بالتحليـل النفسي، وهي إشبيلر اين، بعد أن علم أنهـا توشـك أن تضـع طفلاً، يقول لها: (أود لو خرج الطفل ذكراً أن يصير صهيونياً متعصباً.. إننـا يهود، وسـنظل يهـوداً.. وسـيبقى الآخـرون، على اسـتغلالهم لنـا، دون أن يفهمونا، أو يقدرونا حق التقدير)(1)

قلت: أراك تريـد أن تثبت لي بـأن المنظومـة الفرويديـة (منظومة يهودية)، وأن التحليل النفسي (علم يهودي).. إن هذا هـو نفس ما يدَّعيه الصهاينة وأعداء اليهود في آن واحد؟

قال: بل هو نفس ما يدعيه فرويـد..بـل هـو نفس مـا تـبرزه الأدلة الكثيرة التي تبين النشأة الحقيقية لتلك النظرية التي لم يكن

---

1) الخطاب مؤرخ في أغسـطس 1913 ولكنـه لم يُنشَـر إلا عـام 1982، الموسـوعة اليهودية.

لها من هدف غير الإجهاز على البقية الباقية من البراءة الإنسانية.

ولتستوعب ذلك، وتقتنع به تحتاج إلى دراسة متمعنة للتلمود، وللقبَّالاه، باعتبارها من التراث المقدس لليهود(1).

فأهم نقط التماثل بين المنظومة الفرويدية والمنظومة القبَّالية هي مركزية الجنس في كليهما، فقد سُمِّيت الفرويدية (النظرية الجنسية الشاملة) أي (الواحدية الجنسية)، وهي تسمية لها ما يبررها، فالجنس ـ حسب تصور فرويد ـ ليس وراء كل سقم نفسي وحسب، بل إن طاقته هي المحرك أيضاً لكل ما يَصدُر عنه من وجوه النشاط من لحظة أن نُولَد، والجنس ليس مقصوراً على العلاقة الجنسية، ولكنه في واقع الأمر صورة مجازية تتخلل على نحو ما كل النشاط الإنساني، وضمن ذلك نشاط الإنسان العلمي والفني، وهذا لا يختلف كثيراً عن استخدام القبَّالاه للجنس كصورة مجازية أساسية في رؤيتها للعالم، فقد عزا التراث القبَّالي إلى الإله صفة الجنسية، فالتجليات النورانية العشرة (سفيروت) كان يتم التعبير عنها من خلال رموز وصور مجازية جنسية، وتُعدَّ الشخيناه (السفيروت العاشر) التعبير الأنثوي عن الإله.

وفي صدد ما جاء عن الجنس في التراث القبَّالي يذكر باكان أن هذا التراث يتضمن عشرة أسفار هي الفيض القدسي والسلطات الخفية للإله، وكل جزء منها مرتبط بجانب من الإله. وتاسع هذه الأسفار اسمه (يسود) أي الأساس، ومكان اليسود الأعضاء الجنسية لآدم قدمون أو الإنسان الأول وهو المايكروكوزم (العالم الأصغر) الذي يقابل الماكروكوزم (العالم الأكبر).

وقد وصف بعض الحاخامات القبَّالاه بأنها قامت بتجنيس الإله وتأليه الجنس، وهذا وصف دقيق أيضاً للمنظومة الفرويدية على الأقل في جانبها الاختزالي الشائع.

ومن نقاط الالتقاء بين الفكر القبَّالي والفكر الفرويدي المعرفة أو (داث)، فداث في التراث القبَّالي تَنتُج من اتحاد (حوخماه) أو الحكمة و(بيناه) أو الفهم. والحوخماه مفهوم ذَكَري والبيناه مفهوم أنثوي، وبذا تكون داث النسل المقدَّس لاتحادهما الخفي.

غير أن المعرفة (داث) تُستخدَم أيضاً في التوراة بمعنى الاتصال الجنسي، وأول استخدام لها ورد في (تكوين 4:ـ 1)

---

1) ذكر المسيري أنه اعتمد في هذا على كتاب صبري جرجس، وعلى دراسة باكان فرويد والتقاليد الصوفية اليهودية.

بهـذا المعـنى، (وعـرف آدم امرأتـه حـواء فحبلت..)، وقـد تكـرر استخدام الكلمة بالمعنى نفسه في مناسبات متعددة بعد ذلك.

ويذكر باكان أن الزوهار يتحدث عن الاتصال الجنسي بوصـفه (الكشف عن العرى)، ولمـا كـانت كلمـة بينـاه الـتي تعـني (الفهم) تعني في الـوقت نفسـه (الأم)، فـإن الرجـل الـذي يخطئ جنسـياً يكون في الوقت نفسه كأنه قد (كشف عن عرى الأم)

وفرويـد يخـال أنـه وصـل إلى الفهم (بينـاه) بالكشـف عن اللاشـعور، أي الكشـف عن عـرى العقـل في الإنسـان. ويتضـمن مفهوم الموقف الأوديبي خيـال الأم العاريـة. والمعرفـة (داث) في الـتراث القبَّالي تَنتُج من اتحـاد الحكمـة والفهم، والمعرفـة (الاستبصار) عند أصحاب التحليـل النفسـي الفرويـدي ثمـرة اتحـاد الشعور واللاشعور. وهذا الاتحاد في ذاته كما يقولون خبرة شـهوية عميقـة من حيث أنـه يتنـاول الكشـف عن الموقـف الأوديـبي، أي اكتشـاف المـرء عقـدة أوديب داخـل نفسـه والكشـف عنهـا ثم الكشـف عمـا تنطـوي عليـه من خيـال الأب والأم في العلاقـة الجنسـية، ومن حلـول الطفـل، خيـالاً أيضـاً، محـل الأب في هـذه العلاقة.

والعلاقة بين المعرفة والجنسية لها شواهد أخرى عنـد فرويـد أيضاً، فقد ذكر في مجموعة مقالاته أن الطفل في سن الثالثة إلى الخامسة، حين تصل حياته الجنسـية إلى قمتهـا الأولى، يبـدأ يبـدي من النشاط ما يمكن أن يُعزَى إلى رغبتـه في التقصـي والمعرفـة، كما أن الرغبة في المعرفة لدى الأطفال، فيمـا يـرى فرويـد، تتجـه على نحو عنيف وفي فترة مبكرة إلى المشكلات الجنسية. بـل إن التحليل الفرويدي ليمضي في هذا الاتجاه إلى مدى أبعد فيزعم أننا نكون أكثر دقة إذا قلنا إن هذه المشكلات (الجنسية) قد تكون أول ما ينبه رغبته في المعرفة عموماً.

ومن نقاط الالتقاء تلك المرتبطة بما جاء بالزوهـار من نسـبة الجنسية الثنائية للإنسان، فالإله ينطوي داخل نفسه على الشخيناه وهي مرادفه الأنثوي. وآدم الذي خُلق على مثال الإله كـان ينطـوي على مـرادف أنثـوي هـو الضـلع الـذي خُلقت منـه حـواء، والفكـر القبَّالي ينطوي على أن الذكر والأنثى قطبان لكيان واحـد، كمـا أن الزوهار يتضمـن أن (الإلــه لا يبـارك مكاناً إلا حيــث يجتمــع فيــه رجـل وامـرأة، وأن الرجـل لا يُسـمَّى رجلاً إلا إذا اتصــل بـامرأة، والرجل غير المتزوج ناقص وتعوزه نعمة الإله)

ويذهب فرويد إلى أن الإنسان يُولَد بتركيب جنسي ثنائي، وأن هذه الثنائية تنفصل فيما بعد، ولكن التحقيق في حياة الإنسان لا يصل إلى غايته إلا بعودة هذه الثنائية إلى الاتصال مرة أخرى في العلاقة الجنسية السوية.

وفي سفر براخوت في التلمود وردت آراء عن الأحلام تشبه كثيراً من آراء فرويد، فقد ورد في هذا السفر (إن المرء لا يرى في الحلم إلا ما توحي به أفكاره)، فالأحلام تعبير عن رغبة لدى الحالم وبالإمكان تفسيرها عن طريق اللعب بالألفاظ وهي ذات مدلول جنسي،وهي في أساسها تعبير رمزي،كما أنها تعبِّر عن الصراع بين دوافع (الخير) ودوافع (الشر) وهذه جميعاً تطابق ما قال فرويد عن الأحلام.

ومن المعالم البارزة في سفر براخوت أنه يستخدم الخيالات الجنسية ليرمز إلى المعرفة فيقول (إذا حلم إنسان بأنه يتصل بأمه جنسياً فله أن يتوقع الوصول إلى الفهم، وإذا حلم بأنه يتصل جنسياً بعذراء مخطوبة، فله أن يتوقع الوصول إلى معرفة التوراة، وإذا حلم شخص بأنه يتصل جنسياً بامرأة متزوجة فله أن يثق في أنه على موعد مع القدر بالنسبة لمستقبل العالم، بشرط ألا يكون على معرفة بها، وألا يكون قد فكَّر فيها أثناء المساء)

الحضارة الغربية:

قلت: حدثتني عن بحثك في موقف المسيحية واليهودية من قيم العفاف والحرص على العرض والشرف.. ولكن المجتمعات ـ وخاصة المجتمعات الحديثة ــ لا يحكمها الدين وحده.. فهناك فلسفات ومذاهب وشيع.

قال: أجل.. لقد أمضيت في الاهتمام بهذا الجانب جزءا مهما من حياتي، وكان من أهم ما بحثت فيه البذور التي أنبتت أشجار الرذيلة في المجتمعات الغربية التي تتوهم أنها تعيش قمة قمم الحضارة مع أنها في حقيقتها لا تعدو نوعا من التطوير المخزي لحضارة سدوم وعمورية.

قلت: فماذا وجدت؟

قال: لقد أدت الثورة على الكنيسة التي لم تعرف كيف تمثل الدين تمثيلا صحيحا إلى ظهور فلسفات كثيرة لا هم لها إلا خلع اللباس الإنساني عن الإنسان، وإلباسه لباس البهيمية الغارقة في مستنقعات الشهوات.

لن أطيل الحديث عليك.. ولكني سأذكر لك ثلاثة من أعمدة

الرذيلة التي قامت عليها مواخير الفساد التي تعج بها مجتمعاتنا: ماركس.. فرويد.. ودركايم(1).. فهؤلاء الثلاثة وغيرهم كثير هم الذين تأسست عليهم الحضارة الغربية والقيم الغربية والانحرافات الغربية.

أما ماركس ـ صاحب التفسير المادى للتاريخ ـ فيبرز موقفه من العفاف في قوله: (إن (العفة) من فضائل المجتمع الإقطاعى البائد كقيمة موقوتة لابد أن توجد فى هذا الطور الاقتصادى.. لا كقيمة ذاتية ينبغى أن تتبع بصرف النظر عن الظروف الاقتصادية، لأنها مرتبطة بكيان (الإنسان) ذاته المتميز عن الحيوان)

أما فرويد، فقد عرفنا موقفه من قبل.. إنه لا يكتفى بتصوير الإنسان حيواناً، وإنما يصوره حيواناً ممسوخاً مشوهاً، ينبع كله من طاقة واحدة من طاقاته.. هى الطاقة الجنسية.

أما دوركايم، فيقول: (إن الأخلاقيين يتخذون واجبات المرء نحو نفسه أساساً للأخلاق، وكذا الأمر فما يتعلق بالدين، فإن الناس يرون أنه وليد الخواطر التى تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصيات الفذة لدى الإنسان (يقصد الرسل والأنبياء والقديسين)، ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها)(2)

أما الدين الذي كان يمكن أن يغرس وازع الفضيلة في النفس، فقد وقف هؤلاء الثلاثة، كما وقف غيرهم ممن هو تبع لهم، أو ممن كان مثلهم يحتقرونه ويزدرون به:

أما دركايم، فيقول إن الدين ليس فطرة!

وأما ماركس، فيقول: إن الدين أفيون الشعب، ويقول إنه مجموعة من الأساطير ابتدعها الإقطاعيون والرأسماليون لتخدير الجماهير الكادحة، وتلهيتها بنعيم الآخرة عن حياة الحرمان فى الأرض.

وأما فرويد، فيقول: إن الدين ناشئ من الكبت، من عقدة أوديب..

وراح هؤلاء الثلاثة الذين رضعنا فلسفاتهم مع حليب أمهاتنا يرمون بمعاولهم على الأخلاق:

أما دركايم، فراح يبشر بأن الجريمة ظاهرة سوية، والزواج ليس من الفطرة، والأخلاق شىء لا يمكن الحديث عنه ككيان

---

1) انظر فصل (اليهود الثلاثة) في كتاب (التطور والثبات فى حياة البشر) لمحمد قطب.

2) قواعد المنهج فى علم الاجتماع ص165.

ثابت، وإنما كل ذلك من صنع (العقـل الجمعى) الـذى لا يثبت على حال، وينتقل من النقيض إلى النقيض.

وأما ماركس، فراح يبشر بأن الأخلاق مجرد انعكـاس للوضـع الاقتصادى المتطور على الدوام، وليس قيمة ثابتة.

وأما فرويد، فراح يبشر بأن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى فى صورتها الطبيعية العادية، وهى كبت ضار بكيان الإنسان.

لقد كانت هذه الأفكار الخطيرة هي البذور التي تلقفهـا جميـع سدنة الرذيلة ليحولوا الحضارة الغربيـة إلى نـاد من نـوادي سـدوم وعمورية.

قلت: أراك لا ترى من فلسفات هؤلاء إلا جانبها المظلم.

قـال: لأنـه لم يكن فيهـا أي نـور.. لقـد حملت جميـع مصـابيح الحقيقة لأبحث عن ذرة من النور في فلسفاتهم، فلم أجدها.

قلت: ولكن الحضارة الغربية بفضل فلسفاتهم وصلت إلى ما وصلت إليه من رقي مادي.

ابتسم بسخرية، وقال: نعم.. نسيت.. لقد وصـلنا إلى صـناعة السينما والتلفزيون والكمبيوتر والإنترنت..

قلت: أجل.. وغيرها كثير.

قال: ولكنا لم نستخدمها إلا في تمكين الرذائل والانحرافات.. لنجعل في كل بيت ماخورا من مواخير الرذيلة..

كان يمكننا بهذه الأجهزة ـ لو أنا التزمنـا الهـدي العظيم الـذي جاء به محمد، وجاء به قبله الأنبياء ــ أن نحـول البشـر إلى زهـور.. ونحول الأرض إلى حديقة.. ولكنا أبينا إلا أن نحولها إلى ما تراها.

لقد قال الدكتور (بلومر): (إن الأفلام التجارية التي تنتشر في العــالم تثــير الرغبــة الجنســية في معظم موضــوعاتها، كمــا أن المراهقات من الفتيات يتعلمن الآداب الجنسية الضارة من الأفلام، وقـد ثبت للبـاحثين أن فنـون التقبيـل والحب، والمغازلـة، والإثـارة الجنسية، والتدخين يتعلمها الشباب من خلال السينما، والتلفزيون) (1)

وقد أجرى بعضهم دراسـة على (500) فيلم طويـل تـبين أن موضوع الحب والجريمة والجنس يشكل 72 بالمائة منها(2).

أما الإنترنت الـتي اسـتطاعت أن تصـل العـالم جميعـا بعضـه ببعض، لتحوله مجتمعا واحدا، بل أسرة واحـدة، فقـد مارسـت هي

---

1) بصمات على ولدي، طيبة اليحى.

2) هو د. حمود البدر، انظر: الحاجة إلى تنسيق وتكامل تربوي ص 14.

الأخرى الوظائف المنحطة التي مارسها قبلها التلفزيون والسينما.. بل إن ممارستها لها تفوق جميع الممارسات السابقة.

نظر إلى الأزهار بألم.. وقال: وهكذا قام المجرمون بخنق أزهار الفضيلة.. ليغرسوا بدلها شجرة الرذيلة..

لقد تعاون العلم مع التكنولوجيا مع الفلسفة ليملأوا النفوس العطشة بكل ما تبتغي من شهوات.. فانحط الأفراد، وانحطت الأسر، وانحط المجتمع.

قيم الإسلام

قلت: حدثتني عن ضياع القيم في ظل الأديان والمذاهب والفلسفات.. فأين نجدها إذن؟

قال: في الإسلام.. لقد ذكرت لك أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي احتفظ بالقيم الإنسانية النبيلة، وأنه الوحيد الذي يستطيع أن يحول البشر إلى حقل كبير من الأزهار التي تفوح بأجمل ألوان العطر..

قلت: فحدثني عن قيم الإسلام.

قال: لقد ذكرت لك أن القيم النبيلة تجتمع في سبع.

قلت: أجل.. وقد ذكرت لي أن تلك السبع هي سر جمال الأزهار.

العفاف:

قال: وقد ذكرت لك أن أول سر من أسرار الأزهار (العفاف)؟

قلت: أجل.. فعليه تبني سائر القيم.

قال: نعم.. فهو يعني البراءة والطهر والصفاء.. ولا يمكن أن تكون الأزهار أزهارا من غير براءة ولا طهر ولا صفاء.

إن جمال محيا العفيف لا يختلف كثيرا عن جمال محيا أجمل زهرة من أزهار العالم..

ألا تعلم سر جمال يوسف؟.. لقد اعتبره القرآن رمزا للعفاف.. كما اعتبره المصريون والناس رمزا للجمال.. وفي ربط القرآن بينهما دليل على أن قمة الجمال لا تكون إلا مع قمة العفاف.

قلت: ولكن هذه الناحية لم تتحقق إلا في المسيحية.. فهي الدين الوحيد الذي يعتبر العفاف أصل أصوله..

قال: لعلك تقصد قول المسيح: (وسمعتم أنه قيل: لا تزن!

أما أنا فأقول لكم: كل من ينظر إلى امرأة بقصد أن يشتهيها، فقد زنى بها في قلبه! فإن كانت عينك اليمنى فخا لك، فاقلعها وارمها عنك، فخير لك أن تفقد عضوا من أعضائك ولا يطرح جسدك كله في جهنم)(متى:5/ 27-29)

قلت: أجل..ألا ترى في هذا قمة العفاف؟

قال: بلى.. وهو يتفق تماما مع ما جاء في القرآن من الأمر بغض البصر والتشديد فيه، ففي القرآن: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)﴾(النور)

ففي هاتين الآيتين منظومة كاملة للعفاف.. فهي لا تأمر فقط بغض البصر، والذي قد يطيقه فرد من الناس، وتعجز عنه أمة منهم، ولكنه يوفر الجو المناسب للعفاف والبراءة والطهر.

نظر مليا إلى الزهرة الجميلة التي كانت سبب التقائنا، ثم قال: لا يمكن للبراءة والطهر أن تتم من خلال زهد يمارسه بعض الناس فقط..

الطهارة والبراءة والعفاف تقتضي منظومة كاملة.. وللأسف لم أجد في أي دين من الأديان ولا فلسفة من الفلسفات هذه المنظومة فيما عدا الإسلام.

قلت: إن من قومنا من يعتبرون موقف الإسلام من هذا.. ودعوته الملحة للعفاف نوعا من الكبت الذي لا ينسجم مع الفطرة السوية.. ففي الإنسان غرائز.. والمواقف السليم من الغرائز أن تطلق لا أن تحد(1).

قال: أنت تذكرني بمواقف كثير من علماء النفس عندنا.. وموقفهم من الدين.. فقد ذكروا أن الدين يكبت النشاط الحيوي للإنسان، ويظل ينكّد عليه حياته نتيجة الشعور بالإثم، ذلك الشعور الذي يستولي على المتدينين خاصة، فيخيل لهم أن كل ما يصنعونه

1) انظر: شبهات حول الإسلام، محمد قطب.

خطايا لا يطهرها إلا الامتناع عن ملذات الحياة.

ولهـذا ظلت أوربـا غارقـة في الظلام طيلـة تمسـكها بالـدين، فلما نبذت قيود الدين تحررت مشاعرها من الداخل، وانطلقت في عالم العمل والإنتاج.

قلت: أجل.. إنك تردد مـا يقولونـه بدقـة.. أفلا تـرى في هـذا القول حجة كافية للرد على الإسلام في موقفه من العفاف؟

قـال: إن الـرد على هـذا يحوجنـا إلى التعـرف على معـنى (الكبت)، فإن هذه اللفظة كثيراً مـا يسـاء فهمهـا واسـتخدامها في كلام المثقفين، فضلاً عن العوام والمقلدين.

قلت: الكبت على حسب ما أعرف.. على حسب ما يقولون.. هو الامتناع عن إتيان العمل الغريزي.

قال: لا.. ليس هو الكبت هو الامتناع.. وإلا لكان كـل الإنسـان حدثته نفسه بفاحشة من الفواحش، فلم يقع فيها مصابا بالكبت.

قلت: فما هو الكبت إذن؟

قـال: الكبت في الحقيقـة هـو اسـتقذار الـدافع الغريـزي في ذاته، وعدم اعتراف الإنسان بينه وبين نفسه أن هـذا الـدافع يجـوز أن يخطر في باله أو يشغل تفكيره.

والكبت بهذا المعنى مسألة لا شعورية، والعمل الغريزي قد لا يكفي وحده لعلاجها.. فالـذي يـأتي هـذا العمـل، وفي شـعوره أنـه يرتكب قذارة لا تليق به، شخص يعاني الكبت حـتى ولـو فعـل هـذا عشرين مرة كل يوم.. لأن الصراع سـيقوم في داخـل نفسـه كـل مرة بين ما عمله وما كان يجب أن يعمله.

وهـذا الشـد والجـذب في الشـعور وفي اللاشـعور هـو الـذي ينشئ العقد والاضطرابات النفسية.

قلت: هذا تفسيرك للكبت؟

قال: لا.. بل هذا تفسير علماء النفس أنفسهم.. بل هو تفسير فرويد نفسه الذي أنفق حياته العلمية كلها في هذه المباحث، وفي التنديد بالدين الذي يكبت نشـاط البشـرية. فهـو يقـول: (ويجب أن نفرق تفريقاً حاسماً بين هذا (الكبت الشعوري)، وبين عـدم الإتيـان بالعمل الغريزي، فهذا مجرد (تعليق للعمل)

قلت: فهل تـرى هـذا التفسـير كافيـا لـدفع هـذه الشـبهة عن الإسلام؟

قال: هذه الشبهة لا تقع إلا من دين ينفر من الغرائـز، ويـدعو إلى كبتهـا.. والإسـلام لم يفعـل هـذا.. بـل ليس في أديـان العـالم

ونظمه ما هو أصرح من الإسلام في الاعتراف بالـدوافع الفطريـة، وتنظيف مكانها في الفكر والشعور.. فـالقرآن يقـول: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَـاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَـاطِيرِ الْمُقَنْطَـرَةِ مِنَ الـذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَـرْثِ ذَلِـكَ مَتَـاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (آل عمران:14)

ففي هذه الآية يجمع القرآن شهوات الأرض، ويقـرر أنهـا أمـر واقع مزين للنـاس، لا اعـتراض عليـه في ذاتـه، ولا إنكـار على من يحس بهذه الشهوات.

قلت: فالإسلام إذن دين إباحي؟

قال: أنت تتصور أن أمر الغرائـز إمـا أن يكـون كبتـا، وإمـا أن يكون إباحية؟

قلت: أنا أذكر ما يقولون.. فهل ترى أن هناك منطقـة وسـط بينهما؟

قال: أجـل.. وقـد وضـع لهـا الإسـلام منظومـة من الشـرائع والتوجيهات لا يكفي هذا المحل لسردها جميعا.

فالإسـلام لا يـبيح للبشـر أن يهبطـوا لعـالم الحيـوان بحجـة مقاومـــة الكبت.. لأن هنـــاك فرقـــاً هـــائلاً بين هـــذا وبين الكبت اللاشـعوري، أي أن هنـاك فرقـا بين اسـتقذار هـذه الشـهوات في ذاتهـا، ومحاولـة الامتنـاع عن الإحسـاس بهـا رغبـة في التطهـر والارتفاع.

وطريقة الإسلام في معاملـة النفس الإنسـانية هي الاعـتراف بالدوافع الفطرية كلها من حيث المبدأ، وعدم كبتهـا في اللاشـعور، ثم إباحة التنفيذ العملي لها في الحدود التي تعطي قسـطاً معقـولاً من المتـاع، وتمنـع وقـوع الضـرر سـواء على فـرد بعينـه، أو على المجموع كله.

والضرر الذي يحدث للفرد من اسـتغراقه في الشـهوات، هـو إفناء طاقته الحيوية قبل موعدها الطبيعي، واستعباد الشـهوات لـه بحيث تصبح شغله الشاغل، وهمه المقيم، فتصبح بعد فـترة عـذاباً دائماً لا يهدأ، وجوعة دائمة لا تشبع ولا تستقر.

أما الضرر الذي يحدث للمجتمع، فهو استنفاد الطاقة الحيويـة التي خلقها اللـه لأهـداف شـتى، في هـدف واحـد قـريب، وإهمـال الأهداف الأخرى الجديرة بالتحقيق، فضلاً عن تحطيم كيان الأسرة، وفك روابـط المجتمـع، وتحويلـه إلى جماعـات متفرقـة لا يجمعهـا رابط ولا هدف مشترك.

وفي هذه الحدود التي تمنع الضرر يبيح الإسلام الاستمتاع بطيبات الحياة، بل يدعو إليها دعوة صريحة فيقول مستنكراً على من حرمها: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (لأعراف:32).. ويقول: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (القصص:77).. ويقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة:172).. ويقول: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (لأعراف:31)

بل إن محمدا يذكر في حديث له أن الرجل يثاب على أداء ما تتطلبه هذه الغريزة زوجته، فيقول المسلمون متعجبين: (يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟)، فيرد عليهم: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)(1)

ولهذا.. فإنه يستحيل أن يحصل أي كبت في ظل الإسلام.. ذلك أن الإسلام يطلب من الشباب شيئا واحدا، وهو أن يضبط هذه الشهوات فقط دون أن يكبتها.. يضبطها في وعيه وبإرادته، وليس في لاشعوره، أي يعلق تنفيذها إلى الوقت المناسب، وليس تعليق التنفيذ كبتاً باعتراف فرويد، وليس فيه من إرهاق الأعصاب ما في الكبت، وليس يؤدي مثله إلى العقد والاضطرابات النفسية.

قلت: ولكن أولئك يعتبرون هذا نوعان من الحرمان، ولو كان حرمانا مؤقتا؟

قال: ليست في الدعوة إلى ضبط الشهوات أي تحكم.. لأنه لا يمكن أن تقوم أمة من الأمم، وهي لا تتحكم في شهواتها.. ولا تنظمها.. إنها تتحول بذلك إلى غابة لا يأمن فيها الإنسان على نفسه، ولا على عرضه..

التفت إلي، وقال: للأسف لم تعطنا حضارتنا أي كابح يجعل طاقات الأمة تتوجه نحو القيم الرفيعة لتوجه طاقتها فيها كما فعل الإسلام.. وهو دليل خطير على هزيمة الحضارة في هذا الجانب المهم من الحياة.

قلت: أيقنت هذا ووعيته.. فأخبرني عن التشريعات التي وضعها الإسلام ليحفظ بها الفرد والمجتمع من هذه الانحرافات

---

1) رواه مسلم.

الخطيرة التي وقعت فيها مجتمعاتنا.

قال: لا يمكن إحصاء ذلك في هذه الجلسة.. ولكني سأذكر لك أصول ما شرعه الإسلام في هذا الجانب الخطير.. والذي لم أجد مثيلا له في أي دين من الأديان، أومذهب من مذاهب الأخلاق.

أولا.. لقد بدأ الإسلام، فملأ النفس نفورا من الفواحش وهربا منها حتى صارت بالنسبة لها هي القذارة بعينها، ففي الحديث: (إذا زنى الرجل أخرج منه الإيمان وكان عليه كالظلة فإذا أقلع رجع إليه الإيمان)(1)

وفي حديث آخر: (لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم الزنا فإذا فشا فيهم الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب)(2)

وفي حديث آخر: (إذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة)(3)

ولهذا وصف القرآن المؤمنين بأنهم لا يقعون في مثل هذه الفواحش: وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (الفرقان:68)

ولم يكتف الإسلام بتحريم الزنا، بل حرم كل ما يقرب منه، أو يؤدي إليه، ففي القرآن: وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ (الأنعام:151).. وفيه: وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (الاسراء:32)

أنت ترى كيف أن القرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا، وهي مبالغة في التحرز، لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرز من المقاربة أضمن، فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان.

ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة، توقياً للوقوع فيه.. فيكره الاختلاط في غير ضرورة.. ويحرم الخلوة.. وينهى عن التبرج بالزينة.. ويحض على الزواج لمن استطاع.. ويوصي بالصوم لمن لا يستطيع.. ويكره الحواجز التي تمنع من الزواج كالمغالاة في المهور.. وينفي الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد.. ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم.. إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج، ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردي والانحلال(4).

ولم يكتف الإسلام بهذا.. بل وضع معه الكثير من التشريعات

---

1)رواه أبو داود واللفظ له والترمذي والبيهقي.
2) رواه أحمد بسند حسن.
3) رواه البزار.
4) في ظلال القرآن، سيد قطب.

الرادعة التي تملأ النفس نفورا من هذا النوع من المعاصي..

ومن هـذه العقوبـات مـا نص عليـه القـرآن بقولـه: ﴿ الزَّانِيَـةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَـةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْـهَدْ عَـذَابَهُمَا طَائِفَـةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور:2)

قلت: إن قومي يؤلبون الخصومات على محمد بسبب هذا.

قـال: أولئـك جهلـة أو منحرفـون.. وهم لا يفهمـون الإسـلام.. ويتعجبون من مثل هذه التشريعات..

الإسلام يهتم بالإنسان، ويعتبره محور التشريعات والتنظيمات والحضارة.. فلذلك يتعامل مع النفس الإنسانية بجميع مـا في هـذه النفس من الرغبة والرهبة.

فيخاطب الرغبة بالحث على العفاف وبالإخبار بمـا في الجنـة لمن صـبر من الحـور العين.. ويخـاطب الرهبـة بالعـذاب الأليم.. وبأنواع الحدود التي شرعها.

نعم.. نحن في واقعنا اليوم نضحك على الحدود التي شـرعها الإسلام في هذا الجانب.. ولكنا ننسى ما أدى إليه التساهل فيه من انتشـار الأمـراض، وانحلال الأسـر، وتحطم المجتمعـات.. وهـو مـا يفوق ذلك العقاب البسيط المحدود الذي وضـعه الإسـلام رادعـا لا منتقما(1).

الكرم:

قلت: عرفت السر الأول.. فحدثني عن السر الثاني.

قال: السر الثاني هو الكرم.. ألا ترى إلى هذه الأزهار الكريمة التي تجود بتلك الروائح الطيبة، ولا تبخل بها على أحد من الناس!؟

قلت: بلى.. فلم نر من الأزهار منذ اختلطنا بها إلا خيرا.

قـال: وهكـذا الإسـلام.. وهكـذا من يسـتنير بأشـعة شـمس محمد.. فإنك لن تجد عنده إلا الكرم..

الكرم أصل أصيل من أصول الإسـلام.. وهـو مـا نفتقـده نحن معشـر البخلاء الـذين لم نكتـف بالشـح بمـا لـدينا، بـل رحنـا ننهب ثروات الشعوب وخيراتها نتلاعب بها كما نشـاء.. وقـد نجـود عليهم ببعض فتاتها، ثم نزعم أننا نتصدق عليهم بذلك.

قلت: تلك حضارة الاستعمار.. والمسيحية لم تفعل هذا.

قال: المسيحية فعلت أخطر من هذا.. فقـد راحت تـبيع مـا لا

---

1) انظر التفاصيل المرتبطة بالحدود الشرعية والشـبهات المثـارة حولهـا في رسـالة (عدالة للعالمين).

تملك..

قلت: ما تقصد؟

قال: ألم تكن الكنيسة تبيع صكوك الغفران!؟

طأطأت رأسي، فقال: أصدقك القول.. إن كل رجال الدين من كل الأديان التي عرفتها انقلبوا لصوصا.. وحولوا معابدهم إلى دور للعصابات.. لقد ذكر القرآن هذا.. ففيه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة:34)

قلت: والإسلام!؟

قال: لقد بحثت في آداب العالم وقيمه.. فلم أجد دينا يحث على الكرم، ويربي أتباعه عليه، كما وجدت في الإسلام..

لقد وردت النصوص المقدسة الكثيرة التي تحث على الكرم، وتعتبره من الكمال، بل تعتبره من مقاييس الكمال، فقد اعتبر محمد: (السخاء خلق الله الأعظم)(1)، وذكر أن (السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله من عابد بخيل)(2).. وقال: (إن الله يدخل بلقمة الخبز، وقبضة التمر ومثله، مما ينفع المسكين ثلاثة الجنة: صاحب البيت الآمر به، والزوجة المصلحة، والخادم الذي يناوله المسكين)(3).. وقال: (إن المكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيرا فنفخ فيه بيمينه وشماله وبين يديه ووراءه)(4).. وقال: (ما من مسلم ينفق من كل مال له زوجين في سبيل الله، إلا استقبلته حجبة الجنة، كلهم يدعوه إلى ما عنده)(5).. وقال: (كم من حوراء عيناء، ما كان مهرها، إلا قبضة من حنطة، أو مثلها من تمر)(6).. وقال: (اليد العيا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، واليد السفلى هي السائلة)(7).. وقال: (لا حسد إلا في إثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي

1) ابن النجار عن ابن عباس.
2) الترمذي والبيهقي.
3) الحاكم.
4) الشيخان.
5) أحمد، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم.
6) العقيلي في الضعفاء.
7) أحمد، والشيخان، وأبو داود، والترمذي.

بها ويعلمها)[1]

وأخبر أن الله يتقبل الصدقة، ويربيها لصاحبها، فقال: (إن الله يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد)[2]، وفي رواية: (إن الله ليربي لأحدكم التمرة واللقمة، كما يربي ولده، أو فصيله حتى يكون مثل أحد)[3].. وقال: (إن العبد ليتصدق بالكسرة، تربو عند الله حتى تكون مثل أحد)[4]

وأخبر أن أحب الأعمال إلى الله الكرم، فقال: (أحب الأعمال إلى الله تعالى، من أطعم مسكينا من جوع، أو دفع عنه مغرما، أو كشف عنه كربا)[5].. وقال: (أحب الأعمال إلى الله بعد الفرائض، إدخال السرور على المسلم)[6]

وأخبر عن حب الله للمكرمين، فقال: (إن أحب عباد الله إلى الله، من حبب إليه المعروف، وحبب إليه أفعاله)[7].. وقال: (إن الله تعالى استخلص هذا الدين لنفسه، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما)[8].. وقال: (إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها)[9]، وقال: (ما عظمت نعمة الله على عبد إلا اشتدت عليه مؤنة الناس، فمن لم يحتمل تلك المؤنة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال)[10]

وقال: (خلقان يحبهما الله، وخلقان يبغضهما الله، فأما اللذان يحبهما الله فالسخاء والسماحة، وأما اللذان يبغضهما الله تعالى، فسوء الخلق والبخل، وإذا أراد الله بعبد خيرا، استعمله على قضاء حوائج الناس)[11]

وأخبر أن الصدقة تقي صاحبها من النار، فقال: (ليتق أحدكم وجهه من النار ولو بشق تمرة)[12].. وقال: (اتقوا النار ولو بشق

---

1) أحمد، والشيخان، وابن ماجة.
2) الترمذي.
3) أحمد، وابن حبان في صحيحه.
4) الطبراني.
5) الطبراني.
6) الطبراني.
7) ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ.
8) الطبراني.
9) البيهقي، وأبو نعيم في الحلية.
10) ابن أبي الدنيا والبيهقي.
11) البيهقي.
12) أحمد.

تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة)[1]، وفي رواية: (اجعلوا بينكم وبين النار حجابا ولو بشق تمرة)[2]، وفي أخرى: (تصدقوا ولو بتمرة، فإنها تسد من الجائع، وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار)[3]، وفي حديث آخر قال: (تصدقوا فإن الصدقة فكاككم من النار)[4]، وقال: (إن الصدقة لتطفىء عن أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته)[5]، وقال: (من أطعم أخاه من الخبز حتى يشبعه، وسقاه من الماء حتى يرويه، بعده الله من النار سبع خنادق، كل خندق مسيرة سبعمائة عام)[6]

وفي حديث آخر يرسم الصورة التي تمثل ذلك بقوله: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا ير إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة)[7]

وأخبر عن تأثير الكرم في الوقاية من نيران الدنيا، فقال: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا، هم أهل المعروف في الآخرة، وإن أهل المنكر في الدنيا، هم أهل المنكر في الآخرة)[8]

بل ذكر ما هو أعظم من ذلك، فقال: (تسد الصدقة سبعين بابا من السوء)[9]، وقال: (الصدقة تمنع سبعين نوعا من أنواع البلاء، أهونها الجذام والبرص)[10]، وقال: (الصدقة تمنع ميتة السوء)[11]، وقال: (مناولة المسكين تقي ميتة السوء)[12]، وقال: (تداركوا الهموم والغموم بالصدقات، يكشف الله تعالى ضركم، وينصركم على عدوكم)[13]، وقال: (الصدقة على وجهها، واصطناع المعروف، وبر الوالدين، وصلة الرحم، تحول الشقاء سعادة، وتزيد

---

1) الشيخان.
2) الطبراني.
3) الطبراني.
4) الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية.
5) الطبراني.
6) النسائي، والحاكم.
7) أحمد، والشيخان، والنسائي، وابن ماجة.
8) الحاكم.
9) الطبراني.
10) الخطيب.
11) القضاعي.
12) الطبراني والبيهقي.
13) الديلمي.

في العمر، وتقي مصارع السوء)[1]

وأخبر عن عظم الغبن الذي يحيق بالبخلاء، فقال: (إعلموا أنه ليس منكم أحد، إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت)[2]، وفي رواية: (أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله، فإن ماله ما تقدم، ومال وارثه، ما تأخر)[3]

وأخبر عن الجزاء المعد للكرماء في الدنيا قبل الآخرة، فقال: (إذا أراد الله بقوم نماء، رزقهم السماحة والعفاف، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح عليهم باب خيانة)[4]، وقال: (استعينوا على الرزق بالصدقة)[5]، وقال: (استنزلوا الرزق بالصدقة)[6]

وأخبر (أن ملكين ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا)[7]، وقال: (إن الله تعالى يقول يا ابن آدم أودع من كنزك عندي، ولا حرق، ولا سرق، ولا غرق، أوفيكه أحوج ماتكون إليه)[8]

وغيرها من النصوص الكثيرة التي جعلت الكرم من القيم النبيلة التي يتنافس فيها الأغنياء والفقراء على حد سواء.

ولم يكتف الإسلام بهذا.. بل شرع التشريعات الكثيرة التي تجعل من الكرم خلقا مفروضا.. لا مجرد تكرم يرتبط بقوة الإيمان وضعفه.

ولهذا، فإن الزكاة ــ التي تمثل شريعة من شرائع الكرم ـ ركن من أركان الإسلام.. والإسلام لم يكتف بها.. بل ربط الكثير من العبادات والكفارات بالصدقات.

المروءة:

قلت: فحدثني عن السر الثالث من أسرار زهرية الأزهار.

قال: المروءة.. المروءة هي السر الثالث من أسرار الأزهار.

قلت: لم أفهم علاقة المروءة بالأزهار.

قال: المروءة هي الترفع عن السفاسف.. والبحث عن المعالي.

قلت: عرفتها في البشر.. ولم أعرفها في الأزهار.

---

1) أبو نعيم في الحلية.
2) النسائي.
3) أحمد، والترمذي.
4) ابن عساكر، والطبراني.
5) الديلمي.
6) البيهقي.
7) الشيخان وغيرهما.
8) البيهقي.

قـال: ألا تـرى الأزهـار كيـف تتنـافس في ألوانهـا وأشـكالها وعطورها.. بحيث تحاول كل زهرة أن تفوق غيرها!؟

قلت: ما تقوله صحيح..

قـال: فـإذا وصـل البشـر إلى هـذه المرتبـة من التعـالي عن السفاسف، والبحث عن الرتبة النفيسة كانوا كالأزهار..

وقد بحثت في الأديان والمذاهب عن هذا النـوع الشـريف من أنواع التنافس، فلم أجده في الإسلام.

لقد ظهر في المجتمعات الإسلامية جماعات ليس لها من هم إلا التنافس في المروءة.. وقـد أطلـق على هـؤلاء لقب (الفتيـان)، وأطلق على سلوكهم (الفتوة)،

استنباطا لذلك مما ورد في القرآن من مدح الفتوة.. فقد ورد في وصــف أهــل الكهــف: إِنَّهُمْ فِتْيَــةٌ آمَنُــوا بِــرَبِّهِمْ وَزِدْنَــاهُمْ هُدىً((الكهف:13)، وفيه عن قوم إبراهيم أنهم قالوا: سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ((الانبياء:60)

وقـد عـرف ابن القيم (الفتـوة) باعتبارهـا مـنزلا من منـازل السائرين، فقال: (حقيقتها هي منزلة الإحسـان إلى النـاس، وكـف الأذى عنهم، واحتمـال أذاهم، فهي اسـتعمال حسـن الخلـق معهم، فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله)(1)

وعرفهـا السـبكي، فقـال: (والفتـوة من أعظم خصـال الخـير جامعة كمال المروءة وحسن الخلق والإيثـار على النفس واحتمـال الأذى وبذل الندى وطلاقـة الوجـه والقـوة على ذلـك، حـتى تكـون فتوته على ذلك فتوة الفتيان والصفح عن العـثرات ويكـون خصـما لربه على نفسه وينصف من نفسه ولا ينتصف ولا ينـازع فقـيرا ولا غنيا ويستوي عنـده المـدح والـذم والـدعاء والطـرد ولا يحتجب ولا يدخر ولا يعتذر ويظهر النعمة ويحقق المحبة سرا وعلنا فـإذا قـوي على ذلك فهو الفتى وإذا اجتمع قوم على ذلك وتعاهدوا عليه فنعم ما هو)(2)

وقد ذكر ابن القيم أن أقدم من تكلم في الفتوة الإمام جعفـر الصادق، فذكر عنه أنه سئل عن الفتوة فقـال للسـائل: (مـا تقـول أنت؟) فقــال: (إن أعطيت شــكرت وإن منعت صــبرت)، فقــال: (الكلاب عندنا كذلك)، فقال السـائل: (يـا ابن رسـول اللـه ﷺ فمـا الفتوة عندكم؟)، فقال: (إن أعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا)

---

1) مدارج السالكين:2/340.

2) فتاوى السبكي: 2/548.

وقال الفضيل بن عياض: (الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان)، وقال أحمد، وقد سئل عن الفتوة: (ترك ما تهوى لما تخشى)، وسئل الجنيد عن الفتوة فقال: (لا تنافر فقيرا ولا تعارض غنيا)، وقال الحارث المحاسبي: (الفتوة أن تنصف ولا تنتصف)، وقال عمر بن عثمان المكي: (الفتوة حسن الخلق)

ويعبر الدقاق عن كمال الفتوة، فيقول: (هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ، فإن كل أحد يقول يوم القيامة نفسي نفسي، وهو يقول أمتي أمتي)(1)

والحكايات والقصص الوردة عن هؤلاء الفتيان تبرز ناحية مهمة، وهي التنافس على الأخلاق العالية النبيلة، ووجود التنافس على الخير في المجتمع يرفع المجتمع إلى آفاق عالية من التحضر، ولهذا مر المجتمع الإسلامي بفترات يكاد يعدم فيها الفقر لكثرة من يتنافس على الرحمة بالفقراء وخدمتهم.

ومن تلك الحكايات، وهي متعلقة بجانب من الفتوة، وهو التغافل عن عيوب الغير وأخطائهم، أن رجلا من الفتيان تزوج امرأة، فلما دخلت عليه رأى بها الجدري، فقال: اشتكيت عيني، ثم قال: عميت، فبعد عشرين سنة ماتت، ولم تعلم أنه بصير، فقيل له في ذلك، فقال: (كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها)، فقيل له: (سبقت الفتيان)

ومثل ذلك أن امرأة سألت حاتما عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة، فخجلت، فقال حاتم: (ارفعي صوتك)، فأوهمها أنه أصم، فسرت المرأة بذلك، وقالت: (إنه لم يسمع الصوت) فلقب بحاتم الأصم)

واستضاف رجل جماعة من الفتيان، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم، فانقبض واحد منهم، وقال: (ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء على أيدي الرجال) فقال آخر منهم: (أنا منذ سنين أدخل إلى هذه الدار، ولم أعلم أن امرأة تصب الماء على أيدينا أو رجلا)

وقدم جماعة فتيان لزيارة فتى، فقال الرجل: (يا غلام قدم السفرة)، فلم يقدم، فقالها ثانياوثالثا فلم يقدم، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: (ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل من يتعاصى عليه في تقديم السفرة كل هذا)، فقال الرجل: (لم أبطأت بالسفرة)، فقال الغلام: (كان عليها نمل، فلم يكن من الأدب تقديم

1) مدارج السالكين:2/342.

السفرة إلى الفتيان مـع النمـل، ولم يكن من الفتـوة إلقـاء النمـل وطردهم عن الزاد، فلبثت حتى دب النمل)، فقالوا: (يا غلام مثلـك يخدم الفتيان)

قال ابن القيم: (ومن الفتوة الـتي لا تلحـق مـا يـذكر أن رجلا نام من الحاج في المدينة، ففقد هميانا فيه ألف دينار، فقـام فزعـا فوجد جعفر بن محمد فعلق به وقال: (أخذت هميانـي)، فقـال: (أي شيء كان فيه؟)، قال: (ألف دينـار)، فأدخلـه داره، ووزن لـه ألـف دينار، ثم إن الرجل وجد هميانه، فجـاء إلى جعفـر معتـذرا بالمـال، فأبى أن يقبله منه، وقال: (شيء أخرجته من يدي لا أسترده أبـدا)، فقال الرجل للناس: (من هذا؟)، فقالوا: (هذا جعفر بن محمد)(1)

التضحية:

قلت: فحدثني عن السر الرابع من أسرار زهرية الأزهار.

قال: لن تكـون الأزهـار أزهـارا حـتى تمتلئ بمعـاني التضـحية والبذل والإيثار.

قلت: لم أفهم علاقة الأزهار بذلك..

قال: ألا ترى الزهرة تظل تمنحنا أريجها العطر إلى أن تذبل؟

قلت: بلى..

قـال: فهي تبـذل لنـا ــ مـع أنفـاس عطرهـا ــ روحهـا.. هي كالشمعة تحرق لتضيء لنا.

قلت: فأين وجدت مثل هذا النبل؟

قال: لم أجده إلا في الإسلام.. وفي القيم الـتي ربى الإسـلام عليها المسلمين.. إن التضحية بالنفس والمال والـوقت في سـبيل الله من أسمى أخلاق الإسلام، ومن أرفع واجباته.

قلت: في سبيل الله.. لا في سبيل الخلق.

قال: سبيل الله في الإسلام يراد به سبل الخلق.. وإنما اعتـبر سبيلا لله حتى لا يطلب صاحبه عليه أجرا إلا الأجر الذي أعطاه الله له.

لقـد قـال القـرآن في الأمـر بالتضـحية في سـبيل نصـرة المستضعفين: ﴿ وَمَـا لَكُمْ لا تُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْـعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْـدَانِ الَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا أَخْرِجْنَـا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَـا مِنْ لَـدُنْكَ وَلِيّـاً وَاجْعَـلْ لَنَـا مِنْ لَـدُنْكَ نَصِيراً ﴾ (النسَاء:75)

ويصـف القـرآن معـنى آخـر من معـاني التضـحية، فيقـول:

---

1) مدارج السالكين:2/343.

 وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الـدَّارَ وَالْأِيمَـانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَـاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَـانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الحشر:9)

ففي هذه الآية إخبار عن الإيثار الذي تحلى به الأنصار لما قدم المهاجرون إليهم، بعد أن تركـوا في بلادهم كـل مـا يلـزم لنفقتهم، فوجـدوا لهم إخوانـا لهم اقتسـموا معهم زادهم، بـل آثـروهم على أنفسهم.

وقد سبق ذكر الآية السابقة قوله: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَـاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّـادِقُونَ (الحشـر:8)، فـأخبر بفضـل المهاجرين الذي آثرهم الأنصار على أنفسهم ليـبين أن ذلـك الإيثـار وتلك النفقات لم تذهب عبثا، بـل وقعت في موقعهـا الصـحيح، لأن الإنسان قد ينفق، ويؤثر ولكنه لا يسد خللا، لا يحقـق مقصـدا، لأنـه رمى بنفقته في غير مواضعها، فعبثت بها الرياح.

وقـد حفظت لنـا كتب الحـديث بعض مـا فعلـه الأنصـار مـع المهاجرين، ففي الحديث: قال المهاجرون: (يا رسول اللّه ما رأينـا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواسـاة في قليـل ولا أحسـن بـذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ، حـتى لقـد خشـينا أن يذهبوا بالأجر كله)، فقال ﷺ: (لا، ما أثـنيتم عليهم ودعـوتم اللّـه لهم)(1)

وظلوا هكذا حتى بعد أن فتح اللـه على المؤمـنين، وقـد روي أن محمدا دعـا الأنصـار أن يقطـع لهم البحـرين، فقـالوا: (لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها)، قـال: (إمـا لا، فاصـبروا حـتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة)(2)

بل روي أكثر من ذلك، ففي الحديث: قالت الأنصـار: (اقسـم بيننـا وبين إخوانـا النخيـل)، فقـال: (لا)، فقـالوا: (أتكفونـا المؤنـة ونشرككم في الثمرة؟) قالوا: (سمعنا وأطعنا)(3)

بل روي أكثر من ذلـك، فقـد كـان الأنصـار من حرصـهم على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين أنه ما نزل مهـاجري على أنصـاري إلا بقرعة.

وقـد عـبر القـرآن الكـريم عن هـذا التكافـل بصـورة جميلـة،

1) أحمد.
2) البخاري.
3) البخاري.

فقال: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ﴾ (الانسان:8 ـ 9)

ففي هاتين الكريمتين إخبار عن إيثار هؤلاء المحاويج من المؤمنين غيرهم بالطعام مع حبهم له وحاجتهم إليه، ثم هم لا يطلبون على ذلك جزاء ولا شكورا.

وهو موقف يشبه كثيرا موقف النبي موسى عندما سقى للفتاتين، ثم أوى إلى الظل من غير أن يشعر نفسه أو يشعر غيره أنه فعل شيئا، قال: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(القصص:24)

وهذه المواقف ـ في حقيقتها، وفي حقيقة الإسلام ــ ليست شيئا ثانويا مستحبا، وإنما هي واجب من واجب من واجبات الدين، فقد ورد في الحديث: (ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به)(1)، وقال: (أيما أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله)(2)

بل نص القرآن على هذا في مواضع مختلفة بصيغ مشددة تدل على أن الأمر ليس موكولا لرغبات الناس، وإنما هو واجب من واجبات الدين، فلا يصح أن يموت الناس جوعا في نفس الوقت الذي تمتلئ يه خزائن الكثيرين، ولو دفعوا الزكاة.

القوة:

قلت: فحدثني عن السر الخامس من أسرار زهرية الأزهار.

قال: السر الخامس هو (القوة)

قلت: ولكني أرى الأزهار ضعيفة تطؤها الأقدام، وتطحنها الأصابع.

قال: القوة في عيون الحقائق أرفع من أن تختصر في عضلات مفتولة، أو قامة متطاولة.

قلت: فما هي القوة؟

قال: لقد عبر محمد عن بعض مظانها، فقال: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)(3)، وفي رواية أخرى: (أتحسبون أن الشدة في حمل الحجارة؟ إنما الشدة في أن يمتلئ أحدكم غيظا ثم يغلبه)(4)

قلت: فهل للأزهار مثل هذه القوة؟

---

1) البزار، والطبراني في الكبير عن أنس.
2) مسلم عن ابن عمر.
3) أحمد والبيهقي.
4) ابن أبي الدنيا في ذم الغضب.

قـال: أجـل.. ألا تـرى المجـرمين يدوسـونها بأقـدامهم، أو يذبحونها بأيديهم، أو يطحنونها بأصابعهم.. ولكنهـا لا تبخـل بعطرهـا عليهم!؟

قلت: أجل.. أرى ذلك.

قال: فهذا مظهر من مظاهر القوة.

قلت: تقصد ما نسميه (قوة الشخصية)

قال: لقد جاء الإسلام بكل أنواع القوة.. وحث على كل أنـواع القـوة.. وأمـر بـأن تسـخر كـل ألوانهـا في صـالح الخـير والحـق والجمال.

لقد قال القـرآن آمـرا بالأخـذ بـالقوة لحمايـة المستضـعفين: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُـونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَـا تُنْفِقُـوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال:60)

وأهم أنـواع القـوة الـتي حث الإسـلام عليهـا، وأمـر بهـا قـوة النفس وترفعها وتعاليها بالحق الذي تملكه.

قلت: تقصد العزة؟

قـال: العـزة مظهـر من مظـاهر القـوة، بـل هي من أجلى مظاهرها، وقد وصف القرآن بهـا المؤمـنين، فقـال:﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة:54)

وأخبر أنها خلق من أخلاق المؤمنين التي يجب أن يتحلـوا بهـا ويحرصـوا عليهـا فقـال:﴿ وَلِلَّهِ الْعِـزَّةُ وَلِرَسُـولِهِ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُـونَ﴾(المنـافقون:8)، وقـال:﴿ وَلا تَهِنُـوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(آل عمران:139)

فهذه الآية تعلم المؤمـنين إبـاء الضـيم، والثـورة على المذلـةِ والهوان.

ولهذا وصف الله المؤمنين في الأجيال السابقة للإسـلام بهـذا الخلق، فقال:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَـا وَهَنُـوا لِمَـا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّـابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَـا وَإِسْـرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَـاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِـنِينَ (148)﴾ (آل

عمران)

بل إن القرآن يسمي الله بـ (الْعَزِيزُ) ما يقرب من تسعين مرة، ليملأ أسماع المؤمنين بحديث العزة والقوة، فإذا ما سيطر عليهم اليقين بعزة ربهم تأبوا على الهوان حين يأتيهم من أي مخلوقٍ.

وقد علم القرآن المؤمنين الإقدام والاحتمال والثبات في مواطن اليأس موقنين أن الله معهم في تلك المواقف الشديدة.. ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء:104).. ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (محمد:35)

قلت: أليس في هذا تناقضا مع دعوة الإسلام إلى السلام.. ففي الآية التي قرأتها نهي عن الدعوة إلى السَّلْمِ!؟

قال: فرق كبير بين السلم والسلام.. فالسلم هو الاستسلام لشروط الأعداء وكبرهم والتذلل لهم والتضعضع أمامهم.. أما السلام فهو تحقيق الأمن للنفوس والمجتمعات في ظلال العدل والحرية والإخاء والمساواة.

فإذا لم يحقق السلام هذه المطالب.. فليس هو بسلام.. والشدة في ذلك الحين قد تكون هي البلسم الذي يعيد للحياة صفاءها وسلامها.

ولهذا أخبر القرآن أن الفتنة أشد من القتل، فقال:﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (البقرة:191)

الأمانة:

قلت: فحدثني عن السر السادس من أسرار الأزهار.

قال: السر السادس هو (الأمانة)

قلت: تقصد رد الودائع..

قال: رد الودائع مظهر من مظاهر الأمانة.. أما الأمانة في ذاتها فإن لها من المظاهر عدد زبد البحر.

قلت: فما حدها الجامع؟

قال: لقد أناط الله بكل مخلوق في كل محل من المحال، وفي كل زمن من الأزمان وظيفة ألزمه بأدائها، فإذا أداها كما ينبغي من غير غش ولا خداع ولا خيانة ولا احتيال كان أمينا.

ألا ترى كيف أن ابنة الشيخ الصالح سمت موسى أمينا من

غيرأن تودعه أي وديعة، فقالت لأبيها: يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (القصص:26)؟

قلت: فكيف عرفت أمانته؟

قال: لقد كان الموقف الذي وقفه موسى يقتضي إعانة الفتاتين الضعيفتين، ولو قصر في ذلك كان خائنا..

نظرت إلى الأزهار، وقلت: فهل تحققت الأزهار بهذا؟

قال: أجل.. لقد أنيط بها أن تكون متعة للعين وراحة للنفس ولذة للشم.. وهي تؤدي كل ذلك بكل تفان من غير أي تقصير.

قلت: فما أمانة البشر؟

قال: لقد ذكر القرآن أن الله حمل البشر أمانة عظيمة عجزت السموات والأرض عن حملها، فقال: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (الأحزاب:72)

قلت: فما هذه الأمانة؟

قال: أمانة الخلافة.. لقد ذكر القرآن أن الله خلق الإنسان لأجل الخلافة.

قلت: فما الخلافة؟

قال: لها جهتان: جهة إلى الله تستدعي التسليم له ومحبته وطاعته المطلقة، وجهة إلى الخق تستدعي التعامل معهم وفق ما يقتضيه العدل والرحمة.

وقد ذكر القرآن الجهة الثانية، فقال عن داود: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (صّ:26)

قلت: لقد كان داود حاكما، وليس كل الناس كذلك.

قال: كل إنسان له حكم يرتبط به.. لقد ذكر محمد ذلك فقال: (كلكم مسئول عن رعيته، فالامام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[1]

قلت: فكيف تزعم أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تحقق له هذا السر العظيم؟

---

1) البخاري ومسلم.

قال: لأني لم أجد دينا يحرص على الأمانات مع كل الخلق من الأصدقاء والأعداء مثل الإسلام..

لقد قرأت الكتب المقدسة، فلم أجد نصا يقول لأتباعه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:8)

ويقول لأتباعه، في أحوال شدتهم: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (لأنفال:58)

أتعلم ما تعني هذه الآية؟

قلت: ما تعني؟

قال: أي إذا خشيت من قوم نقض عهدهم، وأردت أن تلغي عهدك معهم، فلا تغدر بهم، بل أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك(1).

إن الإسلام لا يجيز نقض العهد حتى في حالات الشدة انتهازا للفرصة.

قارن هذا بالعهود الكثيرة التي يقطعها قومنا على أنفسهم، ثم سرعان ما ينكثون بها، بل يغدرون في نكثهم.

الصدق:

قلت: فحدثني عن السر السابع.

قال: السر السابع هو (الصدق)

قلت: فما الصدق؟

قال: الصفاء والخلاص الذي لم يكدر بأي شائبة.. ألا ترى إلى هذه الأزهار التي تمتلئ صفاء ورقة وشفافية!؟

قلت: الصدق ممدوح في الشرائع جميعا.

قال: ولكني لم أجد دينا يحرص على الصدق ويملأ القلب به، بل يضعه في ذروة المقامات الرفيعة مثل الإسلام.. فهو الدين الوحيد الذي رفع الصدق إلى أعلى الدرجات، ونزل بالكذب إلى أخفض الدركات.

لقد قال محمد في الآثار التي يحدثها الصدق والكذب: (: (إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور

---

1) ابن كثير.

وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[1]

بل اعتبر الكذب وما يرتبط به من النفاق الذي توعـد القـرآن أهله بالدرك الأسـفل من النـار، ففي الحـديث: (أربـع من كن فيـه كان منافقا خالصا، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصـلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[2]

***

ما وصل (آرثر جون آربري) من حديثه إلى هذا الموضع حـتى امتلأت عيناه بدموع لم يملك حبسها.

قلت: ما الذي يبكيك؟

قال: يبكيني أمران:

أما أولهمـا، فنقض الكثـير من المسـلمين للعهـود الـتي عهـد إليهم بها نبيهم، وتركهم للقيم الرفيعـة الـتي جـاءهم بهـا طلبـا لمـا عندنا، وهم يعلمون أنا لسنا على شيء.

وأما الثاني، فتكبرنا على محمد وعلى أمة محمـد وعلى القيم التي جاء بها محمد.. وهو ما أحالنا إلى شريعة الغاب التي نحياها.

ثم ابتسم، وقال: أنا لست يائسـا.. يوشـك أن تعـود البشـرية إلى هذا الهدي العظيم.. ولكن بعد أن تصلى بنيران الأشـواك الـتي نسجتها بأهوائها.

قلت: متى ذلك؟

قـال: إذا تخلت عن كبريائهـا، وفخرهـا، وتطاولهـا.. حينـذاك ستجد محمدا وهدي محمد أقرب إليها من نفسها.

قلت: أنا أعجب لك حضرة الأستاذ الفاضل كيـف تحـزن على البشرية، ولا تحزن على نفسك.

قال: لن أقول لك إلا ما قاله (اللورد هدلي)

قلت: تقصـد قوله: (إنـني أعتقـد أن هنـاك آلافـاً من الرجـال والنسـاء أيضـاً، مسـلمون قلبـاً، ولكن خـوف الانتقـاد والرغبـة في الابتعــاد عن التعب الناشــئ عن التغيــير، تــآمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم)

قال: لقد صدق الرجل.. لقد صدق الرجل..

أردت أن أسـأل، فتركـني، ومضـى، وقـد امتلأ قلـبي بـأنوار

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه البخاري.

جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

رابعا ـ إنسانية

في اليوم الرابع من تلك الأيام العشرة التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة الإنسانية من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5)(التين)

وسر قوله تعالى: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (الاسراء:70)

وسر قوله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (الأحزاب:72)

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن التكريم العظيم الذي ناله الإنسان في الإسلام، وتخبر في نفس الوقت عن المسؤولية العظيمة المناطة به.

ولا يمكن أن يعرف الإنسان إلا بهما.. بمعرفة حقيقته الشريفة، ووظائفة العظيمة.

***

سمعت بمارسيل بوازار، وهو مفكر، وقانونى فرنسى، كان له اهتمام كبير بالعلاقات الدولية وحقوق الانسان، وقد كتب عدداً من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهما.

وكان يضم إلى هذا الاهتمام اهتمامه بالإسلام، وقد كتب كتابه (إنسانية الإسلام)، الذى انبثق عن اهتمامه الشديد بالإنسان، وبالإسلام في نفس الوقت..

ولهذا الكتاب أهمية كبرى في الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التى لا يأسرها التحيز والهوى، زيادة على رجوعه للمصادر الإسلامية نفسها.

وبسبب هذا الكتاب.. وبسبب موضوعية الرجل.. كان اسمه من الأسماء التي وضعت في الدفتر الذي سلمني إياه المرشد، مع كونه لم يكن ينتسب لجامعة السربون.

وقد كنت أتحين الفرص للقائه والاستماع إليه، ولكني لم أظفر بذلك إلا في ذلك اليوم الجميل...

في ذلك اليوم كنت أسير في شارع مزدحم من شوارع

باريس.. كانت أصوات السيارات فيه تكاد تصيبني بالصـمم.. وكـان الهـواء مكـدرا.. والـروائح الـتي تنبعث من المحلات المختلفـة تملأ الأنف بالتقزز..

ربما هناك من يحب هذه الأجـواء المزدحمـة.. ولكـني لم أكن من هذا النوع.. فأنا أحب الحياة الهادئة الوديعة المسالمة الساكنة..

في ذلـك الجـو الكـئيب ــ بالنسـبة لي على الأقـل ــ التقيت ضـالتي الـتي كنت أبحث عنهـا (مارسـيل بـوازار).. وقـد عجبت إذ رأيته ينشغل في ذلك الزحام بشجرة من الأشجار، يطـأطئ رأسـه إليها، ويحرك بيديه تربتها، ويزيل عنها ما علق بها من آثار الازدحام، ثم يخرج من حقيبته قارورة ماء، يسقيها بها، ويمسح على أغصـانها وأوراقها كما يمسح أحدنا على رأس اليتيم والمسكين.

تعجبت من سلوكه الطيب هذا.. واقتربت منـه، وحييتـه، فـرد علي التحية، ثم عاد إلى الشجرة يمسح عنها ما علق بها.

قلت له: ألست (مارسيل بوازار)؟

قال: أجل.. هل تعرفني؟

قلت: أجل.. لقـد قـرأت كتابـك عن (إنسـانية الإسـلام).. وأنـا أتعجب كيف كتبت ذلك الكتاب، ولماذا كتبته؟

قال: كتبته لأجل هـذه الشـجرة الـتي تراهـا تئن، ولا يسـمعها أحـد.. وتبكي ولا تجـد من يمسـح دموعهـا.. وتمتلئ الأرض الـتي تستقر عليها بالقاذورات، ثم لا تجد من ينظفها.

قلت: لم أرك في كتابك تذكر شجرة من الأشجار..

قال: بل لم أذكر غير الأشجار..

قلت: إلى ما يرمز قولك هذا.

قال: الإنسان لا يختلف عن الشجرة.. فطرة الإنسان التي لم تتدنس بالأفكار الشيطانية لا تختلـف عن فطـرة الأشـجار.. ولـذلك جعلت الشجرة رمزي الذي أصل به إلى حقيقة الإنسان.. وحقــوق الإنسان.

قلت: فــأنت لا تختلــف عن دارون إذن.. لقــد اعتــبر دارون الحيوانات.. أو الخليـة الحيوانيـة هي أصـل الإنسـان.. وأنت تجعلهـا الخلية النباتية.

قال: أنت تسيء إلي بهذه المقارنة.

قلت: كيف؟

قال: أنا أبحث عن حقوق الإنسان.. والتي تنطلـق من كرامـة الإنسان.. أما ذلك الرجل ــ قصـد أو لم يقصـد ــ فقـد كـان فكـره

معاديا للإنسان.. وحقيقة الإنسان.. وحقوق الإنسان.

قلت: فأنت لا تؤمن بتفسير دارون للحياة.

قال: إن كل عاقل لا يجد في نظرية دارون إلا الانحطاط..

أنا لا يهمني استغلال دارون لبعض المعلومات التي توصل إليها في رحلاته.. والتي حاول من خلالها أن يرسم للإنسان صورة حيوانية.. بل صورة لا يرضاها الحيوان لنفسه(1).. ولكن يهمني استغلال المعادين للإنسان نظريته ليحطموا بها حقيقة الإنسان، ثم يفرضوا ـ بعد ذلك ـ ما توهموه من حقوق الإنسان.

قلت: فهل حصل هذا؟.. هل خرجت نظريته من علم الحياة إلى علم القانون والاجتماع..

قال: بل خرجت نظريته إلى كل ميادين الحياة.. ألست ترى نظريته تدرس فى معظم مدارس الأرض، لا على أنها فرضية علمية، كما اعتبرها دارون نفسه.. ولا على أساس أنها نظرية علمية لم تثبت ثبوتا قاطعا يرشحها لأن تكون حقيقة علمية.. بل هي تدرس على أنها حقائق نهائية فى علم الحياة.

قلت: فما يضرك من تدريسها؟.. أم أنك تقف مع الكنيسة التي كفرت دارون ابتداء، ووصفته بأنه زنديق مهرطق مارق من الدين، لأنه ينفى الخلق المباشر من الله للإنسان على صورته؟

قال: ربما يكون هذا أحد الأسباب.. ولكن السبب الأخطر له علاقة بهذه الشجرة.

قلت: أراك تعود إلى الشجرة من جديد؟

قال: أجل.. هذه الشجرة تمثل الإنسان.. لقد رأيت أخواتها في الغابات الطليقة، ورأيت لها من الجمال ما لا يمكن وصفه، وذقت من ثمارها ما لا يستطيع لساني أن ينساه، وشممت من روائحها الطيبة ما ملأني بالروحانية العذبة..

أما هذه الشجرة المسكينة التي عزلت عن أخواتها، وأكرهت على أن تعيش في واقع غير واقعها.. وأن تعيش حياة غير حياتها.. فأنت تراها ذابلة ميتة.. نعم لها أوراق وسيقان تجعلها تعيش حياة بدائية.. ولكن بلا ثمار طيبة.. ولا روائح زكية.. ولا حياة مطمئنة.

قلت: ما علاقة ذلك ببغضك لنظرية دارون؟

قال: دارون نقل شجرة الإنسان من الغابة التي غرست فيها إلى غابة اختلط فيها الكل.. فلم تعد للإنسان رائحة الإنسان، ولا

---

1) انظر الرد العلمي على نظرية دارون في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

طعم الإنسان، ولا جمال الإنسان.

قلت: لم أفهم مرادك.

قال: لقد كان الإنسان منذ وجدت الدنيا ينظر إلى نفسه على أنه مخلوق مميز مكـرم مـزين بالعقـل والمشـاعر.. وبمـا لا يمكن حصره من القيم والمثل النبيلة.

ولكنـه بمجـيئ دارون.. وبتغلغـل أفكـاره في المجتمـع.. تغـير الموقف تماما.

فنظريــة دارون تقــرر حيوانيــة الإنســان وماديتــه.. أي أن الظروف الماديـة المحيطـة بالإنسـان هى الـتى أثـرت فى تطـوره وإعطائه صورته.. وهي بذلك تنفى القصد والغاية من خلقه، وتنفى التكريم الربانى له بإفراده بين الكائنـات الأخـرى بالعقـل والقـدرة على الاختيـار والقـدرة على التميـيز فضـلا عن المزايـا الإنسـانية الأخرى.

إن نظريـة كهـذه يمكن أن تعطى إيحـاءات خطـيرة فى كـل اتجاه (1)..

فحين يكـون الإنسـان حيوانـا أو امتـدادا لسلسـلة التطـور الحيوانى، فأين مكان العقيدة فى تركيبه، وأين مكان الأخلاق، وأين مكان التقاليد الفكرية والروحية والأخلاقية والاجتماعية!؟

وحين يكون حيوانا، أو امتدادا لسلسلة التطور الحيوانى، فمـا مقياس الخطأ والصواب فى أعماله؟.. وكيـف يقـال عن عمـل من أعماله إنه حسن أو قبيح، جائز أو غير جائز.. أو بعبارة أخرى: كيف يمكن إعطاء قيمة أخلاية لأعماله؟

وحين يكون حيوانا، أو امتدادا لسلسلة التطور الحيوانى، فمـا معـنى الضـوابط المفروضـة على سـلوكه؟.. ومـا معـنى وجـود الضوابط على الإطلاق(2)؟

التفت إلي، وقال: أتدري ما سر انتشار هذه النظرية، وما نتج عنها من خلل؟

قلت: ما سره؟

قال: الكنيسة..

قلت: ما علاقة الكنيسة بهـذا؟.. لقـد كـانت الكنيسـة من أهم المعارضين لدارون.

قال: ولكن الخلل الفكـرى الـذي حـدث فى حيـاة أوروبـا فى

---

1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.

2) قـالت الداروينيـة الحديثـة – فيمـا بعـد – إن الضـوابط موجـودة فى الكيـان " البيولوجى " للإنسان، فى تركيب مخه وجهازه العصبى، وإنه متفرد بهذا عن الحيوان.

ظل سيطرة الكنيسة الفكرية هو الذى رشح للهزة التى أصابت هذا الفكر يوم أطلقت عليه فكرة التطور، فقد كان كل شئ فى حس أوروبا المسيحية الكنسية ثابتا منذ الأزل، وسيظل ثابتا إلى الأبد.. ليست فكرة الألوهية فقط هى التى ينطبق عليها تصور الثبات، ولا القيم الدينية والأخلاقية وحدها، ولكن الجبال والشجر والحيوان والطير، والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. وكل شئ فى الحياة.

البابا هو البابا ذو القداسة، يذهب واحد ويجئ آخر، والبابوية ذاتها وقداستها أمر ثابت لا يتغير..

الملوك والأباطرة هم الملوك والأباطرة.. يذهب منهم من يذهب ويجئ من يجئ.. ولكن الملكية ذاتها أمر ثابت لا يتغير..

الإقطاع هو الإقطاع.. يذهب أمير ويجئ أمير.. بنفس الصورة، ونفس المعاملة، نفس السيادة من جهة، والعبودية من الجهة الأخرى.. وكلها أمور ثابتة لا تتغير.

من ثم غلب على الفكر الأوروبى المسيحى الكنسى تصور الثبات فى كل شئ.

فلما وقعت الثورة الفرنسية وأزالت الإقطاع والملكية، وزلزلت نفوذ الكنيسة كان ذلك حدثا حادا فى تاريخ أوروبا أثر تأثيرا عميقا فى كل اتجاه، ولكنه كان قمنا ـ بعد فترة من الزمن ـ أن يفقد حدته، ويستقر على صورة فيها لون من الثبات.

ولكن دارون جاء، فأطلق قذيفته على أمر لم تهزه حتى الثورة الفرنسية ذاتها، التى زلزلت كثيرا من الأوضاع فى أوروبا، فقال: إن الخلق ذاته غير ثابت، وإن الإنسان لم يكن إنسانا حين وجد أول مرة بل كان شبيها بالحيوان.

وفي ذلك الوقت سارع المفسدون في الأرض إلى تولي هذه النظرية، بل وإخراجها من إطارها الضيق الذي وردت فيه، إلى إطار أوسع وأضخم..

لقد سارع هؤلاء المفسدون يرمون فكرة (الثبات) ذاتها وقالوا ـ مستغلين فكرة التطور ــ إنه لا شئ ثابت على الإطلاق، وإن طلب الثبات فى أى شئ.. في الدين أو الأخلاق أو التقاليد.. هو فى حد ذاته فكرة خاطئة.. فكرة غير علمية.. فكرة مخالفة لطبيعة الأشياء.

ثم ظلوا يرددون هذه الأقاويل، وينشرونها ويؤكدون عليها، حتى صارت هى الصبغة المسيطرة على الفكر البشري، لا يقبلون

فيها جدلا ولا مناقشة.. ومن ناقش فهو الـرجعى المـتزمت الجامـد المتأخر الذى يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى الـوراء.. وعقـارب الساعة لا ترجع أبدا إلى الوراء.. وستسحقه عجلة التطور الـتى لا تبقى ولا تذر(1).

التفت إلي، وقـال: هـل تـرى هـذه الحيـاة الـتي نعيشـها في وسط هذا الزحمة؟

قلت: نعم.. وأصـدقك القـول بـأن نفسـي تضـيق في هـذه المحال.

قال: نفسك تضيق، لأنه لا زال فيك بعض الفطرة.. أمـا أكـثر من تراهم، فقد انتكست فطرتهم.. فلذلك لا يحبـون إلا مثـل هـذه الأجواء المدنسة.

قلت: ولكن التطور اقتضى هذا؟

قال: أرأيت.. أنت نفسـك تقـع في وهم التطـور.. إن التطـور هو القنبلة التي ستلقينا في أودية الهلاك.

قلت: ألذلك أيضا علاقة بهذه الشجرة؟

قال: أجل.. هذه الشجرة التي قلعها دارون من غابة الإنسانية ليغرسها كما شاء له هواه في غابة الحيوانيـة صـارت عرضـة لكـل تبديل وتغيير..

جـاء مـاركس.. فقلـع من هـذه الشـجرة جـذور الروحانيـة والإيمان والتوجه للملأ الأعلى..

وجاء فرويد.. وقلع عن هذه الشجرة ثيابها، ليحيلهـا عاريـة، لا يسترها حياء، ولا تحفظها قيم..

وجـاء دركـايم، فأنشـأ نظريـة اجتماعيـة لتفسـير الظـواهر الاجتماعية بناها على حيوانية الإنسان، وغلبة نزعة القطيع الحيوانية عليه من جهة، وعلى انعدام الثبات فى القيم الاجتماعيـة من جهـة أخرى.. فقلع عن هذ الشجرة جميع أصولها التي تربطها بالإنسان.

وهكـذا ظـل المفكـرون الـذين يسـتوحون أفكـارهم من الشياطين، وظلت معهم الحكومـات الجبريـة، تضـع تعـديلاتها على شجرة الإنسان إلى أن حولتها إلى مسخ لا علاقة له بالإنسان.

قلت: فأنت يائس إذن من حياة شجرة الإنسان.

قال: لا.. لست يائسا.. ولو كنت يائسا، لما رأيتني أسقي هذه الشجرة، وأمسح آهاتها.

قلت: وما الذي دفعك إلى عدم اليـأس.. أتـراك ظفـرت بمن

---

1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.

يعيد شجرة الإنسان إلى غابة الإنسان.

قال: أجل.. لقد وجدتـه.. لقـد نجح في الحفـاظ على شـجرة الإنسان طوال قرون عديدة، وترك لنا من التعاليم السامية ما يعيد الإنسان إلى فطرته وطبيعته التي جبل عليها.

قلت: من تقصد؟

قال: محمد..

قلت: نبي الإسلام!؟

قال: بل نبي الإنسان.. محمد هو النبي الوحيـد الـذي لا تـزال تعاليمـه هي العلاج الوحيـد للإنسـانية.. وهي الأمـل الوحيـد لعـودة الفطرة الإنسانية.

قلت: ما سر ذلك؟

قال: إن محمدا يتلقى معارفه عن الإنسـان، لا من عقلـه، ولا من تجاربه، ولا من بحوثه، بل يتلقاها من مصدر لعلـه هـو المصـدر الذي خلق الإنسـان.. ومن خلـق الإنسـان عـرف حقيقتـه، وعـرف حقوقه.

قلت: نحن الآن في عصر العلوم.. أترى مخابرنا التي وسـعت كل شيء ضاقت بمعرفة الإنسان.

قـال: أجـل.. لأن الإنسـان ليس مـادة جامـدة.. وليس شـيئا واحدا.. إنه في كل لحظة كيان جديد، بل هو في كل لحظة كيانـات كثيرة..

والأمر ليس قاصـرا على الفـرد.. بـل على المجمـوع.. فلكـل إنسان إنسانيته الخاصة التي تميزه عن غيره.

فهل يمكن لمخابرنا مهما دقت مقاييسها أن تضع كـل البشـر وفي كل لحظة من لحظات حياتهم في محك مخابرها؟

قلت: ذلك غير ممكن.

قال: فلذلك كانت معرفة حقيقة الإنسان انطلاقا من المخـابر غير ممكنة..

حقيقة الإنسان

قلت: فهل عرف محمد حقيقة الإنسان؟

قال: أجل.. لقـد تضـمن الكلام المقـدس الـذي تـنزل عليـه.. وتضمنت الكلمات العظيمة التي نطق بهـا حقيقـة الإنسـان.. وهي الحقيقة التي بنيت على أساسها حقوق الإنسان في الإسلام..

قلت: أراك تدمج كلامك عن الحقيقة بالحقوق.

قال: لأن الخطأ الذي وقع فيه قومنا هو فصلهم بين الحقيقة والحقوق.. أو هو انطلاقهم في سن الحقوق من معلومات خاطئة.

نظر إلى الشجرة، وقال: هذه الشجرة.. إذا لم نعرف حقيقتها ونوعها وجنسها وأصناف حاجاتها، فإننا لا يمكن أن نتعامل معها معاملة صحيحة.. بل قد نسقيها سما، ونحن نتصوره دواء.

قلت: فحدثني عن تصور الإسلام لحقيقة الإنسان التي بنى عليها تصوره لحقوقه.

قال: لقد طفت المذاهب.. وسألت أرباب الأفكار.. وجلت على الحضارات والأديان أسألها عن الإنسان، فلم أجده إلا عند محمد.

قلت: فماذا قال لك محمد؟

قال: لقد أخبرني القرآن المقدس الذي تنزل على محمد عن حقيقة الإنسان في مواضع كثيرة تجتمع جميعها في قصة خلق الإنسان.. ففي القرآن: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)(البقرة)

إن هذه الآيات تجمع جميع الحقائق التي تفصل النظرة الإسلامية الإنسان عن جميع النظرات المدنسة بلوثات الأهواء:

العبودية:

لقد بدأت الآية الأولى بذكر الله رب الإنسان.. وذكر الخالقية..

وأن الإنسان مخلوق لله..

وهـذه نقطـة خلاف جوهريـة بين الإسـلام وجميـع المـذاهب الماديـة الـتي تسـيطر على عقـول بنـاة الحضـارة الغربيـة وكـل الحضارات الجاهلية..

ذلك أن الإنسان يدرس في جميع العلوم الإنسانية بمعزل عن خالقه، كأنما هو قد خلق نفسـه، أو كأنمـا وجـد بغـير موجـد.. وقـد ترتب على هذا ألا تكون للإنسان مرجعيـة خـارج حـدود ذاتـه، إنمـا يكون هو مرجـع نفسـه، فمـا يـراه هـو يكـون هـو الأصـل وهـو الصواب.. إنه بعبارة أفصح هو الإله.

لقد نشأ هذا الانحراف الخطير في مدارسنا ومعارفنا وعلومنا من التصورات الخاطئة التي كانت تحملها الكنيسة، وتفرضـها على الناس..

لقد كان رد فعلنا تجاه طغيان الكنيسة منذ عصر النهضة هو التمـرد على سـلطان الكنيسـة، والتمـر على اللـه ذاتـه، وإقامـة الإنسان نفسَـه مرجعـا بـدلا من اللـه، وكـانت هـذه بدايـة العلـوم الإنسـانية.. أي العلـوم الـتي يؤخـذ العلم فيهـا من الإنسـان، لا من خالق الإنسان.

لست الوحيد الذي يقرر هذا.. ولسـت الوحيـد الـذي اكتشـف هذا.. لعلك قرأت كتاب (مبادئ الفلسفة) لـ (رايو برث)، لقـد قـال يتحـدث عن عصـر النهضـة: (وامتـاز هـذا العصـر بشـعور الإنسـان بشخصيته المطلقة، وبمعارضـته للسـلطة وذويهـا، وذهابـه شـوطا بعيدا في اعتبـار العـالم كلـه وطنـا لـه.. وقـد أعلت النهضـة شـأن الطبيعة الإنسانية والحياة الدنيوية، مخالفة في ذلك طريقة التفكير في القـرون الوسـطى، ولـذلك يسـمى العلمـاء الـذين خصصـوا أنفسـهم لدراسـة آداب اليونـان والرومـان والعلـوم عنـد القـدماء الإنسانيين.. وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الإنسانيون نمو الفردية، أعني الرأي القائل بأن الإنسان ينبغي أن يفكر بنفسه لنفسه، وهـو رأي كان قد أهمل في عصر عبودية العقل)(1)

سأضـرب لـك نموذجـا يوضـح لـك هـذا.. يقـول (جوليـان هكسلي) في كتابه (الإنسان في العالم الحديث): (إن الإنسـان قـد خضـع للـه في الماضـي بسـبب عجـزه وجهلـه، والآن ــ وقـد تعلم وسيطر على البيئة ـ فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه مـا كـان

1) رايو برث، مبادئ الفلسفة، ترجمة محمد أمين، طبع دار الكتـاب العـربي ببـيروت، ص 119 – 120.

يلقيه من قبل في عصر العجـز والجهـل على عـاتق اللـه، ومن ثم يصبح هو الله)

ويقـول في نفس الكتـاب: (إن أسـطورة بروميـثيوس[1] مـا تزال كامنة في كيان الأوربي الحديث توجهـه على غـير وعي منـه، فالأوربي المعاصر هو بروميـثيوس الحـديث الـذي يريـد أن يضـع نفسه في مكـان الإلـه، وكلمـا تعلم، وزادت سـيطرته على البيئـة، ارتفع في حس نفسه درجـة، وهبـط الإلـه مقابـل ذلـك في حسـه بنفس القدر، حتى إذا استطاع يوما أن يخلق الحياة انتهى الإله من حسه تماما، وأصبح هو الله)

التفت إلي، وقال: أرأيت مبلغ الخطر الذي وصلت إليه العلوم الإنسانية في عزلها الله عن خلق الإنسان..

قلت: هذا رجل مجنون لا ينبغي أن نقيس عليـه، ولا أن نأخـذ بقوله.

قال: كلهم مجانين.. كل من أخـرج هـذه الشـجرة من غابتهـا ليضعها في هذا المستنقع مجنون..

لم يكن هكسلي وحده هو الذي قال ذلك.. الكـل قـال ذلـك.. صرح أو كتم، يقول برنتون: (فالمذهب العقلي يتجه إلى إزالة اللـه ومـا فـوق الطبيعـة من الكـون، ومن الوجهـة التاريخيـة فـإن نمـو المعرفة العلمية، وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلي نحو الكون)[2]

ويقول: (إن السببية تهدم كل مـا بنتـه الخرافـات والإلهامـات والمعتقدات الخاطئة في هذا العـالم (يقصـد المعتقـدات الدينيـة).. فالإلـه في عـرف نيـوتن أشـبه بصـانع السـاعة، ولكن صـانع هـذه الساعة الكونية ـ ونعني بها الكون ــ لم يلبث أن شـد على رباطهـا

---

1) (بروميثيوس) كائن أسطورى كان الإلـه (زيـوس) يسـتخدمة فى خلـق النـاس من الماء والطين، وقد أحس بالعطف نحـو البشـر، فسـرق لهم النـار المقدسـة من السـماء وأعطاها لهم. فعاقبه (زيوس) على ذلك بأن قيده بالسلاسل فى جبال القوقاز حيث وكل به نسر يرعى كبده طول النهار وتتجدد الكبد فى أثناء الليل، ليتجدد عذابه فى النهار.

ولكى ينتقم (زيوس) من وجود النار المقدسة بين أيدى البشر أرسل إليهم (باندورا) – أول كائن أنثى على وجه الأرض – ومعها صندوق يشتمل على كافة أنواع الشـرور ليـدمر الجنس البشرى.. فلمـا تزوجهـا (إبيميـثيوس) – أخـو (بروميـثيوس) – وتقبـل منهـا هديـة (الإله!) فتح الصندوق فانتشرت الشرور وملأت وجه الأرض.

وهذه الأسطورة ـ في الفكر الغربي ـ ترمز إلى طبيعة العلاقة بين البشر والله، فالنـار المقدسة، نار (المعرفة) قد اسـتولى عليهـا البشـر سـرقة واغتصـاباً من الآلهـة، ليعرفـوا أسـرار الكـون والحيـاة، ويصـبحوا آلهـة! والآلهـة تنتقم منهم فى وحشـية وعنـف، لتنفـرد وحدها بالقوة، وتتفرد دونهم بالسلطان.. (انظر: منهج الفن الإسلامى، محمد قطب)

2) جرين برنتون، منشأ الفكر الحديث، ترجمة عبد الرحمن مراد ص 27.

إلى الأبد، فبإمكانه أن يجعلها تعمل حتى الأبد، أما الرجال على هذه الأرض فقد صممهم الإله كأجزاء من آلته الضخمة ليجروا عليها، وإنه ليبدو أنه ليس ثمة ذاع أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الكونية، الذي لا يستطيع ـ إذا ما أراد ــ التدخل في شئون عمله)(1)

أرأيت هذا المجنون الثاني.. إنه يقر بإله.. ولكنه يعزله.. وما جدوى إله معزول.

أتدري ما الذي أفضى إليه هذا القول؟

قلت: أنبئني.

قال: إن كل اختلال حصل في هذه الحضارة لم يحصل إلا بسبب هذا الموقف من الإله.. إن عزلها الإنسان عن الله هو الذي جعلها تسقط في أحضان الشيطان.. وهي سائرة خلف خطاه لن ينقذها إلا هدي محمد.

قلت: لم؟

قال: لأنه يستمد من المنبع الذي نبع منه الإنسان.

قلت: إن كان ذلك بسبب إخباره بأن الإنسان مخلوق خلقه الله.. فهو مما تتفق عليه جميع الأديان.. بل إن قوم محمد من المشركين كانوا يقولون ذلك، فقد ذكرهم القرآن، فقال: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87)(الزخرف)

قال: ليس ذلك فقط ما أقصده.. إن هؤلاء المشركين، ومثلهم كل الأديان التي تحمل تصورات خاطئة عن رب الإنسان لا تساهم إلا في زيادة خطأ معرفة الإنسان بنفسه، وبالتالي الخطأ في كل ما يرتبط به.

التفت إلي، وقال: فلنفرض أنه أتيحت لك طاقة كهربائية تستطيع أن تستخدمها في مجالات شتى، فهل يكون سلوكا علميا سليما أن تقول: لا يهمني مصدر هذه الطاقة، ولن أشغل نفسي بمحاولة التعرف على هذا المصدر، إنما الذي يعنيني هو هذه الطاقة ذاتها، وطريقة استخدامها، والمجالات التي يمكن أن تستخدم فيها!؟

قلت: ربما أقول هذا.. وربما يقول هذا أكثر الناس.

قال: إن هذا قد يستقيم لو أن هذه الطاقة كانت تجري على منوال واحد، وبحسب ما تشتهي.. لكنها إذا فاجأتك كل مرة بأمور لا تستطيع تفسيرها، ومن ثم لا تستطيع أن تستخدمها على الوجه

1) جرين برنتون، منشأ الفكر الحديث، ترجمة عبد الرحمن مراد ص 151.

الأمثل، فمرة تجدها متدفقة ومرة تراها منحسرة بغير سبب ظاهر لك.. مرة تنير، ومرة تحرق.. مرة تزيد من حيويتك، ومرة تعرضك للهلاك..

ألا ترى أن التعرف على المصدر، وطبيعته، وطريقة تصريفه لهذه الطاقة، سيعينك على فهم تلك الظواهر التي لا تفسير لها عندك، ويعينك ذلك على استخدام تلك الطاقة في أحسن أوضاعها!؟

قلت: أجل.. ذلك صحيح.. بل إني في تلك الحالة لا أستغني عن معرفة مصدرها.

قال: أرأيت لو بحثت.. ولكنك سقطت على معلم جاهل، فدلك على معلومات خاطئة تتعلق بمصدر الطاقة؟

قلت: حينها لا يختلف الأمر.. بل قد أقع في دواهي لا تقل عن الدواهي التي كنت أمر بها قبل أن أتعرف عليه.

قال: فقد عرفت إذن أهمية المصدر الصحيح في السلوك الصحيح.

قلت: فهل جاء محمد بالمعلومات الصحيحة عن مصدر الإنسان؟

قال: أجل.. فالله ـ في التصور الإسلامي ــ لا ينحصر في أنه هو مصدر الوجود البشري وخالقه، وإنما هو إلى جانب ذلك المنعم المتفضل.. الرزاق ذو القوة المتين.. المدبر لأمر الوجود كله.. الفعال لما يريد.. يقول القرآن في صفة الله: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد:3) وهو الذي ﴿ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:28).. و﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(24)﴾(الحشر).. و﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)﴾(الإخلاص)

ولله في التصور الإسلامي سنن في التعامل مع خلقه.. هي بمثابة القوانين التي تنظم حياتهم كما تنظم حياة جميع الوجود.

فالبذخ المادي.. والترف المعيشي الذي نتصوره حضارة، ونقيس الأمم على أساسه لا يعني شيئا بالنسبة للسنن الإلهية.. ذلك أنه قد يكون نوعا من التخمة القاتلة، أو من السمن الكاذب:

ففي القرآن: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44)﴾(الأنعام)

وتوزيع الأرزاق بين الناس ومثلها المواهب فضل من فضل الله يدعو إلى التواضع والعبودية.. لا الكبر والبطر، ففي القرآن: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾(الزخرف:32)

وهذا التفضيل المؤقت.. أو المرتبط ببعض الجوانب لا يعني التفضيل المطلق.. فالقرآن ينكر تلك التصورات التي تجعل الإنسان يقيس غيره بمقدار ما عنده من ثروة: ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17)﴾(الفجر)

ولهذا.. فإن النظرة الإسلامية للإنسان في غاية السمو والرفعة.. لأنها تستمد قوانينها وسننها من المنبع الذي جاء منه الإنسان.. لا من العقول التي أوحت لها الشياطين بزخرف القول لتشغل الإنسان عن الإنسان.

فتلك العقول التي تدرس الإنسان بمعزل عن خالقه، وعن السنن الربانية التي تحكم حياته، تتيه في المعيار الذي تقيس به تصرفاته، وتتيه في المعيار الذي تقيس به إنجازاته..

وتتيه بحسب ذلك فيمن تعتبره مرتفعا راقيا، ومن الذي نعتبره منتكسا هابطا.. أم الكل سواء.

وتتيه في التصرفات.. أيها تعتبره خيرا.. وأيها تعتبره شرا.. أم لا خير ولا شر..

وتتيه في الإنجازات.. أيها تعتبره صالحا.. وأيها نعتبره فاسدا.. أم يستوي الأمران في الميزان.

من هنا تتخبط النظريات، وتتخبط التفاسير التي تحاول أن تفسر السلوك البشري والحياة البشرية، ما بين مبدأ اللذة والألم، ومبدأ النفعية، ومبدأ نسبية القيم؛ وما بين التفسير المادي للتاريخ، والتفسير اللبرالي ؛ وما بين الغاية التي تبرر الوسيلة، واللاغائية، والعدمية، والفوضوية، والوجودية.. وكلها مذاهب، وكلها تفاسير.. وكلها لا تزيد الإنسان إلا بعدا عن الإنسان.

الازدواج:

قلت: وعيت هذا.. وأدركت أهميته.. فأنبئني عما فهمته من

ذلك النص القرآني من موقف الإسلام من الإنسان.

قال: في ذلك النص يبين القرآن أركان الإنسان.. فهو قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله.. وهما مترابطان متماسكان متفاعلان، يتكون منهما معا كيان موحد(1).

هذا الكيان ليس قبضة طين خالصة، كما كان قبل النفخة العلوية فيه.. وليس روحا خالصة طليقة من قبضة الطين.. إنما هو الأمران معا فى وحدة مترابطة تختلف فى خصائصها اختلافا جذريا عن قبضة الطين الخالصة، ونفخة الروح الخالصة، وإن كانت تحمل بين الحين والحين بعض أوجه الشبه من هذه وتلك، حين تجنح جنوحا شديدا نحو عالم الجسد أو عالم الروح، ولكنها حتى فى تلك الحالات لا تكون مماثلة أبدا لأي من العنصرين منفصلين.

فالإنسان فى لحظة الشهوة الجامحة غير المنضبطة يكون أقرب إلى قبضة الطين، لأنه يتعامل بجسده أكثر من أى جانب من جوانبه، ومع ذلك لا يكون أبدا جسدا خالصا كالحيوان، لأن فيه ـ على الأقل ـ قدرا من الوعي والإرادة والاختيار حتى فى هذا العمل اللاصق بالطين، بينما الحيوان لا يعمل بوعى ولا إرادة حرة ولا اختيار.

وفى لحظة التوجه الروحي الراقي يكون أقرب إلى نفخة الروح، لأنه ينطلق بروحه من إطار الحس المحدود، ومع ذلك لا يكون أبدا روحا خالصة كالملائكة، لأن له جسدا لا يستطيع أن يتخلص من وجوده، وعقلا لا يكف تماما عن التفكير.

هذا هو الإنسان كما يفسره الإسلام بعنصريه المكونين له: قبضة الطين، ونفخة الروح.

والخطأ الذي وقعت فيه كل الحضارات والمذاهب والأديان هو محاولتها تفسير الإنسان بعنصر واحد من عنصريه دون الآخر.. وهذا هو الخطأ الأكبر الذي تسللت منه سائر الأخطاء..

فالحضارة المادية التي تأسست على المذاهب المادية تبرز جانب الجسد، وجانب الحس، وجانب المادة، فإذا أخذت شيئا من النفخة العلوية أخذت جانب العقل وأبت جانب الروح، وسخرت العقل ــ من ثم ــ فى شهوات الجسد ومطالب الحس وعالم المادة، ففقد علويته ورفعته، وأسف مع قبضة الطين، وأنشأ عمارة مادية للأرض خالية من إشراقة الروح.

والمذاهب الروحية تبرز جانب الروح، وتهمل الجسد وتكبته

1) الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب، بتصرف.

وتقهره وتحتقره وتقوم بتعذيبه من أجل رفعة الروح، كما تفعل الهندوكية والرهبانية، كما أنها تهمل عالم الحس وعالم المادة، فلا يقوم الإنسان بعمارة الأرض، ولا يقاتل الشر والطغيان، ولا يجاهد لإقامة الحق والعدل، اكتفاء بلذة الفناء في عالم الروح، التى يتم من خلالها الوجود(1).

الآدمية:

قلت: وعيت هذا.. وعرفت أهميته.. فما فهمت من القرآن من تميز التصور الإسلامي للإنسان.

قال: الآدمية.. لقد ورد في الآيات التي تلوتها عليك أن أول البشر هو آدم.. وآدم لم يكن من عائلة الشمبانزي.. بل هو مخلوق بالأصالة.. لقد أراد الله القادر على كل شيء أن يخلق الإنسان، فخلق الإنسان، وكان أول إنسان هو آدم.

ولهذا نرى القرآن يذكر البشر بأبيهم الذي ينتسبون إليه، ففيه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31)﴾(الأعراف).. وفيه:﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (27)﴾(الأعراف)

قلت: أراك تشتد ككثير من المسلمين في إنكار هذا.. مع أني لا أرى فيه من المبالغة ما ترى.. اللهم إلا ما أدى إليه استغلال هذه النظرية، وتحميلها ما لا تحتمل.

قال: لا.. هذا من أصول الأخطاء، وليس من فروعها.. فالداروينية التي تقول بأن الإنسان لم يخلق إنسانا من أول لحظة، إنما هو تطور عن كائن آخر هو القرد الشبيه بالإنسان، والمتطور بدوره عن أحد القردة العليا الأربع: الشمبانزي والغوريللا والأورانج أوتانج والجيبون، وأنه مر في تطوره بمراحل عدة، كان يقترب فيها في كل مرة من وضعه الحالي.. فكان في مبدأ أمره يمشي على أربع، وينتصب قائما أحيانا كما تفعل القردة العليا، ثم زاد انتصاب قامته حين أخذ يأكل من ثمار الأشجار، فأصبح رأسه من ثم يرتكز على الجذع أكثر مما يكون معلقا في الفضاء، فأتيح لمخه أن يكبر، فتكلم وتعلم، ورويدا رويدا على مدى من الزمن لا يكاد يحصى أصبح هو الإنسان..

هذه النظرية لا تهتم بالإنسان.. كما ذكره القرآن.. باعتباره

---

1) انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب.

أصلا قائما بذاته، وإنما تهتم بالخيوط التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان.. لتقول للإنسان: أنت بسبب هذه الخيوط حيوان لا إنسان.

ففي هذه النظرية جرى التركيز على الخصائص الجديدة التي يكتسبها الكائن المتطور، لا على السمات التي يشترك فيها مع الكائنات السابقة عليه، التي لم تسر على خط التطور مثله.

فهناك مثلا ـ بحسب النظرية ـ كائن ليس له جهاز سمعي، تلاه في التطور كائن يشبهه في كثير من الخصائص، ولكنه اكتسب جهازا سمعيا لم يكن موجودا في الكائنات المشابهة له، السابقة عليه، والتي تطور عنها.. فعند الحديث عن هذا الكائن يكون التركيز على هذه الحاسة الجديدة التي اكتسبها والأطوار التي مرت بها حتى اكتملت في وضعها النهائي.. وكذلك لو كان الكائن قد اكتسب جهازا بصريا أو جهازا للطيران، أو جهازا لتنظيم الدورة الدموية.. مما لم يكن لأقرانه الذين تطور عنهم.

وكان مقتضى ذلك بالنسبة للإنسان أن يكون التركيز على ما تفرد به الإنسان عن أشباهه من الكائنات السابقة عليه، التي تطور عنها، لا على أوجه الشبه بينه وبين تلك الكائنات.. وذلك كله على فرض صحة الفرضية من أساسها.. ولكن الذي جرى على يد داروين كان هو التركيز على أوجه الشبه بين الإنسان والقردة العليا (مع افتراض وجود حلقة مفقودة بينهما) أكثر من التركيز على ما تفرد به الإنسان.. أي ـ بعبارة أخرى ـ التركيز على حيوانية الإنسان، وليس على إنسانيته.

لقد حاولت الداروينية الحديثة سدّ هذا الخلل في تطبيق النظرية بالنسبة للإنسان، فكتب جوليان هكسلي، وهو من عمد الداروينية الحديثة كتابا سماه (الإنسان في العالم الحديث) بدأه بفصل طويل بعنوان تفرد الإنسان، ذكر فيه أن المعلومات التي بنى عليها داروين نظريته كانت ناقصة، وأن العلم الحديث كشف عن جوانب كثيرة من تفرد الإنسان لم تكن معلومة لداروين، وجاء في هذا الفصل قوله: (وبعد نظرية داروين لم يعد الإنسان مستطيعا تجنب اعتبار نفسه حيوانا، لكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا، وفي حالات كثيرة لا مثيل له. ولا يزال تحايل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام)

وجاء فيه: (وهكذا وضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات كما تقول الأديان).. وفيه:

(وأخيرا، فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره)(1)

ولكن على الرغم من هذه المحاولة من جانب الداروينية الحديثة ما زال الإنسان ـ في أذهان الناس جميعا ــ حيوانا.. وما زال التركيز على الجانب البيولوجي من كيانه، ولا ذكر على الإطلاق للجانب الروحي من الإنسان.

إن السخرية بالإنسان تصل بالداروينية حدها حين تقصر تطور في الإنسان في عقله وإبهامه.

عقله تطور حين تعود الإنسان ـ أو الكائن الشبيه بالإنسان ـ على الوقوف منتصبا لفترات طويلة ليأكل من ثمار الشجر، فارتكز رأسه على الجذع، فأتيح للمخ أن يكبر، فتعلم وتكلم.

وإبهامه تطور (ولا أدري لماذا!) فصار يحسن الإمساك بالأشياء، فاستخدم الأدوات، ثم سعى إلى تحسينها، فصارت له حضارة.. وصار له تاريخ.

وفيما عدا هذين.. بقي الإنسان حيوانا..كان وما يزال.

قلت: ألم ير هؤلاء الأغبياء الإنجازات الحضارية العظيمة التي قام بها الإنسان دون سائر الحيوانات؟.. ألم يكن في هذا ما يكفيهم ليصدهم عن وساوسهم تجاه حقيقتهم؟

ابتسم، وقال: لم يصعب عليهم أن يجدوا حلا لذلك..

لقد ذكروا أن الإنسان حيوان.. كان وما يزال.. تطور منه ما تطور، ولكنه لم يخرج من حيوانيته.

وما دامت أهداف ومشاغل الحيوان تنحصر في صراع البقاء، والاستمتاع، المتمثل في الطعام والشراب والجنس.. فإن هذه نفس مشاغل الإنسان وأهدافه.

والفرق بينهما.. بين الإنسان المتطور، والحيوان.. هو أن الحيوان يقوم بهذين الأمرين بدافع الغريزة، بغير وعي منه لما يفعل، ولا وعي منه بأنه يقوم بما يقوم به من أعمال وتصرفات لتحقيق هذين الهدفين الرئيسيين في حياته.

أما الحيوان المتطور الذي هو الإنسان، فقد اكتسب الوعي حين كبر مخه نتيجة انتصاب قامته، فلم تعد كل أعماله غريزية، بل حتى الغريزي منها صار يمارسه بوعي، يبدأ بإدراك الرغبة وينتهي إلى تحقيقها مرورا بالبحث عن الوسائل المادية إلى إشباعها.. ولكن الأهداف تبقى هي الأهداف.. وهي صراع البقاء والاستمتاع.

---

1) جوليان هكسلي، الإنسان في العالم الحديث، مقتطفات من ص 3 – ص 9.

أما الحيوان، فهو يستخدم قوته العضلية ليأخذ مكانه في صراع البقاء، وليحصل على ضروراته، وأحيانا يستخدم الحيلة، ولكن بوحي الغريزة، وفي نطاقها.

وأما الحيوان المتطور فهو ـ إلى جانب عضلاته ـ يستخدم الأداة المستجدة التي اكتسبها في تطوره، وهي العقل، وكلما ارتقى صار استخدامه للعقل أوسع مدى وأكثر فاعلية، وذلك فضلا عما يتيحه له التطور الآخر ـ تطور إبهامه ـ من استخدام أدوات لا حصر لها لتحقيق أهدافه.

وأما الاستمتاع فقد ارتقى كذلك مع الحيوان المتطور، باستخدام التطورين الرئيسيين في كيانه، فدخل فيه العقل على نطاق واسع، يستجد فيه كل حين لونا جديدا من ألوان الاستمتاع، ويستخدم في سبيل ذلك مزيدا من الأدوات يخترعها العقل، وتستخدمها اليد ذات الإبهام المتطور.

ونشأ من ذلك التطور الحضارة..

فالحضارة بهذا هي حصيلة سعى الإنسان لإثبات ذاته في صراع البقاء، وسعيه إلى الاستمتاع من جانب آخر..

فسعيه إلى إثبات ذاته في صراع البقاء يتمثل في القوة الحربية، والقوة السياسية، والقوة العلمية، والقوة الاقتصادية.

وسعيه إلى الاستمتاع يتمثل في الفن بمحتلف أنواعه إلى جانب المتاع الحسي المباشر بما يلبي نداء الشهوات..

وهذه ـ بشقيها ـ هي معايير إنجازاته.

فالأمم تقاس بالقوة الحربية والقوة السياسية والقوة العلمية والقوة الاقتصادية التي تمكنها من البقاء في حومة الصراع، وتكفل لها ـ كلما تمكنت ـ سحق القوى الأخرى أو التغلب عليها ـ كما تقاس كذلك بتعدد الفنون التي تستخدمها من أجل الاستمتاع.

ويكون هذا هو المعيار التاريخي، والاجتماعي، الذي تقاس به عظمة الأمم خلال التاريخ.

أما القيم النبيلة ـ من نشر العدل وإزالة الظلم ونشر الخير، وإشراك الناس في الخير بدافع الإنسانية بصرف النظر عن المنفعة، والتعاون على البر والتقوى ـ فلا وجود لها في ظل هذا التصور.. إنها مجرد كلام جميل يتحدث عه المتحدثون، وشعارات يرفعونها، ولكنها عند الجد لا تؤخذ مأخذ الجد، لأنه لا مكان لها عند الحيوان الأصلي، ولا مكان لها كذلك عند الحيوان المتطور.

الخلافة:

قلت: وعيت هذا.. فهل هذا وحده تصور الإسلام عن حقيقة الإنسان؟

قال: لا.. كل ما ذكرته لك مقدمات عن حقيقة الإنسان.

إن الإنسان ككل شيء في هذا الوجود خلق لغاية يؤديها، وحكمة هي التي تحدد وظيفته، ثم تحدد بعد ذلك الحقوق التي يستدعيها توفير الجو لأدائه لوظيفته.

قلت: تقصد واجبات الإنسان.

قال: أجل.. فمن الخطأ أن نتحدث عن حقوق الإنسان، ولا نتحدث عن واجبات الإنسان.

قلت: الحضارة الحديثة.. بل كل حضارة.. طوقت الإنسان بكثير من الواجبات.. في مقابل ما تعطيه من حقوق.

قال: نظرة الإسلام للحقوق والواجبات تختلف كثيرة عن نظرة هذه الحضارة.. وعن نظرة كل حضارة.. وكل دين.. وكل فكر.

قلت: فما هي هذه النظرة؟

قال: الإسلام يعتبر الإنسان خليفة.. والآيات التي قرأتها لك تحدد هذه الوظيفة الكبرى التي تفسر سر وجود الإنسان على هذه الأرض، وتفسر سر الطاقات التي منحت له.

لقد قدم القرآن لقصة خلق آدم هذه المقدمة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(البقرة:30)

وبما أن الخلافة تتضمن الهيمنة والسيطرة والقدرة على الإنشاء والتعمير والقدرة على التمييز والاختيار.. فقد أمد الله الإنسان بالأدوات الصالحة للخلافة..

وفي القرآن ذكر لهذه الأدوات.. والتي هي أول الحقوق التي تستدعيها وظيفة الخلافة: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا..﴾(البقرة:31).. ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾(العلق).. ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)﴾ (النحل).. ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد).. ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)﴾(الشمس).. ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:61).. ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾(الجاثية:13).. ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ

رِزْقِهِ(الملك:15)

هذه أول الحقوق التي نالها الإنسان بفضل الله.. لا بفضل التطور.. ولا بفضل الصراع كما تدعي جميع النظريات البشريات.. إنما هي مواهب إلهية زود بها الإنسان ليستطيع أن يؤدي الوظيفة الخطيرة التي وكلت إليه.

قلت: لا أزال حائرا في معنى الخلافة.. وفي علاقة حقيقة الإنسان بها.. وفي علاقة حقوق الإنسان بها.

قال: الإنسان في التصور الإسلامي مخلوق كريم لغاية رفيعة.. هو لم يخلق كما تتوهم الفلسفات ليأكل ويشرب ويسيطر.. ويمارس من أنواع المتع ما يغذي الفراغ الذي تعاني منه روحه، وإنما خلق ليكون خليفة.. يتولى إدارة الأرض وعمارتها وتطويرها.. وبما أنه خليفة فإن ذلك يقتضي أمورا.. على أساسها تنبني حقيقة الإنسان وحقوقه(1):

أولها.. انتماء الجماعة البشرية إلى محور واحد هو الله، بدلاً من كل الانتماءات الأخرى، والايمان بسيد واحد للكون.. وهذا هو التوحيد الخالص الذي قام عليه الإسلام.

والثاني.. إقامة العلاقة الاجتماعية على أساس العبودية المخلصة لله، وتحرير الإنسان من عبوديات الأسماء التي تمثل ألوان الاستغلال والجهل والطاغوت.

والثالث.. تجسيد روح الأخوة العامة في كل العلاقات الاجتماعية بعد محو ألوان الاستغلال والتسلط، فما دام الله تعالى واحداً ولا سيادة إلاّ له، والناس جميعاً عباده ومتساوون بالنسبة إليه، فمن الطبيعي أن يكونوا اخوة متكافئين في الكرامة الإنسانيّة والحقوق.

والرابع.. الخلافة استئمان، والأمانة تفترض المسؤولية والاحساس بالواجب، اذ بدون ادراك الكائن انّه مسؤول لا يمكن أن ينهض بأعباء الامانة أو يختار لممارسة دور الخلافة.

والإنسان بهذا المفهوم الذي جاء به الإسلام للخلافة خارج عن أي نوع من أنواع التبعية لأي قوّة اجتماعية أياً كانت، بل هو خاضع لله وحده.. فلا قمية لنسب ولا لون ولا وطن ولا قومية.. ولا أي شيء من هذه الأشياء التي قام عليها التناحر بها بين البشر.

والخلافة بهذا الشكل حركة دائبة نحو قيم الخير والعدل والقوّة.. حركة لا توقف فيها لأنها متجهة نحو المطلق، وأي هدف

1) انظر: خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، الشهيد آية الله الصدر، ص 11 ـ 12.

آخر للحركة سوى المطلق سوف يكون هدفاً محدوداً، وبالتالي سوف يجمد الحركة ويوقف عملية النمو.

قلت: فما الفرق بين هذا الفهم الذي جاء به الإسلام.. وبين سائر المذاهب والأفكار؟

قال: الفروق عظيمة لا يمكن حصرها.. سأضرب لك أمثلة عنها لتدرك سمو التصور الإسلامي، وانحطاط سائر التصورات.

الإسلام يعتبر الإنسان.. كل إنسان.. خليفة لله.. أي انتماء الإنسان الأول لله، فهو الذي خلقه.. ومنه يستمد وجوده، ورزقه، وإليه يتوجه بالعبادة والدعاء.

وهذا الانتماء يجعله يمحو من خاطره وسلوكه كل تلك الانتماءات الضيقة التي تمليها عليها حدود المكان والزمان والمصالح.

ولهذا.. فهو يشعر بأخوة تنتظم جميع الكون.. ولا تنحصر في البقع الضيقة التي ولد فيها، أو انتسب إليها.

قارن هذا المفهوم الذي ينطلق من قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) (الحجرات) بجميع المفاهيم العنصرية التي تفوح من الأديان والمذاهب والحضارات..

إن القوميات والشعوب والقبائل والآباء والأنساب التي ابتعد بها الإنسان عن الانتماء لله.. كما يعنيه مفهوم الخلاقة.. هو الذي صدر مع صداه الضارب في أحقاب التاريخ أكثر الحروب، وأبشع العصبيات، وأرذل الجرائم الإنسانية.

فعندما انطلق الرومان من أرضهم الخصبة، ومعيشتهم الميسرة، وفلسفتهم وأساطيرهم لم يكونوا يحملون مع جيوشهم الجرارة من فضل حضارة وإنسانية، ليساهموا في رفعة الإنسان، بل كان زادهم الوحيد، وهاجسهم الوحيد، ودافعهم الوحيد هو أن يعرفوا العالم الذي نعتوه بالبربرية من هو الإنسان الروماني وأي دماء تسري في عروقه.

وعندما أباد خلفهم من الأوروبيين سكان أمريكا وأستراليا، واستعبدوا سكان إفريقيا واستعمروا سكان آسيا لم يكونوا يشعرون بأي ألم، وهم يستغلون الأرض، ويستسخرون البشر، ويمصون دماءهم، لأنهم كانوا يعتقدون، بل قد يصرحون، بأنهم الجنس السامي، والإنسان الممتاز، الإنسان الذي يجوز له أن يستغل من دونه كما يستغل سائر البشر النبات والحيوان.

ومرت حقبة على البشرية تصوروا أنهم تخلصوا من العبودية والاستعمار، وأن الإنسان ترقى ليمحو آثار الشعوبية والقبلية والعرقية، وأن العالم يتجه نحو الإنسان المفصول عن أعراقه، ولكن الأخبار التي تبث كل يوم، بل كل ساعة تكذب كل هذا.

فالآلاف يموتون في أنحاء العالم بجريمة من جرائم ذلك الإنسان الأشقر، فلا يلتفت العالم لهم، ولا يترحم عليهم، ولا يعزي ذويهم في مصابهم، لأن الموت هو المصير الحقيقي لهم، وهو الخاتمة السعيدة لمأساة وجودهم، فإذا ما جرح فرد من أفراد ذلك الجنس المتميز انتهض البشر جميعا لمداواة جراحه، وإذا ما فقد انتهضوا جميعا للبحث عنه، فإذا مات تحولوا جميعا معزين ومواسين، والويل لمن لم يفعل كل ذلك، أو بعض ذلك.

هذه الشعوبية والقبلية والعرقية هي التي وقفت قديما حائلا بين الشعوب واتباع أنبيائها، وهي التي تقف حاليا بين هذا العالم الذي يدعي معرفة كل شيء، ويتصور أنه حقق كل شيء، وبين الالتفات للبحث عن التفسير الصحيح للكون، والبحث الجاد عن حقيقة الإنسان.

التفت إلي، وقال: هذا مثال واحد عن أثر الوعي بحقيقة الخلافة في تقويم سلوك الإنسان والجماعات.. وهو مثال لم يكتمل نضجه إلى على أيدي محمد.

الخلود:

قلت: وعيت هذا.. فهل هذا وحده تصور الإسلام عن حقيقة الإنسان؟

قال: لا.. إن هناك شيئا عظيما.. بل هو أكسير لم يأت به إلا محمد.. وهو الذي يضع للحياة طعمها الجميل.. وهو الذي ينفي الصراع الذي يتوهمه الغافلون.

قلت: ما هو؟

قال: الخلود.

قلت: ما الخلود؟

قال: ألا ترى البشرية تتنازع وتتصارع من أجل البقاء؟

قلت: بلى.. وقد ولد ذلك الاستعمار والحروب الكثيرة التي لا نزال نرى آثارها.

قال: إن سر ذلك كله يكمن في عدم الإيمان بخلود الإنسان.. فلذلك تجده يلهث ليملأ ذلك الفراغ العظيم الذي تمتلئ به نفسه.

قلت: وهل أوجد الإسلام ما يملأ به ذلك الفراغ؟

قال: أجل.. لقد ذكر الإسلام للإنسان أنـه خالـد.. وأن المـوت مجرد مرحلة يمر بهـا كمـا يمـر بمرحلـة الجـنين.. وأنـه بعـد موتـه سيعيش الحياة الحقيقية التي هي نتيجة لحياته الدنيا..

إن هذا التصور الذي ذكره القرآن.. وجاء به الإسلام.. بصـورة لا نظير لها في جميع الأديان والمـذاهب.. هـو الحـل الوحيـد الـذي يقضي على ذلك الفراغ العظيم الذي يجعل هم الإنسـان محصـورا في الصراع والاستمتاع.

ولكن أولئـك الـدجالين الـذين وقفـوا يملأون عقـول البشـر بـأهوائهم اجتهـدوا جهـدهم لينفـوا هـذا.. فلهـذا لا تـرى في جميـع الدراسات الغربية التي اهتمت بالإنسان رعاية هذا البعد.

فجميع الدراسات تدرس الإنسان باعتباره يعيش حياتـه الـدنيا وحدها، ولا معاد له في الآخرة، وبذلك اختلت الموازين تماما.

فاعتبار الحياة الدنيا هي المبدأ والنهايـة يـؤثر تـأثيرا بالغـا في رؤيـة الإنسـان للأشـياء، ليس فقـط من الناحيـة الاعتقاديـة، ولكن كذلك من الناحية السلوكية والعملية والعلمية.

فحين يكـون أمامـك منظـر متكامـل تعـرف مبـدأه ومنتهـاه، وتستطيع أن تعـرف مكـان كـل جزئيـة فيـه، ودلالتهـا في المنظـر المتكامل، ثم تقتطع جزءا من المنظر، وتقول: يكفيني هذا الجـزء، ولست بحاجة إلى باقيه! هل يكون سلوكك عقلانيا؟.. وهل يكـون واقعيا؟.. وهل تحصل على نتائج علمية صحيحة؟!

إن إدراك الدلالـة الخاصـة لكـل جزئيـة في الصـورة يرتبـط ارتباطا وثيقا بالرؤية الشاملة للكل المتكامل المتمثل في الصورة، أما في القطاع الذي تقتطعه ـ أيا كان حجمه ـ فكيف تأخذ الجزئيـة دلالتها؟ وكيف تتكامل النظرة؟ فإذا كان الجزء الـذي اقتطعتـه هـو الأصغر، والمتروك هو الأكبر، فأي خلل يمكن أن ينشـأ في الرؤيـة، وإلى أي مدى تفقد الجزئيات دلالتها؟!

والعلوم الاجتماعيـة الـتي نشـأت وترعـرعت في الغـرب في ظل الصراع الحاد مع الكنيسة ودين الكنيسة ألغت اليوم الآخر من حسـابها تمامـا، على أنـه غيبيـات لا تخضـع للبحث العلمي، وميتافيزيقيـا ضـارة ومعوّقـة عن التقـدم العلمي والعمـراني، فلا ينبغي الاهتمام يها والالتفات إليها، ونشأ من ذلـك اختلال هائـل في رؤية القيم والأهداف.

فحين يعيش الإنسان للدنيا وحدها، ويعتقد أن مـا يجنيـه فيهـا من خير أو شر هو الحصية النهائيـة لجهـده، وألا بعث ولا نشـور ولا

حساب ولا جزاء في الآخرة، فكيف تكون قيمه، وكيف تكون أهدافه؟

إنه بذلك، سيركز على الهدفين الرئيسيين للحيوان: الغلبة في صراع البقاء، والاستمتاع، وإن كانت أدواته لتحقيق كل من الهدفين هي أدوات الحيوان المتطور، أي باستخدام العقل، واستخدام العدد والآلات.

ولأجل هذا يبرز مثل هذا الشعار (القوة هي الحق) ويكون قانون التعامل بين التجمعات البشرية بعضها وبعض هو قانون الغاب: القوي يأكل الضعيف أو ينحيه من الطريق، بصرف النظر عما هو حق وما هو عدوان.

وإن كان الكلام الحلو الذي تعلمه الحيوان المتطور حين أتيح لمخه أن يكبر، يفيض رقة وعذوبة وهو يتكلم عن التعاون الدولي، وعن الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الآخرين ولا ينفي هذا أن تكون هناك أخلاقيات في السياسة والاجتماع، وعلاقات الناس بعضهم وبعض في داخل كل تجمع على حدة، قائم على رابطة الدم أو العصبية القومية، ولكنها ـ باعترافهم ـ أخلاقيات نفعية، يتواضعون عليها لتقليل الاحتكاك في التجمع الواحد إلى أقصى حد ممكن، وتوجيه العدوان إلى الآخرين، ثم لينال كل إنسان حظه من الاستمتاع الحيواني بأقل قدر من المنغصات.. وحتى هذه الأخلاقيات ـ كما يقول دركايم ــ دائمة التقلب لا تثبت على حال.

حقوق الإنسان

قلت: وعيت حقيقة الإنسان كما يصورها القرآن.. وكما تصورها مذاهب البشر وأفكارهم، فما الحقوق التي تتطلبها هذه الحقيقة؟

قال: فما هي الحقوق التي تتصورها أنت؟

قلت: ثلاث: الحرية.. والإخاء.. والمساواة.. وهي الحقوق التي جاءت بها الثورة الفرنسية..

قال: وما الثورة الفرنسية؟

قلت: تلك التي أعلنت حقوق الإنسان.

قال: وأعلنت معها عقوق الإنسان..

قلت: ما تقول؟

قال: سأحكي لك القصة من أولها لتعلم أنه بقدر الحقوق

الـتي تصـور الإنسـان أنـه نالهـا في هـذه الثـورة بقـدر الضـرائب الضخمة التي دفعها.

نظر إلى الشـجرة الجاثيـة أمامنـا بحـزن، ثم قـال: لقـد قـام أولئك الثوار المساكين بقلـع شـجرة الإنسـان قلعـا شـديدا ممتلئـا بالفوضـى، فقطعـوا عروقهـا، وسـملوا أعين أوراقهـا، ثم ملأوهـا بالصور التي شاءت لهم أهواؤهم أن تحجب أشعة الشـمس عنهـا، ثم أحضروا مياه المستنقعات، فسقوها بها، فامتلأت بالأدواء.

قلت: كيف حصل كل ذلك؟

قـال: في ذلـك اليـوم الـذي اختلـط فيـه البغض بـالحب.. والحقوق بالعقوق.. قام الثوار الذين انفجر بهم الظلم الاجتمـاعي، وقام معهم المفسدون في الأرض(1)، إلى الثورة..

لقد كان النظام الاجتماعي الذي هيمن على الحيـاة الأوروبيـة طيلة القرون الوسطى هو نظـام (الإقطـاع) (2).. وربمـا كـان هـذا النظام أبشع النظم الاجتماعية في التاريخ (3).

وقد كان من رحمة الله بأمة محمد أنه لم يكن فيها هذا النوع من النظم.. ذلك أن سياسة المال التي اتسـم بهـا الإسـلام، كـانت تمنع ظهور الإقطاع.

والأخطر من ذلك.. ولعله هو الذي جـر الثـورة الفرنسـية إلى

---

1) يـدعى اليهـود في تبجح وغـرور أنهم صـناع الثـورة الفرنسـية ومـدبروها، تقـول البروتوكولات المنسوبة لهم:(تذكروا الثورة الفرنسية الـتي نسـميها الكـبرى.. إن أسـرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا)

وتقول:(كذلك كنا قديماً أول من صاح في الناس (الحرية والمساواة والإخـاء) كلمـات ما انفكت ترددهـا منـذ ذلـك الحين ببغـاوات جاهلـة متجمهـرة من كـل مكـان حـول هـذه الشعائر) (البروتوكولات:103،111)

وقد أيدهم في دعواهم هذه بعض الكتاب من أمثـال وليم كـار في (أحجـار على رقعـة الشـطرنج) وسـيبريدوفيتش في (حكومـة العـالم الخفية (انظـر أحجـار على رقعـة الشطرنج:فصل الثورة الفرنسية.وحكومة العالم الخفية:79)

ويدل لهذا أن اليهود تغلغلوا في منظمات الثورة المختلفة كالجمعية التأسيسية ونـادي اليعاقبة وبلدية باريس، ولهذا استطاعوا أن ينفثوا تلك الشـعارات الـتي رددتهـا الجمـاهير ببلاهة لا سيما شعار الثورة البارز (الحرية والإخاء والمساواة)، فهذا الشـعار الـذي قـامت عليه الثورة وحققته كان له عند اليهود تفسير آخر:

فهم يقصدون بالحريـة تحطيم القيـود الأخلاقيـة والتقاليـد الموروثـة الـتي تحـول بينهم وبين إفساد الأمم وتدميرها.

ويقصدون بالإخاء والمساواة كسر الحواجز النفسية والاجتماعية التي تحول بينهم وبين الانسلال إلى أجهـزة الدولـة وتنظيماتهـا، وإذابـة الفـوارق الدينيـة بينهم وبين غـيرهم كى تزول عنهم وصمة الاحتقار والمهانة.

وهكذا نجحوا في تحويل الثورة من ثورة على مظالم رجال الدين نفسه وجعلوا لفظـة الدين عند الشعوب الأوربية مرادفة للظلم والرجعية والتخلف والاستبداد.

2) سنتحدث عن هذا النوع من النظم في فصل (نظام) من هذه الرسالة.

3) انظر: العلمانية، لسفر الحوالى، وغيره من المراجع السابق ذكرها.

ذلك الانحلال أو ذلـك الاسـتغلال السـيء لمبادئهـا هـو أن الكنيسـة كانت أكبر الملاك الإقطاعيين، فلذلك وقفت ضـد الثـورة، بـدل أن تتولاها وتحميها وترشدها.

إن الكنيسة ـ التي حكمت أوروبا طيلة عصورها المظلمة ـ لم تكتف بصـد النـاس عن نـور الإسـلام، بـل ناقضـت تعـاليم الإنجيـل الداعيـة إلى المحبـة والتسـامح ونافسـت الأمـراء الإقطـاعيين في إذلال الشعوب وقهرها.

لقد برر القديس توما الاكويني نظـام الاسـترقاق الإقطـاعي بقوله: (إنه نتيجة لخطيئة آدم)(1) وكأن رجال الكنيسـة والبارونـات ليسوا من بني آدم.. ولهـذا لم تكن تلـك الثـورة في حقيقـة أمرهـا تمـرداً على الكنيسـة، لأنهـا كنيسـة، وإنمـا كـان ذلـك لأنهـا مالـك إقطاعي.

يقول ويلـز: (كـانت ثـورة الشـعب على الكنيسـة دينيـة ...فلم يكن اعتراضـهم على قـوة الكنيسـة، بـل على مسـاوئها ونـواحي الضـعف فيهـا، وكـانت حركـات تمـردهم على الكنيسـة حركـات لا يقصد بها الفكاك من الرقابـة، بـل طلب رقابـة دينيـة أتم وأوفي ... وقد اعترضوا على البابا لا لأنه الرأس الديني للعالم المسيحي، بـل لأنه لم يكن كذلك، أي لأنه كان أميراً ثرياً دنيوياً، بينما كان يجب أن يكون قائدهم الروحي)(2)

بسبب هذا.. ولدت لأول مرة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسـم الشـعب، وعلى حريـة التـدين بـدلاً من الكثلكـة، وعلى الحريـة الشخصـية بـدلاً من التقيـد بـالأخلاق الدينيـة، وعلى دسـتور وضـعي بـدلا من قـرارات الكنيسة.

ونتج عن هـذا أن حلت الجمعيـات الدينيـة، وسـرح الرهبـان والراهبات، وصودرت أموال الكنيسة، وألغيت كل امتيازاتها.

وكان ذلك كله يمكن أن يتم باعتدال.. لولا أن الثورة الغوغائية لا يمكن أن تحصد الاعتدال..

والأخطر من ذلك كله أن القائمين على الثورة والناشرين لهـا أو الـذين تربـوا في أحضـانها ومهـدها انطلقـوا من الثـورة.. ولم ينطلقوا من العلم.. فوقعـوا في أخطـاء لا تقـل عن الأخطـاء الـتي ثاروا عليها.

---

1) قصة الحضارة:14/406.
2) معالم تاريخ الإنسانية:3/989.

لقد كان من أخطر ما ولدت الثورة.. وأخطـر من ولـدها تلـك الأفكـار الـتي سـميت أفكـارا تنويريـة مـع أنهـا كـانت تحـوي من الظلمات ما لا يقل عن الظلمات التي أرادت رفعها.

فمن المدارس الـتي ظهـرت.. والـتي طبعت الحيـاة العقديـة والسـلوكية والاجتماعيـة.. وحـاولت أن تفسـر حقيقـة الإنسـان، وتستنتج منهـا حقوقـه مدرسـة الكتـاب الموسـوعيين الـذين كتبـوا دائرة المعارف بزعامة (ديدرو)، وكانوا كما يقـول ويلـز: (يناصـبون الأديان عداوة عمياء)

ومنها مدرسـة (روسـو)، وهي مدرسـة ذات طـابع اجتمـاعي وسياسي، وروسو هو صاحب كتاب (العقد الاجتماعي) الذي أطلق عليـه (إنجيـل الثـورة الفرنسـية).. ومن أعمـدة هـذه المدرسـة (مونتسيكو) صاحب (روح القوانين)

ومن كتابات هؤلاء استلهم زعماء الثورة مبادئهم واقتباساتهم.

والغرض من فكرة العقد الاجتماعي واضح للعيان فهي تهدف إلى اسـتبدال (لمصـلحة الاجتماعيـة) أو الرابطـة النفعيـة للأفـراد بالأخلاق والنظم الدينية، لتحل عبادة المجتمـع ممثلاً في الـوطن أو القوم محل عبادة الله، وذلك ما نادت به الثورة حرفياً.

وروسو لم يكن ــ في الحقيقـة ــ صـاحب هـذه الفكـرة.. بـل سبقه إليها الفلاسفة المثاليون في المدن الفاضلة ففي (جمهوريـة أفلاطون) و(اليوتوبيا) لتوماس مور، و(مدينـة الشـمس) لكامبـانيلا، وكلها نماذج واضحة للحيـاة اللادينيـة الـتي تقـوم على أسـاس من التفاهم والوفاق المجرد بين الأفراد، وهو ما عبر عنه روسو بالعقـد الاجتماعي، إلا أنه أضاف إلى هذا النموذج مـا اقتبسـه من (هـوبز) و(ميكافيلي) اللـذين غلبـا جـانب الشـر لـدى الإنسـان على الخـير، لذلك كان روسو هداماً أكثر منه فيلسوفاً.

ومن تلك المـدارس مدرسـة الـدين الطـبيعي، وهي مدرسـة ذات طابع فلسفي هدام، وقد سـبق الفلاسـفة العقلانيـون غـيرهم في بحث علاقة الفرد بالدولة والمناداة بمجتمع ينفصل فيـه الـدين عن الدولة، وكانت فكرتهم اللادينية أوسع ممـا تصـوره ميكـافيلي، لأن الدين نفسه عندهم يجب أن يلغى ليحل محله (الدين الطـبيعي أو القانون الطبيعي)

وربمـا كـان الفيلسـوف (سـبينوزا) رائـد الفكـرة العلمانيـة باعتبارها منهجاً للحياة، فهو يقـول في كتابـه (رسـالة في اللاهـوت والسياسة): (ومن الخطورة على الدين وعلى الدولة على السـواء

إعطاء من يقومون بشؤون الدين الحـق في إصـدار القـرارات أيـا كانت أو التدخل في شؤون الدولة، وعلى العكس يكون الاسـتقرار أعظم إذا اقتصـــروا على الإجابـــة على الأســـئلة المقدمـــة إليهم والتزموا في أثناء ذلك بالتراث القديم الأكثر يقيناً والأوسع قبولاً بين الناس)(1)

وهكذا بتـأثير هـذا الفكـر اللاديـني جسـمت الثـورة الفرنسـية الفكـرة الفلسـفية القديمـة بإقامـة مجتمـع يـرفض القيم والأخلاق الدينية، ويجعـل العلاقـات النفعيـة المحضـة هي الربـاط المقـدس الوحيد.

قلت: فهــل تتصــور تلــك الجمــاهير البســيطة من الفلاحين والعمال الذين قهوهم الإقطاع قد قـرأوا أفكـار روسـو، وانتقـادات فولتير، ليقوموا بالثورة؟

قال: ربما لم يقرأوا.. ولكنهم قد قرأوا الواقع.. قـرأو مخـازي الكرادلة والقساوسة وفضائحهم وثراءهم البازخ.. ورأو بـأعينهم مـا عبر عنه توماس جفرسن بقوله: (إن القسـيس في كـل بلـد، وفي كل عصر من أعداء الحرية، وهو دائماً حليف الحاكم المستبد يعينـه على سيئاته في نظير حمايته لسيئاته هو الآخر)(2)

وكان كل ذلك مدعاة لأن تصـب الجمـاهير جـام غضـبها على الكنيسة، وتصرخ خلف (مـيرابو): (اشـنقوا آخـر ملـك بأمعـاء آخـر قسيس)

قلت: أرانا انشغلنا بالحديث عن الثورة الفرنسـية عن حقـوق الإنسان.

قال: لا.. لم ننشغل.. لابد أن نفهم كـل هـذا حـتى نعي معـنى حقوق الإنسان التي نادت بها الثورة الفرنسية، والتي اعتـبرت بعـد ذلك دستورا لحقوق الإنسان.. فلا يمكن مقارنة ما جاء بـه الإسـلام إلا بعد أن نعرف ما جاءت به هذه الثورة التي زعم لها أنها أول من نادى بحقوق الإنسان.

قلت: أنا إلى الآن لم أعرف كيف دخلت فكرة حقوق الإنسان إلى الثورة الفرنسية..

قال: لا يـزال ذلـك لغـزا.. أو قريبـا من اللغـز.. ذلـك أن تلـك الجماهير كان يمكن ككل الثورات أن تكتفي بالإنجازات البسـيطة.. ولكنها لم تكتف بذلك.

---

1) رسالة في اللاهوت والسياسة، ص:426.
2) أفكار ورجال:502.

لم تكتف الثورة بمصادرة أملاك الكنيسة.. أو القضاء على نفوذها.. لتظل بعد ذلك مؤمنة بدينها، وفيه لتاريخها، متمسكة بتقاليدها العريقة، لولا أنه وجد عامل آخر قلب أهداف الثورة وحول خط سيرها.

فعندما اندفعت الجموع الغوغائية لهدم الباستيل، وهو رمز العبودية والاستبداد لم تكن ترفع سوى شعار واحد هو (الخبز)، والخبز وحده.

لكنها ما إن بدأت في قطف أولى نتائج ثورتها حتى وجدت نفسها تهتف بشعار (الحرية المساواة الإخاء)، وهو شعار لقنته تلقيناً.. كما لقنت شعار (لتسقط الرجعية)، وهي كلمة ملتوية تعني الدين.

وعندما بدأت المقصلة في تطبيق تلك الشعارات كان الضحايا يقدمون على مذبحها بحجة واحدة هي أنهم من أعداء الشعب، مع أنه كان بينهم من يعرف الشعب براءته، ودهش الشعب حين كان يرى من يقرأ بيان القتل اليوم باسم الشعب، يقدم هو نفسه غدا إلى المقصلة باسم الشعب أيضاً.

قلت: كيف هذا.. هل ترى الثورة فشلت في تحقيق أهدافها؟

قال: بل انحرفت عن أهدافها..

لقد تولى مفسدون كثيرون رعاية الثورة وتوجيهها.. فلذلك انحرفت ذلك الانحراف الخطير.. وانحرفت معها حقوق الإنسان انحرافا لا نزال نعاني منه.

قلت: ما هو هذا الانحراف؟

قال: عزل الدين عن الحياة.. وعزل حقيقة الإنسان عن حقوقه.

قلت: فهل تحدثني عن آثار ذلك؟

قال: سأحدثك عن بعض آثار ذلك، لتكتشف الزور الذي تحتوي عليه أكذوبة حقوق الإنسان التي جاءت بها الثورة الفرنسية، وأعلنتها القوانين العالمية.

الحرية:

قلت: فلنبدأ حديثنا بالحرية..

نظر إلى الشجرة بعمق، ثم قال: هل ترى هذه الشجرة المسكينة التي تتنفس السموم، وترضع من المستنقعات.

قلت: ما بها؟

قال: هذه هي نهاية الحرية التي نادى بها أولئك الشياطين

الذين اعتلوا عرش البشرية.

قلت: إن ما تقوله خطير جدا.

قال: وصادق جدا.. الحرية التي يريدها أولئـك الشـياطين هي أن تتمرد هذه الشجرة على جميع الغابة الـتي ولـدت في أحضـانها لتشرب غير الماء الـذي تشـربه، وتأكـل من غـير الكلأ الـذي تأكـل منه.

إن أول ما فعلتـه تلـك الثـورة الـتي أعلنت الحريـة أن بـترت الإنسان عن الإنسان، لأنها تصورته قيدا يكبت حرية الإنسان.

وقد بدأت ذلك بتحريره من الله.. أو بعزل الله عن حياته.

ثم كان الانقلاب الصناعى(1) الذى أتى على بقية مـا كـان من بنيان.. لقد أحدث هذا الانقلاب تغيراً كاملاً فى صورة المجتمع.. فى كل شىء فيه..

وكــان عــاملاً من أهم العوامــل فى التركــيز على (فرديــة) الإنسان..

لقــد جــاء العمــال من الريــف فــرادى.. غــير متعــارفين ولا مترابطين، وسـكنوا فى المدينـة كـذلك فـرادى.. لا يلتقـون إلا فى زمالة العمل وحده، ولكن لا تقوم بينهم الروابط الـتى كـانت تقـوم بين الفلاح وأخيـه فى الريـف، حيث النـاس متعـارفون، متعـاونون، تـربطهم القرابـة والمصـاهرة والجـوار ودوام الاتصـال.. والتقاليـد المشــتركة الــتى توحــد كيــانهم من الــداخل فيلتقــون متعــارفين بالمشاعر والأفكار.

بل إنهم جاءوا كذلك فرادى بلا أسر.. فقـد كـان الجيـل الأول من العمال النازحين من الريف يتحسســون الطريــق فى المدينـة، فلا يحضــرون معهم أســرهم حــتى يطمئنــوا أولاً إلى الجــو الــذى يعيشون فيه، وكان معظمهم من الشبان العزاب الذين لم يرتبطوا بعد برباط الزواج..

وهكذا أحس كل إنسـان فى المدينـة بفرديتـه المتمـيزة أكـثر مما أحس بالرباط الجمعى..

ثم عملت المرأة.. وأحست كذلك بفرديتها وحريتها..

لقد كـانت من قبـل هملاً لا وجـود لـه ولا كيـان ولا اسـتقلال، مجرد تابع للرجل، تعيش عن طريقـه اقتصـادياً واجتماعيـاً ونفسـياً وفكرياً.. وكل شىء.. فلما اشتغلت حدث فى نفسها انقلاب، وصار فى يـدها مـال تملكـه ملكـاً حقيقيـاً، مباشـراً، كـاملاً، تسـتطيع أن

1) انظر كتب سيد قطب ومحمد قطب، خصوصا (مذاهب فكرية معاصرة).

تتصرف فيه كما تشاء.
وتعـاملت ــ بشخصـها مباشـرة ــ مـع المجتمـع، فى المصـنع والمتجر والطريق..
وتعاملت مع الرجل ـ أو بدأت ــ إن لم يكن على أنهـا نـد لـه، فعلى الأقل على أنها لم تعـد ذلـك التـابع الـذى لا كيـان لـه، وإنمـا صــارت كائنــاً يحــاول أن يصــل إلى مســتوى الرجــل وينازعــه السلطان..
وفى كل ذلك برزت فرديتها التى لم يكن لها وجود من قبل..
واشتغل الأطفال كذلك.. وبرزت ـ رويداً رويداً ـ لهؤلاء الصغار فردية متميزة، يكتسبونها من عرك العمل لهم منذ طفولتهم، ومن العملة القليلة التى تتحصل في أيديهم..
وهكذا صار الجميع أفراداً متميزى الفردية.. تحرر بعضـهم من بعض..
قلت: ومـا الخطـر في ذلـك.. إن الحيـاة لا تسـتقيم إلا بهـذه الفردية..
قال: ولكن الفردية التي ولدت في ذلك الوقت كانت انحرافـا خطيرا.. ذلك أنها ولدت في ظل الجاهلية المنحرفة..
لقد ذاق هؤلاء جميعاً فرديتهم المستقلة (المتحـررة) من غـير طريقها السوى، الـذى كـان يضـمن لهم ــ مـع الإحسـاس بالذاتيـة المتمـيزة ــ توازنـاً فى الإحسـاس بـالحقوق والتبعـات، والحريـة والالتزام.
فسكان المدينة الجدد كانوا ـ رويداً رويداً ـ قومـاً يتحللـون من الـدين والأخلاق والتقاليـد، بتـأثير الانتقـال من الكبت العـنيف فى الريف إلى (حريـة) المدينـة وبحبحتهـا، وبتـأثير الانسـلاخ التـدريجى الـدائم من الـدين، وبتـأثير التفسـير الحيـوانى للإنسـان الـذى بثتـه الداروينية فى النفوس؛ وبتأثير التفسير الجنسى للسلوك الذى بثـه فرويد؛ وبتـأثير وجـود الشـباب الفـاره القـوة بلا أسـر تعصـمه من الخطيئة، فيلجأ إلى الحل الرخيص الذى تقدمه المدينـة فى صـورة بغاء..
والمرأة ـ وهى تحس رويداً رويداً بفرديتها ـ كانت تستقى هذه الفردية على انحراف، فهى خارجـة من حالـة انعـدام الكيـان.. فى كل شىء.
فلما أحست بذاتيتها أخذت تناضل لتحطيم كل قيـد.. لازمـاً أو غــير لازم.. وأخــذت بالــذات تســعى إلى تحطيم الــدين والأخلاق

والتقاليد لأنها استخدمت ضدها فى معركة (التحرر).. استخدمها الرجل ليصدها عن منافسته، بينما كان هو فى واقع حياته متحللاً من الدين والأخلاق والتقاليد.

وحدث عند هذا انحلال مدمر شنيع..

لقد تحطمت روابط المجتمع، وروابط الأسرة، وفسد كيان الرجل والمرأة كليهما.. فلم يعودا رجلاً وامرأة كما خلقهما الله.

أما الرجل ـ وقد فقد روابطه الاجتماعية وضعفت فى نفسه روابط الأسرة وروابط الرجولة ذاتها ـ فقد أصبح شيئاً أقرب إلى الآلة منه إلى الإنسان.. آلة منتجة، ولكنها لا تكاد تفكر أو تحس.. وإنما تعيش الحياة لحظة لحظة، بلا هدف شامل ولا وعى بإنسانية الإنسان.. ثم إذا فرغ من الإنتاج المادى الذى يكبت كيانه الحى ويطمس إشعاعه الروح فيه ـ بسبب الأسلوب الآلى الذى يؤدى به العمل ـ انطلق فى حيوانية هابطة يشبع دوافع الحيوان.. وتتحول فى نظره إلى هذين الهدفين القريبين: إنتاج كالآلة.. وانطلاق كالحيوان.

قلت: وعيت هذا.. بل إني أرى هذا بعيني، وأتألم له كما تتألم.. بل إنه في كل يوم يظهر شذوذ جديد من هذا العالم الحر.. ويطالب الجميع بقبوله، لأنه مظهر من مظاهر الحرية.. ومن ينكر ذلك يعتبر من محور الشر الذي ينبغي أن يحارب ويباد لتحفظ الحرية في العالم.

قال: أما الإسلام.. دين الحرية الحقيقية.. فقد بنى مفهوم الحرية على أسس صحيحة تخدم الفرد، وتخدم المجتمع.. وتقيم عمارة الأرض التي لا تستقيم إلا بالحرية المنضبطة بضوابط المسؤولية.

قلت: لقد ذكرت لي أن حقوق في الإسلام تنطلق من تصوره لحقيقته.

قال: أجل.. ولذلك فإن الحرية في الإسلام تنطلق من الخصائص التي عرف بها الإسلام الإنسان.. وأولها العبودية لله..

قلت: إن قومنا من دعاة الحرية يعتبرون هذا من القيود التي تمنع انطلاقة الحرية..

قال: لا.. إن العبودية لله، والتي تعني الانقياد التام والطاعة الكاملة لله هي التي تحرر الإنسان من كافة العبوديات والانقيادات والتبعات لأية جهة أخرى.

وهذا ما يكشف عن التحرر الحقيقي للانسان من كافة

الأغلال والقيود التي طالما كبلت إرادته وفكره وجسمه وروحه وحتى عواطفه خلال مسيرته الحافلة بالعناء.

فالعبودية لله تعني أسمى أنواع الحرية التي لم يحلم بها الإنسان، ولم يتصورها أبداً، وهو يصارع ألوان العبوديات التي سلبت منه نعمة الحرية والحياة الآمنة والعيش الهانىء.

إن العبودية لله تحرر الإنسان من كل القيود.. لا من قيود الظلم والامتهان والاستعباد والآلهة المزورة فحسب، وانما من قيود النفس وأهوائها الجامحة ونزعاتها الجنونية.

وذلك ما يتيح للانسان شق طريقه بشكل أفضل وأداء دوره بالصورة المطلوبة.

ولئن كانت الحرية في الحضارات الغربية تبدأ من التحرر لتنتهي إلى ألوان من العبودية والأغلال، فإن الحرية الرحيبة في الإسلام على العكس.. لأنها تبدأ من العبودية المخلصة لله تعالى لتنتهي إلى التحرر من كل اشكال العبودية المهينة(1).

قلت: ولكن الذين ثاروا في الثورة الفرنسية ثاروا على الكنيسة التي ترمز للعبودية لله.

قال: لا.. لم تكن الكنيسة في يوم من الأيام ترمز للعبودية لله.. لقد قال القرآن في الانحراف الخطير الذي آلت إليه: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:31)

أنت تعلم ما فعله رجال ديننا متذرعين بما أعطي لهم من سلطة المنح والمنع، والغفران والحرمان، والإدخال في رحمة الله، والطرد منها، لأن المسيح قال لبعض تلاميذه: سأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطا في السموات، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولا في السموات.

أما الإسلام فليس فيه هذا النوع من العبودية..

الإسلام يأمر بالعبودية التي تتوجه لله وحده من دون أي وسائط.. ولذلك فإن هذه العبودية هي عين الحرية.. فهي تحرره من أي قيد فكري أو سياسي أواجتماعي أونفسي.. وغيرها من القيود التي تحاول فرضها عليه الافكار والعقائد والتقاليد والقوى التي لاتمت إلى الله بصلة ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل

1) الاضواء، العدد 2، مقالة للشهيد آية الله الصدر.

عمران:64)
وانطلاقا من هذه العبودية الجميلة التي يعيشها الفرد المؤمن كما تعيشها الجماعة المؤمنة يتحرك المؤمن في الحياة طبقاً لمرضاة من توجه إليه بالعبودية..
فالمسلم مطالب بتحقيق مرضاة الله، والبحث عنها في التكاليف التي كلف بها..
قلت: أليس هذا قيدا للحرية؟
قال: أرأيت لو أن طبيبا نهاك عما يضرك، أو أمرك بما ينفعك، ثم فعلت ما طلبه منك عن رضا تام.. وطواعية محبة.. أكان ذلك قيدا؟
قلت: لا.. فالطواعية تتنافى مع القيد.
قال: فهكذا العبودية التي أمر بها الإسلام، والتي يقوم بها المؤمن، ففيها وصفان يزيلان عنها ما نتوهمه من قيود:
أما أولهما، فكونها لا يمكن أن تتحقق إلا بالرضى التام والطواعية التامة.. ولهذا يربط الإسلام بين العبادة والمحبة.. فالعبادة التزام من قلب ممتلئ بحب الله.. قلب يشعر أنه ليس في الوجود من هو أجدر من الله بأن يحب، والإسلام بمصادره المقدسة يعمق في المؤمنين هذه المحبة.. فهو يصف الله بأنه صاحب الفضل والإحسان، الذي خلق الإنسان ولم يكن شيئا مذكورا، وخلق له ما في الأرض جميعا، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وخلقه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، وكرمه وفضله على كثير من خلقه، ورزقه من الطيبات، وعلمه البيان، واستخلفه في الأرض، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته.
فإذا امتلأ المؤمن بهذه المحبة مارس العبودية ـ بجميع أنواعها ـ برضا وتلذذ وطواعية..
وأما الثاني.. فهو أن هذه العبودية التي يمارسها المؤمن عن طواعية تامة لم يقصد منها إلا مصالحه.. والمصالح بالمفهوم الإسلامي تشمل مصالح الدنيا، ومصالح الآخرة.
ولهذا.. فإن النصوص المقدسة تربط بين طاعة الله والمصالح..
قلت: إن قومنا يقصدون بالحرية حرية الرأي.. وهو ما أتاحته الديمقراطية الحديثة؟
قال: تقصد ديمقراطية المشاغبين؟
قلت: ما تقول؟

قال: أرأيت لو كنت معلما.. وكان لك تلاميـذ.. وكـان أكـثرهم مشاغبين لا علاقة لهم بالعلم، ولا اهتمام لهم به.. وراحوا يطالبونك بانتخابات تحدد لهم الدروس التي يقرؤونها، والمنهج الذي تدرسهم به.. أترى هذا الأسلوب نافعا لهم؟

قلت: لا أراه مجديا معهم.. فهم سيرمون جميع الـدروس في سلة المهملات.. وسيجعلون من المدرسة ملعبا لأهوائهم وشغبهم.

قـال: فهكـذا هـذه الديمقراطيـة المزيفـة.. إنهـا تـتيح للص والمجرم والقاتل والمنحرف من الأصوات ما تتيحه للمفكر والعالم والعبقري.

وهي مع ذلك لا تتيح لهم إلا حرية محـدودة في أطـر رسـمتها (1).. فالمتتبع لواقع حرية الرأي في الفكر الغربي يجدها قد قيـدت بقيدين: أولهما سيطرة الاحتكارات الرأسمالية الكبرى على وسائل الإعلام، وقـدرتها على توجيـه الإعلام، والتحكم في مصـادر الأخبـار والمعلومات.. وثانيهما تلـك القيـود المثـيرة الـتي تفرضـها الدولـة، بحجة عدم الاعتداء على حريـات الآخـرين، والمحافظـة على الأمن الداخلي، والتي غالباً ما تسـتخدم كذريعـة للحـد من قـدرة الأفـراد على التعبير عن آرائهم.

قلت: والإسلام.. لقد سمعت أنه يكبت حرية الرأي!؟

قال: هو يكبت حرية الرأي الذي يريد أن يخـرب المجتمـع، أو يفتت وحدته، أو يحول وجهته عن الله الذي خلقه..

أما الـرأي الـذي يكـون نصـحا أو نقـدا بنـاء.. فـإن الإسـلام لا يكتفي باعتباره حقا.. بل يعتبره واجبـا على الكـل.. وهـو لا يسـميه رأيا.. بل يسميه نصيحة، ويشرع له من الأخلاق ما يضـعه في قمـة قمم الأدب.

قلت: وعيت هذا.. ولكن الإسلام يقمع حرية المعتقد.

قال: الإسلام ينهى عن الإكراه في الـدين.. ولا يجـيز لأحـد أن يكره أحد على أي اعتقاد.

قلت: لا أقصد هذا.. ولكني أقصد أمـره بقتـل المرتـد.. أليس ذلك إكراها(2)؟

قــال: لا.. النصــوص المقدســة للمســلمين لم تــذكر قتــل المرتدين.. لقد قرأت القرآن من أوله إلى آخره، فلم أجد فيـه آيـة واحدة تأمر بقتل المرتد.. لم أجد فيـه إلا التحـذير من مصـيره في

1) انظر: د. محمد مفتي/ د. سـامي الوكيـل، الحريـة السياسـية الغربيـة وحـق إبـداء الرأي في التصور الإسلامي.

2) رددنا على هذه الشبهة في (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

الآخرة.

اسـمع مثلا إلى هـذه الآيـة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا بَعْـدَ إِيمَـانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْـرًا لَنْ تُقْبَـلَ تَـوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّـالُّونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَـلَ مِنْ أَحَـدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَـوِ افْتَدَى بِـهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ وَمَـا لَهُمْ مِنْ نَاصِـرِينَ (91)﴾ [آل عمران: 90-91]

إنهـا واضـحة في كونهـا لا تفـرض أي عقوبـة على المرتـد إلا العقوبة الأخروي.

وقد مارس بعض اليهود هذا في عهد النبوة، كما ذكر القـرآن: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُـوا بِالَّذِي أُنْـزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِـرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ (72)﴾(آل عمـران)، ومـع ذلك لم يتقل محمد واحدا منهم بسبب ذلك.

سكت قليلا، ثم قال: الإسلام لا يتوجـه بالعقوبـة إلا للمحـارب المفسـد الـذي لا هـدف لـه إلا تخـريب المجتمـع، وتفـتيت وحـدة المسـلمين، وخـرق صـفوفهم.. أمـا المرتـد الـذي يحتفـظ بردتـه لنفسه، ويحتفظ بكفره لنفسه، فلا يتدخل الإسلام في اختياره.. بل إن محمدا كان يرى المنافقين ويعلم أسـماءهم.. ولم يقتـل واحـدا منهم.

ثم التفت إلي، وقال: أنا أتعجب من المسيحيين الذين يقولون هــذا.. ألم يقــرأو مــا كتبــه القــديس (أوغســتان) إلى الكــونت (بونيفـاس) يشـير عليـه باسـتعمال القـوة لـردع أهـل البـدع من المسـيحيين، وردهم إلى النصـرانية، وقـد مثلهم في كتابـه ببغـال تعض وترفس من يعالجها من مرضها، والذي يعالجهـا مضـطر إلى إيلامها؛ ليستطيع أن يضمد جراحها، ومثّلهم بالطفل الصغير الذي لا تتيسر تربيته بغير الحوط والعقاب، وقال: إن القسـوة العادلـة هي التي تأتيها كنيسة المسيح ضد الكافرين، لكن القسوة الظالمة هي التي يستعملها الكافرون ضد كنيسة المسيح.

الإخاء:

قلت: لقد حدثتني عن الحرية.. فحدثني عن الإخاء.

قال: أأحدثك عن الإخاء الذي علمته الثـورة الفرنسـية للثـوار الذين قاموا بها، أم عن الإخاء الذي جاء به الإسلام؟

قلت: حدثتني عن كليهما.

قال: أول مظهر من مظاهر الإخاء الـذي علمتنـا إياهـا الثـورة الفرنســية هــو الاســتعمار والنهب والســيطرة على حقــوق

المستضعفين، ثم قتلهم بعد ذلك.

لاشك أنك تعرف نابليون.. وتعرف رحلته إلى مصر.

قلت: أجل.. في تلك الرحلة أعلنت مصر بداية التحضر.

قال: وفي تلك الرحلة أعلنت الثورة الفرنسية ومعها الغرب جميعا بداية الانحطاط.

سأذكر لك حادثة واحدة تبين لك معنى الأخوة كما تفهمها شعوبنا، وكما يفهمها قادتنا.

لقد واجه الإحتلال الفرنسي عدة ثورات وانتفاضات شعبية خلال السنوات الثلاث التي هيمن فيها على مصر.. وفي 21 تشرين الأول 1798، أي بعد ثلاثة أشهر فقط من دخول الفرنسيين، نشبت ثورة بدأها شيخ أزهري خرج إلى الأسواق ينادي: أن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر، لأن اليوم ينبغي لنا أن نغازي الكفار.

وصارت الأصوات ترتفع من فوق المآذن والسطوح العالية تدعو المسلمين للجهاد، فتجمعت الجماهير حاملة البنادق والأسلحة، وبدأ الناس بمهاجمة الجنود الفرنسيين، كما هوجمت دار العلوم والمستشفى العسكري.

في ذلك الحين، أمر نابليون بتوجيه المدافع المصوبة في القلعة صوب الجامع الأزهر وما حوله من الدور والأسواق، وبدأت بدك المباني بالقنابل، فأثارت الرعب فهرب الناس من المكان.

وفي المساء أحاط الجنود الفرنسيون بصحبهم ثلاثمائة خيال بالجامع، ثم دخلوا فيه، وأخذوا يأسرون من كان فيه من الثوار، ويعبثون به وبمحتوياته عبثاً شديداً.

وذهب شيوخ الأزهر لمقابلة نابليون يرجونه الكف عن انتهاك الجامع وقتل الناس، فأخذ يلومهم ثم أعلن العفو عنهم.. لكن إعلانه للعفو كان ظاهرياً، إذ أنه أصدر أوامره خفية بقتل كل من قاد الثورة أو شارك فيها.

وكان من أوامره لأحد قواده: تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أمسكوا وبيدهم سلاح، فليؤخذوا إلى شاطئ النيل، بعد هبوط الظلام، ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر.

ثم أمر نابليون بإعدام ثمانين رجلاً من الذين كانوا أعضاء في (ديوان الدفاع) وهو الديوان الذي كان بمثابة مركز القيادة للثورة.

هكذا تصرف القائد المتنور بمبادئ الثورة الفرنسية، إذ حمل

معه المقصلة (الجيلوتين) التي أصبحت من أبرز معالم الثورة الفرنسية.. وأعدم عشرات من شيوخ الأزهر وطلابه دون محاكمة أو تحقيق.

وبعد أن تمت عمليات الإعدام والتصفيات الجسدية، أذاع نابليون منشوراً أشار فيه إلى عفوه، إذ بدأه بالتهديد والوعيد، ثم ذكر أنه فعل ما فعل بتقدير الله وإرادته، وأنه لا ينجو أحد من عقابه، وأن لديه قدرة عجيبة على أن يعرف ما في داخل المرء بمجرد أن يراه..

اسمع ما يقول هذا التلميذ النجيب الذي تتلمذ على الثوة الفرنسية: (أيها العلماء والأشراف، أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره، فلا يجد ملجأً ولا مخلصاً ينجيه مني في هذا العالم، ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى.. والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله وإرادته وقضائه، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة. وأعلموا أمتكم أن الله قدر في الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكسير الصلبان على يدي، وقُدِّرَ في الأزل أني أجيء من المغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي أُمِرْتُ به. ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه. وأعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل، وأشار في آيات أخرى إلى أمور تقع في المستقبل، وكلام الله في كتابه صدق وحق. إذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم، فلترجع أمتكم جميعاً إلى صفاء النية وإخلاص الطوية، فإن منهم من يمتنع عن الغي وإظهار عداوتي خوفاً من سلاحي وشدة سطوتي، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لأحكام الله ومنافقاً، وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب. واعلموا أيضاً أني أقدر على إظهار ما في نفس كل أحد منكم، لأنني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه، وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده. ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعايشة، أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يُرَد، وإن اجتهاد الإنسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذي قدره وأجراه على يدي. فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية وإخلاص

السريرة، والسلام)[1]

أرأيت الأسلوب الذي يتعامل به قومنا مع أولئـك المتحضـرين أصحاب القلوب الطيبة والإيمان العظيم..

هذا ما علمتهم أفكار التنوير التي حملتها الثورة الفرنسية.

أما ما علمتهم المسـيحية.. فلا أحتـاج إلى ذكـره لـك.. فـأنت تعرف الحروب الصليبية.. لقد قادها رجال دين.. لينفخوا فيها الحقد المسيحي..

لم يكتف تلاميذ الثورة الفرنسية النجباء بإعلان أخوتهم للعالم بهذا الأسلوب..

لقد ساروا إلى الأرض يقسمونها كما يحلو لهم.. وكأنهـا تركـة لأبيهم الذي مات، فهم يرثونها عنه.. أما أهـل الأرض من البسـطاء والمستضـعفين، فلهم مصـيران لا ثـالث لهمـا: إمـا المـوت.. وإمـا السخرة.

أما السخرة.. فلن أحـدثك عنهـا، فهم يسـمونها أسـام كثـيرة يحرفون بها الحقائق.

وأما الموت.. فإن جرائم الإبادة التي نالت البشـر في الفـترة التي أعلنت فيها حقوق الإنسان، والأخوة الإنسانية لا تعدلها جـرائم البشر في جميع فترات تاريخهم.

لقد بلغ عدد الذين أبادتهم بريطانيا العظمى من أجـل إخضـاع الصين لتاجها أكثر من عشرين مليون إنسان.

وكانت فرنسا تستعمر الجزائر رغم إرادة شعبها الذين قاوموا الاستعمار بعنـف، ولم تسـتجب فرنسـا لنـداء الحريـة المـدوي في

---

1) اتبع نابليون سياسـة براغماتيـة تميـل إلى كثـير من النفـاق، فحـاول التقـرب من المسلمين والتحبب إليهم، فقد أعلن أنـه مسـلم في قلبـه وأنـه سـيعتنق الإسـلام، ولبس العمامة والقفطان في أحـد الأيـام، وصـلى مـع المصـلين. وذهب إلى أكـثر من ذلـك في نفاقه، إذ قال لأحد مشايخ الدين أنه ينوي إقامة حكومة موحدة تقوم على مبادئ القـرآن التي هي وحدها المبادئ الحقة القادرة على إسعاد الناس.

ونسي نابليون الفكر الأوربي ومبادئ الثورة الفرنسية، وأخذ يتصرف تصـرف المشـايخ الصوفية فأشاع أنه شاهد النبي ﷺفي منامه وأنه قال له: اجهر بإيمانك، بأركان ديني لأنه دين الله. إن العرب في انتظار هذه العلامة، وسأخضع آسيا كلها لسلطانك. وأخذ يسـاهم في المواليد النبوية وينفق عليها.

وكان المسلمون يشكون في ادعاءاته وتصرفاته فهو (نصراني ابن نصراني) ـ على حد تعبيرهم ـ وقد حاول إقناع الناس بسلوكه، وذكـر يومـاً لشـيخ الأزهـر أنـه يـرغب باعتنـاق الإسلام، ولكن الذي يمنعه من ذلك عقبتان، الختان وتحريم الخمر.

وبينما كان نابليون سادراً في ألاعيبه وأكاذيبه، كان هناك قائد فرنسي قد أعلن إسلامه فأصبح اسمه عبد الله مينو. فكان يتلو القرآن ويؤدي الصلاة. فأرسـل إليـه نـابليون يهنئـه على (تضحيته) في سبيل القضية (الوطنية) (انظر: القانون الـدولي والقـانون الإسـلامي، رسالة ماجستير قدمت إلى قسم الدراسات الإسلامية في جامعة ليدن بهولندا)

صـفوف الشـعب الجزائـري، إلا بعـد أن قتلت من ذلـك الشـعب المضطهد ما يقارب المليونين نسمة وبصورة بشعة قاسية.

وفي أثناء حرب الجزائر طلب حكام فرنسـا من القائـد العـام للجيش أن يحـول أجمـل مسـجد في الجزائـر إلى كنيسـة، فوقـع اختياره على مسجد الحي الأورلي في القشارة فتقدمت مجموعـة من آلية الهندسـة للسـلاح الفرنسـي إلى المسـجد، وكـان الـوقت وقت صلاة المغـرب، وكـان المسـجد غاصـاً بالمصـلين الـذي قـدر عددهم بـ(1400) مصلٍّ، فـدخلوا عليهم وقتلـوا فيهم إلى منتصـف الليل، حيث أبادوهم جميعاً.

وقد أحصي عدد القنابل الـتي ألقاهـا الطـيران الأمـيركي من سنة 1961 إلى سنة 1972م زهاء ستة ملايين وسبعمائة وسـبعة وعشرين ألف طن من القنابل على منطقة الهند الصينية وحدها.

وألقت الطائرات الأميركيـة واحـد وسـبعين مليـون لـتراً، من المواد الكيمياويـة السـامة على منطقـة في جنـوب فيتنـام تـوازي مساحة إيرلندا الشمالية.

والمثال الواضح الذي يتفق عليه الجميـع.. ليظهـروه على أنـه المجرم الوحيد.. هتلر.. تعرف طريقة تعامله الأخوي مع الشعوب.

قلت: أجل.. لقد فعل ما فعل باليهود.. لقد كاد يبيدهم..

قـال: وهـذا من الجـرائم الـتي يتفنن إخواننـا التلاعب بهـا، ليتاجروا بها في إبادة أولئك المسلمين البسطاء المستضعفين.

قلت: أتنكر إبادة هتلر لليهود(1)؟

قال: بـل أنكـر نزعـة التفرقـة بين اليهـود وغـيرهم في هـذا.. أليس البشر جميعا إخوة؟

قلت: بلى..

قال: فلم يفرق بين اليهود والغجر؟

قلت: وما علاقة اليهود بالغجر؟

قال: لقد نال الغجر المستضعفين من الإبادة ما نالهم.. ولكن لا أحـد يتحـدث عنهم.. سـأذكر لـك بعض مـا وصـفت بـه إحـدى منشورات اليونسكو ما حصل للغجر المساكين(2):

---

1) ارتبطت الإبادة النازية بـ (اليهود) بحيث استقر في الأذهـان أن النـازيين لم يبيـدوا سوى اليهود، وقد ساعد الإعلام الغربي والصهيوني على ترسيخ هذه الفكـرة حـتى أصـبح دور الضحية حكراً على اليهود.. بل تطور الأمر إلى حد أنه إذا مـا أراد بـاحث أن يـبيِّن أن الإبادة النازية لم تكن مقصورة على اليهود، وإنما هي ظاهرة شاملة ممتدة تشمل الغجر والسلاف والبولنديين وغيرهم، فإنه يصبح هدفاً لهجوم شرس (انظر: الموسوعة اليهوديـة للمسيري).

2) نقلا عن الموسوعة اليهودية للمسيري.

لقد بدأ الاهتمام بالبحث في الخصائص العِرقية للغجر، فأعلن الدكتور هانز جلوبكه ـ أحد المساهمين في صياغة قوانين نورمبرج ـ عام 1936 ـ أن الدم الذي يجري في عروق الغجر (دم أجنبي). ثم صنَّفهم الأستاذ هانز ف. حينثر في فئة مستقلة تمثل مزيجاً عرْقياً غير محدَّد (إذ لم يستطع نفي أصلهم الآري). وبلغت الخصائص العرْقية لدى الغجر من الأهمية درجة أهلتها لأن تصلح موضوعاً لرسالة دكتوراه، ومما قالته إيفا جوستين مساعدة الدكتور ريتِّر في قسم الأبحاث العِرقية بوزارة الصحة (عند مناقشة رسالتها) إن الدم الغجري (يُشكِّل خطراً بالغاً على صفاء الجنس الألماني)

ووجَّه طبيب يُدعَى الدكتور بورتشي مذكرة إلى هتلر يقترح فيها فرض الأشغال الشاقة على الغجر وتعقيمهم بالجملة نظراً لأنهم (يُشكِّلون خطراً على نقاء دم الفلاحين الألمان)

وفي 14 ديسمبر عام 1936، صدر قرار أدى إلى تفاقم أوضاع الغجر، إذ وصمهم بأنهم (مجرمون معتادون على الإجرام)

وفي نهاية عام 1937 وخلال عام 1938 شُنت حملات اعتقال جماعية عديدة ضد الغجر، وخُصِّص لهم جناح في معتقل بوخنولد.

وفي عام 1938، أصدر هملر بنفسه أمراً بنقل مقر المركز الوطني لشئون الغجر إلى برلين.. وفي السنة نفسها اعتُقل ثلاثمائة غجري كان قد استقر بهم المقام في قرية مانفويرت حيث كانوا يملكون الحقول والكروم.

وقد أمر هملر بتصنيف الغجر في الفئات التالية: غجري صرف (Z)، وخلاسي يغلب عليه العرْق الغجري (ZM+)، وخلاسي يغلب عليه العرْق الآري (ZM-)، وخلاسي يتساوى فيه العرْقان الغجري والآري (ZM).

ويميِّز المؤرخ ح. بلِّنج في كتابه (ألمانيا وإبادة الجنس) بين أساليب مختلفة لإبادة الجنس تتمثل في الإبادة عن طريق إزالة القدرة على الإنجاب واختطاف الأطفال، والإبادة عن طريق الزج في المعتقلات، والإبادة عن طريق الإفناء.

قلت: لقد اقشعر جلدي مما ذكرت..

قال: أنا لم أذكر لك إلا مثالا واحدا عن بعض جرائم الإبادة التي تهدف إلى تنقية العرق.. أما جرائم الإبادة التي تهدف إلى نشر ديمقراطية الدماء.. فاذهب وسل عنها أفغانستان والعراق

وفلسطين.. بل سل عنها جميع عوالم المستضعفين ليخبروك بما يفعل بهم عالم المستكبرين.

قلت: يكفيني ما حدثتني به.. لقد جعلتني أنظر إلى تاريخ قومي بخجل.

قال: ليس إنسانا من لم يخجل من جرائمه، أو من جرائم قومه.

قلت: فحدثتني عن الأخوة التي دعا إليها الإسلام.. والتي عاشها المسلمون.

قال: ليس هناك في الأديان أخوة إلا الأخوة التي دعا إليها الإسلام.. وليس هناك في التاريخ أخوة إلا الأخوة التي مثلها المسلمون.

أما الإسلام.. فقد اعتبر البشر جميعا إخوة.. مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم وأديانهم.

ولهذا تجد القرآن ينادي البشر بهذا الوصف: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف:26).. ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (لأعراف:27)..: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء:70)

بل إنه اعتبر الأنبياء الكرام إخوة لأعدائهم الذين كانوا يسومونهم الخسف فقد اعتبر قوم نوح إخوانا لنوح: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء:106).. واعتبر قوم هود إخوانا لهود: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء:124).. واعتبر ثمود إخوانا لصالح: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء: 142)

وقد روي أن محمدا كان يقول دبر كل صلاة: (اللهم ربنا ورب كل شئ ومليكه أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك.. اللهم ربنا ورب كل شئ ومليكه، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك.. اللهم ربنا ورب كل شئ ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة)(1)

ألا ترى كيف اعتبر محمد إقرار مبدأ (الأخوة) بعد الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولمحمد بالعبودية والرسالة!؟

---

1) رواه أحمد.

قلت: ولكن القرآن يتحدث عن أخوة الدين.. ففيه: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:11).. وفيه: ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ (الأحزاب:5)

بل إن القرآن حصر علاقة المؤمنين في الأخوة، ففيه: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات:10)

قال: هذه مرتبة من مراتب الأخوة..

فالإسلام يعتبر المسلمين جميعا ـ مهما تعددت أوطانهم وأعراقهم وألوانهم ـ أسرة واحدة لها أب روحي واحد هو محمد.. ولها دين واحد هو الإسلام.

وهذه الأخوة هي العلاقة الوحيدة التي تحكم بين المسلمين جميعا.. فليس في المسلمين أي عنصرية كتلك العنصرية التي تمتلئ بها شعوب الأرض.

وقد زخر التراث الإسلامي بجميل الأخلاق وعظيم الآداب التي طبعت علاقات المسلمين بعضهم ببعض.. والتي استوحت معانيها من نصوص القرآن ومن حديث محمد، فقد قال معبرا عن أصل أصول ذلك: (: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)(1)

قلت: ولكن هذه العلاقات محصورة بين المسلمين فيما بينهم..

قال: هذه مرتبة من مراتب العلاقات.. وهي مرتبة ضرورية.. ألا ترى أن الناس جميعا يمارسون في علاقاتهم هذا الأسلوب.. فيفرقون بين إخوانهم وأصدقائهم وأقاربهم وأهل بلدهم وسائر الناس!؟

قلت: بلى.. ذلك صحيح.

قال: فقد اعتبر الإسلام هذا النوع من الأخوة مرتبة من المراتب.. وهي لا تلغي غيرها من المراتب، كما لا تلغي الصداقة ولا القرابة غيرها من العلاقات.

قلت: عرفت القسمين اللذين تعامل معهما الإسلام معاملة الأخوة.. لكن هناك من تعامل معهم معاملة العداوة.. وأمر المسلمين بمعاداتهم واعتبر ولاءهم من نواقض الإخلاص للإسلام.

قال: أولئك هم المحاربون الظالمون المعتدون..

---

1)) البخاري:1/10.

قلت: فكيف تخلفت أخوة الإسلام عن هؤلاء؟

قال: هي لم تتخلف.. ولكنهم هم الذين تخلفوا عنها..

الإسلام يتعامل بمنطق الرحمة مع الجميع.. حتى أن أخص خصائص محمد التي وصفه بها القرآن هي كونه رحمة للعالمين.

ولذلك فإن الإسلام مع المحاربين يتلمس كل السبل لعدم وقوع الحرب بينه وبينهم.. ولكن الحرب إذا فرضت نفسها.. ولم يكن هناك مندوحة عنها أجازها الإسلام أو فرضها بحسب الظروف والأحوال مع آداب كثيرة وأخلاق عظيمة لم أر لها مثيلا في أي دين من الأديان..

المساواة

قلت: فحدثني عن المساواة.

قال: لقد درست عن كثب مجتمعات كثيرة متنوعة.. فلم أجد مجتمعا يمتلئ بالتواضع كالمجتمع الإسلامي.

قلت: ما علاقة التواضع بالمساواة؟

قال: لا يمكن أن تنشأ المساواة إلا في ظلال دين أو فلسفة تعتبر التواضع قيمة من قميها الكبرى.. وخلقا من أخلاقها الرفيعة..

ذلك أن الطبقية لا تنشأ إلا في ظلال المتكبرين.. فالمتكبرون ـ بالقوانين التي يسنونها لأنفسهم، أو يسنها لهم مجتمعهم ــ هم الذين يحولون المجتمعات إلى طبقات يعتلون هم أعلى درجاتها.

لقد بحثت في تاريخ أوربا في العصور الوسطى (1) ــ في الوقت الذي كان فيه المسلمون يدا واحدة وقلبا واحدا ــ فوجدت طبقات النبلاء أو الأشراف، ورجال الدين والشعب، طبقات متميزة محدَّدة المعالم يختلف بعضها عن بعض، بحيث لا يخطئ الإنسان معرفتها بمجرد النظر.

فرجال الدين لهم ثيابهم الخاصة التي تميزهم، وكان لهم في تلك العصور سطوة كبرى، فكان البابا سلطة مناوئة للملوك والأباطرة، يريد أن يزعم أنه هو الذي يمنحهم السلطان على الشعوب، ويريدون هم أن ينسلخوا من سلطته ويستقلوا بأنفسهم. وكانت لهم كذلك أموال طائلة من الأوقاف التي وقفها عليهم المتدينون، ومن الإتاوات التي يفرضونها هم على الناس، بل كانت للكنيسة جيوش كاملة في بعض الأحيان.

أما الأشراف فكانوا طبقة تتوارث الشرف بعضها عن بعض، بحيث يولد الطفل فإذا هو شريف منذ مولده، ويظل شريفاً حتى

---

1) انظر: شبهات حول الإسلام، محمد قطب.

يـموت، بصرف النظر عن الأعمال التي يقوم بهـا في حياتـه، وقـر بها أو بعدها من هذا الشرف المزعوم.

أما امتيازاتهم فكانت في عهـد الإقطـاع سـلطاناً مطلقـاً على الشـعب الموجـود في الإقطاعيـة.. كـانوا هم السـلطة التشـريعية والقضائية والتنفيذية، وكانت أهواؤهم ونـزواتهم هي القـانون الـذي ينفـذ على الشـعب، وكـانت تتكـون منهم المجـالس النيابيـة الـتي تشرع للبلاد، فكانت تشريعاتهم لا تهدف إلا حمايتهم والاحتفاظ لهم بامتيازاتهم وإضفاء صفة القداسة عليها.

أما الشعب فهو ذلك الهمـل الـذي لاحقـوق لـه ولا امتيـازات، وإنما عليـه الواجبـات كـل الواجبـات، وكـان يتـوارث الـذل والفقـر والعبودية جيلاً بعد جيل.

ثم حدثت تطورات اقتصـادية هامـة في أوربـا أنشـأت طبقـة جديدة تنازع الأشراف امتيازاتهم ومكانتهم، هي الطبقة البرجوازية. وبقيادة هذه الطبقة وعلى أكتاف الشعب، قامت الثورة الفرنسـية التي ألغت - في الظاهر - نظام الطبقات، وأعلنت - نظرياً - مبادئ الحرية والإخاء والمساواة.

وفي العصر الحـديث قـامت هـذه الطبقـة الرأسـمالية مقـام طبقة الأشراف القديمة، ولكن من وراء ستار، ومع بعض التعديلات الـتي اقتضـاها التطـور الاقتصـادي، ولكن الجـوهر لم يتغـير، فهي طبقة تملك المال والسلطان والقـوة الـتي تسـير بهـا دفـة الحكم، وعلى الـرغم من مظـاهر الحريـة الـتي تتمثـل في الانتخابـات الديمقراطيـة، فـإن الرأسـمالية تعـرف طريقهـا إلى البرلمانـات ودواوين الحكومات، وتنفذ بوسائلها الملتوية مـا تريـد تنفيـذه تحت مختلف العنوانات.

بل ما يـزال في إنجلـترا ــ أم الديمقراطيـة كمـا كـان يقـال ـ مجلس يسمى بصـفة رسـمية (مجلس اللـوردات)، ومـا زال فيهـا قانون إقطاعي يقضي بأن يحرم جميع الأبناء والبنات من المـيراث فيما عدا الابن الأكبر، منعاً لتفتيت الثروة، أي محافظة على ثروات (الأسر) لكي تبقى قائمة لا تزول، ويظل لها كيانهـا المـوروث كمـا كانت طبقة الإقطاعيين في العصور الوسطى.

هذا هو نظـام الطبقـات، يتلخص في حقيقـة أساسـية هي أن الطبقة التي تملك المال تملك السلطان، وتملـك وسـائل التشـريع بطريقة مباشرة أو غير مباشـرة، فتشـرع لحمايـة نفسـها، ولإبقـاء الشعب خاضـعاً لسـلطانها، محرومـاً من كثـير من حقوقـه إرضـاء

لشهوات الطبقة الحاكمة.

قلت: هـذا في غـير الإسـلام.. فحـدثني عن المسـاواة في الإسلام.

قـال: ليس هنـاك دين ينظـر للبشـر جميعـا بمنظـار واحـد كالإسلام.. فهو يعتبرهم جميعا عبـادا للـه.. وأفضـلهم أقـربهم للـه، وأكثرهم نفعا لعباده(1).

لقد نص القرآن على هذا في مواضـع كثـيرة.. فهـو يـرد على اليهود والمسيحيين الذين اعتبروا أنفسهم أبناء لله، فقال: ﴿ وَقَـالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَـذِّبُكُمْ بِـذُنُوبِكُمْ بَـلْ أَنْتُمْ بَشَـرٌ مِمَّنْ خَلَـقَ يَغْفِـرُ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيُعَـذِّبُ مَنْ يَشَـاءُ وَلِلَّهِ مُلْـكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (المائدة:18)

وبين عدالـة الجـزاء الإلهي الـذي يتعامـل مـع العبـاد بحسـب أعمالهم لا بحسب أمانيهم، فقـال: ﴿ لَيْسَ بِأَمَـانِيِّكُمْ وَلا أَمَـانِيِّ أَهْـلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ﴾ (النساء:123)

وقد رسخ محمـد بسـلوكه وهديـه هـذه المعـاني.. حيث كـان يصحبه العـرب والعجم، والـبيض والسـود، والأحـرار والرقيـق، ولم يكن يميز أحدهم عن الآخر.

وقد ورد في الحديث: خطبنا رسول الله ﷺ في أوسـط أيـام التشريق خطبة الوداع فقـال: (يـا أيهـا النـاس إن ربكم واحـد وإن أبـاكم واحـد، ألا لا فضـل لعـربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بـالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ ﴾ (الحجـرات:13)، ألا هـل بلغت؟ قـالوا: بلى يا رسول الله، قال: فليبلغ الشاهد الغائب)(2)

وفي حديث آخر، قال: (إذا كان يوم القيامـة أمـر اللـه منـاديـا ينـادي ألا إني جعلت نسـبا وجعلتم نسـبا فجعلت أكـرمكم أتقـاكم فـأبيتم إلا أن تقولـوا فلان ابن فلان خـير من فلان بن فلان فـاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون)(3)

وفي حديث آخر قـال: (إن اللـه عـز وجـل أذهب عنكم عبيـة

---

1) في الحديث سئل النبي ﷺ:(أي الناس أحب إلى الله؟) قال:(أنفع الناس للناس) رواه الطبراني وغيره بألفاظ متقاربة، وهذا لفظ الطبراني، انظر: المقاصد الحسنة ص (200 – 201)

2) المعجم الكبير للطبراني.

3) رواه الطبراني في الأوسط والصغير والبيهقي مرفوعـا وموقوفـا وقـال المحفـوظ الموقوف.

الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس بنو آدم وآدم من تـراب مـؤمن تقي وفاجر شقي، لينتهين أقوام يفتخرون برجال إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع النتن بأنفها) (1)

وفي حديث آخر: (أنسابكم هذه ليست بمسـبة على أحـدكم، كلكم بنو آدم ليس لأحد على أحد فضل الا بالـدين أو تقـوى وكفى بالرجل أن يكون بذيا فاحشا بخيلا)(2)

قلت: فكيـف عمـق الإسـلام قيمـة المسـاواة في نفـوس المسلمين؟

قال: بتربيتهم على التواضع لله ولخلق الله..

لقد اعتـبر القـرآن الكـبر الحجـاب الأكـبر بين العبـاد ومعرفـة ربهم والاتصال به، فقـال: سَأَصْـرِفُ عَنْ آيَـاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَـقِّ وَإِنْ يَـرَوْا كُـلَّ آيَـةٍ لا يُؤْمِنُـوا بِهَـا وَإِنْ يَـرَوْا سَـبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) (الأعراف:146)

بل أخبر أن المتكبرين لا يدخلون الجنـة حـتى يلج الجمـل في سم الخياط، فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَـا وَاسْـتَكْبَرُوا عَنْهَـا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُجْـرِمِينَ (لأعـراف:40)..: تِلْـكَ الـدَّارُ الْآخِـرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (القصص:83)

وقد ربى محمد في أصحابه هذا الخلق العظيم.. فكـان يحثهم عليه بكل الأساليب، ففي الحديث القدسي: (إن اللـه تعـالى أوحى إلي أن توضـعوا حـتى لا يفخـر أحـد على أحـد ولا ينبغي أحـد على أحد)(3)

وفي حديث آخر: (ما نقصـت صـدقة من مـال، ومـا زاد اللـه عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد إلا رفعه الله)(4)

وفي حديث آخر: (طوبى لمن تواضـع في غـير منقصـة، وذل في نفسه من غير مسألة)(5)

وفي حديث آخر: (من مات وهو برئ من الكبر والعلو والـدين

---

1) أحمد.
2) أحمد.
3) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.
4) رواه مسلم والترمذي.
5) رواه مسلم والترمذي.

دخل الجنة)[1]

وفي حديث آخر: (من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله)[2]، وفي رواية: (من تواضع تعظيما يحفظه الله، ومن تواضع خشية يرفعه الله)

قلت: ولكن الإسلام ربى في نفوس أتباعه العزة.. وهي نوع من أنواع الكبر.

قال: لا.. العزة ليست كبرا.. ويستحيل أن تكون كبرا.

العزة هي امتلاء النفس تعظيما للحق الذي هداها الله إليه، فلا تتشوف لغيره، والمعتز بالحق هو الذي يسعى لإيصاله لغيره من غير أن يستعلي عليهم به.

لقد أخبر محمد (أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ فاني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك)[3]

وفي حديث آخر: (ألا أحدثكم حديث رجلين من بني إسرائيل؟ كان أحدهما يسرف على نفسه، وكان الآخر يراه بنو إسرائيل أنه أفضلهم في الدين والعلم والخلق، فذكر عنده صاحبه، فقال: لن يغفر الله له، فقال الله لملائكته: (ألم يعلم أني أرحم الراحمين؟ ألم يعلم أن رحمتي سبقت غضبي؟ فاني أوجبت لهذا الرحمة، وأوجبت على هذا العذاب، فذا تتألوا على الله)[4]

وفي حديث آخر: (قال رجل لا يغفر الله لفلان، فأوحى الله إلى نبي من الانبياء أنها خطيئة، فليستقبل العمل)[5]

وفي حديث آخر ورد ما هو أعظم من ذلك، فقد قال ﷺ: (كان رجل يصلي، فلما سجد أتاه رجل فوطئ على رقبته، فقال الذي تحته: والله لا يغفر لك الله أبدا، فقال الله عزوجل: تألى عبدي أن لا أغفر لعبدي، فاني قد غفرت له)[6]

وقد سمى محمد هؤلاء الذين زعموا لأنفسهم امتلاك خزائن الجنان (المتألين)[7]، فقال: (ويل للمتألين من أمتي، الذين

---

1) رواه الترمذي والنسائي وغيرهما.
2) رواه الطبراني.
3) مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة عن جندب باب النهي عن تقنيط الانسان من رحمة الله وبرقم (2621).
4) أبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن أبي قتادة.
5) الطبراني في الكبير عن جندب.
6) الطبراني في الكبير.
7) معنى يتألى: يحلف والالية اليمين.

يقولون: فلان في الجنة، وفلان في النار)[1]
بل أخبر عن هلاك هذا النوع من النـاس، فقـال: (إذا سـمعت الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم)[2]، وقال: (إذا قال الرجــل: هلك الناس فهو أهلكهم)[3]

***

ما وصل (مارسيل بوازار) من حديثه إلى هـذا الموضـع حـتى اغرورقت عيناه بدموع لم يملك حبسها، فقلت: ما يبكيك؟
نظر إلى الشجرة، وقال: أبكي على هذه الشجرة المسكينة.. إنها تئن.. فلا يسمعها أحد..
قلت: ما تطلب؟
قال: تطلب تلك التعاليم العالية الرفيعة التي نادى بها محمـد، ولا زال ينادي بها..
تطلب أن يعود الإنسان لغابة الإنسان..
تطلب أن ترمى تلك الوساوس ـ التي نفختهـا الشـياطين في دعاة جهنم ـ إلى هاوية العدم ليعود للإنســان اعتبـاره الـذي ألغي.. وتعود للإنسان حقيقته التي زيفت.
قلت: فما الذي يحول بين الإنسان وتعاليم محمد؟
قال: كلهم يرفعون أصواتهم ليملأوا الدنيا ضجيجا.. فلا يســمع أحد صوت محمد.. إنهم يمارسـون مـا فعلـه مشـركو قـريش حين قالوا: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُـرْآنِ وَالْغَـوْا فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (فصلت:26)
قلت: إني أعجب لك.. كيف تقول هذا.. ومع ذلك لم أرك في يوم من الأيام ترقى منبرا من المنابر لتعلن إسلامك.
ابتسم، وقال: لله من المنابر ما لا تراه.. ولإعلان الإسـلام من الصيغ ما لا تسمعه.
قلت: فأنت مسلم إذن!؟
قال: كم وددت لو كنت كذلك..
قلت: فما الذي يحول بينك وبينه!؟
قال: أنسيت أخاك التوأم!؟
قلت: ما باله.. لقد تركته في ألمانيا بألف خير وعافية.
قال: إن لي توأما مثله.. لا يختلف عنه في شيء.. يضـع ألـف حجـاب بيـني وبين محمـد.. ولكـني يوشـك أن أتخلص من حجبـه

1) البخاري في التاريخ.
2)مالك وأحمد ومسلم وأبو داود.
3)أحمد ومسلم وأبو داود.

جميعا لتشملني أنوار تلك الشمس التي شملت العالمين.

قال ذلك، ثم انصـرف ليتركـني بجـانب تلـك الشـجرة أمسـح بعض آلامها.. وفي ذلك الحين تنزلت علي أشـعة جديـدة، اهتـديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

خامسا ـ روحانية

في اليوم الخامس من تلك الأيـام العشـرة المباركـة، التقيت المستشرقة الـتي قطفت على يـديها ثمـرة الروحانيـة من شـجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سـر قولـه تعـالى: لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْ أَنْفُسِـهِمْ يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كَـانُوا مِنْ قَبْـلُ لَفِي ضَـلالٍ مُبِينٍ (آل عمران:164)

وعرفت بها سـر قولـه تعـالى: وَلا تَطْـرُدِ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَـابِهِمْ مِنْ شَـيْءٍ وَمَـا مِنْ حِسَـابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَـيْءٍ فَتَطْـرُدَهُمْ فَتَكُـونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنعام:52)، وقوله تعالى: وَاصْبِرْ نَفْسَـكَ مَـعَ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيـدُ زِينَـةَ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطـاً (الكهف:28)

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن وظيفة كـبرى من وظـائف النبوة هي وظيفة التزكية وملأ القلوب بمحبة الله والتوجه إليه..

***

كان من ضمن الأسماء الموجودة بالدفتر الـذي سـلمني إيـاه المرشـد المستشـرقة (آنـا مـاري شـميل)(1).. وقـد وضـع بجـانب

---

1) هي Annemarie Schimmel (ولـدت في 1922)، وهي من أشـهر المستشـرقين الألمان المعاصرين، بدأت دراسة اللغة العربية في سـن الخامسـة عشـرة، وتتقن العديـد من لغات المسلمين وهي التركية والفارسية والأوردو.

درّست في العديد من الجامعـات في ألمانيـا، وفي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة وفي أنقـرة، وقـد اهتمت بدراسـة الإسـلام، وحـاولت تقـديم هـذه المعرفـة بأسـلوب علمي موضوعي حتى نالت أسمى جائزة ينالها كاتب في ألمانيا تسمى جائزة السلام.

لكن بعض الجهـات المعاديـة للإسـلام لم يرقهـا أن تنـال هـذه الباحثـة المدافعـة عن الإسلام في وجه الهجمات الغربية عليه، فحاولوا أن يمنعوا حصولها على الجائزة.

وقد أدرك مكانة هذه المستشرقة العلاّمة والداعيـة المسـلم في أوروبـا الـدكتور زكي علي منـذ أكـثر من أربعين سـنة حين كتب يقـول:(وعلى رأس المحـررين (لمجلـة فكـر وفن) الأستاذة الألمعية الدكتورة آن مـاري شـميل المتخصصـة في دراسـة محمـد إقبـال حكيم وشاعر باكستان..وترجمت إلى الألمانية لـه ديـوان (جاويـد نامـة) وكتـاب (رسـالة المشـرق عن الفارسـية) وهي أسـتاذة بجامعـة بـون وغيرهـا ومن أكـابر علمـاء ألمانيا..وتنصف الإسلام والمسلمين كثيراً جزاها الله خيراً)

وقال عنها ـ أيضاً ـ أنهـا أصـدرت العديـد من الكتب منهـا كتـاب (محمـد رسـول اللـه) بسطت فيه مظاهر تعظيم وإجلال المسلمين لرسول الله ﷺ (عبد اللطيف الجوهري. من أعلام الـدعاة في أوروبـا: العلاّمـة الـدكتور زكي علي.(جـدة: عـالم المعرفـة 1418-

اسمها هذه الكلمة (المارقة)

وقد كان هذا اللقب الذي وضع أمـام اسـمها من أكـبر داوعي اهتمامي بلقائها، والحديث معها عن سبب هذا المروق الذي ينسب لها.

في ذلك اليوم المبارك الذي التقيتها فيه كنت أسير في حقـل لعباد الشمس.. وكنت أنظر إليه، وهو يحول وجهته للشمس حيثمـا تحولت، فتعجبت من ذلك المنظـر، ورحت أحـاول تفهم سـر ذلـك التحول.. أو رحت أبحث عن المغنـاطيس الـذي يجـذب وجـه عبـاد الشمس للشمس، أو رحت أبحث عن الدواليب الـتي تحـرك وجـه عباد الشمس نحو الشمس.

في تلك الأثناء سمعت صوتا حانيا يردد:

أحبك حبـين حب الهوى وحباً لأنك أهْلٌ لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

كان صوتا رقيقا عذبا روحانيـا.. فانجـذبت إليـه، كمـا انجـذبت زهرة عباد الشمس للشمس..

على عشب ذلك الحقل رأيتها.. رأيت (آنا ماري شـميل)، ولم أكن أعرفها، مع كونها من أهل بلدي القلائـل بجامعـة السـوربون.. اقتربت منها، وقلت: هل عادت رابعة العدوية إلى الحياة؟

قالت: أنا لست رابعة.. ولكني عاشـقة لرابعـة، كعشـق هـذه الأزهار للشمس.

قلت: وما الذي جذبك لها؟

قالت: الحب.. الحب هو أعظم جـاذب في هـذا الوجـود.. ولم أر أحدا يتحدث عنه بمثل تلك اللوعة التي تتحـدث عنـه بهـا رابعـة، وإخوانها من القديسين.

قلت: لا شك أنك لا تعرفين المسـيحية.. فالمسـيحية هي دين الحب.. وفي كتابها المقـدس تلـك الآيـة الـتي لا نظـير لهـا في أي كتاب من الكتب المقدسة التي تملأ الدنيا.

في الكتاب المقدس هذه العبارة المقدسة (الله محبة)

1988)ص123 والمقالة التي كتبها الدكتور زكي علي نشرت في مجلة البريـد الإسـلامي في 25/6/1963)

وقـد امتـدحها رئيس المجلس الأعلى للمسـلمين في ألمانيـا بأنهـا مـا زالت تواصـل كتاباتها الموضوعية وترجماتها عن الإسلام (عكـاظ، عـدد 10961، ربيـع الآخـر 1417ـ (16أغسطس 1996م)

ابتسمت، وقالت: اسمح للمارقة أن تجيبك لتؤكد لك من مروقها ما كنت تجهله.

قلت: كيف تحولت رابعة إلى مارقة؟

قالت: يستطيع عدوك أن يصفك بما يشاء، وباللقب الذي يشاء ما دام يرى لنفسه سلطة وضع الألقاب.

قلت: أأنت (آنا ماري شميل).. تلك المرأة الألمانية التي تحدت الأعراف، فراحت تعلن حبها للإسلام؟

قالت: أجل.. ولذلك لقبوني بالمارقة.. وما أحلى هذا الاسم إذا كان من أعدائك.. لأنه يعلن انتصارك عليهم.

قلت: ولكن ما الذي جذب قلبك إلى حب الإسلام والدفاع عنه مع كونك ـ حسبما أعلم ـ مسيحية نفسا وأبا وجدا.

قالت: ألا ترى إلى هذه الزهرة الجميلة، وهي تولي وجهها إلى الشمس حيثما تولت؟

قلت: أجل.. وقد كنت قبل ساعة، أتأملها، وأبحث عن الدواليب التي تحركها جهة الشمس.

قالت: فقد بحثت عن تلك الدواليب.. ووجدتها.. ورحت أبحث في الأديان والمذاهب والأفكار والحضارات.. فلم أجد تلك الدواليب إلا في الإسلام..

محمد هو الرجل الوحيد في العالم الذي يملك أسرار الدواليب التي يتحول بها البشر إلى أزهار عباد شمس تتحول وجوهها لا إلى الشمس.. وإنما إلى المصدر الذي جاءت منه الشمس وجاء منه كل شيء.

لقد جاء في القرآن: وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة:115)

محمد هو الرجل الوحيد في العالم الذي جاء بمنظومة كاملة تفسر حقائق الوجود، وتملأ النفس والعقل والقلب والروح والسر وجميع اللطائف بها.

قلت: ولكنك نسيت ما ورد في رسالة يوحنا، فقد قال: (أيها الاحباء لنحب بعضنا بعضاً، لأن المحبة من الله وكل من يحب الله فقد ولد من الله)(يوحنا1/4:7)

وقد كتب يوحنا هذه العبارة التي لا يوجد مثلها في أي كتاب من الكتب المقدسة: (لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به) (يوحنا 3: 16)

ابتسمت، وقالت: لقد كنت مثلك تبهرني مثل هذه العبارات

الجميلة.. لكني عندما حـاولت أن أعيش معانيهـا لم أجـد فيهـا من المعاني الروحانية اللذيذة ما يمكن أن أعيشه.

لاحظ بعين العقل والمنطق والروح تلك العبارة الأخيرة الــتي بهرتك كما بهرت الملايين من غير أن يعرفوا معناها.

ألا ترى أنها تحمل تصـويرا مشـوها عن اللـه يصـرف القلـوب عنه.. بل قد يملؤها ببغضه!؟

قلت: ما تقولين؟

قالت: أرأيت لو أنك.. وأنت صاحب الدار.. دعوت ضيوفا إلى بيتك لتطعمهم من طعامك، وتسقيهم من شرابك.. ثم بدر من أحد ضيوفك ما أساء إليك.. فنظرت إليهم نظرة غضب تريد أن تبطش بهم.. ثم ســرعان مــا تحــولت إلى حليم رحيم.. ولكنــك لم تعــف عنهم.. وإنما ذهبت إلى ولدك الوحيد لتضعه على الصـليب، وتقتلـه شر قتلة أمام أعين ضيوفك، فإذا سألوك عن سر مــا تفعلــه، قلت لهم: لأجل أن أكفر عن خطاياكم.

فإذا سألوك: لم؟.. ألا يمكن أن تكفـر عن خطايانـا بغـير هـذا الأسلوب؟

قلت لهم: لقد وضعت قانونا، بأني لا أكفر الخطايا إلا بالدم..

فإذا سألوك: ألا يمكن أن تتنازل عن قانونك هذه المرة؟

قلت: لا..

فإذا سألوك: لم؟

قلت: لأني عادل.

فإذا سألوك: فلم عاقبت من لم يستحق العقوبة إذن؟

قلت: لأني رحيم.

التفتت إلي، وقالت: ألا ترى هذا نوعا من الجنون!؟

هل الذي يحب العالم لا يحب ابنه الوحيد.. ثم كيف يحب اللــه العــالم، ولا يحب ابنــه.. ثم.. هــل الــذي يحب العــالم يقتــل ابنــه الوحيد!؟

ثم.. كيـف نثـق بإلـه لم يشـفق على ابنـه من أجـل غفـران خطيئة مذنب آخر؟ كما يقول بولس في (رومية 8:ـ 32):ـ (الــذي لم يشفق على ابنه بل بذله لاجلنا اجمعين)

لقد نسب بولس إلى الله عدم الشفقة.. أي القسوة.

ألا توجـد طريقـة أخـرى عنـد إلـه المحبـة بـدلاً من قتـل ابنـه المزعوم لإنقاذ غيره!؟

وهل اقتضت رحمته ألا يُعالج هذه الجريمـة إلا بجريمـة أبشـع

منها؟

وهل صحيح ما يقوله بولس الذي حجر على الله المغفرة في رسالته إلى العبرانيين (9:ـ 22)، فقال: (وكل شئ تقريبا يتطهر حسب الناموس بالدم وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة)(1).. أهذا إله يمكن أن يكون محبوبا.. الإله العاشق للدماء.. الذي لا يكفر الخطايا إلا بعد أن يسفك الدماء؟

ثم كيف يتطهر العباد الذين لم يجاهدوا أنفسهم في ذات الله.. أبالانتحار.. حتى يقدموا قرابين لله الذي يحب الدماء.. أم بالإيمان والذكر والعبادة والتوجه!؟

لم أجد ما أقول، فقالت: إن دينا يقوم على مثل هذه العقيدة يستحيل أن تصدر منه أي روحانية شفافة صادقة مترفعة.. ذلك أن قوانين الروحانية لا تنسجم إلا مع قوانين العقلانية.. فلا تناقض بين العقل والروح.

قلت: لقد ذكرت لي أنك اكتشفت أسرار الدواليب التي تحرك عباد الشمس.

قالت: لقد اكتشفت أسرار الدواليب التي تحرك القلوب نحو الله.. وهي ما تحتاج أن تعرفه.

قلت: فما هي؟

قالت: ثلاث:الربانية.. والعقلانية.. والإنسانية.

قلت: فهل ستحدثيني عنها؟

قالت: سأحدثك بخلاصة خلاصة ما وجدته من مقارناتي بين الإسلام وغيره من الأديان والفلسفات والمذاهب.. لتعرف سر

---

1) وهذا الذي قاله بولس، ويتعلق المسيحيون به.. بل يعتبرونه من أصول عقائدهم، وعليه تقوم حياتهم الروحية، يخالف ما ورد في الكتاب المقدس، فقد جاء في (هوشع: 6ـ 6-7):(إني أطلب رحمة لا ذبيحة، ومعرفتي أكثر من المحرقات. 7ولكنكم مثل آدم، نقضتم عهدي)

وفيه (هوشع 14:ـ 1-3):(ارجع تائبا يا إسرائيل إلى الرب إلهك، لأنك قد تعثرت بخطيئتك. احملوا معكم كلام ابتهال وارجعوا إلى الرب قائلين له: انزع إثمنا، وتقبلنا بفائق رحمتك، فنزجي إليك حمد شفاهنا كالقرابين. إن أشور لن تخلصنا، ولن نعتمد على خيول مصر لإنقاذنا، ولن نقول للأوثان صنعة أيدينا: (أنتم آلهتنا) لأن فيك وحدك يجد اليتيم رحمة)

وفي (ميخا 6:ـ 6-8):(يارب: بماذا أتقدم عندما أمثل أمام الرب وأسجد في حضرة الله العلي؟ هل أتقدم منه بمحرقات وبعجول حولية؟ هل يسر الرب بألوف أنهار زيت؟ هل أقرب بكري فداء إثمي وثمرة جسدي تكفيرا عن خطيئة نفسي؟ لقد أوضح لك الرب أيها الإنسان ما هو صالح. وماذا يبتغي منك سوى أن تتوخى العدل، وتحب الرحمة، وتسلك متواضعا مع إلهك)

وفي (مزمور 40:ـ 6):(لم ترد أو تطلب ذبائح ومحرقات عن الخطيئة، لكنك وهبتني أذنين صاغيتين مطيعتين)

وبهذا يتبين أن ما ذكره بولس من أخطر البدع التي حرفت المسيحية.

مروقي (2).

الربانية:

قلت: فلنبدأ حديثنا عن الربانية.

قالت: لقد بحثت في التوجهات الروحية المختلفة.. فوجدت كل طائفة من الطوائف تولي وجهها نحو شمس من الشموس الآفلة.. ثم بحثت في وجهة المسلمين، فوجدتها جميعا موجهة نحو الشمس التي لا تأفل.

لعلك تعرف قصة إبراهيم في القرآن.. والتي ورد فيها: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)﴾(الأنعام)؟

قلت: أجل.. فما فيها مما نحن فيه؟

قالت: فيها كل ما نحن فيه.. إن هذه الآيات تلخص السير الروحي للمسلمين.. فالسير الروحي للمسلمين لا يتوجه إلا لله.. كما قال القرآن: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:162)

وذلك هو معني الإسلام، كما جاء في القرآن بعد الآية السابقة:﴿ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: 163)

بينما سيرنا نحن المسيحيين لا يتوجه إلا نحو أنفسنا.. فنحن بتركيزنا على الخطايا والفداء والكفارة ونحوها قد وضعنا حجبا بيننا وبين الله.

بينما لا تشكل الخطايا في نظر الإسلام إلا إفرازات للطبيعة الإنسانية.. ويمكن تجاوزها بالتوبة الصادقة.. وقد جاء في القرآن:﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:53)

بل نحن لم نكتف بذلك.. لقد جعلنا من ديانتنا ديانة كهنوتية تفتقر إلى الوسائط الكثيرة.. بينما المسلمون يرتبطون بالله من

---

2) انظر التفاصيل المرتبطة بالجانب الروحي في الإسلام في رسالة (سلام للعالمين)

أول لحظة، فليست لديهم أي وسائط بينهم وبين الله، وقد قال القرآن: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (البقرة:186)

قلت: واليهود.. هم أيضا أصحاب ديانة سماوية.

قالت: اليهود يعبدون أنفسهم.. لا الله.. ولذلك فإن شموسهم منحنية انحناءة بشعة مشوهة تصور ما تمتلئ به قلوبهم من أحقاد.

قلت: والمسلمون!؟

قالت: كل عارفي المسلمين وأوليائهم وقديسيهم لا تلهج ألسنهم إلا بذكر الله ومحبة الله وتعظيم الله..

سأل الشبلي جارية حبشية، فقال: من أين؟ قالت: من عند الحبيب، قال: وإلى أين؟ قالت: إلى الحبيب، قال: ما تريدين من الحبيب؟ قالت: الحبيب.

إن هذه الجارية عبرت خير تعبير عن وجهة أولياء أمة محمد.. فهم لا يعرفون إلا الله، ولا يبحثون إلا عن الله.

وقد قال مثلها ابن عطاء الله يحث المريدين على توحيد الوجهة: (كن أيها العبد إبراهيمياً، فقد قال أبوك إبراهيم ــ صلوات الله عليه وسلامه ـ: لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (الأنعام:76).. وكل ما سوى الله آفل إما وجوداً وإما إمكاناً، وقد قال سبحانه: مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ (الحج:78).. فواجب على المؤمن أن يتبع ملة إبراهيم، ومن ملة إبراهيم رفع الهمة عن الخلق، فإنه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل عليه السلام فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى، قال: فاسئله، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي.. فانظر كيف رفع إبراهيم ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق، فلم يستغث بجبريل، ولا احتال على السؤال من الله، بل رأى الحق سبحانه أقرب إليه من جبريل، ومن سؤله، فلذلك سلمه من نمروذ ونكاله، وأنعم عليه بنواله وأفضاله، وخصه بوجود إقباله)

وقال في حكمة من حكمه الجليلة يحذر من الانقطاع في الطريق عن الله بأي شاغل من الشواغل، أو زخرف من الزخارف: (لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى يسير والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون: وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (النجم:42)

والعارفون من المسلمين يعتبرون سكون الإنسان للأشياء

وعدم عبوره منها وقوفا بل سقوطا، فعن القاسم بن عبد الله البزار قال سمعت سري بن المغلس يقول: (لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله تعالى من الأشجار، عليها من جميع ما خلق الله تعالى من الأطيار، فخاطبه كل طائر منها بلغته، وقال: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلك كان في يدها أسيرا)

قلت: ألا ترين في هذا خطورة على إنسانية الإنسان وعلاقته بالأكوان؟

قالت: لا.. في هذه الوجهة تجتمع الإنسانية مع العقلانية مع الربانية..

فالعارف لا يحجب عن نفسه وعن الكون احتقارا لنفسه أو احتقارا للكون.. وإنما هو يعيد في ذهنه نسبة الكون إلى صاحبه.. وبذلك تنتظم أموره جميعا..

العارف ينظر إلى الكون.. ويعيش الكون..

ولكن نظرته تختلف كثيرا عن نظرة الماديين الذين يصارعون الكون ويصارعون أنفسهم.. ولا يرون في الكون ولا في أنفسهم من جوانب الجمال ما حجبهم عنه صراعهم.

العارفون ينظرون إلى الكون المسبح قبل أن ينظروا إلى الكون المسخر، فيجتهدون في تفقه أسرار تسابيحه، قال الغزالي: (فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك إليها بجسمه وشخصه، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض، وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحِصر تفاوت درجاتهم)

إن هذه هي دعوة القرآن إلى التعرف على الله من خلال الآفاق والأنفس..

لقد وصف القرآن هؤلاء العارفين وعلاقتهم بالكون، فقال: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ

أَنْ آَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآَمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194) (آل عمران)

قلت: ولكني أسمع بأن الروحانيين من المسلمين ينفون الأكوان؟

قال: هم ينفونها من حيث ذاتها، وثبتونها من حيث انتسابها إلى الله، فالعارفون لا يتوجهون إلا إلى الله، ولا ينحجبون بشيء عن الله.. يرددون مع أبي مدين قوله:

الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكل دون الله أن حققته عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال
والعارفون بربهم لم يشهدوا شيئاً سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً في الحال والماضي والاستقبال

وعبر الآخر عن انشغال العارف بالله عن الكون بقوله:

شغل المحب عن الهواء بسره في حب من خلق الهواء وسخره
والعارفون عقولهم معقولة عن كل كون ترتضيه مطهره
فهم لديه مكرمون وفي الورى أحوالهم مجهولة ومستره

وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر ـ كما ورد في الحديث كلمة لبيد (1): ألا كل شيء ما خلا الله باطل ـ

قلت: إن هذا عينه ما يردده أهل وحدة الوجود.. بل إن هذا النوع من الوحدة نجده عند اليهود أنفسهم.. ففي القبالاه نجد كلمات كثيرة تشير إلى هذا المعنى.

قال: نعم.. قد تجد بعض الكلمات مما يوهمك أن وحدة الوجود الفلسفية أو اليهودية هي عينها وحدة الوجود التي ينسبها البعض إلى العارفين من المسلمين.. ويؤيد هذا بعض العوام من المسلمين ممن لم يكن لهم من القدرة العقلية ما يحللون به الكلام ليفهموا حقيقة المراد منه.

ولكن التأمل العقلي والتحليل المنطقي يدل على أن وحدة

---

1) وقد ورد الحديث بصيغ مختلفة منها أشعر كلمة تكلمت بها العرب، وفي رواية أصدق كلمة قالها شاعر، وفي أخرى أصدق بيت قاله الشاعر، وفي أخرى أصدق بيت قالته الشعراء، وفي أخرى أصدق كلمة قالتها العرب.

الوجود المشار إليها عند الصوفية المسلمين مغايرة تمام المغـايرة لقـول الفلاسـفة ووحـدتهم الـتي لا تفـرق بين الخـالق والمخلـوق والصنعة والصانع.

فليس المراد بوحدة الوجود عنـد الصـوفية وجـودين قـديمين اتحدا، ولا قديم وحادث اتحدا، لأنهم يعتقدون ـ انطلاقا من المصادر المقدسة ـ أن الله لا يحل في شيء، ولا يمازج شـيئاً، ولا شـئ في ذاته في خلقه، ولا من خلقه في ذاتـه، وقربـه وبعـده ليس كقـرب الأجسام وبعـدها، ولا هـو محصـور ولا محـدود.. تـنزه عن أوصـاف خلقه.

لقد قـال محي الـدين بن عـربي وهـو من رجـالات التصـوف الـذي أسـيء فهم مقاصـدهم: (لـو صـح أن يـرقى الإنسـان عن إنسانيته، والملك عن ملكيتـه، ويتحـد بخالقـه تعـالى، لصـح انقلاب الحقائق وخرج الإله عن كونه إلهاً، وصار الحق خلقاً، والخلـق حقـاً، ومـا وثـق أحـد بعلم، وصـار المحـال واجبـاً، فلا سـبيل إلى قلب الحقائق أبداً)

انظر كيف ينفي الاتحاد والحلول بشدة، فما كان في كتبه مما يوهم ذلك فهو إما مدسوس عليه، وإما فهم على غير حقيقته(1).

وبمثـل هـذا نطـق كـل العـارفين.. فقـد قـال الشـيخ علـوان الحموي (ت 936هـ) في تعليقه على كلام محمـد بن واسـع تلميـذ الحسن البصـري في فنائـه عن الخلـق بـالحق: (مـا رأيت شـيئاً إلا رأيت الله فيه) قال معلقاً على هذا: (مذهب أهـل الحـق أن مولانـا عز وجل لا يحل في شيء، ولا يحل فيه شيء، وكلما ورد عليك مـا يوهم ظاهره الحلول فأوله)

وقـد بين الشـيخ الهجـويري (ت. 470هــ) في كتابـه (كشـف المحجوب) تعليقاً على هذه العبارة قولـه: (إن المـرأ عنـدما تغلبـه المحبة للذات الإلهية يصل إلى مرحلة لا يرى فيها الصنع وإنما يرى الصانع)

وقال أحد العارفين: (أراد بهذه الرؤية الشهود لا رؤيـة البصـر لأن الرؤية من خصائص البصر، والشهود من خصائص البصيرة)

سكتت قليلا، ثم قالت: لقد نطق القرآن بهـذه المعـاني.. بـل إن تأمل القـرآن هـو الـذي جعـل هـؤلاء العـارفين يصـلون إلى مـا وصلوا إليه من حقائق..

---

1) انظر: اليواقيت والجواهر:1/80 –81) وقد قـال ابن عـربي في الفتوحـات (جــ4 ص372-379):(ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد ومن قال بالحلول فهو معلول لا دواء لـه)

اسمع لهذه الآية.. وحاول أن تعيشها.. ففيها من الحقائق ما يجعل القلب لا يعرف وجهه إلا الله نافيا ما سواه..: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد:3)

فالتأمل في المعاني العميقة التي تحملها هذه الأسماء يلبس الأشياء جميعا ثوب العدم، ليبقى الحق وحده هو المتفرد بالوجودالحقيقي.

لقد قال سيد قطب ــ هو مثال العارف المسلم المملوء بالروحانية العميقة ــ مبينا عمق المعاني التي تدل عليها هذه الأسماء الحسنى: (وما يكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض، حتى تطالعه حقيقة أخرى، لعلها أضخم وأقوى، حقيقة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة، فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه ؛ ومن ثم فهي محيطة بكل شيء، عليمة بكل شيء ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾

ويقول عن المعاني التي يستشعرها، وهو يعيش في ظلال هذه الأسماء: (الأول فليس قبله شيء. والآخر فليس بعده شيء. والظاهر فليس فوقه شيء. والباطن فليس دونه شيء.. الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة الزمان، والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكان. وهما مطلقتان. ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيء إلا لله. وهذه كل مقومات الكينونة ثابتة له دون سواه. حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقق إلا مستمدا من وجود الله. فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده. وهذه الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته. وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود)

لقد عبر القرآن ـ كذلك ـ عن هذا المعنى باسم الله (الأحد) في قوله: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الاخلاص:1)، وهو اسم عظيم يحوي ـ مع التأمل ـ الكثير من الدلالات، ولهذا لما خشي محمد أن لا يقدر حق قدره ـ كما قد لا تقدر المعاني الواردة في السورة حق قدرها ـ ذكر أن هذه السورة ـ التي تحوي هذه الحقيقة الجليلة ــ والتي نتوهمها صغيرة تعدل ثلث القرآن.

ولهذا كان بلال في رمضاء مكة في بداية الإسلام يصيح بها في نشوة عظيمة، وقد فني عن كل العذاب المحيط به: (أحد أحد)

ولا غرابة في كل هذا ـ كما يقول سيد قطب ـ (فـإن الأحديـة التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها: قل هو الله أحـد. هـذه الأحديـة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة)

ولهذا ـ خلاف ما قد نتصور ـ فإن غايـة رسـالة محمـد لم تكن الدعوة والتربية على معنى التوحيد الذي ينفي الشريك فقط، وإنما الدعوة والتربية على معنى الأحدية الذي ينفي الوجود الـذاتي لغـير اللـه.. وعلى كليهمـا تقـوم حيـاة المـؤمن، ومن كليهمـا يسـتمد العارف(1).

لقد شرح سيد قطب بتعبيره الجميـل المعـاني الـتي يعيشـها العـارف، وهـو في ظلال هـذا الاسـم الجليـل، فقـال: (إنهـا أحديـة الوجود.. فليس هناك حقيقة إلا حقيقته. وليس هناك وجـود حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر فإنما يستمد وجـوده من ذلـك الوجـود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية)

وهذه الحقيقة هي التي تتأسـس عليهـا كـل حقـائق المعرفـة والسلوك، وهي النهاية التي ينتهي إليهـا سـلوك العـارف ليبـدأ بهـا اسـتمداده، فهـو مـا دام ينظـر إلى الوجـود نظـرة الشـريك الـذي يـزاحم ربـه في وجـوده، لا يسـتمد من هـذا الوجـود غـير الجهـل والتشتت، لكنه إن خلـع عنـه هـذا الوجـود المشـرك، وحلاه بحليـة الأحدية، فإن الوجود كله يصبح عيونا تفيض بالمعارف على قلبه.

ولهذالا يفهم العـارفون من قـول (لا إلـه إلا اللـه)، مـا يفهمـه الكثير من قصر معناها على (لا معبود بحـق إلا اللـه)، بـل يفهمـون ذلك، ومعه يفهمون أن (لا موجود بحق إلا الله)

قلت: ولكـني سـمعت بكثـير من المسـلمين يكفـرون سـيدا وغيره بهذا.

قالت: دعك منهم.. هم فئـة محـدودة معروفـة بـالتطرف في كل شيء.. لعله لم يصب الإسلام بأنواع البلاء إلا بسببها.

فهذه المجموعة هي التي تزعمت تطرف الإرهاب.. وتزعمت تطرف الشعوذة.. وتزعمت تطرف التفريق بين المسـلمين.. وهي تتزعم أنواعا كثيرة من التطرف أخطرها أنها الحجـاب الأعظم بين قومنا وبين الإسلام.

وأنبئك سرا.. أنـا الـتي أتهم بـالمروق.. كنت مثـل قـومي في نكرانهم للإسلام.. وكان أولئك من سبب ذلك النكران.. ولكـني مـا

---

1) انظر تفاصيل هذه المسألة والموقف القـرآني منهـا في رسـالة (أكـوان اللـه) من هذه السلسلة.

تخلصت من عقدتهم، ورحت أبحث عن الحقائق من أهلها حتى بان لي من حقائق الإسلام ما جعلني مارقة بين قومي.

قلت: ولكن أولئك يذكرون أقوالا لعلماء لهم اعتبارهم في الإسلام؟

قالت: هم لا يقرؤون شيئا.. فإذا قرأوا ينتقون ما يقرؤون، ويقطعونه تقطيعا.

هم يزعمون أنهم يستمدون من ابن القيم.. مع أن ابن القيم يتحدث عن هذه المعاني من دون إنكار لها.. فهو يقول في مدارج السالكين عند حديثه عن منزلة الفناء: (الفناء ضد البقاء، والباقي إما باق بنفسه من غير حاجة إلى من يبقيه، بل بقاؤه من لوازم نفسه وهو الله تعالى وحده، وما سواه فبقاؤه ببقاء الرب، وليس له من نفسه بقاء، كما أنه ليس له من نفسه وجود، فإيجاده وإبقاؤه من ربه وخالقه، وإلا فهو ليس له من نفسه إلا العدم، قبل إيجاده والفناء بعد إيجاده)

ويرفع توهم أن المراد بأن نفسه وذاته اقتضت عدمه وفناءه بقوله: (إنما الفناء أنك إذا نظرت إلى ذاته بقطع النظر عن إيجاد موجده له كان معدوما، وإذا نظرت إليه بعد وجوده مع قطع النظر عن إبقاء موجده له استحال بقاؤه، فإنه إنما يبقى بابقائه كما أنه إنما يوجد بإيجاده فهذا معنى قولنا إنه بنفسه معدوم وفان فافهمه)

قلت: وعيت مقاصد العارفين من المسلمين من هذا.. ولكني لم أع الفرق بينهم وبين سائر الطوائف.

قالت: لقد ذكرت اليهود.. وتصورت أن في اليهودية مثل هذا.

قلت: أجل..

قالت: لتفهم الفرق بين هذه المعاني عند المسلمين وعند غيرهم من الطوائف وخاصة اليهود تحتاج إلى تمييز مهم بين نمطين من التصوف، فالتصوف هو الاسم الذي اشتهرت به هذه المعاني (1):

أما ألهما ـ وهو تصوف المسلمين ــ فهو تصوف يدور في نطاق إطار توحيدي، ويَصدُر عن الإيمان بإله يتجاوز الإنسان والطبيعة والتاريخ، ومن ثم يؤمن بالثنائيات الدينية الفضفاضة (سماء/أرض ـ إنسان/طبيعة ـ إله/إنسان)

---

1) انظر هذه التفاصيل.. ونظرة اليهودية للتصوف في (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

وتتبدَّى هذه الرؤية في تدريبات صوفية يقوم بها المتصوف ليكبح جماح جسده تعبيراً عن حبه للإله وعن محاولته التقرب منه، وهو يعرف مسبقاً استحالة الوصول والتوحد مع الإله، فالحلول الإلهي يتنافى مع الرؤية التوحيدية، ولذلك، فإن وحدة الوجود عند الصوفية المسلمين ـ بمعناها الفلسفي ـ قمة الكفر.. والمتصوف الذي يدور في إطار توحيدي يعبِّر عن حبه الإلهي عن طريق فعل في التاريخ والدنيا يلتزم فيه بقيم الخير ويُعلي به من شأن القيم المطلقة المُرسَلة للإنسان من الإله ويصلح به حال الدنيا.

أما النمط الثاني من التصوف ـ وهو تصوف اليهود.. ومثله كثير من صوفية الأديان والمذاهب المختلفة، ولعل بعضه سرى لبعض طوائف المسلمين ــ فيدور في إطار حلولي يصدر عن الإيمان بالواحدية الكونية، حيث يحل الإله في الطبيعة والإنسان والتاريخ، ويتوحد معها ويصبح لا وجود له خارجها، فيُختزَل الواقع بأسره إلى مستوى واحد يخضع لقانون واحد.. ومن ثم، يستطيع من يعرف هذا القانون (الغنوصي) أن يتحكم في العالم بأسره.

فالتحكم في العالم وفي الأشياء هو هدف المتصوف في هذا الإطار... ولهذا تجده ـ بدلاً من التدريبات الصوفية التي يكبح بها الإنسان جسده ويطوع لها ذاته ـ يأخذ شكل التفسيرات الباطنية وصنع التمائم والتعاويذ والبحث عن الصيغ التي يمكن من خلالها التأثير في الإرادة الإلهية، ومن ثم التحكم الإمبريالي في الكون.

وحتى لو أخذ هذا التصوف شكل الزهد، فالهدف من الزهد ليس تطويع الذات، وإنما الوصول إلى الإله والالتصاق به والتوحد معه والفناء فيه، ليصبح المتصوف عارفاً بالأسرار الإلهية، ومن ثم يصبح هو نفسه إلهاً أو شبيهاً بالإله.

والمتصوف بهذا النمط لا يكترث إلا بذاته، ولذا فهو لا يتحرك في الزمان والمكان الإنسانيين، ولا يأتي بأفعال في التاريخ، ولا يهتم بإصلاح الدنيا، بل يضع نفسه فوق الخير والشر، وفوق كل القيم المعرفية والأخلاقية.

ألا ترى الفرق بينهما عظيما؟

قلت: أجل.. فالتجربة الصوفية التوحيدية تطويع للذات وطاعة للخالق وإصلاح للدنيا، وأما الثانية فهي تحقيق للذات وتطويع للخالق وبحث عن التحكم في الدنيا.

ولكن كيف يستخدم كلاهما مصطلحا واحدا (تصوف) مع هذا؟

قال: العاقل لا ينحجب بالمصطلحات.. بل يبحث عن

الحقائق..
الروحانية الإسلامي ـ التي استطاع التصوف المعتدل أن يعبر عنها أحسن تعبير ـ تمثل قمة التوجه إلى الله، وقمة الاستسلام له.
ولكن الروحانية المادية التي يمثلها التصوف الحلولي اليهودي أو المسيحي.. ليس سوى توجه للذات، بل هو في أشكاله المتطرفة، ليس سوى شكل من أشكال العلمنة.. فإذا كان الإله أو الخالق هو مخلوقاته، فإن مخلوقاته هي هو.. وإذا حل الإله في المادة، فإن الطبيعة تصبح هي الإله، كما يذكر إسبينوزا، كما أن صاحب العرفان يصبح قادراً على التحكم في الإله والطبيعة والكون.. وفي هذا نرى ملامح سوبرمان نيتشه، الذي لا يؤمن إلا بإرادة القوة ويتجاوز أخلاق الضعفاء.
ولهذا، فإن المتصوف اليهودي لا يتجه نحو تطويع الذات الإنسانية الفردية لله، وإنما يحاول الوصول إلى فَهْم طبيعة الإله من خلال التأمل والمعرفة الإشراقية الكونية (الغنوص أو العرفان) بهدف التأثير في الإله والتحكم الإمبريالي في الواقع.
ولهذا نرى ارتباط التصوف اليهودي أو القبَّالاه بالسحر، ولهذا أيضاً كانت علاقة السحر بالعلم والغنوصية.
وقد وصف العالم جيرشوم شوليم الصوفية اليهودية بأنها (ثيو صوفية)، أي أنها معرفة الإله من خلال التأمل والمعرفة الإشراقية الكونية (الغنوص) أو العرفان، ومن ثم، فهي تبتعد عن التمرينات الصوفية ومحاولة الذوبان أو إفناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية.
قلت: وعيت كل ما ذكرته.. ولكن ألا ترين أن هذا النوع من الروحانية فيه نوع من الارستقراطية!؟
قالت: ما تقصد؟
قلت: إن هذه المعاني التي ذكرتها لا يستطيع استيعاب فلسفتها إلا الأكابر.. أما البسطاء من الناس، فهم لا يطيقون فهمها.. وبالتالي، فإن المعاني الروحية للإسلام من اختصاص الثلة لا العامة؟
قالت: في كلامك بعض الصحة.. وكثير من الأخطاء.
أما ناحية الصحة.. فهي أن المعاني الروحية الراقية بدرجاتها العالية لم تكتمل إلا للأكابر من الأولياء.. ولا حرج في هذا.. ففي كل أمة من الأمم العامة والقديسون.
وقد أشار القرآن إلى هذه الثلة حاثا على سلوك سبيها

باعتبارها النموذج الأكمل للإنسان، فقال: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (فاطر:32)

والقرآن يسمي هؤلاء (مقربون)..: وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعة: 11)

والقرآن يعتبر هذا النوع ثلة قليلة في جميع الملل: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (الواقعة: 14)

ولكن هذا لا ينفي انتشار المعاني الروحية العالية بين المؤمنين..

ففي القرآن وفي كلام محمد وهديه منظومة كاملة من التوجيهات والتشريعات ليس لها من هدف سوى ربط المؤمنين بالله..

لا شك أنك تعرف الأذكار والأدعية وأنواع المناجاة التي وردت بها النصوص المقدسة للمسلمين؟

قلت: أجل..

قالت: لقد بحثت في تلك النصوص ودرستها دراسة متأنية، وقارنت بينها وبين أنواع الأدعية والأذكار في جميع الأديان والمذاهب.. فلم أجد روحانية أرق من تلك الروحانية التي تضمنتها أدعية المسلمين.

قلت: ولكني أرى بدعا كثيرة دخلت.. فهناك أنواع من المناجاة لم ترد في النصوص المقدسة.. ومع ذلك أرى المسلمين يلهجون بذكرها.

قالت: لقد بحثت في تلك الأنواع أيضا.. فرأيتها تصب فيما ورد في النصوص.. لقد صب الصالحون من المسلمين ممن أوتو قدرات بلاغية عالية المعاني الروحية الرقيقة في صورة أدعية وابتهالات ومناجاة لتكون معراجا يرقى بالمريدين إلى الله.

ولا أرى فيها أي بدعة.. فقد كان محمد يقر ما يقوله أصحابه من أدعية ومن أنواع الأذكار ما لم يخالف ما ورد في العقيدة الإسلامية من حقائق.

سأذكر لك نموذجا من هذا النوع لترى فيه كيف تنتظم المعاني الروحية العالية في مناجاة رقيقة.

هذه المناجاة هي المناجاة المنسوبة للإمام الحسين، وينسبها بعضهم لابن عطاء الله..

اسمع ما يقول: (**إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا**

أكـون فقـيراً في فقـري؟!.. إلــهي أنـا الجاهـل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟!)

إن هـذه المناجـاة.. بـل هـذه الحكمـة ممـا يمـيز الروحانيـة الإسلامية.. إنها روحانية افتقار إلى الله.. ولجوء إلى الله.. وانطراح بين يدي الله.. وهو تصديق لما ورد في القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَـا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:15)

ولذلك.. فإن هـذا الفقـر يملأ صـاحبه بالتواضـع للـه.. ولخلـق الله.. وتجعله في قمة السلام بينـه وبين نفسـه، وبينـه وبين اللـه.. وبينه وبين الخلق.

ثم يقول: (**إلـهي إن اختلاف تدبيرك، وسـرعة حلـول مقاديرك، منعـا عبـادك العـارفين بـك عن السـكون إلى عطاء واليأس منك في بلاء**)

هذه ناحية أخرى مهمـة تجعـل العـارفين من المؤمـنين.. بـل تجعل العوام منهم متوجهين دائما إلى الله..

فالله في الإسلام لم يتخـل عن خلقـه هـو معهم يرعـاهم في كـل لحظـة ﴿ مَـا تَسْـقُطُ مِنْ وَرَقَـةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَـا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام:59).. ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَـةٍ إِلَّا هُـوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَـةٍ إِلَّا هُـوَ سَادِسُـهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَـانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَـا عَمِلُـوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلـة:7)..﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر:19)..﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَـأْنٍ وَمَـا تَتْلُـو مِنْـهُ مِنْ قُـرْآنٍ وَلا تَعْمَلُـونَ مِنْ عَمَـلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُـهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَـا يَعْـزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَـالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس:61)

وهو يقلب المقـادير على مقتضـى حكمتـه ورحمتـه وعدلـه.. ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الانبياء:23)

ثم يقول في أدب المؤمن العارف بنفسه: (**إلـهي مني مـا يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك**).. **أي مـني مـا يليـق بلؤمي الـذي هـو وصـف العبيـد من مبارزتـك بالـذنوب، ومنـك مـا يليـق بكرمـك الـذي هـو وصـف الربوبيـة من التجاوز والعفو وستر العيوب**)

ثم يقول: (**إلـهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي، أفتمنعني منهما بعد وجود ضـعفي**)، وهذا توسل من المؤمن إلى الله بأسمائه.. وهو ما يقـرب المـؤمن

إلى الله قربا عظيما.

ثم يقول متبريا من الحول والقوة الـتي قـد تحجبـه عن اللـه: (**إلـهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك، ولـك المنـة علي، وإن ظهرت المساوي مني فبعـدلك، ولـك الحجـة علي**)

ثم يتوجــه إلى اللــه متوسـلا إليــه بكمالاتــه لطلب حاجاتــه: (**إلـهي كيف تكلني إلى نفسي وقد تـوكلت لي؟ وكيـف أضــام وأنت الناصــر لي؟ أم كيــف أخيب وأنت الحفي بي؟**

ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليـك حـالي وهو لا يخفى عليك؟ أم كيـف أتـرجم لـك بمقـالي وهـو منك برز إليـك؟ أم كيـف تخيب آمـالي وهي قـد وفـدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك؟

إلـهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي، ومـا أرحمـك بي مع قبيح فعلي!)

كانت (آنا ماري شميل) تقرأ هذه المناجاة الطويلة عن ظهـر قلب بخشوع ورقة ملأتني بمشاعر لا أسطيع وصفها.

قلت لها: إن هذا الإمام يذكر معـاني جليلـة.. فهـل تـرين كـل هذه المعاني مستنبطة من النصوص المقدسة؟

قـالت: لـو كـان الـوقت كافيـا لاسـتدللت لكـل كلمـة قالهـا بنصوص كثيرة من القرآن والسـنة.. إن الروحانيـة الإسـلامية فيض من القرآن والسنة.. وهذه ميزة لم أجدها في أي دين من الأديان.. اذهب إلى كتابنا المقدس.. وحاول أن تجد ما يملأ روحك بمـا يلـبي أشــواقها إلى اللــه.. أنــا موقنــة أنــك لن تجــد إلا مــا يملأ نفســك بالغثيان(1)..

سـكتت قليلا، ثم قـالت: بتلـك الكلمـات الرقيقـة الـتي تفـوح بعطر الربانية كان القديسون من المسلمين يسيرون ليملأوا أفـواه العوام والخواص بذكر الله والتوجـه للـه والامتلاء بحب اللـه، وحب أوليائه.

ولذلك.. فإن الروحانية الإسلامية روحانية عامة حتى في حال ضعف المسلمين..

لقـد رأيت بعض المسـلمين من المنحـرفين أو من السـكارى

1) انظر في هذا رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

قد يقاتل من يسب ربه أو كتابه أو نبيه.. إنه يختزن في نفسه ـ مع كونه منحرفا في نظر الإسلام ـ إيمانا عظيما ومحبة عظيمة.. نعم غلبته شهواته.. ولكن الروحانية الإسلامية لا زالت تجذبه.. ولعلها في يوم من الأيام تستطيع أن تخلصه.

وهذا هو سر قوة الإسلام..

فقوة الإسلام في روحانيتة.. وقوة روحانيته في ربانيته.

سكتت قليلا، ثم قالت، وهي تعتصر ألما: إن المسيح يسب في بلادنا.. ويسخر منه، فيثور المسلمون ويتألمون.. أما نحن فلا ننبس ببنت كلمة..

أتدري لم؟

قلت: لم؟

قالت: لأن كتابنا المقدس لا يحمل أي احترام لله..

قارن ما سمعته من تلك الأدعية والمناجاة بما يذكه كتابنا المقدس من مناجاة الأنبياء.. لا الأولياء..

لقد جاء في سفر الملوك الأول (17:ـ 20) عن إيليا النبي وهو يخاطب الله: (وصرخ إلى الرب وقال: أيها الرب إلهي، أأيضاً إلى الأرملة التي أنا نازل عندها أسأت باماتتك ابنها)

وفي سفر الخروج (5:ـ 22) عن موسى النبي وهو يخاطب الله: (فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى شَعْبِكَ يَارَبُّ؟ لِمَاذَا أَرْسَلْتَنِي؟ فَمُنْذُ أَنْ جِئْتُ لأُخَاطِبَ فِرْعَوْنَ بِاسْمِكَ، أَسَاءَ إِلَى الشَّعْبِ، وَأَنْتَ لَمْ تُخَلِّصْ شَعْبَكَ عَلَى الإِطْلاَقِ)

وفي سفر إشعياء (63:ـ 17) أن إشعيا النبي خاطب الله قائلاً: (لماذا أضللتنا يا رب عن طرقك؟ قسيت قلوبنا عن مخافتك)

وفي مزمور (10:ـ 1) أن داود النبي خاطب الله قائلاً: (يارَبُّ لماذا تقف بعيداً؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق؟)

بهذه الوقاحة يخاطب الأنبياء في الكتاب المقدس الله.. فكيف تريد من عوامنا أن يخاطبوا الله أو المسيح أو أي نبي من الأنبياء.

العقلانية:

قلت: حدثتني عن الضابط الأول للروحانية الإسلامية.. هو ضابط الربانية، فحدثيني عن الضابط الثاني.. والذي سميته (العقلانية)

قالت: ميزة الإسلام الكبرى أنه دين ينسجم مع جميع لطائف

الإنسان.. مع عقله.. وقلبه.. وروحه.. وسره.. بل ينسجم مع جسده.. ومجتمعه.. والكون جميعا(1).

ولذلك، فالعقلانية إطار من الأطر التي تحكم جميع السلوكات والعقائد حتى لا يقع العقل في الخرافة.. ولا يقع السلوك في الشعوذة.

وهذا بخلاف جميع ما عرفته من أديان ومذاهب وأفكار.. فكلها يحوي مغالطات عجيبة لا تستقيم تحت موازين العقل.

سأضرب لك مثالا على الدجل الذي تمارسه الكنيسة لتكسب أتباعا جددا..

هي لا تقنعهم بالعقل.. ولا تحدثهم عن الله.. وإنما تسارع إلى ملأ جانب الشعوذة والخرافة التي يعشقها العوام.. وتنفر منها العقول.

لا شك أنك تعرف (الرمح المقدس)

قلت: لم أسمع بها.

قالت: إنها من قصة من قصص الحروب الصليبية التي استطاع رجال ديننا بواسطتها إقناع عقول المخلصين لإسالة أنهار دماء المسلمين(2).

لقد دفع الصليبيون من أجل عبور آسيا الصغرى ثمناً باهظاً، إذ فقدوا أفضل جنودهم وخيرة عساكرهم، بينما استولى اليأس والفزع على البقية الباقية..

وبدأ الخوف من تفكك الجيش وفرار الجنود يساور القادة، فعمدوا إلى بعض الحيل الدينية لصد هذا الخطر وربط الجنود برباط العقيدة.. ومن تلك الحيل التى روجوا لها ما رواه المؤرخون عن ظهور المسيح والعذراء أمام الجنود الهيابين ووعدهم بالصفح عن الخطايا والخلود فى الجنة إذا ما استماتوا فى معاركهم ضد المسلمين..

غير أن هذا الأسلوب النظرى لم يلهب حماس الجنود، ولم يحقق الغرض الذى ابتدعه الصليبيون من أجله، فكان لا بد من أسلوب آخر ينطوى على واقعة مادية يكون من شأنها إعادة الإيمان إلى القلوب التى استبد بها اليأس، وتقوية العزائم التى أوهنتها الحرب، وهنا أذيع بين الجنود قصة اكتشاف الرمح المقدس..

---

1) انظر الأدلة المفصلة على هذا في رسالة (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.
2) هذه القصة نقلها الشيخ محمد الغزالي من كتاب (الشرق والغرب)

تلك الواقعة التى روى تفاصيلها المؤرخ (جيبون) فضلاً عن غيره من المؤرخين المعاصرين. قال: إن قساً يدعى بطرس بارتلمى من التابعين لأسقفية (مارسيليا) منحرف الخلق ذا عقلية شاذة، وتفكير ملتو معقد زعم لمجلس قيادة الحملة الصليبية، أن قديساً يدعى (أندريه) زاره أثناء نومه، وهدده بأشد العقوبات إن هو خالف أوامر السماء، ثم أفضى إليه بأن الرمح الذى اخترق قلب المسيح مدفون بجوار كنيسة القديس بطرس فى مدينة (انطاكيا)، فروى (بارتلمى) هذه الرؤيا لمجلس قيادة الجيش، وأخبرهم بأن هذا القديس الذى طاف به فى منامه قد طلب إليه أن يبادر إلى حفر أرض المحراب لمدة أيام ثلاثة، تظهر بعدها (أداة الخلود) التى تخلص المسيحيين جميعاً، وأن القديس قال له: ابحثوا تجدوا.. ثم ارفعوا الرمح وسط الجيش، وسوف يمرق الرمح ليصيب أرواح أعدائكم المسلمين..

وأعلن القس (بارتلمى) اسم أحد النبلاء ليكون حارساً للرمح، واستمرت طقوس العبادة من صوم وصلاة ثلاثة أيام دخل فى نهايتها اثنا عشر رجلاً ليقوموا بالحفر والتنقيب عن الرمح فى محراب الكنيسة.

لكن أعمال الحفر والتنقيب التى توغلت فى عمق الأرض اثنى عشر قدماً لم تسفر عن شىء. فلما جن الليل أخلد النبيل الذى اختير لحراسة الرمح إلى شىء من الراحة، وأخذته سنة من النوم، وبدأت الجماهير التى احتشدت بأبواب الكنيسة تتهامس..!..

فاستطاع القس (بارتلمى) فى جنح الظلام أن ينزل إلى الحفرة، مخفياً فى طيات ثيابه قطعة من نصل رمح أحد المقاتلين العرب، وبلغ أسماع القوم رنين من جوف الحجرة، فتعالت صيحاتهم من فرط الفرح، وظهر القس وبيده النصل الذى احتواه بعد ذلك قماش من الحرير الموشى بالذهب، ثم عرض على الصليبيين ليلتمسوا منه البركة، وأذيعت هذه الحيلة بين الجنود وامتلأت قلوبهم بالثقة، وقد أمعن قادة الحملة فى تأييد هذه الواقعة بغض النظر عن مدى إيمانهم بها أو تكذيبهم لها.

وقد روى التاريخ الكثير من مثل هذه الخرافات.. وبمثلها تنتشر المسيحية للأسف.. فنحن لا ننشر ديننا إلا بطرد الشياطين.. هذا هو منهجنا العقلي الذي نرحل به إلى الله..

كنت أقرأ قبل أيام نشرة صغيرة، على أحد وجهيها صورة العذراء وهى تقطر وداعة ولطفاً، وعلى ذراعها الطفل الإله يسوع

يمثل البراءة والرقة.. أما الوجـه الآخـر للصـورة فقـد تضـمن هـذا الخبر تحت عنوان (محبة الآخرين وخـدمتهم)، وتحتـه هـذه الجملـة (حسبما تتاح لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع) (غل 6: 10).. كانت السيدة زهرة ابنة محمد على باشا بها روح نجس، ولمـا علم أبوهـا أن (الأنبا حرابامون) أسقف المنوفية قد أعطاه الله موهبـة إخـراج الأرواح النجسة اسـتدعاه. ولمـا صـلى لأجلهـا شـفيت فى الحـال، فأعطاه محمد على باشا صرة بها أربعة آلاف جنيه، فرفضها قـائلاً: إنه ليس فى حاجة إليها لأنه يعيش حياة الزهد، وهو قانع بها)(1)

بهذا ومثله تتعامل الروحانية المسيحية..

لقد كـان القديسـون يرقـون إلى مرتبـة القداسـة.. لا بسـبب سلوكهم الطيب وروحانيتهم الرفيعة، وإنما بسبب المعجزات الـتي تظهر على أيديهم(2).

لقد كان باستطاعة أي محتال أن يترقى في منصـبه بالقيـام بأي عمل تجهل العقول الساذجة علته الحقيقية مدعياً أن ذلك هبـة من الـروح القـدس لـه، وإذا كـان التـاريخ يـذكر فـزع الإمـبراطور (شارلمان) وحاشيته من الساعة التي أهـداها إليـه الرشـيد ظـانين أن بها قوى خفية من الجن والشياطين، فمـا بالـك بعامـة الشـعب من الفلاحين والرعاة.

لن أذكــر لــك شــواهد على هــذا من القــرون الوســطى.. فشواهدها في ذلك العصر المظلم لا تكاد تنتهي.. وإنما سأذكر لـك بعض ملامح الخرافات التي لا تزال كنيسـتنا تمـارس نشـاطها على أتباعها في العامل الغربي ذاته.

يقول فريزر: (معظم الفلاحين في فرنسا لا يزالون يعتقـدون أن القسيس يملك على العناصر قوة خفية لا تقاوم وأنـه حين يتلـو البعض الصلوات المعينة بالذات التي لا يعرفها سواه والتي لا يحـق لغيره أن يرتلها فإنـه يسـتطيع في حالـة الخطـر الـداهم أن يبطـل لفترة معينة فعل القوانين الأبدية للعامل الفـيزيقي أو حـتى يقلبهـا تماما)

وفي مناطق أخرى يعتقد الناس (أن القسيس يملـك القـدرة على تشـتيت العواصـف، وإن لم يكن لكـل القساوسـة مثـل هـذه الملكة، ولذا فانه حين يتغير راعى الكنيسـة في بعض تلـك القـرى يبدى أتباع الأبرشية كثيراً من التلهف لمعرفـة مـا إذا كـان الـراعى

1) ذكر هذا الشيخ محمد الغزالي.
2) انظر: العلمانية، لسفر الحوالى.

الجديد يتمتع بهذه السلطة كما يسمونها، وعلى ذلك فبمجرد أن تظهر أدنى بادرة بهبوب إحدى العواصف الشديدة فإنهم يخضعونه للاختبار فيطلبون إليه القيام ببعض الشعائر والترتيل ضد الغيوم المتكاثفة فإذا جاءت النتائج محققة لآمالهم ضمن الراعي الجديد لنفسه عطف أتباع الكنيسة واحترامهم)

وهناك قداس خاص يستعمله القساوسة في الأعمال الانتقامية يتحدث عنه فريزر بقوله: (لا يقام هذا القداس إلا في كنيسة متهدمة أو مهجورة حيث تنعق البوم وتمرح الخفافيش وقت الغسق وتأوي إليها جماعات الغجر في الليل، وحيث تقبع الضفادع البرية تحت مذبحها المدنس، فهناك يأتي ذلك القسيس الشرير بالليل ومعه عشيقته الفاجرة الخليعة وحين ترسل الساعة أولى دقاتها معلنة الحادية عشر يبدأ يهمهم في تلاوة القداس ابتداء من آخره إلى أوله بحيث يفرغ منه يحين تبدأ دقات الساعة تعلن منتصف الليل وتقوم عشيقته بمساعدته في ذلك، أما القربان الذي يباركه فلابد أن يكون أسود اللون كما أنه لا يتناول النبيذ، ولكنه يشرب بدلا منه بعض الماء من بئر سبق أن ألقيت فيها جثة طفل مات قبل تعميده، ثم يرسم علامة الصليب ولكن على الأرض وبقدمه اليسرى ويقوم بأداء كثير من الأعمال الأخرى التي لا يستطيع أي مسيحي أن يراها دون أن يصيبه العمى والصمم والبكم بقية حياته)

وفي سنة 1893م حدثت في جزيرة صقلية حادثة تصور الموضوع أبلغ تصوير فقد كانت الجزيرة تمر بمحنة رهيبة بسبب الجفاف، وكان الجدب قد استمر ستة أشهر متصلة تناقصت كميات الطعام بسرعة وأنتاب الناس ذعر شديد فجربوا كل الطرق المعترف بها للحصول على المطر، خرجت جموعهم من منازلهم وأحاطوا بالصور والتماثيل المقدسة يتوسلون إليها بترتيل الصلوات وإضاءة الشموع في الكنائس طيلة الليل والنهار وعلقوا على الأشجار سعف النخيل الذي سبق لهم أن باركوه في (أحد السعف)(1) ونثروا في الحقول (الكناسة المقدسة) وهى التراب الذي كنسوه من الكنائس في ذلك اليوم، فلم يجد ذلك شيئاً وحملوا الصلبان على أكتافهم وساروا حفاة الأقدام عراة الرؤوس وجلد بعضهم بعضاً بالسياط ولكن دون جدوى.

وأخيراً لجأوا إلى القديسين وتجمعوا حول القديس فرانسيس

1) يوم مقدس عندهم.

الذي اعتادوا حسب اعتقادهم أن ينالوا المطـر ببركتـه فأقـاموا لـه الصلوات والترانيم والزينات لكن جهودهم كلهـا ذهبت هبـاء فنبـذوا معظم القديسـين حـتى أنهم ألقـوا بالقـديس يوسـف في إحـدى الحدائق ليجرب بنفسه الحال التي وصل إليها النـاس واقسـموا أن يتركوه هناك في الشمس حتى يأتيهم المطـر، وأداروا وجـوه بعض القديسـين إلى الحائـط كمـا يفعـل المـدرس بالتلاميـذ الأشـقياء، وجردوا بعضـهم من ملابسـهم الفـاخرة وقـذفوهم بأقـذع السـباب والشتائم أما القديس ميخائيل رئيس الملائكة ـ حسـب عقيـدتهم ـ فقد نزعوا أجنحته الذهبية ومزقوها ووضـعوا مكانهـا أجنحـة ورقيـة في بعض المناطق قيـد النـاس قس بلدتـه وتركـوه عاريـاً وأخـذوا يهتفون إليه بغضب (المطر أو حبل المشنقة)(1)

قلت: هــذه عقلانيتنــا.. فحــدثيني عن عقلانيــة الروحانيــة الإسلامية.

قالت: إن القرآن الذي هو مصـدر المسـلمين الأول يقيم بنـاء روحيا عميقا على أسس العقل.. وعلى أسس العقل وحده..

ولهـذا نجـد أعلى صـفات المؤمـنين في القـرآن هي صـفة اليقين.. واليقين هو بلوغ المعرفـة درجـة من اليقين العقلي، بحيث تسري بعدها إلى الجوارح وسائر اللطائف.

فالفلاح الذي أخـبر عنـه القـرآن الكـريم عنـد ذكـره للطائفـة المؤمنة في سورة البقرة مرتبط باليقين: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:4)

وأئمة الهدى العارفين بالله الـذين جعلهم اللـه نجومـا لهدايـة الخلق هم الذين زاوجوا بين الصبر واليقين، أو المجاهدة والمعرفـة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَـبَرُوا وَكَـانُوا بِآيَاتِنَـا يُوقِنُـونَ﴾ (السجدة:24)

وآيات الله بأنواعها المختلفة لا يفهمها ولا يصـدقها ولا يقـدرها حق قدرها سوى الموقنين ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَـوْلا يُكَلِّمُنَـا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَـوْلِهِمْ تَشَـابَهَتْ قُلُـوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:118)

ومن هذه الآيات آيات الله الكونية المتجلية في الأرض ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَـاتٌ لِلْمُـوقِنِينَ﴾ (الـذريات:20)، أو المتجليـة في الإنسـان والكائنَـات الحيــة ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَـا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَـاتٌ لِقَـوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:4)، فكل هذه الآيات لا يدركها سوى الموقنين.

---

1) انظر قذائف الحق للشيخ الغزالى: 48 فما بعدها.

وحقائق القرآن التي هي بصائر البصائر لا يراها ولا يعرفها ولا يهتدي بها ويرحم غير الموقنين هَذَا بَصَـائِرُ لِلنَّاسِ وَهُـدىً وَرَحْمَـةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (الجاثـية:20)

والمعارف المرتبطة بالله لا يفهمها، أو يذعن لها، أو يستشـعر سموها سـوى الموقـنين، رَبِّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (الدخان:7)

وأحكام الله لا يدرك حكمها، ويستكنه أسرارها، ويعرف وجوه المنـافع والمصـالح فيهـا سـوى الموقـنين أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُـونَ وَمَنْ أَحْسَـنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمـاً لِقَـوْمٍ يُوقِنُـونَ (المائـدة:50)، والآيـة تشـير إلى أن إدراك الحسـن المتغلغـل في ثنايـا الأحكـام لا يقلب صـفحاته سـوى الموقـنين، ولعلـه لأجـل هـذا لم يتصـد للبحث في أسرار الشريعة ومقاصدها سوى من جمعوا بين العلم والتقـوى، أو بين اليقين والإرادة.

ومن هذه المنطلقات القرآنية أجمع العارفون من المسـلمين على أن اليقين هو البـذرة الـتي تنبت منهـا جميـع المحاسـن الـتي ينضح بها العرفان.

وقد أجمعوا على اعتبارها المركب الذي يحمل السـالكين إلى الله، وبقدر سلامة المركب يكون الوصول.

وقد قال أبو سـعيد الخـراز معـبرا عن هـذا الـدور: (العلم مـا استعملك واليقين ما حملك)، فلـولا اليقين مـا سـار ركب إلى اللـه ولا ثبت لأحد قدم في السلوك إلا به.

ويشير الجنيد إلى أن اليقين لا يعني ما يتصوره البعض ـ ممن يشحنون حياة العارفين والأولياء بالكرامات مع مـا قـد يلابسـها من خرافات وأساطير ـ فالموقن لا يحتاج لأن يمشي على المـاء ليثبت صحة يقينه : (قد مشى رجال باليقين على المـاء ومـات بـالعطش من هو أفضل منهم يقينا)

وهـذه النصـوص وغيرهـا تشـير إلى أهميـة اليقين وارتباطـه بالروحانية.. وفي نفس الوقت ارتباطه بالعقلانية.

قلت: فهمت علاقـــة اليقين بالروحانيـــة.. ولكـــني لم أفهم علاقته بالعقلانية.

قـالت: أول مسـتقبل للحقـائق هـو العقـل.. فـإذا نضـجت الحقائق في العقل.. وتقبلها سـرت إلى الـروح.. هـذا هـو منطلـق الروحانية عند المسلمين..

أما منطلق الروحانية عندنا.. فهو أن تتيقن الروح بما لا يعقـل

العقل.. وبذلك يفرض على العقل التسليم بما لا يعلم وما لا يعقل.

قلت: ولكني قرأت عن كثير من أولياء المسلمين ذمهم للعقل، واعتقادهم لقصوره، فقد سئل النوري: (ما الدليل على الله؟ قال: (الله)، قال: فما العقل؟ قال: العقل عاجز، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

وعبر آخر عن ذلك بقوله: (العقل يجول حول الكون فإذا نظر إلى المكون ذاب)

وعبر أبو بكر القحطبي على استحالة التعرف على الله بالعقل بقوله: (من لحقته العقول فهو مقهور إلا من جهة الإثبات ولولا أنه تعرف إليها الألطاف لما أدركته من جهه الإثبات)

قالت: صدق كل هؤلاء.. فلم ينطقوا إلا الحقيقة..

قلت: فكيف يستقيم ما ذكرته عن انبناء الجانب الروحي من الإسلام على العقل، وهؤلاء ـ أعمدة الروح في الإسلام ــ يقولون ما يقولون؟

قالت: هؤلاء يشيرون إلى جانبين كلاهما خطر على الروحانية الصرفة:

أما أولاهما، وهي أخطرهما، فهي محاولة حصر الله بحدود العقل.. أو محاولة العقل التعرف على الله من خلال العقل المجرد.

وأما الثانية، فهي حصر العلاقة بالله في الجانب العقلي المجرد كما فعلت الفلسفة من غير تفاعل الوجدان.

قلت: سلمت بأن الثانية تنافي الروحانية.. ولكن الأولى لا أرى أنها تنافيها.

قالت: بل تنافيها.. لأن للعقل حدودا لا يستطيع أن يتجاوزها.. سأضرب لك مثالا يوضح لك ذلك:

أرأيت لو أن أحدهم دق عليك الباب، ولم تكن تعرفه، هل تستطيع ــ من خلال الاستدلال العقلي ــ أن تستدل على طوله ولونه واسمه ونسبه؟

قلت: لا.. فعقلي أقصر من أن يعرف ذلك.

قالت: ولكنك تستطيع أن تعرف أشياء من خلال هذا التصرف.

قلت: أجل..

قالت: فهذا هو دور العقل.. فهو يفتقر لمعرفة التفاصيل لأن يفتح له الباب حتى يتعرف على التفاصيل.

قلت: فقد فتح لنا الباب بالمسيح.

قالت: نعم.. فتح الباب بالمسيح.. ولكنا ـ معشر المسـيحيين ــ أغلقنـا بـاب المسـيح، وفتحنـا بـاب بـولس.. وأبـواب المجـامع المقدسة.. فسقطنا في الخرافة.

قلت: فكيف نرجع إلى باب المسيح؟

قالت: بباب محمد.. فلا يمكن أن نفهم المسيح دون أن نمـر على باب محمد.

الإنسانية:

قلت: حدثتني عن ضـوابط الروحانيـة الإسـلامية من الربانيـة والعقلانية.. فحدثيني عن الضابط الثالث.. الإنسانية.

قـالت: لقـد خلقنـا اللـه بشـرا.. وطلب منـا أن نعبـده، ونحن بشر.. وليس من اللائـق، ولا من الأدب، ولا من الحكمـة أن نخـرج من البشرية عندما نريد أن نمارس الروحانية..

قلت: لم أفهم هـذا.. فمـع أننـا بشـر إلا أن الكمـال في أن نرتقي عن بشريتنا.

قالت: من غير أن نخرج عنها.

قلت: بل لو استطعنا الخروج عنها لفعلنا.. فذلك هو الكمـال الأكبر.

قالت: إن هذا الكلام يحمل احتقـارا للبشـرية.. لأن من يريـد أن يخرج من شـيء، ليـدخل في غـيره.. لا يريـد أن يخـرج منـه إلا لاحتقاره له، واعتقاده لنقصه.

وهذه ميزة للإسلام تفصله عن كثير من الديانات والفلسـفات التي تحتقر الإنسان.. فهو يكرم الإنسان، ويضعه في المحـل الـذي خلقه الله له.

إننا ـ معشر المسيحيين ـ لما احتقرنا الإنسـان ربأنـا بالمسـيح أن يكون إنسانا.. فلذلك رفعناه إلى مقام الإلهية..

أما قرآن المسلمين فهو يصـرح في كـل لحظـة بـأن محمـدا وسائر الأنبياء والأولياء ليسوا إلا بشرا.. يقول القرآن: قُلْ إِنَّمَـا أَنَـا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُـوا لِقَـاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْـرِكْ بِعِبَـادَةِ رَبِّهِ أَحَـداً (الكهـف:110).. ويقول: قُلْ إِنَّمَـا أَنَـا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يُـوحَى إِلَيَّ أَنَّمَـا إِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (فصلت:6)

ويقول عن سائر الأنبياء: قَالَتْ لَهُمْ رُسُـلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ

بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (ابراهيم:11)

قلت: وعيت هذا.. ولكن ما علاقته بالروحانية؟

قالت: لهذا علاقة وطيدة بالروحانية الإسلامية.. فأهم خصائص الإسلام أنه دين الفطرة.. والفطرة هي الطبيعة التي خلق عليها الإنسان.. أو النظام الذي يتحكم في الإنسان.. وهذه الفطرة لا ينبغي تدنيسها ولا تحريفها.. بل لا ينبغي للروحانية أن تحرف هذه الفطرة عن مسارها.

ففي الإسلام ـ كما ذكرت لك ــ تلتقي الروحية مع المادية، ويجتمع الدين مع الدنيا، وتتشابك أشواق الروح مع الغرائز التي خلقت في الإنسان، ولم يكن له أن يخرج عنها.

وهذا بخلاف كل ما نعرفه من فلسفات وأديان ومذاهب..

ففي اليهودية تطغي المادية المحضة.. فلا تكاد تجد للروحانية أثرا، ولا تكاد ترى للآخرة مكانا، حتى الوعد والوعيد لا يتعلقان إلا بأمور دنيوية.

أما المسيحية.. ففي الإنجيل: (لا يدخل غني ملكوت السموات، حتى يدخل الجمل في سم الخياط..).. وقال المسيح لشاب آمن به ودخل في دينه: (إذا أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع ما تملك واعطه للفقراء، ثم تعال واتبعني).. وقال لتلاميذه: (وأنتم فلا تبحثوا عما تأكلون وما تشربون ولا تهتموا لذلك، لأن هذه الأشياء إنما يبحث عنها غير المؤمنين)

لقد ذكر الأستاذ (ليكي) في كتاب (تاريخ أخلاق أوروبا) صورا لجموح الرهبانية وغلوها، تقشعر منها الجلود، وتفزع القلوب، وتدهش العقول، وهي قليل من كثير جدا.. لقد قال هذا المؤرخ: (زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة، وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية، ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفا من الرهبان، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب، وكان الراهب (سرابين) يرأس عشرة آلاف، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر)

قلت: ولكن مع ذلك.. فقد كان نظام الرهبانية من أرقى الأنظمة الروحية في العالم.. بل إن بعض مفكرينا يرى أن النظام الروحي في الإسلام مستمد من نظام الرهبانية عندنا.

قالت: قد يكون من المسلمين من وقع فيما وقع فيه رهباننا..

ولكنه بذلك انحـرف عن الإسـلام انحرافـا شـديدا.. ذلـك أن نظـام الرهبانية يتنافى تماما مع تعاليم الإسلام.

فقد اعتبر الإسـلام الرهبانيـة بدعـة خطـيرة في الـدين، ففي القرآن عند ذكر التحريف الـذي حصـل للمسـيحية: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَـرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْأِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:27)

ولهذا، فـإن الروحانيـة الإسـلامية تنطلـق من مـزازين دقيقـة تجمـع بين الـروح والجسـد، وبين الفـرد والمجتمـع.. وبين الـدنيا والآخرة.. وهي بذلك تجمع للإنسان كـل متطلبـات إنسـانيته.. وهي بذلك تختلف تمام الاختلاف عن الرهبانية التي انحـرفت لهـا الكثـير من الأديان والمذاهب والفلسفات.

فالذي يقدم الروح على الجسد يحرم الإنسان من جزء أصيل منه وهو جسده.

والذي يقدم الفرد يبتر الإنسان من البيئة التي خلقها اللـه لـه، وخلقه لها، ويجعله سلبيا لا هم له إلا ذاته.

والذي يقدم الآخرة على الـدنيا يحـرم الإنسـان من فـترة من فترات الزمن خلقها الله له، وخلقه لها.

قلت: هذا كلام عام أريد تفاصيله.

قالت: لن أطيق أن أذكر لـك كـل تفاصـيله، ولكـني سـأكتفي بعـرض شـروط الرهبانيـة على النصـوص المقدسـة للمسـلمين لتعرف موقفها منها.

فقد اشترط القائمون على نظام الرهبانية شـروطاً لا بـد من تحقيقها في الراهب.. لا يكون راهبا إلا بها.

منها العزوبة.. وهذا أهم شروط الرهبانية، وقد ورد في إنجيل متى: (يوجد خصيان خصوا أنفسـهم لأجـل ملكـوت السـموات من استطاع أن يقبل فليقبل)(متى: 19: 13)

إضافة إلى أن التنفير من المـرأة وإن كـانت زوجـة، واحتقـار وترذيل الصلة الجنسية وإن كانت حلالاً، من أساسـيات المسـيحية، حتى بالنسـبة لغـير الرهبـان، يقـول (سـان بونـافنتور) أحـد رجـال الكنيسة: (إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم تـرون كائنـا بشـرياً، بـل ولا كائنا حياً وحشياً، وإنما الذى تـرون هـو الشـيطان بذاتـه والـذى

تسمعون هو صفير الثعبان)[1]

وكان من المشاكل المستعصية على الكنيسة مشكلة زواج رجال الدين غير الرهبان أو تسريهم، و(كانت الكنيسة منذ زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجه وأبنائه في منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة).. (وأنه سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبته لأحد أبنائه يضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله وبنى الإنسان، وأن مستواه الأخلاقي يجب أن يعلو على مستوى أخلاق الشعب وأن يضفي على مستواه هذه المكانة التي لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه)[2].. (بوجوب التبتل على رجال الدين وتطليق زوجات المتزوجين منهم وكان لهذا الأمر آثار امتدت إلى القرن السادس عشر وانتهت بانتصار الكنيسة)[3]

وإذا كان هذا هو الحال مع غير الرهبان، فلنتصور كيف تكون الحال معهم.

وهذا الشرط يتناقض تماما مع ما دعا إليه الإسلام من حث على الزواج وترغيب فيه، فقد وردت النصوص القرآنية الكثيرة التي تأمر بالزواج وتحث عليه.. ففي القرآن: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الروم:21) ففي هذه الآية توجيه للأنظار للنعم التي وضعها الله في الزواج، وكيف هيأ الزوجين لبعضهما لتنتج عن ذلك المودة والرحمة.

وفي القرآن: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد: 38).. ففي هذه الآية إخبار بأن الزواج من سنن المرسلين، وفيه رد بليغ على الممتنعين عنه بحجة التعبد والتبتل.

وفي القرآن: وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (النور:32) وفي هذه الآية حث على تزويج من للمسلم ولاية عليهم، ونهي عن جعل الفقر حاجزا بين المؤمن والزواج.

وفي القرآن: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (النساء:3) ففي هذه

1) أشعة خاصة بنور الإسلام: 29.
2) قصة الحضارة 14: 382.
3) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: 2: 152.

الآية إجازة للتعدد في إطاره الشـرعي الصـحيح، وتنبيـه للعلـة من إجازته.

وعلى ضـوء هـذا الهـدي القـرآني جـاءت النصـوص الحديثيـة الكثيرة ترغب في الزواج، بل تعتـبره من الأعمـال الصـالحة، ومن سنن الصالحين، ففي الحديث: (ما استفاد المؤمن بعد تقـوى اللـه عز وجل خيراً من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظـر إليهـا سرته، وان أقسم عليها أبرته، وان غـاب عنهـا حفظتـه في نفسـها ومالـه)(1)،فقـد اعتـبر محمـد في هـذا الحـديث الزوجـة الصـالحة للرجل أفضل ثروة يكتنزها من دنياه ـ بعـد الإيمـان باللـه وتقـواه ـ وعدها أحد أسباب السعادة.

وفي حديث آخر: (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة)(2)

وفي حـديث آخر: (من سـعادة ابن آدم المـرأة الصـالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح)(3)

وفي حديث آخر: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة، فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليـه بالصوم فإنه له وجاء)(4)

وفي حديث آخر: جـاء ثلاثـة رهـط إلى بيـوت أزواج النـبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلمـا أخـبروا كـأنهم تقالوهـا، فقـالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا،وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر،وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول اللـه ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا أمـا واللـه إني لأخشـاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطـر وأصـلي وأرقـد وأتـزوج النسـاء فمن رغب عن سنتي فليس مني)(5)

قلت: هذا الشرط الأول للرهبانية، وقد علمت شدة معارضـة الإسلام له.. فما الشرط الثاني؟

قالت: التجرد الكامل عن الدنيا.. فعلى الراهب ـ حـتى يصـير راهبا ـ أن يعتزل عزلة نهائية عن المجتمع، ويقطـع النظـر عن كـل

---

1) أبو داود:2/126.

2) المسند المستخرج على صحيح مسلم: 4/141، مصنف عبـد الـرزاق: 10/221، المعجم الأوسط: 8/281.

3) رواه احمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمـد رجـال الصـحيح، انظر: مجمع الزوائد: 4/272.

4) مسـلم: 2/1018، البخـاري: 2/673، ابن حبـان: 9/335، الـدارمي: 2/177، البيهقي: 4/296، أبو داود: 2/219، النسائي: 2/95.

5) البخاري: 5/1949.

أمل في الحياة.

قلت: لقد كتب المسلمون في العزلة كتبا.. بل مارس الكثـير من علمائهم هذه العزلة.. بل لهم ـ إلى الآن ـ ما يسمى بـالخلوات التي يختلون فيها للعبادة.

فإن قلت: إن كل ذلك حادث.. فقد شرع الإسـلام الاعتكـاف، وهو نوع من العزلة.

قـالت: فـرق عظيم بين العزلـة الـتي دعـا إليهـا الإسـلام، واعتبرها مدرسة تربوية تهذيبية، وبين عزلة الرهبان.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قالت: العزلة التي مارسها الربانيون من المسلمين هي عزلة تربوية تشبه مكوث المريض في المستشـفى مـدة معينـة يحـددها طبيبه، ويحددها نوع العلاج الذي يريد ممارسته.

وهي لا تعني الانفراد في الجبال والكهوف عن النـاس.. اللهم إلا في أحوال الفتن التي يفر فيها المؤمن بدينه.

قلت: فما الشرط الثالث من شروط الرهبانية؟

قالت: عدم الاهتمام بالمطالب الجسدية حتى الضروري منهـا كالملابس والنظافة..

يقول صاحب كتاب (المشـكلة الأخلاقيـة والفلاسـفة): (لنقـرأ هذا السـفر الطريـف (محاكـاة المسـيح)، إنـه أكـبر أسـفار التبتـل المسيحي، ولنطلب بين صحائفه ومظاهر الحياة المسيحية بمعناها الصحيح، وأن ما نجده لمعبر عن الحال أبلغ عبارة: إحتقار أساسـى لكل علم، حتى يشمل ذلك علم الإلهيات، واحتقـار أصـيل لكـل مـا نسميه خيرات هذا العالم: الثراء والشرف الاجتماعي، حتى المركز الوسط، وإنه لحتم علينـا أن نستشـعر دائمـا التواضـع والنـدم وأن نمارس عملياً على الدوام التضحية وكل مظهر تمليـه الرحمـة وأن نجمع حواسنا في صمت وذهول تام وتأمل دينى ينسى المـرء فيـه كيانه، يجب أن نقتل فينا كـل ميـول دنيـوي، يجب أن يمـوت عـالم الرغبة، يجب أن نبدأ من هـذا العـالم الزائـل مـا سـوف يكـون لنـا الوجود الأبدى)

ثم يعلق على هذه التعاليم قائلاً: (عظمة وعلاء، ولكنـه قضـاء قـاس على الإنسـانية، وإن التطـبيق الكامـل لمثـل تلـك المبـادئ ليمكن أن يملأ الأرض بأديرة فيها الرجال من جهة والنساء من جهة أخرى ينتظرون في طهارة وتأمل الزوال النهائى للنـوع الإنسـاني)

(1)

قلت: فما موقف الإسلام من هذا؟

قالت: للجسد في الإسلام قيمة لا تقل عن قيمة الروح.. فلذلك يذكر في القرآن باعتباره من نعم الله على عباده.. ففي القرآن: ﴿ قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهوَ يُحاورهُ أكفرتَ بالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُراب ثُمَّ مِنْ نُطفَة ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلاً ﴾ (الكهف: 37).. وفيه: ﴿ هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ ذلولاً فامشُوا فِي مناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك: 15)..وفيه: ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقناكُمْ وَلا تَطْغَوا فِيهِ فَيُحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ (طه:81)

فهذه الآيات القرآنية تحمل بين طيّاتها معاني تشريعية كثيرة تبين قيمة الجسد وأهمية المحافظة عليه (2)..

فهي تبين أن الإنسان بتكوينه الجسماني، وبطبيعته البدنية، جزء من عالم الطبيعة، وأنّ الأرض هي مصدر نشوئه وتكوينه.. فهو ابن الأرض، ونتاجها الحي المترقي في تكوينه وأجهزته الجسمية المختلفة: ﴿ أكفرتَ بالَّذي خلقكَ مِن تُراب ﴾

وهي تبين أن هذا الجسد الذي نشأ من الأرض لا يستغني بطبيعته عن إمداد الأرض لوجوده، من الطعام والشراب واللباس والسكن.. ﴿ وَما جَعَلناهُمْ جَسداً لا يأكُلون الطَّعامَ ﴾ (الأنبياء: 8).

وهي تبين أن التوافق في التكوين الطبيعي بين الإنسان والطبيعة تام ومتناسق، فكلّ ما يحتاجه الإنسان لاستمرار الحياة متوفر في عالم الطبيعة ومتنام فيها.. ﴿ وَبارِكَ فيها وقدّرَ فيها أقواتَها في أربعةِ أيّام سواءً للسّائلينَ ﴾ (فصّلت: 10)..ـ ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ ذَلولاً ﴾ (الملك: 15)

وهي تبين أن كلّ ما في الأرض، من خيرات وطيّبات، حلال طيّب ومباح لكافة بني الإنسان، دون تفريق أو تمييز، فحكمة الله، وعدله تقضيان بأن تتوفر لكلّ إنسان حاجته وحقّه المقرر له في الحياة: ﴿ يا أَيُّها النّاس كُلُوا مِمّا فِي الأَرضِ حَلالاً طَيِّباً ﴾ (البقرة: 168)

انطلاقا من هذا.. فقد جاء الإسلام بشريعة تحرص على حفظ الحياة، وتتجاوب مع حاجات التكوين، فاستوعب بشريعته كل تلك الحاجات الإنسانية الطبيعية وقام بتنظيمها في مجالها الطبيعي المحدّد لها.

---

1) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة:115.

2) انظر مقالا بعنوان: كيف تعامل الإسلام مع الجسد؟ من موقع (البلاغ) الموسوعة الإسلامية.

فقد أمر بمد الجسم بحاجاته المختلفة من الطعام والشراب، باعتبارهما من نعم الله على عباده: ﴿ فَلْينظر الإنسـان إلى طَعَامِـهِ ﴾ (عبس: 24)

وقد قاوم الإسلام لهذا محاربة الجسد، والحرمان من الطعـام والشراب واللذائذ المحلّلة، تلك المحاربة التي دعـا لهـا المـترهّبون وأمثـالهم ممّن يعتقـدون أنّ محاربـة الجسـد، وتعذيبـه بـالجوع، والعطش، والحرمـان يـؤدي إلى تقويـة الـروح، وتنميـة الملكـات النفسيّة والأخلاقيّة.

فقد استنكر القرآن على هؤلاء المنحـرفين مـوقفهم هـذا من المتع الجسديّة، والطيّبات الـتي أنعم اللـه بهـا على عبـاده، فقـال: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ الَّتي أخرَجَ لِعِبـادِهِ وَالطَّيِّبـاتِ مِنَ الـرِّزق ﴾ (الأعراف: 32)

قلت: فما **الشرط الرابع**؟

قالت: تحمل تلك العقوبـات الشـديدة في حـال التفريـط في الطقوس الكثيرة التي يتطلبها نظام الرهبانية..

سـأذكر لـك نموذجـا عن بعض ذلـك من تعـاليم القـديس (كولمبـان) الـذي أسـس الأديـرة في جبـال الفـوج بفرنسـا.. فمن تعاليمه: (يجب أن تصوم كل يوم وتصلى كل يوم وتعمـل كـل يـوم وتقرأ كل يوم، وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد)

(ويجب أن يأوي إلى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر في الطريق)

وكانت العقوبات صارمة أكثر ما تكون بالجلد: ستة سـياط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمة أو نسى أن يدرم أظافره قبل تلاوة القداس، أو تبسم أثناء الصلاة، أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشـاء الربـانى.. وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسى أن يدعو اللـه قبـل الطعام وخمسون عقاب المتأخر عن الصـلاة، ومائـة لمن يشـترك في نزاع ومئتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة.

وأقام (كولمبان) نظام الحمد الذى لا ينقطع، فكـانت الأوراد يتلوها بلا انقطاع ليلاً ونهاراً طائفة بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين(1).

ولم يقتصر الأمر على ما ذكره بل تجـاوز ذلـك إلى تصـرفات جنونية تشمئز لها الفطر السـليمة، ابتـدعها بعض الرهبـان ليعـبروا عن قوة إيمانهم وعمق إخلاصهم لمبدئهم.

---

1) قصة الحضارة 14: 365.

وقد روى المؤرخـون من ذلـك عجـائب فحـدثوا عن الـراهب ماكاريوس أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرض جسمه العـاري ذباب سام، وكان يحمل دائما نحو قنطـار من حديـد وكـان صـاحبه الراهب يوسيبيس يحمل نحو قنطارين من حديد.. وقـد أقـام ثلاثـة أعوام في بئر نزح ... وقد عبد الراهب يوحنا ثلاث سنين قائمـا على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طـوال هـذه المـدة، فـإذا تعب جـداً أسند ظهره إلى صخرة.

وكـان بعض الرهبـان لا يكتسـون دائمـا، وإنمـا يتسـترون بشعرهم الطويل ويمشـون على أيـديهم وأرجلهم كالأنعـام.. وكـان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش.

وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتـأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأنقاهم أبعـدهم عن الطهـارة وأوغلهم في النجاسات والدنس، يقول الراهب اتهينس أن الراهب أنتونى لم يقترف إثم غسل الرجلين طوال عمـره، وكـان الـراهب أبرا هام لم يمس وجهه ولا رجلـه المـاء خمسـين عامـاً، وقـد قـال الراهب الإسكندري بعد زمان متلهفـاً: و أسـفاه، لقـد كنـا في زمن نعد غسل الوجه حراماً، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات(1).

وهناك راهب منعـزل اخـترع درجـة جديـدة من الـورع يربـط نفسه بسلسلة إلى صخرة في غار ضيق(2).

أما القديس كولمبـان فـ (كـانت السـناجب تجثم على كتفيـه فتدخل في قلنسوته وتخرج منها، وهو ساكن (3).

وفـوق هـذا كلـه.. فقـد كـان الرهبـان يتجولـون في البلاد ويختطفـون الأطفـال ويهبـونهم إلى الصـحراء والأديـار، وينـتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربـونهم تربيـة رهبانيـة، والحكومـة لا تملك من الأمر شيئا، والجمهور والدهماء يؤيدونهم ويحبذون الـذين يهجرون آبـاءهم وأمهـاتهم ويختـارون الرهبانيـة ويهتفـون باسـمها، وعـرف كبـار الرهبـان ومشـاهير التـاريخ النصـراني بالمهـارة في التهريب، حتى روي أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا رأين الراهب (أمبروز) وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئا، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس.

فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حنانا ورحمة، وعيونهم من

1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: 168.
2) معالم تاريخ الإنسانية: 732.
3) قصة الحضارة: 14: 356.

الدمع، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد، فيخلفون الأمهات ثكالى، والأزواج أيامى، والأولاد يتامى، عالة يتكففون الناس، ويتوجهون قاصدين الصحراء، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة، لا يبالون ماتوا أو عاشوا، وحكي (ليكي) من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب.

قلت: فكيف أطاقوا تحمل كل هذا العناء؟

قالت: ومن ذكر لك بأنهم أطاقوا.. لقد تمردوا على فطرهم، فتمردت عليهم..

لقد قال رئيس دير كلونى: (إن بعض رجال الدين في الأديرة وفي خارجها يستهترون بابن العذراء استهتاراً يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء في ساحاته نفسها، بل في تلك البيوت التى أنشأها المؤمنين الخاشعون لكى تكون ملاذاً للعفة والطهارة في حرمها المسور، لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى)(1)

لقد أدى التزمت والغلو في الدين ومغالبة الطبع السوي والفطرة السليمة إلى نتيجة عكسية تماماً، وأصبحت الأديرة مباءات للفجور والفسق وتضرب بها الأمثلة في ذلك، وقد وصل الحال بمسيحيي الشرق ـ وربما كانوا أكثر حياء وأشد تمسكاً إلى حد أن المستهترين من الخلفاء والشعراء المجان كانوا يرتدون الأديرة كما يرتاد رواد الدعارة اليوم بيوت العهر وألفوا في ذلك كتباً منها (الديارات) المعروف في الأدب العربي(2).

***

ما وصلت (آنا ماري شميل) من حديثها إلى هذا الموضع حتى امتلأت عينيها بمدامع لم تملك حبسها، فقلت: ما الذي يبكيك؟

قالت: لقد ذكرت صديقة لي كتبت كتابا سمته (الحج الى مكة)، وقد طبع بالعربية تحت عنوان (البحث عن الله)..

قاطعتها قائلا: تقصدين اللادي ايفلين كوبولد، تلك النبيلة الإنكليزية، التي اعتنقت الإسلام وزارت الحجاز، وحجت حج المسلمين، وكتبت مذكراتها عن رحلتها تلك في ذلك الكتاب.

قالت: أجل.. لقد استطاعت أن تحطم كل الجدران والحجب التي كانت تحول بينها وبين الإسلام..

---

1) قصة الحضارة: 145: 372.

2) كتبه أبو الحسن السابشتى.

لقـد كـانت تقـول: (سـألني كثـيرون كيـف ومـتى أسـلمت؟ وجوابي على ذلك أنه يصعب عليّ تعيين الوقت الذي سطعت فيـه حقيقة الإسلام أمـامي فارتضـيت الإسـلام دينًـا. ويغلب على ظـني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى. وليس هذا غريبًا إذا مـا راح المـرء يفكر بأن الإسلام هو الدين الطبيعي الذي يتقبله المرء فيما لو ترك لنفسه ولم يفرض عليه أبواه الدين الذي يعتنقانه فرضًا. ألم يصف أحد مشاهير النقاد في أوروبا: (بأنه دين العقل والإنسانية)؟ (1)

وكانت تقول: (الإسلام كلمـة تعـني التسـليم للـه، وهي تعـني السلام أيضًا، ويعرف المسـلم بأنـه الرجـل الـذي يسـير في حياتـه وفاقًا لمشيئة خالقه وأوامره والذي يعيش بسلام مع اللـه وعبـاده. ولعل أجمل ما في الإسـلام مـا يضـطرب فيـه من وحدانيـة إلهيـة، وأخوة إنسانية، وخلوه عن التقاليد والبـدع والتصـاقه اللصـوق كلـه بما في الحياة من أمـور عمليـة.. والإيمـان في القـرآن إنمـا يقـوم على العمل الصالح وليس هناك في الإسـلام إيمـان دون مـا عمـل صالح أبدًا)(2)

وكانت تقول: (إن روحانيـة الإسـلام قويـة شـديدة، فهي أيـدًا تدفع المسلمين بعضهم إلى بعض وتجعل منهم قـوة إنسـانية تـأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مما لا يوجد مثله في العالم الحاضـر) (3)

وكــانت تقــول: (الإســلام دين حي، حي في قلــوب أتباعــه ومريديه، وهو دين كلما تقدمت به الأيام زادت حيويته وقـوي أمـره وتبسط سلطانه وفشت دعوته ولولا ذلك لما أمكنـه أن يعيش وأن يظل محتفظًا بقوته وتأثيره وحب أتباعه له)(4)

قلت: فما الذي يحول بينك وبين سلوك سبيلها؟

تنفست الصعداء، ثم قالت: حجب كثيرة.. لكني لن أستسـلم لها.. يوشك أن أقطعها حجابا حجابا حتى أصـل إلى تلـك الشـمس المضيئة التي شملت بأشعتها أركان العالم.

قالت ذلك، ثم قامت، وكأنها تهم بشيء..

أمـا أنـا، فقـد بقيت أتأمـل تلـك الأزهـار الجميلـة من عبـاد الشمس.. وقد عرفت سر الدواليب التي تحركها الشمس.

وفي ذلك المحل المبارك تنزلت علي أشـعة جديـدة اهتـديت

---

1) البحث عن الله، ص 9.
2) البحث عن الله، ص 13.
3) البحث عن الله، ص 13
4) البحث عن الله، ص13.

بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

سادسا ـ سلام

في اليوم السادس من تلك الأيام العشرة المباركة التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة السلام من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:30)

وسر قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة:28)

وسر قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:40).. وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:34)

وعرفت بها سر قوله ﷺ: (: (لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما)(1)

وسر قوله ﷺ: (يأتي القاتل متعلقا رأسه بأحدى يديه متلببا قاتله بيده الاخرى تشخب أوداجه دما حتى يأتي به تحت العرش فيقول المقتول لله: رب هذا قتلني! فيقول الله للقاتل: تعست! ويذهب به إلى النار)(2)

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن عظم قدسية الروح الإنسانية.. وعظم جرم القتل.. وأنه لا يباح إلا للضرورات الشديدة، وبالحدود التي تحفظ المصالح.

***

كان من ضمن الأسماء الموجودة بالدفتر الذي سلمني إياه المرشد اسم (مكسيم رودنسون)(3).. وقد تعجبت كثيرا من وضعه

---

1) رواه البخاري.

2) رواه الطبراني في الكبير.

3) هو مكسيم رودنسون (1915ـ Maxime Rodinson) مفكر ماركسي ومستشرق فرنسي من أصل يهودي، وُلد في باريس عام 1915، وكان أبوه أحد مؤسسي اتحاد نقابات العمال اليهود في باريس، تلقَّى تعليمه الابتدائي في باريس ثم عمل كصبي تشهيلات قبل التحاقه بقسم اللغات الشرقية الحية في السوربون حيث درس اللغات السامية والإثنوجرافيا وعلم الاجتماع.

في القائمة مع كونه مفكرا ماركسيا، وهو في ذات الوقت يرجع إلى أصل يهودي.. وهو بذلك قد اجتمعت فيه جميع أسباب العداوة للإسلام من ماركسية تعادي الأديان، ومن يهودية تعادي الإنسان.

لكني عندما رأيته، وسمعت حديثه زال عجبي من ذلك، وعرفت أن ماركسيته نوع من الهروب من يهوديته..

في ذلك اليوم سرت إلى الجبل الذي كان يجثم بجلال في ضاحية باريس.. وكان بهذا الجبل غابة زيتون كأنها ولدت مع ميلاد الإنسان.

وقد احترت إذ رأيت جزءا مهما من تلك الغابة قد طوق بأسوار من حديد مكهرب ليمنع أي داخل، ورأيت خارج تلك الغابة شابا يافعا ممتلئا شبابا جالسا ينظر إلى تلك الأشجار المقيدة بقيود الحديد والكهرباء..

اقتربت منه، وسألته عن سر حزنه، وسر أشجار الزيتون المطوقة بتلك الأغلال القاسية.

قال لي: هذه الأشجار لي.. ورثتها عن سلسلة طويلة من الجدود.. ولم يشك أحد في يوم من الأيام أنها لي.. ولم يخطر على بال أحد في يوم من الأيام أن تنزع مني.

قلت: فمن الذي نزعها منك؟.. وما الذي جعله ينزعها منك؟

قال: رجل يهودي قاسي القلب محجر الفؤاد.. له مال عريض.. وجاه مكين، اشترى به ذمم القضاة والمحاكم والشرطة والجيش.. ولم يترك أحدا إلا رشاه.. وزور لأجل ذلك كتبا سماها كتبا مقدسة تعده بأرضي وبزيتوني.

قلت: فمن الذي أغراه بأرضك دون الأراضي!؟

قال: قوم من الحاقدين.

قلت: عليك أم عليه!؟

قال: علي وعليه..

قلت: كيف يستقيم هذا؟

قال: لقد كره الحاقدون مقامه بينهم، فأرادوا نفيه عنهم، فلم

اخترناه هنا لأنه كان يرى أن الغربيين يتأثرون كثيراً بما يحدث في إسرائيل أكثر مما يحدث في الدول العربية حيث لا يأبهون بما يحدث في هذه البلاد كثيراً أو لا يأبهون بها على الإطلاق، فلا تزال المشاعر العنصرية وآثارها السياسية تطغى على حياة الغربيين. ويضرب رودنسون مثالاً لذلك بتزايد نمو الأحزاب العنصرية والنازية في الغرب الأوربي، ولذا فهو لا يعتقد في أطروحات غياب الإعلام العربي وتغيير الحالة الذهنية الغربية، لأنه يرى أن المسألة أعقد كثيراً من ذلك وترجع إلى الطبيعة العنصرية الأساسية في بنية الحضارة الغربية. (انظر: الموسوعة اليهودية، المسيري، وانظر فيها فصلا مهما حول [شخصيات ومنظمات يهودية معادية للصهيونية]

يجدوا غير أرضي..
قلت: ولم اختاروك أنت؟
قال: لعلمهم بإبائي ورسوخي في أرضي، وتضحيتي بكل شيء في سبيلها.
قلت: فهل ستقاومه؟
قال: جبان أنا إن لم أقاومه.. مقاومته واجب إنساني، وخلق رفيع.
قلت: ولكنك تملك الزيتون الذي هو رمز السلام.
قال: ولكني لو تركت له زيتوني فسيحرقه ويدمره.. ويؤسس في أرض الزيتون مصانع سلاح يدمر بها العالم.
قلت: ولكنك ـ إن قاومته ـ سيرمونك بالإرهاب.
قال: قد فعلوا ذلك.. ويوشك أن يرموني في سجونهم.. ولكني مع ذلك لم أيأس، ولن أيأس.. فسيخلفني من يقوم في وجوههم، ومن ينتزع منهم أرضي، ويحمي زيتوني.
في ذلك الموقف.. التقيت (مكسيم رودنسون)
جاء، ومعه محفظته التي يحمل فيها كتبه، ومعها قفة يحمل فيها طعاما إلى ذلك الشاب، وما إن رآه الشاب حتى راح يصافحه بحرارة.
سألت الشاب أن يعرفني بهذا الرجل الطيب، فقال لي: هذا (مكسيم رودنسون)..هو ابن عم لذلك المغتصب الظالم.. ولكنه يبغضه أشد البغض، ويحاربه أعنف حرب.
ملأ السرور قلبي في تلك اللحظة، فقد كنت محتارا في الطريقة التي أدخل بها عالم هذا الرجل.
ابتدأته بقولي: أنت الأستاذ (مكسيم رودنسون) المستشرق والمفكر..
قاطعني، وقال: والباحث عن السلام.. البحث عن السلام هو وظيفتي الكبرى التي لا تراها العيون.
قلت: ما تقصد؟
قال: إن حياتي كلها بحث عن السلام.. لقد ولدت في بيئة تمتلئ حربا وبغضا وأحقادا.. ولذلك تراني أفر من موضع إلى موضع.. ومن بلد إلى بلد.. ومن مذهب إلى مذهب.. لا لشيء إلا لأجل البحث عن السلام.
قلت: فلم تبحث عن السلام؟
قال: لأنه لا حياة بلا سلام.. السلام هو الوسط الصحيح الذي

تنمو فيه شـجرة الإنسـانية.. فلا يمكن لشـجرة الإنسـانية أن تـؤتي ثمارا طيبة، وهي مختنقة بنيران الحرب.

انظـر إلى هـذا الزيتـون المسـكين المحاصـر.. ألا تـرى إلى دموعه، وهي تنحدر كما تنحدر السيول!؟

إن هـذا الزيتـون الـذي يمثـل السـلام يريـد الحاقـدون خنقـه ليؤسسـوا على أنقاضـه شـجرة الـدمار الـتي لا تثمـر غـير سـفك الدماء.

قلت: فهل وجدت السلام؟

قال: وجدته..

قلت: كيف وجدته؟

قال: وجدته محاصرا كما يحاصر هذا الزيتون.

قلت: أين وجدته؟.. ومن غرس شجرته؟

قال: وجدته في الإسلام.. وقد غرس شجرته محمد.

تعجبت كثيرا من قوله هذا، فقلت: لقـد علمت أنـك شـيوعي يهودي.. فكيف تقول هذا؟

قال: أقول الحقيقة التي يمتلئ بها قلبي، ولكن لساني يعجـز عن التعبير عنها.

قلت: ولكني أرى الناس جميعا مجمعون على أن الإسلام دين الإرهاب، وأن المسلمين هم ممثلو الإرهاب في العالم.

قال: ألم تر إلى هذا الشاب المسكين الممتلئ حزنا؟

قلت: بلى.. لقد كنت أتحدث معه الساعة.

قال: إنهم يسمونه (إرهابيا)

قلت: لقد أخبرني بذلك.

قـال: لـو أن هـذه الشـاب المسـكين لم يطـوق حقلـه، ولم يخرج من أرضه، أتراه يحمل السلاح على عدوه؟

قلت: لا أراه يفعل ذلك.. فبراءة السلام بين عينيه.

قال: وهكذا المسلمون المساكين.. احتلـوا أرضـهم.. وقتلـوا أطفـالهم.. ونهبـوا خـيراتهم.. ومنعـوهم من كـل شـيء حـتى من الكلام.. فـإذا قـام أحـدهم ورمى حجـرا ليعـبر عن إبائـه سـموه إرهابيا..

قلت: لقد ذكرت لي أنك لم تجد السلام إلا في الإسلام، وعند محمد.

قـال: ذلـك بحث طويـل.. لقـد فتشـت الأديـان والمـذاهب والفلسفات والأفكار أبحث عن السلام الشامل.. فلم أجـده إلا في

دين محمد.
قلت: فهل تحدثني بخلاصة أبحاثك؟
قال: أجل.. يسرني ذلك كل السرور.. فأنا لا هم لي إلا التبشير بهذا.

سلام الجاهلية

قلت: بم نبدأ حديثنا عن السلام؟
قال: بالجاهلية.
قلت: بجاهلية العرب!؟
قال: بجاهلية العالم.. فلا يعرف فضل الجمال إلا بمقارنته بالدمامة.. ولا يعرف فضل السلام إلا بمقارنته بالصراع.. ولا يعرف فضل الإسلام إلا بمقارنته بالجاهلية.. كما لا تعرف الثمرة الطيبة إلا بمقارنتها بالثمرة الخبيثة.
قلت: فبأي ثمرة خبيثة نبدأ؟
قال: **باليهودية**.
قلت: هي دينك الذي ينتمي إليه أبوك وجدك.
قال: من أراد أن يبحث عن الحقيقة فعليه أن يقطع جذوره، ويطلق أباه وجده.
قلت: إن اليهود شعب مضطهد، وقد عانى في حياته الأمرين.. فكيف تعتبره عدوا للسلام؟
قال: إن عداوته للسلام تنطلق من دينه ومعتقداته.. فهو يمارس الإرهاب عبادة لا عادة..
قلت: ما تقول؟
قال: ألا تعرف سفر حزقيال؟
قلت: هو سفر من أسفار كتابنا المقدس في عهده القديم.
قال: نعم.. وهو قاسم مشترك بينكم وبيننا.. ولذلك، فإن لكم شبها عظيما بنا.. أتدري بماذا يوصينا الرب في هذا السفر الغالي الذي اشتركنا في وراثته؟
قلت: بم؟
أخرج الكتاب المقدس من محفظته، وفتحها على هذا السفر، وقال: الرب ــ في هذا السفر المقدس ــ يأمر بقتل النساء والاطفال والشيوخ والبهائم، فيقول: (اعبروا في المدينة خلفه واقتلوا. لا تترأف عيونكم ولا تعفوا. أهلكوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء. ولكن لا تقربوا من أي إنسان عليه السمة،

وابتدئوا من قدسي). فابتدأوا يهلكون الرجال والشيوخ الموجـودين أمام الهيكل. وقال لهم: (نجسـوا الهيكـل واملأوا سـاحاته بـالقتلى، ثم اخرجوا). فاندفعوا إلى المدينة وشرعوا يقتلون) (حزقيال9: 5-7)

التفت إلي، وقـال: هـل سـمعت.. إن الكتـاب المقـدس هـو الكتاب الوحيد في الدنيا.. الذي يأمر بقتل الأطفال؟

ليس هذا فقط.. اسمع ما يقـول سـفر العـدد (31:ـ 1-18): (وقال الرب لموسى: انتقم من المديانيين لبـني إسـرائيل، وبعـدها تموت وتنضـم إلى قومـك. فقـال موسـى للشـعب: (جهـزوا منكم رجالا مجندين لمحاربة المديانيين والانتقام للـرب منهم.... فحـاربوا المديانيين كما أمر الـرب وقتلـوا كـل ذكـر؛ وقتلـوا معهم ملـوكهم الخمسة: أوي وراقم وصور وحور ورابع، كما قتلـوا بلعـام بن بعـور بحد السيف. وأسر بنو إسرائيل نساء المديانيين وأطفالهم، وغنموا جميـع بهـائمهم ومواشـيهم وسـائر أملاكهم، وأحرقـوا مـدنهم كلهـا بمساكنها وحصونها، واستولوا على كل الغنائم والأسلاب من الناس والحيوان،.... فخرج موسى وألعازار وكل قادة إسرائيل لاستقبالهم إلى خارج المخيم، فأبـدى موسـى سـخطه على قـادة الجيش من رؤساء الألوف ورؤساء المئـات القـادمين من الحـرب، وقـال لهم: لماذا استحييتم النسـاء؟ إنهن باتبـاعهن نصـيحة بلعـام أغـوين بـني إسرائيل لعبادة فغور، وكن سبب خيانـة للـرب، فتفشـى الوبـأ في جماعة الرب. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلـوا أيضـا كـل امـرأة ضـاجعت رجلا، ولكن اسـتحيوا لكم كـل عـذراء لم تضـاجع رجلا)

ليس هذا فقط.. لقد جاء في سـفر يشـوع (6:ـ 16):ـ (قـال يشـوع للشـعب: اهتفـوا، لأن الـرب قـد وهبكم المدينـة. واجعلـوا المدينة وكل ما فيها محرما للرب.. أما كل غنـائم الفضـة والـذهب وآنية النحاس والحديد، فتخصص للرب وتحفظ فى خزانتـه. فهتـف الشـعب، ونفخ الكهنـة في الأبـواق. وكـان هتـاف الشـعب لـدى سماعهم صوت نفخ الأبـواق عظيمـا، فانهـار السـور في موضـعه. فانـدفع الشـعب نحـو المدينـة كـل إلى وجهتـه، واسـتولوا عليهـا. ودمروا المدينة وقضوا بحـد السـيف على كـل من فيهـا من رجـال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير)

ليس هذا فقط.. لقد جاء في سفر هوشـع (13:ـ 16) يقـول الـرب: (تجـازى السـامرة لأنهـا تمـردت على إلههـا. بالسـيف

يسقطون. تحطم أطفالهم، والحوامل تشق)

وفي سفر إشعيا (13:ـ 16) يقول الـرب: (وتحطم أطفـالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نساؤهم)

التفت إلي، وقال: اسمع هـذه التشـريعات الإرهابيـة القاسـية التي يأمبر بها الكتاب المقدس.. لقد جاء في سفر التثنية (20: 10 -15) قول الرب: (حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح، فإن أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشـعب الموجـود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لـك. وان لم تسـالمك بـل عملت معك حربـا فحاصـرها. واذا دفعهـا الـرب الهـك الى يـدك فاضـرب جميع ذكورها بحد السيف. واما النساء والاطفال والبهـائم وكـل مـا في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة اعدائك الـتي اعطاك الرب الهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الامم هنا)

ليس هذا فقط.. اسمع إلى تشريعات الإبادة التي يأمر بها إله الكتاب المقدس..

لقد جاء في سفر التثنية (20:ـ 16): (أما مدن الشعوب التي يهبها الـرب إلهكم لكم ميراثـا فلا تسـتبقوا فيهـا نسـمة حيـة، بـل دمروهـا عن بكـرة أبيهـا، كمـدن الحثـيين والأمـوريين والكنعـانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمركم الرب إلهكم)

التفت إلي، وقال: لا أظن هتلر قام بفعلته الشنيعة ــ إن كـان فعلها ـ إلا بعد قراءة هذا النص.. لقد خشي على قومـه أن يضـموا إلى هذه الأجناس التي أمر اليهود بإبادتهم، فـراح يتغـذى بهم قبـل أن يتعشوا بقومه(1).

ليس هذا فقط.. فأوامر الرب بالقيام بالمـذابح والمجـازر في الكتاب المقدس لا تنتهي.. لقد جاء في سفر صـموئيل الأول (15: 3 -5):ـ (وقال صموئيل لشاول: (أنا الذي أرسلني الـرب لأنصـبك ملكـا على إسـرائيل، فاسـمع الآن كلام الـرب. هـذا مـا يقولـه رب الجنـود: إني مزمـع أن أعـاقب عمـاليق جـزاء مـا ارتكبـه في حـق الإسرائيليين حين تصدى لهم في الطريق عند خروجهم من مصـر. فاذهب الآن وهاجم عماليق واقض على كل ماله. لا تعف عن أحـد منهم بل اقتلهم جميعا رجالا ونساء، وأطفـالا ورضـعا، بقـرا وغنمـا، جمالا وحميرا)

ولهذا.. فإن من أهم أوصاف الرب أنه إله النقمات.. لقد جـاء

1) هناك من يذهب إلى أن هتلر يهودي العرق..

في مزمور(94:ـ 1):ـ (يا إله النقمات.. يا رب.. يا إلـه النقمـات).. وفي (تثنية: 4:24):ـ (لأن الرب الهك هو نار آكلة اله غيـور).. وفي (أشعياء:66:ـ 16): (لأن الرب بالنار يعاقب وبسيفه على كل بشر ويكثر قتلى الرب).. وفي (ارميا 48:10): (ملعون من يعمل عمل الرب برخاء وملعون من يمنع سيفه عن الدم).. لقد قال مثـل هـذا بولس في رسالته إلى العبرانيين (12: 29): (لأن إلهنا نارا آكلة)

قلت: إن كل ما ذكرته من نصوص أحفظه عن ظهر قلب..

قال: تصور معي عندما يلقن الطفل الصغير هذه النصـوص.. وغيرها من النصوص الكثيرة التي تمتلئ بها الأسفار المقدسة..

ثم يلقن بعدها عقدة التفوق العنصري الموهوم لما يسـمى بـ (الشعب المختار).. ويلقن معها شدة الاستهانة بـدماء الآخـرين من (الأممـيين) أو (الأغيـار) أو (الجـوييم) أو (العامـة) أو (الكـوفريم) والتي تعني كلها الأصناف البشرية الأخرى غير اليهود.

فـإذا وجـد هـذا الطفـل تطلعـا للبطولـة حكيت لـه قصـة شمشون.. وبطولات شمشون(1).

فإذا بلغ هذا الطفل لم يجد أمامه إلا العصابات الإرهابية..

قلت: إن اليهود يشكون الإرهاب ويخافون منه.

قال: اللص لا يخاف إلا اللصوص.. ولو لم يكونوا لصوصا لمـا خافوا أحدا..

الإرهاب ليس حدثا عابرا عرضيا في أولئـك القسـاة إنمـا هـو أمـر كـامن في مشـروعهم الصـهيوني الاسـتيطاني الإحلالي، وفي الصيغة الصهيونية الأساسـية الشـاملة.

كمـا أن حـلقات وآليـات هـذا الإرهـاب مترابطـة متلاحقـة، فالهجمات الإرهابية التي شنت ضد بعـض القـرى العربيـة أدت إلى اسـتسلام بقية سكان الأراضي المحتلة، أي أن المذابح والاعتقالات والإبعادات إن هي إلا آلية من آليات الاستيطان الصهيوني الإحلالي، ولا يمكن تخيل إمكانية تحقق المشـروع الصهيـوني بدونها.

والإرهاب الصـهيوني هـو الآليـة الـتي تم بهـا تفريـغ جـزء من فلسـطين من سـكانها وفـرض المسـتوطنين الصـهاينة ودولتهم الصهيونية على شعب فلسطين وأرضها.

وقد تم هـذا من خلال الإرهـاب المباشـر، غـير المنظم وغـير

---

1) شـمشون، هو اسم لشخص يُشار إليه أحياناً بأنه آخر القضاة، فقد كان قاضـياً من قبيلة دان مدة عشـرين سـنة، وقـد اشـتهر بقوتـه الجسـدية الخارقـة، تـدور حياتـه حـول مجموعة من المغامرات مع ثلاث نساء.. انظر القصة وتحليلهـا في (الكلمـات المقدسـة) من هذه السلسلة.

المؤسسي، الذي تقوم به المنظمات الإرهابية غير الرسمية (المذابح ـ ميليشيات المستوطنين ـ التخريب ــ التمييز العنصري) والإرهاب المباشر، المنظم والمؤسسي، الذي تقوم به الدولة الصهيونية (التهجير ـ الهيكل القانوني للدولة الصهيونية ــ التفرقة العنصرية من خلال القانون ــ الجيش الإسرائيلي ــ الشرطة الإسرائيلية ـ هدم القرى).

وكلا هذين النوعين من الإرهاب (الإرهاب المؤسسي وغير المؤسسي) مرتبطان تمام الارتباط، ويتم التنسيق بينهما ويجمع بينهما الهدف النهائي، وهو إفراغ فلسطين من سكانها أو إخضاعهم وحصارهم (1).

لعلك سمعت بواقعة دير ياسين (قبل عام 1948)

قلت: أجل.. ولكنها من فعل بعض الرعاع.. ولا يصح أن ننسبها لشعب كامل.

قال: لقد راح ضحية تلك المذبحة زهاء 260 فلسطينياً من اهالي القرية العزل.. وكانت هذه المذبحة، وغيرها من اعمال الارهاب والتنكيل، احدى الوسائل التي انتهجتها المنظمات الصهيونية المسلحة من اجل السيطرة على الاوضاع في فلسطين تمهيداً لاقامة الدولة الصهيونية.

لقد أرسل مناحم بيجين برقية تهنئة الى رعنان قائد الارجون المحلي قال فيها: (تهنئتي لكم لهذا الانتصار العظيم، وقل لجنودك انهم صنعوا التاريخ في اسرائيل)

وفي كتابه المعنون الثورة كتب بيجين يقول: (إن مذبحة دير ياسين اسهمت مع غيرها من المجازر الاخرى في تفريغ البلاد من 650 الف عربي)، واضاف قائلاً: (لولا دير ياسين لما قامت اسرائيل)

قلت: ألا يمكن أن يكون ما حصل من اليهود من إرهاب مجرد رد فعل لما حصل لهم من إذلال؟

قال: رد الفعل يكون لمن فعل الفعل لا لغيره.. هكذا يقول المنطق.. وهكذا تقول القيم النبيلة..

وفي هذه الحالة ينبغي لقومنا أن يوجهوا رد فعلهم للمسيحيين.. لأنه ـ على مدار التاريخ ــ لم يذل اليهود أحد كما أذلهم المسيحيون..

---

1) انظر: الصهيونية والعنف..من بداية الاستيطان الى انتفاضة الاقصى، د. عبد الوهاب المسيري.

لقد ظل اليهود في نظر العالم المسيحي بأسره (أمة ملعونة) لمدة ألف وخمسمائة عام، لأنهم ـ في اعتقاد المسيحيين ـ قتلة السيد المسيح.

وقد عانى اليهود صنوفا من الاضطهاد والازدراء بناء على هذا التصور الذي ترسخ في العقل المسيحي وصمد على مر القرون، مدعوما بنصوص كثيرة من الإنجيل، وظروف اجتماعية وسياسية خاصة(1).

أما حياتهم مع المسلمين، فقد كانت لا تختلف عن حياة المسلمين أنفسهم.. بل إن العصر الذهبي لليهود لم يعيشوه إلا في ظلال المسلمين..

فقد كان اليهود ــ الذين يعيشون في بلاد المسلمين ـ يشاركون في معظم مجالات الحياة وفي كل المهن والحرف تقريباً، وكانت ملكية الأراضي مفتوحة أمامهم، كما أنهم تملكوا العقارات في كل أنحاء البلاد وتناقلوها عن طريق الوراثة أو عمليات البيع والشراء فيما بينهم وبين المسلمين دون أية مضايقات (2).

وكان لهم مطلق الحرية في العمل التجاري بلا حدود، وكانت نقابات الحرفيين والمهنيين مفتوحة للجميع بغض النظر عن أي دين أو مذهب أو أصل.

قلت: أنت تنسى ما قدم قومنا لليهود؟

قال: لقد قدموا لهم المذابح الكثيرة التي لا تنتهي.. وآخرها هي إرسالهم إلى المسلمين.. لعلمهم أن المسلمين مع كونهم مسالمين إلا أنهم لا يسكتون عن ضيم ولا يخضعون عن ذلة.

---

1) لكن القرن الخامس عشر الميلادي أظهر تحولات عميقة في النفس المسيحية ـ الغربية على الأقل ـ مع بزوغ ما عرف بحركة الإصلاح، وما استتبعه ذلك من انشقاق سياسي وعقائدي داخل الديانة المسيحية بشكل عام، والكاثولوكية الغربية بشكل خاص كان من نتائج هذه التحولات أن أصبحت المسيحية الجديدة التي عرفت باسم البروتستانتية ربيبة لليهودية.

فقد أصبح للعهد القديم أهمية أكبر في نظر البروتستانت من العهد الجديد، وبدأت صورة الأمة اليهودية تتغير تبعا لذلك في أذهان المسيحيين الجدد وقد ظهر هذا التحول في النظرة المسيحية إلى اليهود في كتابات رائد الإصلاح البروتستانتي، القس الفيلسوف (مارتن لوثر). فقد كتب لوثر عام 1523 كتابا عنوانه (المسيح ولد يهوديا) قدم فيه رؤية تأصيلية للعلاقات اليهودية المسيحية من منظور مغاير تماما لما اعتاده المسيحيون من قبل، فكان مما قال في كتابه:(إن الروح القدس شاءت أن تنزل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم. إن اليهود هم أبناء الرب، ونحن الضيوف الغرباء، وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل من فتات مائدة أسيادها)

2) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري.

قلت: عرفت ما فعل المجرمون من اليهود.. ولم أكن أحتاج لمعرفة تفاصيل ذلك، فما تبرزه لنا الأخبار الموضوعية كل يوم لا يزيدنا إلا يقينا بالأحقاد التي تمتلئ بها قلوبهم.. فحدثني عن قومي من **المسيحيين**.

قال: قومك من المسيحيين على امتداد تاريخهم لا يقلون دموية عن هؤلاء.

قلت: احذر من الحديث عن المسيحية بشيء من أحاديث العوام.. فالمسيحية لا يمثلها إلا رجال الدين.

قال: سأحدثك عما فعله أكبر رجال الدين في المسيحية.. سأحدثك عن البابوات المعصومين.. ألستم تعتبرون البابوات معصومين؟

سكت، فقال: إن كل الجرائم التي حدثت باسم الحروب الصليبية أول من يتحمل وزرها هم البابوات..

ففكرة الحروب ذات الطابع الديني الخالص ترجع لكرسي البابوية التي أضفت على الصراع الخالد بين المسلمين والمسيحيين صفة الصليبية المتعصبة.

وخلال هذا الصراع الطويل برز العديد من الباباوات الذين كان لهم دور بارز في تأجيج المشاعر العدائية ضد الإسلام والمسلمين تمثلت في حملات صليبية عالمية على الأمة الإسلامية.

فالبابا إسكندر الثاني (1061-1073) يعتبر أول من استخدم فكرة صكوك الغفران كورقة لتحميس الأوروبيين على حرب المسلمين، وذلك عندما دعاهم سنة 1063م لنجدة إخوانهم الإسبان في الأندلس من نير المسلمين، مع العلم أن المسلمين كانوا وقتها في أضعف حالاتهم تحت حكم ملوك الطوائف، وقد أسفرت هذه الدعوة عن واحدة من أشد المجازر البشرية روعة عندما شن نصارى أوروبا حربا صليبية بقيادة قائد فرسان البابوية على مدينة بربشتر في شرق الأندلس سنة 1064م راح ضحيتها أربعون ألف مسلم غير آلاف الأسارى من البنات والصبيان.

يليه البابا جريجوري السابع الذي يعتبر أكبر من تولى منصب البابوية في التاريخ الكنسي كله، وهو مؤسس فكرة الحملات الصليبية الشهيرة على العالم الإسلامي بالشام ومصر، وقد تولى البابوية خلفا لإسكندر الثاني سنة 1073م، وهو ألماني الأصل، وكانت ولايته للبابوية نقطة تحول فاصلة في حياة البابوية، إذ أصبح البابا من عهده هو سيد العالم النصراني وسيد أوروبا المطلق

وصاحب السلطة الأكبر والأهم على نصارى العالم القديم، وقد أثبت ذلك في صراعه ضد الإمبراطور هنري الرابع الذي اضطر للتوجه إلي قلعة كانوسا حيث مقر إقامة البابا جريجوري السابع طلبًا لمغفرة البابا وصفحه بعد أن ثار عليه شعبه وقواده.. وإمعانًا في إظهار السيادة والقوة تركه جريجوري ثلاثة أيام حافيًا عاري الرأس على الجليد حتى يرضي عنه.

هذا البابا أول من أشعل الحملات الصليبية على الأمة الإسلامية، ولكن العمر لم يطل ليشهد انطلاق هذه الحملات حيث هلك سنة 1088م وترك ذلك لتلميذه النجيب أوربان الثاني الذي أخذ على عاتقه إدخال الحملات الصليبية موضع التنفيذ، وقد قام بجولة أوروبية واسعة لحشد الرأي العام واستثارة الهمم الصليبية من أجل ذلك، ثم دعا لمؤتمر مصيري في كليرمونت بفرنسا في 27 نوفمبر سنة 1095م، وفيه أطلق صيحته الشهيرة (إنها إرادة الرب)، وأمر كل مسيحي ومسيحية بالخروج لنجدة القبر المقدس من أيدي الكفرة (يعني المسلمين)، ثم أفاض في حديث مليء بالكذب والأباطيل عن الاضطهادات التي يتعرض لها المسيحيين والحجيج ببلاد المسلمين، فأدى ذلك لاشتعال روح حماسية عارمة بأوروبا نحو حرب المسلمين والخروج إلى بلادهم..

قاطعته قائلا: أعلم تلك المواقف وغيرها كثير.. لكنها جميعا لا تعدو مواقف رجال دين.. لا مواقف أهل دين.. فلا يمكن أن نحمل المسيحيين ذنب بابواتهم.

قال: صدقت.. ولكن العوام المساكين أصحاب القلوب الطيبة ملأهم رجال دينهم أحقادا.. لقد كان الجندى الإيطالى الذاهب لاحتلال ليبيا ينشد قائلا: (يا أماه صلاتك و لا تبكى بل اضحكى و تأملى ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا لأبذل دمي فى سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الأمة الإسلامية سأقاتل لمحو القرأن وإن لم أرجع فلا تبكى على ولدك وإن سألك أحد عن عدم حزنك على فأجيبيه إنه مات فى محاربة الإسلام)

لقد ذكر (فيدهام) أن الحروب قادها البابوات كانت مليئة بالفظائع، لأن رجال اللاهوت (الطيبين) كانوا مستعدين دائمًا أن يضعوا الزيت على النار، وأن يحيوا وحشية الجنود عندما يساورهم أي تردد أو ضعف، فقد يكون الجنود قساة، ولكنهم كانوا يميلون في بعض الأحيان إلى الرحمة، أما رجال اللاهوت فاعتبروا الاعتدال

والرحمة نوعًا من الخيانة(1).

قلت: ولكن لم لا ننظر إلى تلك الحروب على أنها حروب تحرير.

قال: نعم.. لقد كانت حروب تحرير.. ولكن بمعنى واحد لا غير.. هو تحرير الأرواح من الأجساد..

لقد روى ابن الاثير في تاريخه (2) عن دخول الصليبين القدس في الحروب الصليبية فقال: (ملك الفرنج القدس نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين ألفا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الاوطان وجاور بذلك الموضع الشريف)

ووصف ستيفن رنسيمان في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) (3) ما حدث في القدس يوم دخلها الصليبيون فقال: (وفي الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين إليه وحينما توجه قائد القوة ريموند اجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد اخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه وتركت مذبحة بيت المقدس أثرا عميقا في جميع العالم، وليس معروفا بالضبط عدد ضحاياها غير أنها أدت الى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود، بل إن كثير من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث)

وقد وصف كثير من المؤرخين احداث المذبحة التي حدثت في القدس يوم دخول الصليبيين أليها وكيف أنهم كانوا يزهون بانفسهم لأن ركب خيولهم كانت تخوض في دماء المسلمين التي سالت في الشوارع.. وقد كان من وسائل الترفيه لدى الصليبيين أن يشووا أطفال المسلمين كما تشوى النعاج.

ويذكر الكثيرون ما فعل ريتشارد قلب الاسد في الحملة الصليبية الثالثة عند احتلاله لعكا بأسرى المسلمين فقد ذبح 2700 أسير من أسرى المسلمين الذين كانوا في حامية عكا، وقد لقيت زوجات واطفال الاسرى مصرعهم الى جوارهم.

أهؤلاء المجرمون محررون..

---

1) الأيديولوجية الانقلابية، ص716.
2) تاريخ ابن الأثير: 8/189-190.
3) تاريخ الحروب الصليبية: 1/404/406.

سكت قليلا، ثم قال: إن هـذه الحملات الصـليبية الـتي قادهـا البابوات لم تتوجه ضد المسلمين فقط، بل اتجهت في أوروبا ضــد كـل من حدثتـه نفسـه بـالخروج أو بـالانحراف عن الكنيسـة، ففي الحملة ضد الألـبيجنس والوالـدنس والكثـاريين مثلاً ــ في القـرنين الثاني عشر والثالث عشر ـ كـانت الكنيسـة تحـاول إفنـاءهم إفنـاءً تامًا.. وهذا ما حققته فعلاً، فقتلت وحرقت وشنقت الرجال والنساء والأطفال بشكل جماعي.

لا شك أنك سمعت بـ (ملحمـة سـان بـارتلمى)، وهى مذبحـة أمر بهـا سـنة 572م شـارل التاسـع وكاترينـا دوميديسـيس حينمـا قتلت كاترينـا خمسـة آلاف من زعمـاء البروتسـتانت فى بـاريس وظنت أنهم يتآمرون بها و بالملك، ولم يكد ينتشر الخبر في باريس حـتى شـاع أنـه شـرع فى قتـل البروتسـتانت فـانقض أشـراف الكاثوليك والحـرس الملكى والنبالـة والجمهـور على البروتسـتانت وقتلوا عشرة آلاف نسمة فى مختلف المدن بعد باريس.

وقد باركت الكنيسة الكاثوليكية هذه المجزرة وما بدا السرور على أحد كما بدا على البابا غريغوري الثالث عشر، وقد أكر بضرب أوسمة خاصـة تخليـدا لـذكرى هـذه المذبحـة، ورسـمت على هـذه الأوسمة صورة غريغـوري و بجانبـه ملـك يضـرب بالسـيف أعنـاق البروتستانت.

وقد كانت هذه الظاهرة سـببا في جعـل (وليم جيمس) يقـرر أن العالم لم يعرف الاضطهاد الديني على نطاق واسع، قبل ظهور الأديان الموحدة، فقد كانت المسيحية في الواقع أول مذهب ديـني في العـالم وجـد خاصـته في التعصـب والـذي كـان يقضـي بإفنـاء خصومه.

وقصة مذابح الصرب ضد المسلميين فى البوسنة ليست عنـا ببعيـدةٍ، ففى أربعـة أعـوام ذبح المسـيحيون 200،000 مسـلم و مسـلمة واغتصـبوا النسـاء وشـقو بطـون الحوامـل ودفنـو النـاس أحياء.. وقصة سربينيتشا تلك القريـة الصـغيرة الـتى أعلنتهـا الأمم المتحدة منطقة آمنة إلا أن الصرب الصليبيين تعاونوا مـع إخـوانهم الهولنديين وغدرو بالقريـة الآمنـة، وقتلـوا عشـرة آلاف مسـلم فى ليلةٍ واحدة.

نعم إن قومنا يتشـدقون ــ كعـادتهم ــ ويقولـون بـأن الحـرب كانت عرقية لا دينيـة، مـع أنهم يعلمـون أن عرقيـة المسـلمين هي نفس عرقيتهم.

لقد كان العالم كلـه يعلم أن الحـرب بين الصـرب والكـروات حرب بين المسيحيين والمسلميين.. وكان ذنب المسلميين الوحيـد فيها هو أنهم مسلمون.

لم أملك نفسي، فسالت دموع حارة من عيـني، فقـال: هـذه مجرد أمثلة عن الجرائم التي ارتكبها أولئك الذين يحملون الصليب، ويرتلون الكتاب المقدس، ويغنون للسلام.

التفت إلي، وقــال: لا تتعجب من ذلــك.. فهم لا ينفــذون إلا إرادة الرب.. لقد قال لهم يسوع: (لا تظنوا أني جئت لأرسي سلاما على الأرض. ما جئت لأرسي سلاما، بل سـيفا. فـإني جئت لأجعـل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مـع أمهـا، والكنـة مـع حماتهـا. وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته) (إنجيل متى:10:34-36)

فلذلك هم ينفذون هذه الأوامر بدقة متناهية..

أما تفاصيل تطبيقها فقد شرحها لهم العهد القديم بما لا مزيد عليه..

قلت: ولكن الكتاب المقدس يقول: (من ضـربك على خـدك الايمن فأدر له خدك الايسر)

قال: أتدري المعـنى الرمـزي الـذي تحملـه (فـأدر لـه خـدك الأيسر)؟

قلت: ألهذه الكلمة معنى رمزي؟

قال: أجل.. يختص به فقهاء المسيحية..

قلت: فما هو؟

قال: إن إدارة خدك الأيسر له لا تعني أن تمكنــه من ضــربه، ولكن تعني أن تحـاول اجتثاثـه وقلعـه وإبادتـه.. فالخـد الأيسـر في معناه الرمزي هو الإبادة بكل ما شرح الكتاب المقـدس من طـرق الإبادة.

قلت: لقد اقشعر قلـبي ممـا ذكـرت ممـا فعلـه أهـل ديـني.. فحدثني عن **أهل حضارتنا..** هذه الحضارة الممتلئـة بالفلسـفات والمذاهب والأفكار.

قــال: لــو ذهبت أحــدثك عن جرائمهـا لمـا انتهينـا.. ولـذلك سأكتفي بتحديثك عن الجرائم التي أسسـت لتلـك الدولـة العظمى التي لا تـزال تنشـر الخـراب في العـالم.. في نفس الـوقت الـذي تصم كل من يخالفها بالإرهاب.

قلت: تقصد أمريكا؟

قال: أجل.. فأمريكا ثمرة خبيثة من ثمار اليهودية والمسيحية

والأفكار الرومانية التي لبست لباس الفلسفة الحديثة.

قلت: فما فعلت أمريكا؟.. تلك التي تحن لها القلوب.

قال: وترجف من ذكرها القلوب.

قلت: ما فعلت (1)؟

قال: في عام 1664م، صدر كتاب بعنوان (العملاق) كتبه (يوردجاك) تضمن نصائح للقيادات الأنجلوساكسونية المتزعمة للمهاجرين البروتستانت إلى القارة الأمريكية الجديدة، جاء فيه: (إن إبادة الهنود الحمر والخلاص منهم أرخص بكثير من أي محاولة لتنصيرهم أو تمدينهم ؛ فهم همج، برابرة، عراة، وهذا يجعل تمدينهم صعباً، إن النصر عليهم سهل، أما محاولة تمدينهم فسوف تأخذ وقتاً طويلاً، وأما الإبادة فإنها تختصر هذا الوقت، ووسائل تحقيق الانتصار عليهم كثيرة: بالقوة، بالمفاجأة، بالتجويع، بحرق المحاصيل، بتدمير القوارب والبيوت، بتمزيق شباك الصيد، وفي المرحلة الأخيرة: المطاردة بالجياد السريعة والكلاب المدربة التي تخيفهم ؛ لأنها تنهش أجسادهم العارية)

وفي عام 1730 م، أصدرت الجمعية التشريعية (البرلمان) لمن يسمون أنفسهم (البروتستانت الأطهار) تشريعاً يقنن عملية الإبادة لمن تبقى من الهنود الحمر، فأصدرت قراراً بتقديم مكافأة مقدارها 40 جنيهاً مقابل كل فروة مسلوخة من رأس هندي أحمر، و40 جنيهاً مقابل أسر كل واحد منهم، وبعد خمسة عشر عاماً ارتفعت المكافأة إلى 100 جنيه، ثم وضع البرلمان البروتستانتي (تسعيرة) جديدة بعد عشرين عاماً من صدور القرارات الأولى: فروة رأس ذكر عمره 12 عاماً فما فوق: 100 جنيه، أسير من الرجال: 105 جنيهات، أسيرة من النساء أو طفل: 55 جنيهاً، فروة رأس امرأة أو فروة رأس طفل: 50 جنيهاً.

وفي عام 1763 م أمر القائد الأمريكي، البريطاني الأصل (جفري آهرست) برمي بطانيات كانت تستخدم في مصحات علاج الجدري في أماكن تجمعات الهنود الحمر، لنقل مرض الجدري إليهم بهدف نشر المرض بينهم ؛ مما أدى إلى انتشار الوباء الذي نتج عنه موت عشرات الألوف منهم.

وبعد عقود قليلة انتهى أمر السكان الأصليين في القارة الأمريكية إلى ما يشبه الفناء، بعد الإبادة المنظمة لهم على أيدي

---

1) انظر هذه التفاصيل وغيرها في: أمريكا واسرائيل وعقدة الدم، د. عبد العزيز بن مصطفى كامل.

المبشرين بالمحبة، والسلام للبشرية جمعاء.

وبعد فراغ القارة الأمريكية من العبيد (الحمر) قرر الأمريكيون استيراد عدة ملايين من العبيد (السمر) لخدمة (الشعب المختار) فتحول رعاة البقر إلى بحارة يجوبون السواحل الإفريقية لاصطياد العبيد وحشرهم في سفن الشحن، في عمليات إجرام أخرى يعالجون بها آثار الجريمة الأولى في حق الهنود الحمر، حيث لم يبق لديهم ما يكفي من الأيدي العاملة لبناء صرح الحضارة الجديدة.

وقد جلب الأوربيون والأمريكيون في أول الأمر ما لا يقل عن 12 مليوناً من الأفارقة المسترقين، جاءوا بأفواجهم في الأصفاد، وكانت البرتغال أكثر الدول الأوروبية توسعاً في جلب هؤلاء إلى أراضي العالم الجديد في أمريكا، دون توفير أدنى الضمانات لتلك (المخلوقات) الإفريقية التي لم يَرْق التعامل معهم إلى مستوى التعامل مع فئران المعامل ؛ فقد صدر عن منظمة اليونسكو عام 7891م تقرير يحكي فظاعة ما حصل للأفارقة وهول الكارثة الإنسانية التي حلت بهم لهم من أجل تعمير أمريكا ؛ فقد جاء فيه أن إفريقيا فقدت من أبنائها في تجارة الرقيق نحو 210 مليون نسمة، وذكرت التقارير أن ما لا يقل عن خمسة وعشرين مليوناً من الأفارقة الذين تم شحنهم من أنحاء القارة في أفواج من (جزيرة جور) الواقعة في مواجهة العاصمة السنغالية (داكار) قد هلك أكثرهم قبل أن يصلوا إلى العالم الجديد مما لقوا في رحلات العذاب داخل سفن شحن المواشي.

ويذكر هنا أن أمريكا، وأمريكا بالذات.. هي التي أحبطت في مؤتمر (دوربان) عام 2000م مطالب الأفارقة بالتعويض عما حدث لهم، بل رفضت أن يقدم لهم مجرد اعتذار، ومع كل هذا لا يزال كثير من المغفلين أو المغرضين يرفعون عقيرتهم قائلين: إن أمريكا محررة العبيد.

وقد بقي الأمريكيون مشغولين عن التدخل في شؤون العالم ثلاثة قرون، تاركين ذلك للجزء الأصلي من الشعب الساكسوني المختار (بريطانيا) ثم قرروا بعد نشوب الحرب العالمية الثانية أن ينفتحوا على العالم، وكانت بداية ذلك الانفتاح دموية قاتلة.

ليست هذه فقط هي جرائم الأمريكان..

هناك جرائم أخرى كثيرة.. سأذكر لك واحدة منها:

بالرغم من أن الحرب العالمية الثانية أفقدت العالم ما لا

يقـل عن خمسـين مليونـاً من البشـر، فـإن خسـارة الأمريكـيين لخمسة آلاف جندي، بعد الهجمات اليابانيـة بطـائرات (الكاميكـازا) على (مينـاء هـاربر) الأمـريكي عـام 1945م أفقـدت الأمريكـيين عقلهم؛ فلأول مرة يخسر الشـعب الأمـريكي (المختـار) هـذا الكم الهائل من الـدماء في معركـة واحـدة، فكـان لا بـد أن يكـون الـرد حقداً يصب على رؤوس اليابانيين المدنيين منهم قبل العسـكريين، وهذا ما حدث.

فمقابل دماء الخمسة آلاف جندي أمريكي، أقبـل الأمريكيـون الأنجلو ساكسـون على الانتقـام المجنـون، فـأمر الجـنرال (جـورج مارشال) رئيس الأركان الأمريكي في ذلك الوقت، بتنفيذ عمليـات قصف تدميري واسع النطاق للمدن اليابانية الكثيفـة السـكان، فتم إطلاق 334 طـائرة أمريكيـة لإلقـاء القنابـل الحارقـة لتـدمر مـا مسـاحته 16 ميلاً مربعـاً، ولتقتـل في سـاعات نحـو 100 ألـف شـخص، وتشـرد نحـو مليـون آخـرين، في عمليـات جحيم مسـتعر شمل طوكيو و64 مدينة يابانية أخرى.

ثم ختم ذلك المشهد الدموي بمشهد آخر أكثر دمويـة لم يكن للبشرية به عهد قبل مجيء العهد الأمريكي ؛ فقد أقدم الأمريكيون وهم القـوة المتظـاهرة اليـوم بالـدعوة إلى التعقـل في اسـتعمال أسلحة الدمار الشـامل إلى اسـتعمال هـذا السـلاح، وكـانوا أسـبق البشر إلى استعماله عندما أسقطوا قنبلتين نوويـتين فـوق مـدينتي هيروشيما وناجازاكي، حصدت بسـببها عشـرات الآلاف من الأرواح بلا أدنى تفريق بين مدني وعسكري، أو رجل وامرأة وطفل.

وبعد انتهـاء الحـرب العالميـة الثانيـة وقعت أزمـة بين أمريكـا وكوريـا الشـمالية بسـبب خـوف الأمريكـيين من انتشـار النفـوذ السـوفييتي في جنـوب شـرق آسـيا، فتـدخلوا بسـبب ذلـك في الأراضي الكورية، وعـزل الأمريكيـون الحكومـة الشـعبية، وأغرقـوا البلاد في حـروب طاحنـة أشـاعت نـاراً ودمـاراً، ولكنهـا بعثت في الوقت نفسه نوعاً من الارتياح النفسي في قلوب زعماء (الشـعب المختار)

يقول ناعوم تشومسكي، الكاتب الأمريكي المعروف، واصـفاً نتائج تلك الحرب: (أشعلنا حرباً ضروساً، سـقط خلالهـا 100 ألـف قتيـل.. وفي إقليم واحـد صـغير سـقط 30 ألفـاً إلى 40 ألفـاً من القتلى أثناء ثورة قام بها الفلاحون)

ويصف ذلك الكاتب كيف أن حكومة بلاده تدوس على (القيم)

الديمقراطيـة إذا مـا تـبين أنهـا تحـول بين أمريكـا وبين مصـالحها الذاتية، فيقـول: (لم يُـثر انقلاب فاشـي في كولولمبيـا إلا قليلاً من احتجاج حكومة الولايات المتحدة، بينمـا لم تهتم بـانقلاب عسـكري في فنزويلا، ولا بعودة السـلطة للمعجب بالفاشـية في بنمـا، ولكن المرارة والعداوة التهبت في حكومتنا عندما صـعدت للسـلطة أول حكومة ديمقراطية في تاريخ جواتيمالا)

وبينمـا لم تأبـه أمريكـا بقيـام أنظمـة ديكتاتوريـة معاديـة للديمقراطيـة مـا دامت تخـدم الأغـراض الغربيـة، فقـد أطـاح الأمريكيـون ــ كمـا قـال تشومسـكي ــ بالعديـد من الحكومـات (الديمقراطية) عنـدما ظهـر لهم أن تلـك الأنظمـة الديمقراطيـة لا تخـدم مصـالحهم الإجراميـة.. يقـول: (أعـاقت حكومتنـا بعض الحكومات البرلمانية، وأسقطت بعضها، كما حدث في إيـران عـام 1953م، وجواتيمالا عام 1945م، وتشيلي عام 1972م، ولم تكن أساليب الإسقاط طبيعيـة جـداً، فلم يكن القتـل العـادي هـو عمـل القوات التي حركناها في نيكاراجوا، أو عمل وكلائنـا الإرهـابيين في السلفادور أو جواتيمـالا، ولكنـه كـان بصـفة واضـحة قتـل القسـوة والتعذيب السادي: تعليق النساء من أقدامهن، بعـد قطـع أثـدائهن، وفض بكـارتهن، وقطـع الـرؤوس وتعليقهـا على خوازيـق، ورطم الأطفال بالجدران حتى يموتوا..)

سكت قليلا، ثم قال: هل تعرف القتل بالوكالة.. والعمالة؟

قلت: لا.. هـذه أول مـرة أتشـرف بسـماع هـذا النـوع من الجرائم.

قال: هـذا مـا مارسـته أمريكـا منـذ ولـدت أمريكـا.. ولا زالت تمارسه ببشاعة لا نظير لها.

فبتواطؤ أمريكي شبه فعلي، قُتل مئات الآلاف من الأشخاص في مجـازر عديـدة في أندونيسـيا ونيكـاراجوا والسـلفادور وهندرواس، وقتْل هـؤلاء وإن كـان بأيـد غـير أمريكيـة، إلا أنـه كـان بأسلحة أمريكية، ومشورة أمريكية وتدريب أمـريكي مثلمـا يحـدث الآن في فلسطين وأفغانستان والفلبين وغيرها.

وقد تكررت المجازر في أنجولا وموزمبيق وناميبيا وغيرها من دول القارة الإفريقية، وعرف العالم في السنوات الأخيرة عدداً من الطغـاة الملفـوظين من شـعوبهم، والمـدعومين من (الشـعب المختـار) من أمثـال: (سـوموزا) في نيكـاراجوا، و(بينوشـيه) في تشيلي، و(ماركوس) في الفلبين، و(باتيسيتا) في كوبـا و(دييم) في

فيتنام و(دوفاليه) في هايتي و(سوهارتو) في إندونيسيا، و(فرانكـو) في إسبانيا.

وهناك زعماء آخرون رفضهم العـالم واحتضـنهم الأمريكيـون، وهم زعماء المافيا الإسرائيليون من بن جوريون إلى شـارون حيث لم يعـدّ (أحـرار) أمريكـا واحـداً من هـؤلاء السـفاحين إرهابيـاً، ولم يطالب شـعبها باعتقـال أي منهم لتقديمـه للعدالـة كي يحـاكم عن جرائمه ضد الإنسانية، أو يحاسب على سجلاته الإرهابية.

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف محور الشر؟

قلت: هم يقصدون بها بلاد المسـلمين.. وهم في هـذه الأيـام يطلقونه على إيران وحلفائها..

قال: عند ما كانت إيران إحدى العِزَب الأمريكية في آسيا في عهود الإمبراطورية البهلوية، كانت محورا للخيرا.. ولكنها بعـد قيـام الثورة الإسلامية التي خلصت المستضعفين من نـير المسـتكبرين، وحطمت الطغاة بمعاول الحق، عام 1979م، اعتبر الأمريكان هذا التطور ضاراً بمصالحهم.

فخططوا له أن يضرب بسيوف إخوانه.. وهنا حدث ما يسمى حـرب الخليج الأولى، حيث نشـبت هـذه الحـرب بتواطـؤ أمـريكي أمـدت أمريكـا فيهـا العـراق بكـل مـا تحتاجـه من أسـلحة التقتيـل والتـدمير، بـل إنهـا أظهـرت ميلاً سياسـياً نحـو مسـاندته لضـمان مساعدته من الدول الصديقة لها.

ولكنها في الوقت ذاته، كانت تضمر الشر للعـراق كمـا كـانت تضمره لإيران، وكان جوهر الموقف الأمريكي من تلك الحرب هــو مـا كـان يـردده اليهـودي الأمـريكي المخضـرم (هـنري كيسـنجر): (سياستنا تجاه تلك الحرب أن لا تهزم العراق، وألا تنتصر إيران)

قلت: إن كــل مــا ذكرتــه من جــرائم من فعــل أمريكــا.. والحضارة الغربية لا تمثلها أمريكا وحدها..

قال: تريد أن أحدثك عن أوروبا..

قلت: تاريخ أوروبا أنظف من تاريخ أمريكا..

قال: كلاهما يصـدر من قلب حقـود واحـد.. لقـد تـداعت دول أوروبا على البلدان الإفريقية، في شمالها وجنوبها وشـرقها وغربهـا ووسطها، وتقاسموها فيما بينهم ـ على شـدة الاختلافـات السـائدة بينهم ـ وأنزلوا بسكانها من الدمار والهلاك، ما تتورع عنه الوحــوش في غاباتها، قضوا في كل بلد على زعمائـه وقادتـه وسـفكوا دمـاء الآلاف من أبنائـه، بـدون تفرقــة بين الرجـال والنسـاء، والشـيوخ

والكهول والشباب والأطفال، وشردوا الآلاف المؤلفة، وحرموا من بقي في البلاد من أقل حقوق الإنسان التي يتشدقون بالدعوة إليها، فأذلوا بذلك سكان البلدان الإفريقية كلهم واستعبدوهم ونهبوا خيراتهم، كل ذلك باسم الاستعمار والتحرير.

لقد نقل الأمير شكيب أرسلان عن بعض المراسلين الأوروبيين الذين رافقوا الجيوش الإيطالية عندما اغتصبت ليبيا شيئا، يسيرا مما ذكره أولئك المراسلون وشاهدوه من أعمال غزاة النصارى الوحشية، فقال: (وليس المسلمون وحدهم هم الذين شاهدوا أعمال الطليان وضجوا منها، بل ثمة كثير من الإفرنج شاهدوها وأنكروها، ومن ذلك المستر (فرانسس ماكولا) الإنجليزي الذي كان مرافقا للجيش الإيطالي في طرابلس عند الاحتلال وشاهد تلك الفظائع بعينه، فقد قال: (أبيت البقاء مع جيش لا هم له إلا ارتكاب جرائم القتل، وإن ما رأيته من المذابح، وترك النساء المريضات العربيات وأولادهن يعالجون سكرات الموت على قارعة الطريق جعلني أكتب للجنرال (كانيفا) كتابا شديد اللهجة، قلت له: إني أرفض البقاء مع جيش لا أعده جيشا، بل عصابة من قطاع الطرق والقتلة)

ومن ذلك شهادة الكاتب الألماني (فون غوتبرغ) الذي قال: (إنه لم يفعل جيش بعدوه من أنواع الغدر ما فعله الطليان في طرابلس، فقد كان الجنرال كانيفا يستهين بكل قانون حربي، ويأمر بقتل جميع الأسرى، سواء أقبض عليهم في الحرب أو في بيوتهم، وفي سيراكوزه الآن كثير من الأسرى الذين لم يؤسر واحد منهم في الحرب، وأكثرهم من الجنود الذين تركوا في مستشفى طرابلس.

وقد قبض الطليان على ألوف من أهل طرابلس في بيوتهم ونفوهم، بدون أدنى مسوغ إلى جزر إيطاليا حيث مات أكثرهم من سوء المعاملة.

وأقر ما قاله (هرمان رنولوف) المراسل النمساوي الحربي فقد وجد في الباخرة التي نقلت جانبا من هؤلاء الأسرى فوصف تلك الحالة، فقال: (في الساعة السادسة من مساء كل يوم يكبل هؤلاء المرضى بالحديد في اليد اليمنى والرجل اليسرى، حقا إن موسيقى هذه السلاسل تتفق مع المدنية التي نقلتها إيطاليا إلى إفريقيا، لا ريب أن الطليان قد أهانوا كثيرا، فلم يكف أنهم أسقطوا منزلة أوروبا العسكرية في نظر إفريقيا، حتى شوهوا اسم

النصرانية أمام الإسلام)

ثم قال: (وقد قتل الطليان في غير ميدان الحرب كل عربي زاد عمره على أربع عشرة سنة، ومنهم من اكتفوا بنفيه)

وأحرق الطليان في 26 أكتوبر سنة 1911م حيا خلف بنك روما، بعد أن ذبحوا أكثر سكانه بينهم النساء والشيوخ والأطفال قال: (ورجوت طبيبين عسكريين من أطباء المستشفى، أن ينقلوا بعض المرضى والمصابين المطروحين على الأرض تحت حرارة الشمس فلم يفعلا، فلجأت إلى راهب من كبار جمعية الصليب الأحمر، هو الأب (يوسف بافيلاكو) وعرضت عليه الأمر، وأخبرت شابا فرنسيا أيضا، لكن الأب (بافيلاكو) حول نظره عني ونصح الشاب بأن لا يزعج نفسه بشأن عربي في سكرات الموت، وقال: (دعه يموت)

ثم قال هذا المراسل النمساوي: (ورأيت على مسافة قريبة جنديا إيطاليا يرفس جثة عربي برجله، وصباح اليوم التالي وجدت الجرحى والمرضى الذين رجوت الراهب من أجلهم قد ماتوا..)

ثم قال: (رأينا طائفة من الجنود تطوف الشوارع مفرغة رصاص مسدساتها في قلب كل عربي تجده في طريقها، قد نزع أكثرهم معاطفهم، ورفعوا أكمام قمصانهم كأنهم جزارون)

وقال المسي كسبرا مراسل جريدة (إكسليسيور) الباريسية: (لا يخطر ببال أحد ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ومن أكوام جثث الشيوخ والنساء والأطفال، يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبخور يحرق أمام مذبح من مذابح النصر الباهر، ومررت بمائة جثة بجانب حائط قضي عليهم بأشكال مختلفة.

وما فررت من هذا المنظر حتى تمثلت أمام عيني عائلة عربية قتلت عن آخرها، وهي تستعد للطعام، ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها في صندوق حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها. إن الإيطاليين فقدوا عقولهم وإنسانيتهم من كل وجه)[1]

هذه نصوص مختزلة لبعض المراسلين الأوروبيين عن وحشية الإيطاليين وقساوة قلوبهم وخلوها من الرحمة، في بلد واحد وهو ليبيا ومن جيش بلد أوروبي واحد، هو الجيش الإيطالي برضا الدول الأخرى في أوروبا، وهو مثال ينطبق على كل البلدان التي اغتصبها الأوروبيون في إفريقيا وغيرها.

1) انظر: حاضر العالم الإسلامي للأمير شكيب أرسلان.

وضعت يدي على فمه، وقلت: بالله عليك إلا كففت من حديثك هذا.. فقد ملأتني غيظا وحقدا ورعبا.

قال: لم أذكر لك شيئا.. إن الحقيقة لا يمكن تصويرها ولا تصورها.. لعل الملائكة الذين ذكرهم القرآن في قوله: ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ (البقرة:30) كانوا يقصدون هذه الحضارة.. وهذا الإنسان المتربي في كنفها المتعطش للدماء.

قلت: حدثني عن سلام الإسلام.

قال: ذاك حديث وطويل وعذب لا يمكنه أن نوفيه حقه في هذه الجلسة(1).. ولكني سأحدثك عن السلام الذي اشتهر الحديث عنه.. السلام المرتبط بالحرب.

قلت: لقد أمر الإسلام بالحرب.. فكيف يستقيم السلام مع الحرب.

نظر إلى الشاب الجالس أمامنا.. وقد علته الهموم، فقال: أرأيت لو أن هذا الشاب كان يملك قوة يحمي بها حقل زيتونه.. هل يجرؤ أحد على الاقتراب منه؟

قلت: لا.. لن يجرؤ أحد على الاقتراب منه.

قال: ولهذا أمر الإسلام بالقوة وبالإعداد الذي يرهب الأعداء الظالمين، فلا يطمعون في المستضعفين.. لقد جاء في القرآن: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (لأنفال:60)

قلت: القرآن يستعمل مصطلح الإرهاب.

قال: الإرهاب لا يعني القتل.. بل يعني وضع الروادع للظالمين حتى لا يفكروا في القتل.. ولهذا، فإن نظام الحرب في الإسلام يعتمد هذا المنهج.. ولهذا كانت الحروب التي خاضها الإسلام من أنظف الحروب على الإطلاق..

قلت: فحدثني عن ذلك.

قال: لا يمكنك أن تفهم موقف الإسلام من الحرب، وتشريعاته المرتبطة بها حتى تعلم موقفه من السلام.

قلت: فحدثني عنه.

قال: لقد قرأت الكتب المقدسة للأديان جميعا.. وقرأت خلاصات الأفكار والمذاهب والفلسفات، فلم أجد دينا حوت

1) انظر تفاصيل هذا في رسالة (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

نصوصه المقدسة ذلك الحض على السلام مثلما حمله الإسلام.

لقد تناول القرآن لفظ (السلم) و(السلام) في عشراتٍ الآيات؛ ليس ذلك فحسب، بل إنَّ السلام ـ عند المسلمين ــ اسمٌ من أسماء الله، وقد جعله تحيَّته إلى عباده، وأمرهم بأن يجعلوا السلام تحيَّتهم.. يلقيها بعضهم على بعض، باعتبارها شعارهم في جميع مجالات الحياة.

وقد قامت الدولة الإسلاميَّة الأولى في ظلِّ قيادة محمد على أساس توافر هذه المقوّمات التي لم ينقص من أهمِّيَّتها وأثرها في تكوين الوحدة الوطنيَّة أن يكون لأبنائه يومئذ أكثر من دينٍ واحد.

لقد قامت دولة الإسلام الأولى ودستورها المثالي ـ كما تقرِّره صحيفة الموادعة بين المسلمين واليهود ــ بسط جناح الأمن والسلام والإخاء على أهل المدينة جميعها بدرجةٍ واحدة، مساواةً تامَّةً في الحقوق والواجبات، لا يلمح فيها ظلاً للتفريق بين المسلم صاحب الأكثريَّة والرياسة، وبين اليهودي الذي يمثِّل الأقليَّة التابعة، فضلاً عن المسيحي الذي تشدّه إلى المسلم روابط وثيقة، لا يمكن لإنسانٍ أن ينال منها فيظفر بفكاكها، فهي باقيةٌ خالدةٌ على الأيام والدهر، لا تزعزعها الحوادث، ولا تنال منها الأحداث.

وقد كان للإسلام مع إخوانه من أتباع الشرائع السماويَّة الأخرى قصصًا يرويها التاريخ بإعجابٍ وإكبارٍ وتقدير؛ فلم يُسمَع عن محمد أنَّه قَتل مسيحيا لأنَّه لم يُسلم؛ ولم يُسمَع عن المسلمين أنَّهم عذبوا كتابيًّا أو سجنوه أو منعوه من التعبُّد وإقامة شعائر دينه؛ ولم يُنقل عنهم أنَّهم هدموا كنيسةً أو قوَّضوا بيعةً.. وإنّما قال التاريخ: إنَّ محمدا صالح نصارى نجران فكتب لهم عهدًا جاء فيه: (ولنجران وحاميتها جوار الله وذمة محمدٍ على أموالهم وأنفسهم وملّتهم وبيعهم وغائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يُغيَّر أسقفٌ من أسقفيَّته، ولا راهبٌ من رهبانيَّته، ولا كاهنٌ من كهانته، ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش)

التفت إلي، وقال: ميزة أخرى في سلام الإسلام.. لم أجدها في كل ما بحثت فيه من أديان.

قلت: ما هي؟

قال: تشريع أخلاق السلام.

قلت: ما تقصد بذلك؟

قال: في الوقت الذي تصور فيه الرجولة والشجاعة ــ كما نرى في الأفلام التي تنتجها عقليتنا السادية ـ في القتل والتدمير..

في ذلك الوقت يرى الإسلام أن الشجاعة والقوة في امتلاك النفس، والسيطرة على الأعصاب، والتغلب على دواعي الانتقام.. لقد قال محمد يصور هذا، ويعمقه في نفوس أمته: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)(1)، وفي رواية أخرى: (أتحسبون أن الشدة في حمل الحجارة؟ إنما الشدة في أن يمتلئ أحدكم غيظا ثم يغلبه)(2)، وفي رواية: (ألا أدلكم على أشدكم؟ أملككم لنفسه عند الغضب)(3)

فالحلم والعفو وسعة الصدر التي هي أركان السلام تعتبر في الإسلام فروضا تشريعية وخلقية.. لقد قال القرآن يجمع محاسن الأخلاق: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ((الأعراف: 199)

وقد نص علماء المسلمين على أن هذه الآية من أجمع الآيات لمكارم الأخلاق، قال جعفر بن محمد: (أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية)

بل قد وردت أحاديث محمد الدالة على احتواء هذه الآية على أصول الأخلاق، مفسرة لها بما يقتضي انحصار الأخلاق فيها، فعن جابر قال: لما نزلت هذه الآية خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ((الأعراف:199) قال النبي ﷺ: (يا جبريل ما تأويل هذه الآية؟ قال: حتى أسأل، فصعد ثم نزل فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصفح عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك. فقال النبي ﷺ: (ألا أدلكم على أشرف أخلاق الدنيا والآخرة؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك)(4)

ويدل على هذا ما ورد في نصوص أخرى من أن هذه الأخلاق المذكورة في الآية هي من أمهات الأخلاق وخيرها، كما روي ذلك في أحدايث مختلفة، فعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين؟ قال: قلت يا رسول الله، نعم. قال: تعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك)(5)

ولهذا كانت هذه الآية ـ بما تحمله من المعاني الجليلة ـ شعارا

---

1) أحمد والبيهقي عن أبي هريرة.
2) ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص.
3) الطبراني في الكبير عن أنس.
4) ابن مردويه.
5) البيهقي في شعب الإيمان.

لأمة محمد، وضياء يهتدون به في تعاملهم مع الخلق مسلمهم وكافرهم عاقلهم وجاهلهم.

وانطلاقا من هذا.. فقد نبذ الإسلام العنف، واعتبره من سوء الخلق.. ورتب عليه العقوبات التشريعية الرادعة.

ففي القرآن: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون:96).. وفيه ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:34)

وفي أحاديث محمد وصايا كثيرة ترتبط بهذا.. فقد قال: (إنَّ اللــه رفيــقٌ يحبُّ الرفــق، ويعطي على الرفــق مــا لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه)(1)

وقال: (إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيءٍ إلا شانه)(2)

وقال: (إنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ الرفق في الأمر كله)(3)

وقال: (من يحرم الرفق يحرم الخير)(4)

وقد سار أتباعه على هذا الهدي.. فصار الحلم وسعة الصدر عندهم هي المثال على الكمال الأخلاقي، فعن علي قال: (ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى)

وقال: (إن أول ما عوض الحليم عن حلمه جهله وصبره وشهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم)

وعن علي بن الحسين بن علي أنه سبه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة: الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى مدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

وقال رجل لجعفر بن محمد: إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر وإني أريد أن أتركه فأخشى أن يقال لي: إن تركك له ذل، فقال جعفر: إنما الذليل الظالم.

والإسلام لم يكتف بهذه التوجيهات.. بل وضع نظاما تشريعيا

---

1) رواه مسلم.
2) رواه مسلم.
3) رواه البخاري ومسلم.
4) رواه مسلم.

صـارما يحمي فيـه السـلام النفسـي والاجتمـاعي من أن يـدمره المصارعون.

قلت: ربما تجد مثل هذه الأخلاق عند شـعوب كثـيرة.. ونحن لا نتحـدث عن هـذا، وإنمـا نتحـدث عن أخلاق الحـرب.. فقـد زعم بعضهم أن الحرب لا تحتاج إلى أخلاق(1).

قال: وهذه ميزة أخرى من مزايا الإسـلام.. فهـو لا يفـرق في الأخلاق بين حرب وسلم، وبين مسلم وكافر، وبين لون ولون..

سأحدثك عن مجامع أخلاق الإسلام في الحرب، وهي ثلاثـة لا توجد إلا في الإسلام: الضرورة، والوفاء، والرحمة.

الضرورة:

قلت: فحدثني عن الضرورة.

قـال: الإسـلام يجعـل مبـدأ السـلام هـو المبـدأ الـذي يحكم العلاقات بين الأفراد والمجتمعات والشعوب، فـالقرآن يقـول: ﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجـرات: 13)

فـالغرض من التنـوع في الخلـق ليس الصـراع كمـا تفهم فلسـفاتنا الماديـة المؤيـدة بالأديـان المنحرفـة.. ولكنهـا ـ بحسـب القرآن ـ هي التعارف والتكامل والسلام.

ولهذا.. فإن (الحرب)، ومثله (القتال) في النصوص المقدسـة عنـد المسـلمين لا يلجـأ إليهـا إلا كمـا يلجـأ للعمليـات الجراحيـة للضرورة، وبدون اعتداء.

فقـد يلجـأ إليهـا لـردع العصـاة والمتمـردين وقطـاع الطـرق والعابثين بالأمن.. ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْـعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَـاداً أَنْ يُقَتَّلُـوا أَوْ يُصَـلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْـدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الـدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِـرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة:33)

وقد يلجأ إليها لردع البغاة الـذين يفرقـون المجتمـع، ويثـيرون الفتنة فيـه، ومـع ذلـك لا يلجـأ لهـا إلا بعـد محاولـة الصـلح.. ﴿ وَإِنْ

---

1) انظر في هذا: (نظام السلم والحرب فى الاسلام) وهي محاضرة- القاهـا الـدكتور السباعى فى ندوة دار الايتام الاسـلامية فى بـيروت، بـدعوة من اللجنـة النسـائية للهيئـة العليا لدار الايتام، مساء الجمعة الواقـع فى 3 من شـعبان سـنة 1372 الموافـق 17 من نيسان 1953، وقد كان لها اثـر بـالغ فى جمهـور المسـتعين، حـتى ان فريقـا كبـيرا منهم وبعضهم اساتذة فى الجامعـات العليـا، رغبـوا بطبعهـا وتوزيعهـا لمـا تضـمنته من حقـائق يجهلها كثير من المثقفين، عدا عما تضـمنته من تصـحيح لكثـير من الأخطـاء الشـائعة فى البيئات العلمية والدينية البعيدة عن الاسلام.

طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (الحجرات:9)

وقد يلجأ إليها لردع المرابين وأمثالهم من المستغلين لجهود الفقراء والعمال.. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: 178-279)

وقد يلجأ إليها لردع المعتدين على حقوق الإنسان الأساسية كالنفس والمال والعرض.

وقد يلجأ إليها لردع الطامعين، وتأمين السلام الداخلي.. فمن الناس من لا تردعهم التربية ولا القانون عن العدوان والطغيان.. وفي الأمم من تغريها قوتها وضعف جيرانها بالعدوان والاستعمار، فلا جرم إن كان من الخير أن يشرع استعمال القوة حينئذ لحملة السلام من أعدائه في الداخل والخارج.. وهذا هو ما رمى إليه الإسلام حين أقر استعمال القوة.

وقد يلجأ إليها لتأمين السلام العالمي..

قلت: هذه هي الحرب التي يسميها قومنا إرهابا.

قال: لا.. المجرمون دائما يقلبون الحقائق، فيتصورون أصحاب الدكاكين الذين يتصدون لمنعهم من سرقة دكاكينهم بخلاء ومجرمين..

هذا هو منطق الإجرام.. ولا ينبغي للعاقل أن يخضع لمنطق الإجرام.

قلت: فما منطق العقل في هذا؟

قال: إن الحرب التي يعلنها الإسلام لتأمين السلام العالمي هي التي يعبر عنها القرآن بالجهاد في سبيل الله، وهو لا يعني بذلك حرباً دينية لإكراه الناس على الإسلام.. وإنما يعني بها المعارك التي يخوضها الإسلام لتحرير الأمة من العدوان الخارجي، ولتأمين الحرية الدينية والعدالة الإجتماعية لجميع الشعوب..

وهاتان الغايتان هما اللتان عبَّرت عنهما الآية بصريح العبارة: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (لأنفال:39).. فدفع الفتنة وهو العدوان، وخلاص الدين كله لله أي الحرية الدينية لجميع الناس هما الغاية

التي ينتهي عندها القتال في الإسلام.

فـإذا كـف العـدو عن العـدوان وعن فتنـة الأمـة في دينهـا وعقيدتها لم يجز القتال ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.. وفي الآيـة الأخـرى:﴿ فَـإِنِ انْتَهَـوْا فَلاَ عُـدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة:193)

اسمع هذه الآيات لترى المقاصد الشريفة الـتي أمـر الإسـلام فيها بالجهاد:﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْـعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَـا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَـةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75)﴾ (النساء)

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْـرِهِمْ لَقَـدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَـا اللَّهُ وَلَـوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُـذْكَرُ فِيهَـا اسْـمُ اللَّهِ كَثِـيرًا وَلَيَنْصُـرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُـرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيزٌ (40)﴾ (الحج)

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ (النساء:76)

هذه أربع آيات من القرآن تتحدث عن الجهاد في سبيل اللـه، فلننظر ما هو هذا الجهاد في هذه الآيات؟

أما في الآية الأولى فتحث على الجهـاد لتحريـر المضـطهدين المظلـومين الـذين ضـاقت حيلتهم في دفـع الظلم والطغيـان عن أنفسـهم، فاسـتنجدوا باللـه أن يخـرجهم من الأرض الـتي طغى الظالمون فيها، وسألوه أن يجعل لهم أولياء ينصرونهم ويخرجونهم من هـذه المحنـة، فحـرّض اللـه المؤمـنين على تحريـر هـؤلاء المضطهدين بعد أن وصـف حـالهم بمـا يثـير الحميـة في النفـوس الأبية الكريمة.

أما الآيتان الثانيـة والثالثـة فتـدلان على أن الجهـاد في سـبيل اللـه حـرب دفاعيـة، ولـذلك جـاء تبريرهـا بـأنهم قوتلـوا وظلمـوا وأخرجوا من ديارهم وطوردوا في عقيدتهم، وعلى أن هـذا الجهـاد لتأمين الحرية الدينية وحماية أماكن العبادة لجميع الأديـان المنزلـة من عـدوان الملحـدين والمتعصـبين عليهـا:﴿ لَهُـدِّمَتْ صَـوَامِعُ وَبِيَـعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ والصـوامع هي أديـرة الرهبان، والبيع أماكن العبادة للنصارى، والصـلوات أمـاكن العبـادة

لليهود، والمساجد أماكن العبادة للمسلمين.

فـالغرض من الجهـاد في سـبيل اللـه - كمـا تـرى - صـيانة الكنيسة وأماكن العبـادة وفيهـا المسـاجد من عـدوان المتعصـبين، وليس الغـرض منـه مـا يقولـه قومنـا من أن يقـوم المسـجد على أنقاض الكنيسة، بل أن يقوم المسجد بجانب الكنيسة رمزاً لعبــادة الله في مختلف طرق العبـادة، ودليلاً على وحـدة الأهـداف العامـة بين ديانات السماء، ومصداراً للإشعاع الروحي والسمو الخلقي في الأمة.

أما الآية الرابعة.. فقد وضعت الحد الفاصل بين الحـرب الـتي يعلنها الإسلام وبين الحرب التي يعلنها أعداؤه عليه.. فالحرب التي يعلنها الإسلام حـرب في سـبيل الحـق والحريـة والعدالـة والسـمو الـروحي والخلقي.. أمـا الحـرب الـتي يعلنهـا أعـداؤه فهي حـرب طغيان وظلم واضطهاد، وما أبعـد دلالـة (الطـاغوت) على أهـداف الحرب العدوانية التي يقف الإسلام في وجهها.

قلت: فلم ارتبطت هذه الحروب بالله؟

قال: تنبيهـا للغايـة الشـريفة الـتي نهضـت لهـا.. فالجهـاد في سبيل الله جهاد في سبيل الغايات الكريمة الـتي قـامت من أجلهـا الشرائع، وتسعى إليها الإنسـانية الكريمـة في كـل عصـر.. هـو في سـبيل اللـه.. أي لا في سـبيل المـال ولا التهـديم ولا الاسـتعلاء ولا الغلبة ولا الأمجاد القومية أو الطائفية.. فمن سـعى إلى شـيء من هـذا لم يكن مجاهـداً في نظـر الإسـلام يسـتحق أجـر المجاهـدين وكرامة الشهداء.

سكت قليلا، ثم قال: اقرأ تاريخ محمد في حروبه لترى الأدلـة الواضحة القوية التي تثبت لك المعنى النبيل الذي خـاض من أجلـه محمد حروبه ومعاركه، فما أعلن محمد الحرب إلا بعد أن اضــطهد هو وجماعته في عقيدتهم، وأخرجوا من أوطانهم، فجـاءت معركـة بدر وما تلاها من معارك في سبيل الحريـة الدينيـة وإقـرار السـلام والأمن في ربوع الجزيرة العربية، ذلك السلام الذي حاربه الوثنيون من العرب فأحالوا بطاح مكة ورمالها إلى ميادين لتذبيح المؤمــنين وتعذيبهم ومطاردتهم في أرزاقهم وأوطانهم وأموالهم.

لقـد ظـل محمـد ثلاثـة عشـر عامـاً يصـبر ويـدعو إلى اللـه بالحكمـة، حـتى إذا لجت قـريش في طغيانهـا، وصـممت على وأد الــدعوة الجديــدة في مهــدها بقتــل محمــد وصــحابته، وهــاجر المسلمون إلى المدينة مستقر الدعوة والدين الجديد، بدأ الصــراع

بين القوة الجديدة التي تمثل الحق والتسامح والفضيلة والكمال في أروع صوره، وبين القوة الوثنية الطاغية التي تمثل العتو والكبرياء والطغيان في أبشع صوره ومظاهره..

الوفاء:

قلت: عرفت الخلق الأول من أخلاق الحرب في الإسلام.. فما الخلق الثاني؟

قال: الوفاء.. الوفاء هو الخلق الذي أمر الإسلام به في السلم والحرب، واعتبره نقطة فاصلة بين المؤمنين والمنافقين.

فمن أول سمات المؤمن الوفاء..

قلت: ما علاقة الوفاء بالسلام؟

قال: لو تأملت أكثر حروب العالم تجد سببها نقض العهود والمواثيق وعدم احترام الكلمة..

قلت: فهل حافظ الإسلام على هذا الخلق؟

قال: سأذكر لك النظام الذي فرضه الإسلام للحرب.. لتعرف من خلاله المدى الذي تقيد فيه المسلمون بالوفاء.. وتعرف من خلاله النظافة التي مارس بها المسلمون حروبهم.

فالحرب تبدأ حين تتأكد الأمة من نية العدوان والغدر لدى أمة من الأمم ضدها، وحينذاك يجب عليها أن تستعد بكل ما تملك من قوة لإرهاب هذا العدو الذي يتربص بها: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (لأنفال: 60) فهو استعداد للإرهاب لا للاعتداء، ولإرهاب أعداء الأمة لا أصدقاءها ومسالميها.

فإن كف العدو عن فكرة العدوان، وعدل عن الحرب وجب على الأمة أن تجنح للسلم وتدخل فيه: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (لأنفال:61)

فإن أبى العدو إلا الحرب والعدوان، فـ ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42)﴾ (الشورى).. ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (البقرة:194)

فإذا بدأت الحرب، فلتخفف ويلاتها بقدر ما يمكن، ولذلك جازت الخديعة في الحرب (الحرب خدعة)

قلت: كيف يجتمع الوفاء مع الخداع؟

قال: الخدعة المرادة هنا إحباط مناورات العدو وخططه وتثبيط عزيمته، فإن في ذلك إنهاء للحرب وإقرارا للسلام بأقل ما يمكن من الزمن، وأقل ما يقع من الضحايا.

فإذا لم تجد الخديعة والأساليب السياسية واضطر إلى الحرب.. فالإسلام يأمر المقاتلين بالثبات ليستمدوا عونهم من الله، وليذكروا الله كثيراً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (لأنفال:45)

ألا ترى كيف يأمر القرآن بذكر الله في حال القتال ليذكر المقاتلون أنهم لا يقاتلون رياء ولا حمية ولا ثأراً ولا استعلاءً وإنما يحاربون في سبيل الله..

وحين تشتعل نار الحرب يجب أن يذكر الجيش المحارب أنه يخوض حرباً دفاعية لتحرير الضعفاء والمضطهدين، فليضيق حدودها حتى لا يصطلي بنارها إلا من حمل السيف وبدأ العدوان، فلا تؤخذ أمة العدو كلها بجريرة جيشها أو فريق منها اعتدوا على أمتنا: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة:190)

وهنا يسمو الإسلام إلى منتهى ذروة الإنسانية حين يحرم قتل الشيخ الكبير والعاجز والمرأة والصبي ورجل الدين المنقطع للعبادة والفلاح والمسالم الذي لم يشترك في القتال.

فإذا رغب المحاربون في الصلح عند اشتداد المعركة أمر الإسلام المسلمين بأن يقبلوا الصلح منهم ولو أشرفوا على النصر، ثم الوفاء بما تم عليه العهد: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النحل:91)

فإذا بدا منهم بعد ذلك نية الغدر والخيانة فإن الإسلام ينهى عن مفاجأتهم بالقتال، بل لا بد من إخبارهم بانتهاء العهد بين المسلمين وبينهم وفسح المجال لهم ليستعدوا للحرب والقتال، وهذا هو النبذ الوارد في الآية: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (لأنفال:58)

وإذا انتهت المعركة باستسلام العدو وانتصار الأمة، فلا عدوان على الأعراض، ولا تخريب للمدن، ولا استلاب للأموال ولا إذلال للكرامات، ولا اندفاع وراء الثأر والانتقام، وإنما هو الإصلاح والتحرير والعدالة ونشر الخير ومكافحة الشر: ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ

فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (الحج:41)

فهذه الآية نص على ما يجب أن تفعله الأمة المنتصرة بعد انتهاء الحرب وهي أمور أربعة: إقامة الصلاة، وهي رمز لإشاعة السمو الروحي في العالم.. وإيتاء الزكاة، وهي رمز لتحقيق العدالة الاجتماعية في الشعوب.. والأمر بالمعروف، وهو رمز للتعاون على كل ما فيه خير الناس وأمنهم وسعادتهم.. والنهي عن المنكر، وهو رمز للوقوف في وجه الشر الذي يعجل بالحرب ويفوت على الناس السلام والأمان.

التفت إلي، وقال: هل رأيت في الكتب المقدسة تعاليم سامية مثل هذه التعاليم.. وهل رأيت في الأمم أخلاقا مثل هذه الأخلاق.

الرحمة:

قلت: عرفت الضرورة والوفاء.. فحدثني عن الرحمة.. وهل يمكن أن تجتمع الحرب والقتال مع الرحمة؟

قال: تتجلى الرحمة في الحروب التي شرعها الإسلام انطلاقا من الدوافع التي تدفع لها.. فالإسلام لم يشرع الحرب من أجل المال ولا الجاه ولا السلطان.. بل شرعها من أجل تحرير المستضعفين من نير المستكبرين.. ولهذا يخاطب القرآن وجدان الرحمة في الإنسان، فيقول: وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (النساء:75)

ولا تقف الرحمة الإسلامية عند هذا الحد.. بل تتعداه إلى المواقف المختلفة التي تتطلبها الحرب..

فعن الأسرى يقول القرآن: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (الانسان:8)

وفي الحديث يوصي محمد بالأسرى خيرا، فيقول: (استوصوا بهم (أي الأسرى) خيراً)

وقد أمر محمد المسلمين الذين أسروا ثمامة بن أثال قائلاً: (أحسنوا أساره، اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه)

وقد وضع القرآن قانونا للتعامل مع الأسرى جاء فيه: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ

لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (محمد:4)

إن هذه الآية تحوي رحمات عظيمة لا يمكن حصرها.. فهي تأمر بضرب الرقاب.. وهو حث على القتل المريح.. بدل إصابة المقتول بجراحات تظل تعذبه.

وهي تخير ولي الأمر في معاملة الأسرى بين المن (اطلاق السراح) أو أخذ العوض إما بالمال أو تبادل الأسرى وهو (الفداء)

ولا تقف الرحمة الإسلامية هنا.. بل إن الإسلام يحرم تحريما شديدا قتل الضعفاء وغير المقاتلين ويحرم التخريب.. فمحمد يقول للجيش: (لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا امرأة ولا تغلو ولا تقتلوا أصحاب الصوامع)

وهو ينهى عن التمثيل بجثث القتلى أو تعذيب الجرحى.. ففي الحديث: (إياكم والمثلة)

وقد أمر محمد بوضع جثث قتلى المشركين في بدر في القليب وهو بئر جاف، ونهى عن تعذيب الجرحى وقال: (لا تعذبوا عباد الله)

وهو بعد ذلك كله يتعامل بسماحة لا نظير لها مع المغلوب.. فبعد فتح مكة قال محمد لقريش: (أقول لكم ما قال أخي يوسف لإخوته، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء)

وهو ـ فوق هذا ـ يلتزم بكل حقوق الفقراء والعاجزين وذوي العاهات، من الأمم التي يسيطر عليها.

فنصوص القرآن التي تحتم إعالة البائسين والمحتاجين هي عامة شاملة لم تقيد بالمسلمين فحسب: وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (الاسراء:26).. ـ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (الذريات:19)

لقد ذكر جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) تلك الرحمة العظيمة التي امتلأت بها حروب المسلمين، فقال: (إن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد.. وقد عاملوا أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم غير فارضين سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم وحفظ الأمن بهم..

والحق إن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب)

وقال مونتجمري في كتابه (الحرب عبر التاريخ): (إن المسلمين كانوا يستقبلون في كل مكان يصلون اليه كمحررين للشعوب من العبودية، وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة فزاد إيمان الشعوب بهم)

قلت: هناك شبهة يثيرها الكثير في هذا المجال..

قال: اطرح ما تشاء من شبه.. فلن تعدو الشبه التي طالما رددتها.. ثم سرعان ما لاح لي الحق، فتراجعت عنها.

قلت: لقد قرأت لبعض الفقهاء من يذكر أنّ على الدولة المسلمة أن تخيّر الدول الأخرى بين الإسلام أو الجزية أو القتال.

قال: لقد بحثت في هذا.. وقد حاول هؤلاء أن يلووا أعناق بعض النصوص ليلزموها هذا الفهم الخاطئ..

لقد كتب محمد بعد أن استقرّ له الأمر في المدينة، رسائل إلى الملوك من حوله يدعوهم إلى الإسلام، وإلى الإيمان بالله وحده.. فكتب إلى قيصر ملك الروم، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس عظيم القبط، وإلى الحارث ملك تخوم الشام.. وطلب من هؤلاء الملوك أن يبلّغوا دعوته إلى شعوبهم، وإلاّ فإنّهم يتحمّلون إثم هؤلاء الناس.. وذلك بسبب ما كان معروفاً أنّ الملوك يمنعون شعوبهم أن يدينوا بغير دينهم.

ولم يرد في أي رسالة من تلك الرسائل أي تهديد بالقتال.. أو أي طلب للجزية.

***

ما وصل مكسيم رودنسون من حديثه إلى هذا الموضع حتى سمعنا أصواتا لمدافع كثيرة تصم لها الآذان، ثم لم نلبث حتى رأينا جيشا عرمرما يحيط بنا من كل جانب.. وهو يشهر أسلحته نحونا.

أمرنا بنزع ثيابنا، فنزعناها.. ثم أمرنا بالانبطاح أرضا، فانبطحنا.. ثم جاء بعض قساة القلوب، فطوقوا أيدينا، حتى كاد الدم يجمد في عروقنا.. ثم أمرونا بالسير معهم.. فسرنا..

كان الشاب المسكين ينظر ببراءة حزينة إلى حقل الزيتون.. وكأنه يودعه بدموعه.

أما صاحبي مكسيم، فكان يقذف في وجوههم كل ما حفظه في صغره من لعنات اليهود.

وأما أنا.. فكنت ألتفت خلفي لأرى ما سيحصل لحقل

الزيتون..

ما إن وصلنا إلى الشاحنة التي حملنا فيها كما تحمـل البضـائع حتى دخل رجل ضخم، هـو أشـبه بضـفدعة عملاقـة لبسـت لبـاس الإنسان.. كان يحمل في فمه سيجارة هي أشبه بالقنبلة.. ما دخـل إلى حقـل الزيتـون حـتى رماهـا.. فـإذا بـالنيران تشـتعل من كـل جانب..

في ذلك الحين الذي اجتمعت فيه الأحقاد على حقل الزيتــون تـذكرت محمـدا.. وزيتـون محمـد.. فبكيت بكـاء حـارا على افتقـاد البشرية لتلك المعاني الجميلة التي عاشها محمد، وبشر بها..

ومع تلك الدموع الحارة تنزلت علي أشعة جديدة اهتديت بهـا بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

سابعا ـ نظام

في اليـوم السـابع من تلـك الأيـام العشـرة المباركـة، التقيت المستشـرقة الـتي قطفت على يـدها ثمـرة النظـام من شـجرة النبوة..

وهي الثمـرة الـتي عـرفت بهـا سـر قولـه تعـالى: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُـونَ (المائـدة: 50)

وسـر قولـه تعـالى: وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْـكَ فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيـدُ اللَّهُ أَنْ يُصِـيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُـوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِـيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (المائدة:49)

وسر قوله تعالى: وَمَا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـةٍ إِذَا قَضَـى اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَمْـراً أَنْ يَكُـونَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ مِنْ أَمْـرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (الأحزاب:36)

فهذه النصوص المقدسة تبين ثمرة طيبة من ثمـرات النبـوة، هي تلك الأحكام العظيمة التي جاء بها لإسـلام لتنظم حيـاة البشـر وفق قوانين العدل والرحمة.

***

كـان من جملـة الأسـماء الـتي كتبت في دفـتر المرشـد المستشـرقة (هيلين كـارير دانكـوس)(1) Helene Carrere d' Encansse، وقد كنت محتـارا في كيفيـة الاتصـال بهـا للتعـرف على

1) هي المستشـرقة (هيلين كـارير دانكـوس) Helene Carrere d' Encansse.. باحثـة فرنسية معاصرة، وهي واحدة من أبرز الخبراء في شـؤون (الماركسـية الآسـيوية)، وقـد صدر كتابها (القوميات والدولة السوفياتية) في باريس عـام 1987 فأثـار ضجة مـا تـزال مستمرة وترجم فورًا إلى عدد من اللغات الحية.

ولها شهادات كثيرة للإسلام تتعلق بنظامه الاجتماعي، وقدرته على الصمود، ومن ذلك قولها:(.. أن جميع المعلومات [السوفيتية الرسمية] تتضافر لتـوحي بـأن الإسـلام يحتضـر ببطء في الاتحاد السوفيتي، مع احتضار الجيل الذي لم ينشأ على الإيديولوجية السوفيتية. ولكن معلومات مضادة لا تلبث أن تناقض هذه الصورة، فالتحقيقات الاجتماعية المتزايدة في الاتحاد السوفيتي حـول هـذا الموضـوع، تـبين أن المجتمـع الإسـلامي لا يـزال متعلقًـا بمعتقداته، وأن ما يقارب نصف الأشخاص الـذين جـرى اسـتجوابهم في الوسـط الـريفي صرحوا بتمسكهم بالإيمان. وعلى سبيل المثال نورد تحقيقًا أجري عـام 1972 بجمهوريـة كاراكالبك الملحقة بأزبكستان، وقد دلّ هذا التحقيق على أن 23 بالمائة من الرجـال و20 بالمائة من النساء يعلنون عن إلحادهم، فيكـون 77 بالمائـة من الـذكور و80 بالمائـة من الإناث مؤمنين.. وفي شـمال القوقـاس أعلن 20 بالمائـة فقـط من السـكان عن كـونهم ملحدين (عام 1974).. [هـذا رغم] أن البـاحثين في الأوسـاط الإسـلامية يلحظـون غالبًـا تحفظًا من قبل السكان في الكشف عن حقيقة إيمانهم)

سـر وضـعها في ذلـك الـدفتر إلى أن علمت أن لهـا مزرعـة في ضواحي باريس، وعلمت أنها تشرف بنفسها عليها أيام العطل.

فاخترت يوما من أيام العطلـة الأسـبوعية، وذهبت مـع فريـق من التجار قصدوا مزرعتها لشراء بعض الخضر منها.

كانت هي المشرفة على البيع..

وقد اسـتغللت الفرصـة لأتحـدث معهـا بعـد أن رأيتهـا تقسـم الخضر قسمين: الخضر الجيدة، والخضر الرديئة.

قلت لها: أنا متعجب من وجود خضر رديئة في هذه المزرعـة التي توفرت لها كل أسباب الحيـاة.. لقـد كـان الأصـل أن لا تكـون هناك أي ثمرة رديئة.

التفتت إلي، وقالت: صدقت.. ذلـك مـا أقولـه دائمـا للفلاحين الذين يزالون أعمالهم في هذه المزرعة..

قلت: فهل بحثت عن سر الرداءة والجودة؟

قالت: أجل.. لقـد قمت ببحث معمـق لـذلك.. لا لأجـل هـذه المزرعة.. ولا لأجل ما أجنيه منها من مال.. ولكن لأجل أمر أخطر.

قلت: أمر أخطر.. ما هو؟

قالت: أنا أرى الفطرة النباتية هي الفطرة التي انطلقت منها فطرة الإنسان.. ولذلك فالانحراف الـذي يحصـل في عـالم النبـات قد يحصل مثله في عـالم الإنسـان، وأسـباب الانحـراف قـد تكـون نفسها.

ومن أقوالها التي جعلتنا نختارها للحوار معها في هـذه الفصـل قولهـا:(هنالـك خاصـية ثانية للإسلام تزيد الوضع [في الاتحاد السوفيتي] تعقيدًا فهو، على نقيض المسيحية الـتي تفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا، يجمع بين المجالين. فالعقيـدة الإسـلامية، وهي ثمـرة القرآن والسنة، تفرض على المؤمـنين وجـود مؤسسـات خاصـة، مهمتهـا الإشـراف على الحياة الاجتماعيـة. والدولـة السـوفيتية، في برنامجهـا التأحيـدي [الـذي يسـتهدف فـرض إيدلوجيــة واحــدة] لم يكن باســتطاعتها أن توافــق على وجــود نظــام خــاص للطائفــة الإسلامية، فألغت في أوائل سني استلامها السلطة، العناصـر الأساسـية فيـه، أي النظـام القـانوني والمؤسسـات الشـرعية والأسـس الماليـة المعتمـدة. وبعـد أن جعلت الديانـة الإسلامية ديانة أفراد معينين لا ديانة طائفة، وبعد أن حرمت من مؤسساتها، ونزعت منها أمور الدنيا، هل بقي لها وجود منظم أم هي أضحت هيكلاً لا يلبث أن يتفتت مع غياب آخر فوج من المؤمنين؟ هنالك وقائع كثيرة وساطعة تشهد بأن التشاؤم فيما يتعلق بمسـتقبل الإسلام كان يمكن القبول به في الماضي القريب، ولكنه اليوم لم يعد له من أساس، بـل على العكس، فهذه الوقائع توحي بأن الإسلام يبعث من جديد، وفي ظـروف جديـدة، وأن هــذا البعث المرتكــز إلى وجــود واع وإرادي لا إلى وجــود اســتمراري، تدعمــه وتوجهــه المراجع الإسلامية العليا)

ومن أقوالها:(نجد في صـحف الجمهوريـات الإسـلامية عـدة إشـارات.. يفهم منهـا أن التضامن الإسلامي [في الاتحـاد السـوفيتي] بـات في ازديـاد، وأن المؤمـنين أضـحى لهم تأثير متصاعد على السكان غير الممارسـين لـدينهم) (انظـر: كتابهـا (القوميـات والدولـة السوفييتية)، ص 143 فما بعدها،وانظر: قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل)

قلت: هذا قياس جيد، وقد سمعت بعضهم يعتبره(1).. فكيف عبرت من النبات إلى الإنسان؟

قالت: ذلك سهل.. لقد وجدت أن جودة النبات تعتمد على ثلاثة أمور: جودة البذور، وجودة الوسط الذي تتغذى منه النبتة، ورعاية الفلاح.

قلت: هذا بالنسبة للنبات.. فكيف عبرت منه إلى الإنسان؟

قالت: البذور هي البشر.. فكل إنسان بذرة ستخرج في يوم من الأيام ثمراتها التي قد تكون طيبة، وقد تكون خبيثة.

والوسط الذي تتغذى منه النبتة وفيه تعيش هو وسطها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي..

والفلاح الذي يقوم برعاية النبتة يمثل المسؤولين على المجتمع من الساسة وغيرهم.

قلت: هذا كلام طيب.. وهو كلام فلاسفة وعلماء، لا كلام فلاحين.

قالت: أعرفك بنفسي.. أنا هيلين كارير دانكوس.. مهتمة بالنظم التي تحول الأرض إلى مزرعة طيبة، وتحول البشر إلى ثمار طيبة.. وهذه المزرعة هي حقل تجاربي.

قلت: أهناك نظم حاولت أن تحول البشر إلى ثمار طيبة؟

قالت: أجل.. كل النظم حاولت أن تفعل هذا.

قلت: ليس المهم المحاولة.. ولكن المهم النتيجة.. هل أثمرت مزارع هذه النظم ثمارا طيبة؟

قالت: كل المزارع أثمرت غسلينا وحنظلا وزقوما..

قلت: أأنت متشائمة من مزارع البشر.. فلذلك لجأت إلى مزارع الخضر!؟

قالت: أنا متشائمة ومتفائلة في نفس الوقت.

قلت: كيف يستقيم ذلك؟

قالت: لأن هناك من البشر من زرع مزرعة طيبة لا تزال بعض آثارها تملؤني بالتفاؤل.

قلت: فهل خربت تلك المزارع؟

قالت: لقد اجتمع الإنس والجن على تخريبها.. لكني أشعر أن لها مقاومة ذاتية.. وستنهض تلك المزرعة من جديدة.. فلذلك تجد تفاؤلي يغلب تشاؤمي.

قلت: أي مزرعة تلك التي استطاعت أن تقضي على

---

1) انظر: فصل (الإنسانية) من هذه الرسالة.

تشاؤمك؟
قالت: مزرعة محمد..
قلت: ذلك النبي البدوي الذي ظهر في جزيرة العرب!؟
قالت: بـل ذلـك النـبي الـذي أعطى الحلـول لكـل مشـكلات العالم.. ووضع له من النظم ما يملؤه بالسلام والسكينة والسعادة.
قلت: فكيف وصلت إلى هذه النتيجة؟
قالت: ذلك بحث طويل.. لقد طفت خلالـه النظم والمـدارس والفلسفات والأفكار أبحث عن نظام يتناسب مع فطـرة الإنسـان، ويغطي جميع احتياجاته، فلم أجده إلا عند محمد.. ولم أجده إلا في الإسلام(1).
قلت: فهل ستحدثيني عن نتيجة أبحاثك؟
قالت: يسرني ذلك.. ولكن قبل أن أحدثك عن مزرعة الثمـار الطيبة، سأحدثك عن بعض مزارع الثمار الخبيثة.
قلت: تقصدين مزارع الجاهلية.
قالت: أجل.. فلا يعـرف الإسـلام من لا يعـرف الجاهليـة.. ولا يعرف الثمرة الطيبة من لم يذق الثمرة الخبيثة.

نظم الجاهلية

قلت: بأي ثمرة خبيثة تودين أن نبدأ؟
نظـرت إلى مزرعتهـا بأسـى، وقـالت: بـالثمرة الطيبـة الـتي حولها المجرمون والدجالون والسحرة إلى ثمرة خبيثة.
قلت: من تقصدين؟
استمرت في كلامهـا، وكأنهـا لم تسـمعني.. وراحت تقـرأ من الكتـاب المقـدس: (احـترزوا من الأنبيـاء الكذبـة يـأتونكم بثيـاب الحملان الوديعة، ولكنهم من الـداخل ذئـاب خاطفـة.. من ثمـارهم تعرفونهم، هل تجتنون من الشوك عنبا، أو من الحسك تينـا.. هكـذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأمـا الشـجرة الرديـة فتصـنع أثمارا ردية) (إنجيل متى:7:15-17)
نظرت إلي، وقالت: لقد كان المسيح يقصـدهم.. بـل لم يكن يقصد غيرهم.
قلت: من؟
قالت: أولئك الدجالون الـذين حولـوا المسـيحية إلى مزرعـة تنتج السموم.

---

1) انظـر التفاصـيل المرتبطـة بهـذا والشـبهات المثـارة حولـه في رسـالة (عدالـة للعالمين) من هذه السلسلة.

قلت: نحن نقارن بين النظم لا بين الأديان.. وقد تبرأت المسيحية من السياسة من أيام المسيح.. لقد جاء في الإنجيل: (ذهب الفريسيون وتشاوروا لكى يصطادوه (أى السيد المسيح) بكلمة، فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين: يا معلم؟ إنك صادق وتعلم طريق اله بالحق ولا تبالى بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس فقل لنا ماذا تظن؟ أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجربوننى يا مراءون؟ أرونى معاملة الجزية. فقدموا له ديناراً فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا له: لقيصر؟ فقال لهم: أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر، وما لله لله؟ فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا)(انجيل متى: 23: 14 – 23)

المسيحية

قالت: ذلك على المستوى النظري.. أما على المستوى الواقعي، فقد أتيح للمسيحية أن تكون نظاما من النظم الحاكمة في المجتمع.. لقد أتيحت لها فترة كافية لتبين كيف يحكم أولئك الرجال الذين يمثلون المسيح.

قلت: فكيف كان حكمهم؟

قالت: قبل أن تعرف كيف كان حكمهم اعرف كيف كانوا.. فقد تقع البذرة الطيبة في يد الفلاح الخبيث، فيملؤها بالعطش والجوع الذي يميتها، أو قد يلقح أغصانها ببعض السموم لتتحول ثمارها إلى سموم.

قلت: فكيف كان أولئك الذين خلفوا المسيح؟

قالت: أتعرف الألقاب التي لقب بها المسيح أحبار اليهود؟

قلت: أجل.. لقد كان يسميهم (بائعي العهد، أولاد الأفاعي، عباد الدنيا)

قالت: لقد كانت هذه الأوصاف تنطبق تمام الانطباق على أولئك الفلاحين من رجال الدين الذين كلفوا بتنمية بذور البشرية.

لقد عبد أولئك القسيسون والرهبان الدنيا كما عبدها أحبار اليهود.. لقد سلكوا الطريق نفسها، وانصاعوا إلى الدنيا مستعبدين أتباعهم المؤمنين، وساعد وجودهم ضمن الإمبراطورية الرومانية على تثبيت مراكزهم وتدعيمها، ذلك بأنهم اقتبسوا من الأنظمة والهياكل السياسية للدولة فكرة إنشاء أنظمة وهياكل كهنوتية، وكما كانت هيئة الدولة تمثل هرماً قمته الإمبراطور وقاعدته الجنود، كانت الهيئة الكنسية تمثل هرماً مقابلاً قمته البابا وقاعدته

الرهبان.. ونتيجة لمبدأ فصل الدين عن الدولة رعت الإمبراطورية الهرم الكنسي، ولم تر فيه ما يعارض وجودها فرسخ واستقر(1).

لقد ذكر المؤرخ الإنجليزي (ويلز) في معرض حديثه عن الفرق بين مسيحية المسيح ومسيحية الكنيسة أن تعاليم يسوع الناصري تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذي ابتدأ بظهور الأنبياء العبرانيين، وهي لم تكن كهنوتية، ولم يكن لها معبد مقدس حبساً عليها ولا هيكل، ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس، وكان قربانها (قلباً كسيراً خاشعاً)، وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة من الوعاظ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة.

بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجيل كنواة لها، كانت في صلبها ديانة كهنوتية من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف السنين، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة والعمل الجوهري في العبادة فيها القربان الذي يقربه قسيس متكرس للقداس، ولها هيئة تتطور بسرعة مكونة من الشمامسة والقساوسة والأساقفة(2).

التفتت إلي، وقالت: أتدري السر في ظهور هذا الهرم الكنسي الذي سيطر على بذور البشرية ليحولها عبيدا عند هؤلاء الوسطاء؟

قلت: ما هو؟

قالت: (التوسط بين الله والخلق).. لقد اعتبر رجال الكنيسة أنفسهم وسائط بين الله والخلق..

قلت: في الإسلام يوجد هذا أيضا.. فلا بد للمؤمن أن يذهب إلى رجل الدين ليعلمه شعائر الدين.

قالت: لا حرج في هذا النوع من الوساطات.. بل هو موجود في كل مناحي الحياة، لا في الدين وحده.. ولكن الوساطة التي ادعاها رجال الدين المسيحي متبعين فيها سنن من قبلهم من الوثنيات هي أن يوسطوا رجل الدين بينهم وبين الله.

لقد ذكر القرآن هذا.. ونبه إلى خطورته، فقال: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:31)

وقد ورد في الحديث عن عدي بن حاتم: أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية،

---

1) انظر: العلمانية، سفر الحوالى، ومذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.. وغيرها من المراجع التي تؤرخ للعلمانية.

2) معالم تاريخ الإنسانية 3: 720.

فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثمَّ منَّ رسول اللـه ﷺ على أختـه وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، ورَغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عَدِيّ المدينة، وكان رئيسـا في قومـه طـيئ، وأبـوه حـاتم الطـائي المشـهور بـالكرم، فتحـدَّث النـاس بقدومـه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عَدِيّ صليب من فضة، فقــرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـانَهُمْ أَرْبَابـاً مِنْ دُونِ اللَّهِ قـال: فقلت: إنهم لم يعبـدوهم. فقـال: (بلى، إنهم حرمـوا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إيـاهم) (1)

لقد وقع هذا الذي أخبر به محمد.. وأخبر به قبله القرآن..

لقد نصب رجال الدين أنفسهم أنداداً لله، وقد ترتب على هذا آثار سيئة للغاية أخطرها احتكار رجال الدين لحـق قـراءة وتفسـير الإنجيــل، ثم مهزلــة صــكوك الغفــران، ثم الانشــقاقات الدينيــة المتوالية التي دمرت الحياة بصفة عامـة، وأخـيراً كـان هـذا المبـدأ إحدى الحجج التي سلها ملاحدة القرن السابع عشـر فمـا بعـد،في وجه الأديان عامة والمسيحية خاصة.

يقـول العـالم الفرنسـي الـذي اعتنـق الإسـلام (ناصـر الـدين دينيه): (الوسيلة هي إحدى كبريات المسائل التي فاق بها الإســلام جميع الأديان، إذ ليس بين اللـه وعبـده وسـيط وليس في الإسـلام قساوسة ولا رهبان، إن هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الأديــان وإنهم لكذلك مهما كـانت عقيـدتهم ومهمـا كـان إخلاصـهم وحسـن نياتهم، وقد أدرك المسيح نفسه ذلـك، ألم يطـرد بـائعي (الهيكـل) غير أن أتباعه لم يفعلوا مثلمـا فعـل، واليـوم لـو عـاد عيسـى فكم يطرد من أمثال بائعي الهيكل؟

ويقول: (كذلك ما أكثر البلايا والمصائب، بل مـا أكـثر المـذابح والمجـازر الـتي يكـون سـببها هـؤلاء الوسـطاء، سـواء كـانت بين العـائلات وبعضـها أو بين الشـعوب والشـعوب، وهم في ذلـك كلـه يصيحون: باسم مجد الله)(2)

قلت: ولكن النصوص الدينية المقدسة تـدل على هـذا.. فقـد قال المسيح لبطرس كبـير الحـواريين: (أنت بطـرس، وعلى هـذه الصخرة ابن كنيسـتي، وأبـواب الجحيم لن تقـوى عليهـا، وأعطيـك مفـاتيح ملكـوت السـموات، فكـل مـا تربطـه على الأرض يكـون

1) رواه الترمذي، وقال:(هذا حديث غريب، لا نعرفـه إلا من حـديث عبـد السـلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

2) أشعة خاصة بنور الإسلام:23.

مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات)(متى: 16: 19 – 20)

فهذا النص يدل على أن المسيح قد جعل السلطة الدينية المهيمنة باسمه في الموضع الذي يموت فيه كبير الحواريين بطرس، ومن ذلك المركز تمد أجنحة نفوذها على العالم أجمع، وتحكمه باسم المسيح، وبما أن بطرس ـ كما تقول الكنيسة ـ مات في رومة فإن رومة هي قاعدة المسيح لحكم العالم، وفيها مقر الكنيسة التي يرأسها ممثل المسيح ورسوله (البابا) المعصوم عن الخطأ، وكل ما تقرره الكنيسة هذه هو عين الصواب، إذ أن المسيح بواسطة الروح القدس هو الذي يملى عليها تصرفاتها، ومادام أنها تعمل باسم الله وتحل وتبرم حسب مشيئته، فطاعتها واجبة وقراراتها إلزامية لكل المؤمنين بالمسيح وليس على الأتباع إلا الطاعة العمياء والانقياد الذي لا يعرف جدلاً أو نقاشاً..

كنت أقول هذا على حسب ما حفظته من غير شعور، فقاطعتني، وقالت: والذنب الذي لا يغتفر هو أن تصادم أوامر الله، التي هي أوامر الكنيسة، بواسطة العقل البشرى أيا كان صاحبه، والخارج على سلطة الكنيسة أو الناقد لقرارات مجامعها كافر مهرطق تحل عليه اللعنة والحرمان من دخول الملكوت مهما بلغت وجاهة رأيه، بل مهما كانت سوابقه وخدماته للمسيحية وللكنيسة نفسها.

أما إذا كان المتمرد على الكنيسة وسلطتها حاكماً أو شعباً، فإن الجيوش المقدسة ستسحقه بأقدامها، إرضاء للمسيح.

قلت: أجل.. هذا ما تقوله الكنيسة مستندة في ذلك إلى ما تفهمه من الكتاب المقدس.. وما تفهمه من قول المسيح.

قالت: وهذا الفهم هو الذي تحول إلى واقع تاريخي عاد بأسوأ النتائج على أوروبا والعالم أجمع.. بل لا نزال نصلى ناره إلى الساعة.

وأنا لا أتصور أن المسيح ذلك الرجل العظيم الممتلئ تواضعا وعبودية وأدبا يمكن أن يقول هذا.. لقد قال القرآن: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (آل عمران:79-80)

لقد سخر الكاتب الأمريكي (جرين برنتن) من استدلال

الكنيسة بتلك الفقرات وأرجع السبب في وقـوع الكنيسـة في هـذا الخطأ إلى التشابه الشكلي بين لفظي (بطرس) و(صخرة)(1)

بالإضافة إلى ذلك.. فإنا لو راجعنا إنجيل متى الـذي أورد هـذا الافتراء لوجدنا المسيح بعد ثلاث فقـرات من هـذا القـول يخـاطب بطرس قائلاً: (اذهب عنى يا شيطان، لأنك لا تهتم بما الله لكن بمـا للناس) ... فكيف يتسق هذا الوصف وهذه التهمة مع الهبة السـابقة والتكريم الذي لا حد له؟

قلت: فهمت هـذا ووعيتـه.. ولكنـا لا نسـتطيع أن نحكم على رجال الدين من غير نظر إلى سلوكهم..

قالت: إن الجرائم التي ارتكبهـا رجـال الـدين باسـم بطـرس والمسيح والكنيسة لا عداد لها.. ولذلك سـأكتفي بـأن أسـردها لـك سردا لتعلم التشويه الخطـير الـذي لحـق بـذور البشـرية ومزرعـة البشرية إبان حكم أولئك الفلاحين من رجال الكنيسة.

أولهـــا مســـاندة الكنيســـة للظلم السياســـى والاقتصـــادى والاجتماعى المتمثل فى الإقطـاع الـذي عـانت منـه أوروبـا معانـاة عظيمة..

فقد أصبحت الكنيسـة ــ بفضـل الهبـات والإتـاوات والعشـور والهدايا والغصب والنهب والتدليس وغير ذلـك من الوسـائل ــ من ذوات الإقطاع.. بل كـانت أملاكهـا فى بعض الأوقـات تفـوق أملاك الأباطرة وأمراء الإقطاع.

ومن ثم فقد تحدد موقفها من القضايا السياسية والاقتصـادية والاجتماعية، فوقفت فى صف الظلم تسانده وتذود عنـه وتحـارب حركات الإصلاح.. وكانت فى ذلك منطقية مع وضعها باعتبارهـا من كبـار الملاك.. فهـل كـان يمكن – عقلا – أن تحـارب الإقطـاع وهى جزء منه، بل من أكبر ممثليه!؟

نظــرت إلى مزرعتهــا.. وابتســمت، وراحت تقــرأ: (من أراد الملكوت فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير عليـه).. (مرور جمل من ثقب إبرة أيسـر من أن يـدخل غـنى إلى ملكـوت الله)(مرقص 10: 22 ومتى 19: 25ـ (لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في منـاطقكم ولا مـزوداً للطريـق ولا ثـوبين ولا أحذيـة ولا عصاً) (متى 10: 10-11، ومثله لوقا 9: 4-10)

قلت: هـذه هي الفضـائل المسـيحية.. فكيـف تـزعمين أن

---

1) وذلك أن اسم بطرس هو "peter" ولفـظ "pert" يعـنى صـخرة.. في تـاريخ أوروبـا الوسطى: 1/107.

الكنيسة كانت بعيدة عنها؟

قالت: هذا هو الأفيون الـذي كـان يطعم بـه رجـال الكنيسـة بذور الرعية لتظل في نومها وسباتها لا تثمر ثمـرا، ولا تنتج إنتاجـا.. أما رجال الكنيسة أنفسهم فقد كانوا في عالم آخر..

يقـول (كرسـون) فى كتـاب (المشـكلة الأخلاقيـة): (كـانت الفضـائل المسـيحية كـالفقر والتواضـع والقناعـة والصـوم والـورع والرحمة، كل ذلك كـان خـيرا للمؤمـنين وللقسيسـين وللقديسـين وللخطب والمواعـظ. إمـا أسـاقفة البلاط والشخصـيات الكهنوتيـة الكبـيرة فقـد كـان لهم شـئ آخـر: البـذخ والأحـاديث المتأنقـة مـع النساء والشهرة فى المجالس الخاصة والعجلات والخـدم والأربـاح الجسيمة والموارد والمناصب)(1)

ويقول (ول ديورانت): (أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضـى وأكـبر السـادة الإقطـاعيين فى أوروبـا، فقـد كـان ديـر (فلـدا) مثلا يمتلك خمسة عشر ألـف قصـر صـغير، وكـان ديـر (سـانت جـول) يملك ألفين من رقيـق الأرض، وكـان (ألكـوين فيتـور) ــ وهـو أحـد رجال الدين ـ سدا لعشرين ألفا من أرقاء الأرض، وكان الملـك هـو الذى يعين رؤساء الأساقفة والأديرة، وكانوا يقسـمون يمين الـولاء كغيرهم من الملاك الإقطاعيين، ويلقبون بالدوق والكـونت وغيرهـا من الألقاب الإقطاعية.. وهكذا أصبحت الكنيسة جـزءا من النظـام الإقطاعى..

وكـانت أملاكهـا الزمنيـة، أى الماديـة، وحقوقهـا والتزاماتهـا الإقطاعية مما يجلل بالعار كل مسـيحى متمسـك بدينـه، وسـخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الـدين، ومصـدرا للجـدل والعنـف بين الأباطرة والبابوات)(2)

وكانت مصـادر تلـك الأملاك متعـددة، فمنهـا الأوقـاف، ومنهـا العشور، ومنها الهبات ومنها الضرائب، ومنها السخرة.

فأما الأوقاف فقد كانت الكنيسة تستولى على أراض زراعيـة واسعة وتوقفهـا على نفسـها لتنفـق منهـا على الأديـرة والكنـائس وتجهيز الجيوش للحروب الصليبية أو الحروب التأديبيـة الـتى تقـوم بهـا ضـد الملـوك والأبـاطرة الخـارجين على سـلطانها.. وفى ذلـك يقول ويكلف، وهـو من أوائـل الـذين ثـاروا على الفسـاد الكنسـى وطالبوا بالإصلاح الشامل: (إن الكنيسة تملك ثلث أراضى إنجلـترا،

---

1) المشكلة الأخلاقية ص 167.

2) قصة الحضارة ج 14 ص 425.

وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقى)[1]

لم تكتف الكنيسة بذلك.. بل فرضت على اتباعها أن يدفعوا إليها عشر أموالهم ضريبة سنوية لا يملكون التملص منها تحت وطأة التهديد بالحرمان وغضب الرب.

يقول ويلز: (كانت الكنيسة تجبى الضرائب، ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها، وهى لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه عملا من أعمال الإحسان والبر، بل طالبت به كحق)[2]

ولم تكتف الكنيسة بذلك.. بل راح البابا يوحنا الثانى والعشرون يفرض ــ بالإضافة إلى ذلك ــ ضريبة جديدة سميت (ضريبة السنة الأولى)، وهى دخل السنة الأولى لأية وظيفة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية يدفع إلى الكنيسة بطريق الإجبار.

أما الهبات، فهى هبات فى ظاهر الأمر فقط، ولكنها ــ في الحقيقة ـ تؤخذ بالإحراج والتوريط، والترغيب والترهيب، وخاصة الهبات التى تمنح للكنيسة فى الوصايا التى يكتبها الناس قبل موتهم.. فقد فرضت الكنيسة على الناس ألا يكتبوا وصاياهم إلا على يد القسيس.. وما دام القسيس حاضرا وقت كتابة الوصية فقد أصبح الواجب ــ من باب المجاملة على الأقل _ أن يهب الوصى شيئا من ماله للكنيسة حتى لا يكون مجافيا للذوق، أو حتى يتحاشى ما هو أخطر من ذلك: غضب الأرباب المؤدى إلى غضب رب الأرباب.

أما السخرة فقد كانت الكنيسة تفرضها على رعاياها بالعمل يوما واحدا فى الأسبوع بالمجان فى أراضى الكنيسة الواسعة، فيعمل التعساء ستة أيام فى الأسبوع ليجدوا خبز الكفاف لهم ولأسرهم، ثم يعملون اليوم السابع ــ يوم الراحة ــ سخرة فى أراضى الكنيسة لكى توفر الأخيرة أجور العمال التى كان المفروض أن تدفعها لقاء زراعة إقطاعياتها الواسعة وجنى حاصلاتها وتزداد بذلك اكتنازا وضراوة فى طلب المزيد من المال.

لقد كان من السهل على الكنيسة أن تمارس ذلك الطغيان المالى وهى تملك ذلك النفوذ الطاغى على أرواح الناس وعقولهم، فما هى إلا أن تصدر الأمر، فيطيع العبيد صاغرين.

قلت: عرفت هذا النوع من الطغيان.. فهل هناك غيره؟

---

1) فشر: تاريخ أوروبا ج 2، ص 362.
2) معالم تاريخ الإنسانية ج 3 ص 895.

قالت: لقد جرهم هذا النوع من الطغيان إلى أنواع أخرى لا تقل شأنا عن هذا النوع.

لقد اغترت الكنيسة بتلك القلوب الطيبة من العامة البسطاء الذين يسلمون لها بكل ما تقوله، ويسلمون لها كل ما تطلبه، فراحت تستعبدهم بطريقة أخرى.. لا شك أنك تعرفها.

قلت: ما الذي تقصدين؟

قالت: صكوك الغفران.. لا شك أنك سمعت بها.

قلت: أجل.. ولكنه لم يعد لها الوجود الآن..

قالت: تلك قصة أخرى.. ولنبدأ القصة من أولها.. ألسنا نريد أن نعرف نوع النظام الذي تبنته الكنيسة في حكمها.

قلت: أجل..

قالت: فلا مناص لنا إذن من التعرف على مفردات برنامجها الذي حكمت به لنقيمه وفق المنطق والعقل والواقع (1).

لقد صارت الكنيسة توزع الجنة، وتعرضها للبيع في مزاد علني، وتكتب وثائق للمشترين تتعهد فيها بأن تضمن للمشترى غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبراءته من كل جرم وخطيئة سابقة ولاحقة ونجاته من عذاب المطهر، فإذا ما تسلم المشترى صك غفرانه ودسه في محفظته فقد أبيح له كل محظور وحل له كل حرام.. فلا حرج عليه لو سرق أوقتل.. بل لو جدف وألحد وكفر ما دم الصك رهن يده.. أليس المسيح هو الذي منحه إياه، والمسيح هو الذي يدين ويحاسب؟

فإذ اطمأن المشترى إلى هذه النتيجة فقد بقى لديه ما ينغص الفرحة ويكدر الغبطة ذلك أن والديه وأقرباءه قد ماتوا وليس معهم صكوك.

لكن الكنيسة الأم (الرؤوم لكل المسيحيين) شملت الكل برحمتها، فأباحت له أن يشترى لمن أحب (صك غفران) وما عليه بعد دفع الثمن إلا كتابة اسم المغفور له في الخانة المخصصة، فيغادر المطهر فوراً ويستقر في ظلال النعيم مع المسيح والقديسين.

أما الشقي النكد عديم الحظ فهو ذلك القن الذي لم يستطع أن يحصل من سيده الإقطاعي (المغفور له) على ما يشترى به صكاً من قداسة البابا أو المريض المقعد الذي لا يجد عملاً يخول له

---

1) انظر في هذا المراجع السابقة.. وخصوصا العلمانية لسفر الحوالى، ومذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب.

الحصول على المغفرة، أو الفقير المعدم الذي يعجـز عن اسـتدانة دينارين يشترى بها جنات النعيم، هؤلاء يظلون محـرومين من هـذه الموهبـــة مهمـــا بلغت تقـــواهم وعظم حبهم للمســـيح وتعلقهم بالعذراء.

نظرت إلي، وقالت: أتدري ما الأساس الذي بنيت عليـه هـذه المهزلة؟

قلت: أنا أعلم أن الأناجيـل والرسـائل خاليـة ممـا يـدعمها أو يدل عليها..

قالت: إنـه مبـدأ التوسـط بين اللـه والخلـق.. فقـد أصـبحت وظيفـة رجـل الـدين هي التوسـط بين اللـه وخلقـه.. فعن طريقـة تؤدى الصـلاة ويتنـاول العشـاء الربـاني وهـو الـذي يقـوم بالتعميـد وبمراســم وطقــوس الــزواج والمــوت ويتقبــل الاعترافــات من المذنبين.

وفي الوقت الذي كان رجـل الـدين فيـه يتقبـل الاعـتراف لم يكن ليدعي حق المغفرة من نفسه لكن المسيح ـ بزعمـه ــ يغفـر لمن أقر بذنبـه بين يـدي أحـد أتبـاع كنيسـته الـتي أورثهـا سـلطانه وفرض لها السيادة على العالمين.

وكان الفرد المسيحي يستطيع ضمان الملكـوت مـع المسـيح باعتراف واحد في العمر هو اعتراف سـاعة احتضـاره، إذ يتم دهن جسده بالزيت المقدس، فيتطهر من كل الأرجاس والذنوب، وكـان من العقوبـات الصـارمة الـتي تتخـذها الكنيسـة ضـد مخالفيهـا من الشعوب أو الأفراد حرمانهم من الاعتراف الأخـير والصـلاة عليهم، فلا يشك مسيحي أنهم ذهبوا إلى الجحيم بسبب ذلك.

واسـتمر الحـال على ذلـك فـترات طويلـة حـتى كـان مطلـع القرن الثـالث عشـر الميلادي حيث كـانت الكنيسـة تجتـاز مرحلـة حاسمة في تاريخها، وكانت بحاجة إلى مزيـد من السـلطة الدينيـة والنفوذ المالي لمواجهة أعـدائها، فقـررت عقـد مجمـع عـام لبحث الوسائل الكفيلة بتحقيق ذلك فعقد المجمع الثاني عشر المعـروف باسم مجمـع لاتـيران سـنة 1215م ونجح هـذا المجمـع في إقـرار مسألتين كان لهما أثر بالغ على المسيحية في القرون التالية.

لاشك أنك تعرفهما..

أما أولهما هو (العشاء الرباني).. وهو لا يزال حيا بيننا.

وأما الثاني.. فهو امتلاك الكنيسة حق الغفران للمذنبين.. وقد أصدروا لتقرير ذلك القرار التالي: (إن يسوع المسيح لمـا كـان قـد

قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلا منذ الأيام الأولى قد أعلم المجمع المقدس وأمر بأن تحفظ للكنيسة في الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي والمثبتة بسلطان المجامع، ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها غير أنه قد رغب في أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراز حسب العادة المحفوظة قديماً والمثبتة في الكنيسة لئلا يمس التهذيب الكنسي تراخ بإفراط التساهل)(1)

بهذا القرار فرض المجمع على كل المسيحيين أن يعترفوا أمام قسيس الأبرشية مرة كل عام لكي يستطيعوا الحصول على الغفران، وتنفيذاً لذلك أخذ الناس يتوافدون على الأبرشيات طلباً للمغفرة ويقدمون للقساوسة الهدايا والصدقات، فارتفع مركز الكنيسة معنويا ومادياً(2).

وبعد فترة من الزمن أخذ هذا التوافد في الفتور وتقاعس كثيرون عن الاعتراف، وفي الوقت نفسه ازداد إلحاح الكنيسة على تثبيت مركزها وتعبئة خزائنها، فقررت اتخاذ وسيلة ناجحة لضمان استمرار ذلك فهداها تفكيرها إلى كتابة الغفرانات في صكوك تباع على الملأ وتنص على غفران أبدى بحيث تكون حافزاً قوياً على دفع المبلغ المالي الذي تقرره الكنيسة أو القيام بالخدمات التي ترغب تنفيذها.

اسمع نص هذا الصك (ربنا يسوع يرحمك يا ...(يكتب اسم الذي سيغفر له) ويشملك باستحقاقات آلامه الكلية القدسية، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أستحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها، وأيضاً من جميع الافراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ومن كل علة وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس الباب والكرسي الرسولى، وامحوا جميع أقذار الذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها في المطهر وأدرك حديثاً إلى الشركة في أسرار الكنيسة وأقرنك في شركة القديسين، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك حتى أنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة

1) محاضرات في النصرانية: 194.
2) تاريخ العالم: 5/502.

إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الـذي يـؤدى إلى فـردوس الفرح، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتى ساعتك الأخيرة، باسم الأب والابن والروح القدس)[1]

التفتت إلي، وقالت: أتـدري الظـروف الـتي ألجـأت الكنيسـة لمثل هذه التصرفات؟

قلت: لا..

قالت: لقد كانت الكنيسة تواجه في هذه المرحلة ألد وأخطر أعدائها.. أولئك المسلمين الطيبين.. فقد كـانت الحـروب الصـليبية قد استعر إوراها، وبـدأت تلـوح علامـات الهزيمـة للصـليبيين، وبلـغ ضعف الحمـاس الـديني في نفـوس الأوربـيين مبلغـاً كبـيراً، وفقـد المقاتلون ثقتهم في الكنيسة نتيجـة لخيبـة أملهم في النصـر الـذي وعدتهم وعداً قاطعاً، ولم يروا للمسيح والملائكـة والقديسـيين أثـر في معاركهم، بل على العكس تخيلـوا أنهم يقفـون ضـدهم تمامـاً، وبذلك اهتز موقف الكنيسة وأيقنت أن وعودها المعسـولة بالنصـر، وقراراتها الشفوية بالمغفرة للمشتركين في الحرب لم تعـد تـؤدى مفعولاً مـؤثراً، فقـررت الكنيسـة تجسـيد هـذه الأمـاني في وثيقـة خطية محسوسـة يحملهـا المقاتـل، ويـندفع للاشـتراك في الحملـة الصليبية وهو على ثقة وعزم.

وتنفيذاً لذلك برز إلى الوجود مهزلة (صكوك الغفران) وكانت ـ كمـا يقـول ول ديـورانت ــ تـوزع على المشـتركين في الحـروب الصليبية ضد المسلمين[2].

وبهذا.. فإن هذه الصكوك لم يكن ينالها إلا احد رجلين:

صاحب مال.. يشترى الصـك من الكنيسـة حسـب التسـعيرة التي تحددها.

وصاحب سيف.. يبذل دمه في سبيل نصرة الكنيسة والـدفاع عنها وحراسة مبادئها.

أما ما عدا هذين.. فيظل محروما لا يملك ثمن الصك.. ولذلك يظل المسكين أسير صراع نفسي مرير وشعور بالحرمان قاتل.

وهكذا فالكل مضحون، والكل خاسرون، والكنيسة هي الرابح الوحيد من هذه الصكوك..

التفتت إلي، وقالت: أتدري ما نهاية هذه الصكوك التي تشكل مفردة مهمة من مفردات برنامج الكنيسة السياسي؟

---

1) المسيحية: 214، وانظر: محاضرات في النصرانية.
2) قصة الحضارة: 15/ 66.

قلت: ما نهايتها؟

قالت: لقد كانت هذه البدعة ـ أول أمرها ــ من أسباب قوة الكنيسة ودعائم شموخها:

فمن ناحية المكانة الدينية ارتفعت منزلة رجال الدين في نظر السذج والجهلة بعد أن منحهم المسيح هذه الموهبة العظيمة، وخيل إليهم أنه ما دام أعطاهم حق المغفرة للناس فبديهي أنه غفر لهم، بل قدسهم ووهبهم من روحه كما يدعون، وبذلك تجب طاعتهم والتزلف إليهم وتملقهم على من أراد التقرب إلى المسيح والحصول على رضاه، وإذ قد آمن الناس – ملوكاً وصعاليك – بحق الغفران، فقد سهل عليهم أن يؤمنوا بمقابلة (حق الحرمان)، ولم يزدادوا طمعاً في ذاك إلا وازدادوا رهبة لهذا.

ومن الوجهة المادية أثرت الكنيسة من عملية بيع الصكوك ثراء فاحشاً حتى أصبحت بحق أغنى طبقات المجتمع الأوروبي آنذاك بما تكدس في خزائنها من أموال وتدفق عليها من عطايا وهبات.

ومن الوجهة السياسية قويت الكنيسة وتدعمت سلطتها بالجحافل البربرية التي تطوعت للقتال في سبيلها من أجل الحصول على الغفران، وبالمقابل انخفضت سلطة الملوك الذين كانوا جنودا للكنيسة بأنفسهم في الحروب الصليبية، إلا من تردد منهم أو حاول التملص من قبضتها فعوقب بالحرمان كما حدث لفريدريك الثاني(1).

كل هذه الثمار جنتها الكنيسة من جراء هذه المهزلة..

ولكن الحصاد الخبيث الذي حصدته من جرائها لا يمكن وصفه..

لقد كانت تلك الصكوك مساراً في نعش الكنيسة، وبداية لنهايتها، وكانت خسارتها بها عظيمة عظم جنايتها:

فمن الوجهة الاقتصادية تلى الإقبال الهائل على شراء الصكوك انكماش وفتور كالذي يصيب أي بدعة أو ظاهرة جديدة بعد فترة من ظهورها، فنضبت الكثير من موارد الكنيسة في حين

---

1) هو الإمبراطور (فريدريك الثاني)، وهو أعظم زعيم تحدى سلطات الكنيسة واستطاع مقاومتها مدة غير يسيرة، ويرجع ذلك إلى المؤثرات الإسلامية في ثقافته وشخصيته، فقد كان مجيدا للعربية مغرما بالحضارة الإسلامية، حتى أن الكنيسة اتهمته باعتناق الإسلام وسمته (الزنديق الأعظم)، أما المفكرون المعاصرون فيسميه بعضهم (أعجوبة العالم) وبعضهم (أول المحدثين)، انظر حول سيرته كتاب الزنديق الأعظم، وفصل أعجوبة العام، ج3، ويلز.

ازدادت طمعا وشراهة.. فاضطرت إلى عرض الصكوك بطريقة مبتذلة، فكان الآباء والقساوسة يتجولون في الإقطاعيات، ويبيعونها بأسعار مخفضة، ثم زهيدة، وكلما ازداد العرض قل الطلب وتولد لدى الناس شعور داخلي بأن شراءها إضاعة للمال فيما لا فائدة فيه، أو على الأقل فيما ليس مضمون العاقبة.

وفي الوقت نفسه داهمت المسرح المالي فئة جديدة من الناس أخذت تظهر بوضوح منافسة للطبقتين البارزتين آنذاك (النبلاء) و (رجال الدين) تلك هي الطبقة البورجوازية وحصلت تحولات أخرى كانت بمثابة المؤشر لنهاية النظام الإقطاعي بجملته.

ومن ناحية المكانة الدينية لرجال الدين، فقد بدأت تلك الهالة القدسية المحيطة بهم تتبخر شيئاً فشيئاً بعد زمان من ظهور هذه المهزلة وابتداء الناس يعتقدون أنهم كانوا مخطئين في ذلك الاندفاع الأعمى والتسليم الأبله، وعمق ذلك الاعتقاد تنافس القساوسة على بيع الصكوك مقروناً بسيرتهم السيئة وفجورهم الفاضح، وعجب الناس إذ رأوا كثيراً من الأشرار والطغاة يتبوءون مقاعدهم في الملكوت ببركة الصكوك التي منحها لهم رجال الدين، فكان ذلك إيذاناً بالشك في قداسة رجال الدين أنفسهم ومدى صلاحهم واستحقاقهم للملكوت في ذواتهم.

ومن ناحية المركز السياسي والنفوذ الدنيوي، فقد كان لصكوك الغفران وما أحاط بها من ظروف وملابسات أثره البالغ في العلاقة بين الكنيسة من جهة والملوك والأمراء والنبلاء من جهة أخرى، فقد رأوا أن قبضة الكنيسة تزداد استحكاماً مع الأيام وأنهم وشعوبهم ليسوا إلا أدوات أو صنائع رجال الدين يمنون عليهم بالعفو إن رضوا ويعاقبونهم بالحرمان إن سخطوا، كما أن الثراء الذي حصلت عليه الكنيسة جعلها تبدو منافساً قوياً لأصحاب الإقطاعيات وكبار الملاك، فكان يسيطر على الجميع شعور موحد بالعداوة لها والحقد عليها.

لذلك لم تكد بوادر الاستنكار ضد تصرفاتها ـ لا سيما صكوك الغفران ـ تبرز للعيان حتى انتهزها الملوك والأمراء فرصة سانحة لحماية الحركات المعارضة وتأجيج سعيرها، ولولا أن بعض المصلحين الكنسيين ـ ولوثر خاصة ـ وجدوا الحماية والعطف من الأمراء والنبلاء لما نجوا من قبضة الكنيسة ونتائج قرارات حرمانها.

الديمقراطية:

قلت: فقد تمردت البذور في الأخير إذن على مزارعي الكنيسة؟

قالت: أجل.. ولكنها وقعت في أيدي مزارعين لا يقلون عنها خطرا.. راحوا يشوهون البذور لتنسجم مع أهوائهم.

قلت: من هؤلاء الدجالون؟

قالت: كثيرون.. وأولهم من ينعتون أنفسهم (الديمقراطيون)..

انتفضت قائلا: أتقولين هذا عن الديمقراطية.. وهي التي تقوم علي حرية الفرد في أن يعمل ما يشاء، ويملك ما يشاء.. إن شعارها الشهير هو الشعار الذي أطلقته الرأسمالية في نشأتها (دعه يعمل ما يشاء، دعه يمر من حيث يشاء) (1)

إنها الديمقراطية التي نشأ عنها الحرية السياسية وتعدد الأحزاب.. وحرية..

قاطعتني، وقالت: خفف عنك هذا.. فما هو إلا بهرج كاذب سرعان ما يبدو عواره.

قلت: العالم كله الآن يسبح بحمد الديمقراطية.. فكيف تذمينها؟

قالت: والعالم كله الآن موقد نيران.. لقد تحولت مزرعة البشرية لأول مرة في التاريخ إلى مزرعة لإنبات النيران بين الدول.. وبين الشعوب.. وبين الأفراد..

لقد حولت الديمقراطية العالم إلى عالم ثيران تتناطح.. ولا يغلب فيها إلا أعظمها قرونا.

قلت: ولكن الديمقراطية هي النظام الوحيد الذي يرجع للرأي العام..

ابتسمت، ونظرت إلى مزرعتها، وقالت: هل ترى لتلك الخضر التي تتربع في ذلك الحقل رأيا؟

قلت: هي خضر.. وأنا أتحدث عن البشر؟

قالت: لقد صنعت الديمقراطية كثيرا من القدور طبخت فيها خضر البشرية كما شاءت.. ثم أطلقت على ذلك الطبيخ اسم (رأي عام) لعلك كنت في يوم من الأيام ضحية إحدى تلك القدور.

قلت: ما تقولين؟

قالت: اصبر علي.. وسأبرهن لك على ما أقول.

---

1) يطلق الشيوعيين علي الديمقراطية الغربية وصف (الليبرالية)، وهم يقصدون به الذم لا المدح ويعنون به الديمقراطية التي يتمتع فيها الرأسماليون بحرية استغلال الطبقة الكادحة.

لقـد اتخـذت الديمقراطيـة.. أو اتخـذ الـذين لهم مصـلحة في الديمقراطيـة.. لأنفسـهم قـدورا كثـيرة.. منهـا الصـحافة والإذاعـة والسينما والتليفزيون والخطبة والمحاضـرة والكتـاب.. وغيرهـا من وسائل الإعلام التي توجه الرأي العام حسبما تشتهي(2)..

سأضرب لك مثالا على قدر من تلك القـدور الخطـيرة.. وهي الصحافة التي كانت وما تزال من أشد وسائل التأثير.

قلت: إن الصحافة في بلادنا حرة..

قالت: ولكنهـا لا تسـتطيع أن تعيش بلا معونـة خارجيـة، فهي تتكلف في أحيان كثيرة أضعاف الثمن الذي تباع به للجمهور.

قلت: فكيف تغطي الصـحافة تكاليفهـا، ثم تـربح فـوق ذلـك أرباحا طائلة؟

قالت: إنها تعتمد ـ أساسا ـ على الإعلانات ثم على الإعانـات من أي طريــق تجئ.. والإعلانــات – بطبيعــة الحــال – في يــد الشركات والمؤسسات الصـناعية أي في يـد الرأسـمالية، ومن ثم فإنه يكفي لقتـل أي صـحيفة حـرة تتجـرأ علي المصـالح الحقيقيـة للرأسمالية، أن تمنع عنها الإعلانات فتسقط في هاوية الإفلاس، ولا ضير في الوقت ذاته علي الرأسـمالية من مناوشـات سـطحية في الصحف تنتقد كما تشاء دون أن تصيب الجذور.

فإذا كان الصحافة – التي تؤثر التأثير الأكبر علي الرأي العــام واقعة في قبضة الرأسمالية إلي هذا الحد، فلنا أن نتوقـع أن تكـون الأفكار الـتي تصـوغها وننشـرها هي مـا تريـده الرأسـمالية، أو في القليل هي ما لا يتعارض مع المصالح الحقيقة للرأسمالية.

قلت: ولكن هناك وسائل إعلام أخرى؟

قالت: هي مثل الصحافة، وبقية وسائل الإعلام.. فهي واقعـة بصـورة أو بـأخرى في ذات القبضـة الشـريرة الـتي توجـه الأفكـار وتشكل المواقف للناس.

قلت: عرفت القدر.. ولكني لم أعرف ما يطبخ فيها.

قالت: في قدور (الرأي العـام) يطبخ كـل مـا يريـده (الـرأي الخاص)

قلت: هل تفضلت بذكر مثل عن بعض أنواع الطبيخ؟

قالت: من أهم أنـواع الطـبيخ في هـذه النظـام الـذي يحركـه أرباب الأموال إشعال الحروب..

لنفرض أن السـادة أرادوا إشـعال حـرب في مكـان مـا علي

2) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.

سـطح الأرض، وهـو أمـر يهم الرأسـمالية من جميـع الوجـوه المتخيلة.. وأولها بيع السلاح الذي يدر علي صانعية أرباحـا خياليـة.. فكيف يهيأ (الرأي العام) لتقبل الحـرب أولا، ثم التحمس لهـا ثانيـا، ثم المطالبة بها أخيرا.

تبـدأ الصـحف – وكـذلك وسـائل الإعلام – في نشـر أخبـار قصيرة مثيرة تثير عند الغافلين ـ والرأي العام دائمـا غافـل ــ نوعـا من التطلع والانتبـاه.. ثم يـزاد في طـول الخـبر ويـؤتي بمزيـد من التفاصيل.. ثم يصبح الموضوع هـو الحـديث اليـومي في الصـحافة والإذاعـة والتليفزيـون.. ثم يـزاد في نغمـة الإثـارة حـتي تشـحن النفـوس بـالوقود ... ثم تأخـذ الصـحافة في اسـتطلاع الـرأي العـام الذي كانت قد وجهته سابقا.. فإذا رأت الرأي العـام متحمسـا تبـدأ في مطالبـة الحكومـة بـالتحرك.. ثم تبـدأ الحكومـة في الاعـداد انطلاقا من مطالبات الرأي العام الذي طبخـه أربـاب الأمـوال.. ثم تنطلق شـرارة الحـرب، ويبـاع السـلاح، ومعـه المطـامع الكثـيرة.. وتتحقق الأهداف المطلوبة من وراء المشروع.

قلت: هذا تحليل رائع.. وهو يدل على عقـل ذكي.. ولكن هـل في الواقع ما يثبت هذا؟

قالت: كل الواقع يثبت هذا.. سأضرب لك مثالا.. مجرد مثال..

في الحرب العالمية الثانية التي امتدت فشملت معظم أرجاء الأرض، وقتل فيها أربعـون مليونـا من الشـباب في ميـادين القتـال غير الذين قتلوا من الرجـال والنسـاء والأطفـال بعيـدا عن ميـادين الحرب بالقنابل المدمرة، وغير الذين قتلوا بتأثير القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا في نجازاكي وهيروشيما.. بدأت صـحافة الحلفـاء.. أي الـديمقراطيات في غـرب أوربـا وفي امريكـا.. تتكلم عن هتلـر واسـتعداداته الحربيـة والأزمـات الـتي يثيرهـا (وخاصـة أزمـة ممـر دانـزج الـتي اعتـبرت الشـرارة الأولي للحـرب)، وبـدأت تكتب عن النازيـة وعن النظم الدكتاتوريـة وعـداوتها للحريـة والديمقراطيـة وحقـوق الانسـان.. وأن علي الـديمقراطيات الـتي تشـكل (العـالم الحـر) أن تـؤدب هـذا الطاغيـة الـذي ينـذر بشـر مسـتطير لجميـع البشرية.

قلت: فأنت نازية إذن.. يؤذيك ما قيل في هتلر!؟

قالت: لا.. لقد كان أكثر ماتقولـه صـحافة (العـالم الحـر) عن هتلر والنازية الدكتاتورية حقا، وكان هتلر بالفعل طاغية جبـارا يريـد إذلال العالم وإخضاعه لسلطانه، ويصدر عن جنون عنصري مرتكـز

علي أفضلية الجنس الآري وجدارته بأن يحكم العالم كله..

ولكن الـذي يؤذيـني أن الـذي يقـول ذلـك لا يقـل عن هتلـر طغيانـا.. هم كـالمجرمين الـذين يؤلبـون على المجـرمين لـدواعي إجرامية..

لقد كان الحلفاء لا يختلفـون على هتلـر طغيانـا إن لم يكونـوا يفوقونه.. فقـد كـانوا يحكمـون العـالم كلـه يومئـذ، ويذلونـه باسـم حضارة (الرجل الأبيض) وجدارته أن يحكم كل شعوب الأرض.

لقـد كـان مـا تقولـه صـحافة الحلفـاء ووسـائل إعلامهم حقـا بالنسبة للنازية وهتلر، أما مـا كـانوا يدعونـه لأنفسـهم من أنهم هم حماة الحرية وحمـاة حقـوق الإنسـان، فقـد تـبين كذبـه كلـه عقب الحرب مباشرة حين خرج الحلفاء منتصـرين من الحـرب فضـربوا بكل وعودهم للشعوب عرض الحائط، بل قالوا لهم في تبجح: لقـد حمينـاكم من النازيــة فـادفعوا ثمن الحمايــة.. وثمنهـا أن يكونــوا خاضعين لهم يدورون في فلكهم ويخدمون مصالحهم.

التفتت إلي، وقالت: هذا طبيخ راح ضـحيته عشـرات الملايين من البشر.. ولا زلنا نعاني آثاره إلى الآن..

هنـاك طـبيخ آخـر تلى هـذا.. لا يـزال المسـلمون المسـاكين يصلون ناره.

قلت: ما هو؟

قالت: لقد تحدثت الصحافة ومعها جميـع وسـائل الإعلام عن طغيان هتلـر، وعن وحشـيته في إبـادة اليهـود وتعـذيبهم.. وركـزت وسـائل الإعلام على اليهـود مـع أن حـوادث الإبـادة الـتي حصـلت لغيرهم لم تقل شـأنا (1).. لأن الهـدف من ذلـك أن يشـحن الـرأي العام ليعطف علي قضية اليهود بعد إذ كان كارها لهم أشد الكـره.. وشـيئا فشـيئا يتعـاطف النـاس مـع اليهـود الـذي يعـذبهم النـازي ويحرقهم أحياء في الأفران.. وقـد أتيح للصـحافة ولوسـائل الإعلام أن تزيد في الأفران ما تشاء حتى تـؤجج العواطـف وتحـرك الـرأي العام لضرورة إنشاء وطن قومي لليهود.. وفي فلسطين.. ليطبــق على الفلسطينيين المسـاكين مـا طبـق على المسـيح من التكفـير عن خطايا هتلر والنازية.

ولم يكتفـوا بـذلك.. بـل راح الإعلام يـؤجج الـرأي العـام ضـد العرب المجرمين الذين أبـوا الخـروج من ديـارهم ليسـكنها شـعب الله المختار..

---

1) انظر التفاصيل والأرقام المثبتة لذلك في (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

التفتت إلي، وقـالت: هـذا طـبيخ قـديم جديـد.. راح ضـحيته الملايين الكثيرة.. وراح ضـحيته فـوق ذلـك مبـادئ إنسـانية أخطـر وأعظم.. وحصل بسببه لبذور البشرية تشويه خطير لا نزال نعـاني آثاره.

نظرت إلى مزرعتها بأسى، وقـالت: سأضـرب لـك مثـالا عن طبيخ آخر.. يخص الحياة الاجتماعية لا يقل شأنا.

لنفرض أن المطلوب هو تفكك روابط الأسرة ونشـر الفسـاد الخلقي وتحريض المرأة ضد الرجل.. طلبا لمصالح فئة من النـاس يستهويها هذا السلوك.

قد تتخذ وسائل الإعلام لأجل هذا وسائل كثيرة.. منهـا مثلا أن تبدأ الصحافة بمهاجة الزواج المبكر وذكر مضارة.

ومن مضـاره الـتي تـذكرها مثلا، وتؤيـدها بمـا تشـاء من إحصـائيات ودراسـات أن تـذكر بـأن كلا من الـزوجين يكـون قليـل الخبرة بالجنس الآخر نتيجة عدم الاختلاط، ثم قليل الخبرة بالحيـاة لصغر السن وقلة التجربة، ثم قليـل الخـبرة بتربيـة الأولاد.. الـذين يجيئون في أول عهد الزواج فتسوء تربيتهم.. لذلك يلزم تأخير سن الـزواج مـع إباحـة الاختلاط حـتي يتحقـق التعـارف بين الجنسـين، واكتساب الخبرة اللازمة للـزواج، ويتـأخر مجئ الأولاد حـتي تـزداد الخبرة فتحسن تربيتهم.

ثم يظل الحديث عن ضـرورة الاختلاط يلح علي النـاس حـتي يتكون (رأي عام) موافق علي الاختلاط بعد إذا كان معارضا لـه، ثم يظل الحديث يلح علي الناس حتي يتحمسوا له، ثم يظـل الحـديث يلح علي الناس حتي يبلغ لحماس للاختلاط أن يتهموا كـل معـارض له بالرجعية والتخلف والجمود والتأخر ويهددوه بـأن عجلـة التطـور ستسحقه وتقضي عليه.

ثم يقـال للمـرأة: إن الـزواج البـاكر والانجـاب الكثـير يفسـد رشاقتها.. ويقتل حيويتهـا.. ويمنعهـا من مشـاركة الرجـل في إدارة شئون المجتمع.

وتظل الصحافة.. ومعهـا سـائر القـدور.. تلح علي هـذا الأمـر حتي تخرج المـرأة من فطرتهـا، وتنظـر إلي الـزواج علي أنـه قيـد يعوقها.. وإلى الانجاب علي أنه عدو يفسد جمالها ورشـاقتها، وإلى البيت والانشغال به علي أنه إهدار لطاقتها، بل إهدار لكرامتها.

ثم يظل تأثير الصحافة ووسـائل الإعلام عليهـا حـتي تـري أن من حقها أن تستمتع بالحيـاة اسـتمتاعا حـرا دون أن يفـرض علي

استمتاعها قيد خلقي أو اجتماعي أو من أي نوع، فمن حقها أن تؤخر الزواج حتي تشبع من الاستمتاع الحر.. ومن حقها أن تؤخر الإنجاب حتي تشبع من العمل خارج البيت، ومن الرشاقة في الحفلات وحلبات الرقص.

ويصبح ذلك كله من مقررات (الرأي العام) النسائي علي الأقل، بل النسائي والرجالي كذلك.. (أي من مقررات العقل الجمعي)، ويصبح المعارض لذلك هو المجنون الأبله، وهو المتحجر علي أوضاع عفي الزمن عليها ولا يمكن أن تعود.

وهكذا يشكل الرأي العام في مطابخ الديمقراطية في القدور التي يمسكها المفسدون في الأرض ممن يملكون المال والجاه.

قلت: ولكن مع ذلك.. فمن مزايا هذا النظام أنه يتيح للبسطاء من الناس أن ينتخبوا من يمثلهم، ويطالب بحقوقهم.

ابتسمت، وقالت: ألم تفهم بعد من هم الناس الذين تتعامل معهم الديمقراطية.. إنها تتعامل مع الناس الذين تشكلهم بحسب أهواء المستبدين؟

إنها استبداد يخفي حرية.. وديكتاتورية تختفي في جلابيب ديمقراطية.

قلت: كيف ذلك.. وأنا أرى صناديق حرة.. ومنتخبون أحرارا..

قالت: صدقت في كون الصناديق حرة.. ولكنك لم تصدق في كون الناخبين أحرارا.

قلت: كيف ذلك؟

قالت: هل يتاح لأي إنسان أن يصل إلي البرلمان ويوجه الأمور كما يشاء؟

قلت: هذا ما أفهمه من الديمقراطية؟

قلت: وهذا من التزوير الذي تشهره الديمقراطية.. ألم تعلم أن النظم الديمقراطية الحرة عبد رقيق لأهل المال.. فلذلك تخضع المعركة الانتخابية للاغنياء من الناس؟

وأولئك الأغنياء لا ينظرون إلى المساكين على أنهم مساكين.. بل ينظر إليهم على أنهم أولئك الأعداء الحاسدون لما في يده من النعمة، الطامعون، الذين يريدون أن ينهبوه وينتقصوا أرباحه.. وينظر إليهم من جهة أخري على أنهم أولئك الطفيليون الذين لا يحسنون شيئا ويطمعون في كل شئ.. أو ينظر إليهم على أنهم الاغبياء الذين وقف بهم غباؤهم عن أن يصعدوا إلي القيم التي وصلواهم إليها.

قلت: ولكن هنـاك فقـراء أو متوسـطي يرشـحون أنفسـهم وينجحون في الانتخابات؟

قالت: ولكن كيف يصلون إلى هناك؟

قلت: ينضـمون إلى أحـزاب تحملهم، وتحمـل عنهم عبء المعركة الانتخابية.

قـالت: فـالأحزاب تعرضـهم كواجهـة إذن.. لتملي عليهم بعـد ذلك ما تريد..

بالإضافة إلى ذلك.. أنت تـرى والواقـع يشـهد أن الإنسـان إذا دخل الحزب تتغير أحواله كلها ويصبح إنسانا آخر.. ويصـبح محترفـا في عالم السياسية، وهو وحزبه في أحد حالتين لا ثالث لهما، وفي أحـد مـوقفين: إمـا أن يكـون حزبـه في الحكم فهـو ملـتزم بتأييـد الحكومة في كل ما تصنع، سواء كان في دخيلة نفسـه مقتنعـا بمـا تفعل أو غير مقتنع.. وإما أن يكون حزبه في المعارضة – أي خـارج الحكم – فهو ملتزم بمعارضة الحكومة القائمة في كل ما تصـنع إلا أن تكون مصلحة عامة أي يستفيد منها الرأسماليون جميعا، سـواء كان في دخيله نفسه مقتنعا بالمعارضة أو غير مقتنع!

وهكذا تسمع صيحات: العدل.. والقيم.. والمبادئ.. والإنسـانية ... من الحزب المعارض طالما هـو في المعارضـة، فـإذا وصـل إلي الحكم سلك ذات السلوك الـذي كـان ينتقـده وينـدد بـه من قبـل.. وصار الدور علي الحزب المعارض – الذي كان في الحكم من قبل – لينتقـد من الحكومـة القائمـة ذات الأعمـال الـتي كـان يسـوغها لنفسه وهو في الحكم، ويتصايح بدعاوي الإنسـانية والعدالـة والقيم والمبادئ.

سأضرب لك مثلا يوضح ذلك.. أنت تعرف بدون شـك حـزب العمال في بريطانيا..

قلت: أجل.. لقد ظل يحكم بريطانيا عهودا طويلة.

قالت: لقد ظل وهو في المعارضة ينادي بضرورة زيادة أجور العمال، فلما وصل إلي الحكم رفض أن ينفذ ما كان يدعو إليه وهو في المعارضة ـ أو عجز عن تنفيذه! ــ وسـلك ذات السـلوك الـذي كان يعيبه من قبل علي حزب المحافظين، وهو تجميد الأجور خوفا من التضخم.

قلت: ولكن هناك أحرارا يصلون إلي البرلمان، ويقولون قوله الحق، وينتقدون بجرأة، ويطالبون بحقوق أصحاب الحقوق.

قــالت: ولكن كم عــدد هــؤلاء؟ ومــا وزنهم في المجــالس النيابية؟.. أنت تعلم أن القرارات تؤخذ بالأصوات.

قلت: لا ضير في ذلك.. فالأخذ بالأصوات حل عادل.

قــال: هــو عــادل وصــالح حين يكــون أصــحاب الأصــوات من العدول، لا حين يكونون من أصحاب الأهواء، فأما حين يكونـون من أصحاب الأهواء، الملتزمين بالمعارضـة أو الملـتزمين بالتأييـد بحكم موقف الحزب الذي يتبعونه، فعندئذ تضيع أصوات القلة من الأحرار في وسط أصوات الكثرة من المزيفين.. وتنفذ مصالح الرأســمالية كلها من خلال اللعبة الهائلة، لعبـة الحريـة والديمقراطيـة والتمثيـل النيابي والبرلمان إلا الفتات الذي يتساقط في الطريق، أو يســقط عمدا للتلهية، أو يسقط تحت الضغط الشديد.

أما الحرية الحقيقية التي تتيحها الديمقراطية، وكأنمـا أنشـئت من أجلها، فهي الحرية الشخصية.. أي حرية الالحاد وحرية الفســاد الخلقي.. فهنـا يلتقي الجميـع: المعارضـون والمؤيـدون والشـعب والرأسماليون، والحكام والمحكومون.

التفتت إلى مزرعتها، وقالت: إن الديمقراطية الليبراليـة تقيـد الحريــة حيــق ينبغي أن توسـع، وتوسـعها حيث ينبغي أن تضـيق.. فحين تمس مصالح الرأسمالية فلا حرية علي الإطلاق.. لعلك تذكر قصة مقتل كنيدي رئيس جمهورية الولايات المتحدة، حين قتل في عــام 1963 م لأنــه وقــف في طريــق مصــلحة من مصــالح الرأسمالية، ثم لعب بقضيته لعبا بحيث لا تنكشف الحقيقة ولا يوقع علي المجرمين الجزاء.

لقد كـانت سياسـة الرأسـمالية يومئـذ هي وضـع العـالم علي حافة الحرب من أجل تنشيط صـناعة السـلاح وبيعـه، وهي ــ كمـا تعلم ـ من أربح الصناعات بالنسبة إليهم.

ولكن كنيدي كانت له نظرة أخرى مختلفـة، ينطلـق فيهـا من مصـلحة الولايـات المتحـدة الـتي هـو رئيسـها المنتخب لتحقيـق مصـالحها.. فقـد كـان رأي كنيـدي أن المصـلحة القوميـة للولايـات المتحدة تقتصـي تهدئـه الأحـوال العالميـة، لكي يوجـه الانفـاق إلي رفاهية الشعب الأمريكي بدلا من توجيه إلي صناعة الحرب التي لا عائــد منهــا علي الشــعب.. لــذلك ســعي إلي مصــالحة الاتحــاد السوفيتي والاتفاق معه علي تهدئه الأحوال العالمية، وخطا بالفعـل خطـوة نحـو إشـاعة السـلام، فمـد يـده إلي خروشـوف الـزعيم الروسي القائم بالحكم يومئذ لفتح باب المحادثات الـتي تـؤدي إلي

توطيد السلام، وخطا خرشوف من جانبه خطوة فقبل أن يدخل في محادثات السلام.

ورغم أن هذا كان تصرفا حكيما من وجهة النظر الأمريكية البحتة، فضلا عما فيه من إراحة أعصاب العالم من الخوف الدائم من نشوب الحرب، فإن الرأسمالية الأمريكية ذاتها لم توافق عليه لأنه ضد مصالحها الذاتية، لذلك أنشأت إضرابا طويلا في مصانع الصلب علي سبيل الإنذار، مع أن هذا الاضراب يضر المصالح المؤقتة للرأسمالية ولكنه يؤدي إلي كسب أكبر بالضغط علي كنيدي ليترك سياسة التهدئة التي كان يقوم بها بالاتفاق مع خروشوف، فلما لم يأبه كنيدي بالإنذار، ومضي في سياسيته، هددوه مرة ثانية بإضراب آخر في مصانع الصلب استمر مدة أطول من الأولى، ولما لم يرضخ بعد هذا الإنذار الشديد، وأصر علي السياسة التي رآها أكثر تحقيقا لصالح الشعب الأمريكي ـ فضلا عن إراحة العالم من الخوف ـ قرروا أنه لابد من التخلص منه بإجراء أشد، فقتلوه! قتلوه وهو لس فردا عاديا من أفراد الشعب، بل هو رئيس الجمهورية المنتخب برضا الشعب، والمسئول عن مصالح الشعب الأمريكي كله! قتلوه ثم لعبوا بالتحقيق، فلم يجد رئيس الجمهورية المقتول ضمانات التحقيق التي تحفظ حقه ـ وإن كان قتيلا ــ في أن يؤخذ له القصاص من قاتله! ولم تجد الديمقراطية كلها نفعا في إقامة العدل في قضية من القضايا الخطيرة في التاريخ الحديث.. ومضت القصة كلها كأنها حادث عادي لا يثير الانتباه ولا يستحق الإهتمام! وطوي التحقيق..

تلك هي الديمقراطية حين تمس المصالح المباشرة للرأسمالية.

الشيوعية

قلت: أعلم أنك من أبرز الخبراء في شؤون (الماركسية الآسيوية)، وقد صدر لك كتاب قيم في هذا سميته (القوميات والدولة السوفياتية).. أهو جزء من بحثك عن النظم التي تحول الأرض إلى مزرعة طيبة؟

قالت: أجل..

قلت: فكيف وجدت الشيوعية التي حاول السوفيت في ذلك الحين تطبيقها؟

ابتسمت، وقالت: أولئك الأغبياء حاولوا أن يقلعوا الإنسان من جذوره.. هل تتصور أن الذي حكم العالم في ذلك الحين حفنة من

الشيوعيين؟

قلت: ومن حكمه غيرهم؟

قال: حفنة من اللصوص.. راحوا للبذور يشوهونها ويحرفونها ويتلاعبون بقداستها لتنسجم مع أهوائهم.

قلت: ولكنهم كانوا ينادون بحقوق العمال والطبقات الضعيفة.

قالت: صدقت في بعض هذا.. فالشيوعية هى النظام الجاهلى الوحيد الذى فرض على الدولة كفالة كل فرد يعيش فى ظلها، ولكن ذلك لم يكن كرما إنسانيا منها، فهى تأخذ مقابل ذلك الجهد الفرد كله، وتعتبر (من لا يعمل لا يأكل) على الحقيقة لا على المجاز..

ثم إن الدولة تستذل الناس بلقمة الخبز على نحو غير مسبوق فى كل النظم التى مرت بها الجاهلية البشرية على الأقل فى التاريخ الحديث.

وربما كان من الحق أن الناس كانوا دائما فى جاهليات التاريخ مستذلين بلقمة الخبز، يبيعون مقابلها بعض كرامتهم أو كلها، وبعض إنسانيتهم أو كلها.. ولكن النظام البوليسى الصارم الذى يحكم الناس بالحديد والنار والتجسس، ويمنع الناس بالرعب و الإرهاب أن يفتحوا أفواههم بكلمة نقد واحدة ضد الدولة أو الزعيم المقدس أو المذهب أو النظام.. إنه ليفرض على الناس ـ مقابل لقمة الخبز ـ قدرا من الذل ومن ضياع الكرامة الإنسانية لا مثيل له فى نوعه ودرجته فى كل النظم التى تزعم أنها نظم حضارية على مدار التاريخ.

بالإضافة إلى هذا تلك التفرقة الضخمة فى كل جانب من جوانب الحياة بين أن يكون الإنسان مجرد فرد فى القطيع، وبين أن يكون عضوا فى الحزب ولو فى أسفل درجاته فضلا على الدرجات العليا.

لقد قال (ميليوفان دجيلاس) نائب الرئيس (تيتو) فى كتاب (الطبقة الجديدة): (إن الطبقة البيروقراطية الشيوعية الجديدة صاحبة الامتيازات الضخمة تستخدم جهاز الدولة كستار وأداة لتحقيق مآربها وأغراضها الخاصة.. وإذا ما عدنا لدراسة الملكية فإننا سنجدها ليست أكثر من حقوق الربح وحرية السيطرة، وإذا ما اتجه المرء إلى تحديد ربح الطبقة من خلال هذه الحقوق فى إطار تلك الحرية فإن الشيوعية تتجه فى النهاية إلى خلق شكل

جديد من أشكال الملكية وخلق طبقة حاكمة مستثمرة جديدة)

ويقول: (إن الطغيان الشيوعى والإرهاب فى أساليب الحكم هما الضمانة لامتيازات طبقة جديدة تبرز على المسرح السياسى.. لقد سبق أن أعلن ستالين عام 1936 مع صدور الدستور الجديد للاتحاد السوفيتى أن الطبقة المستثمرة قد تم القضاء عليها نهائيا.. وفى الحقيقة لقد تم فى المعسكر الشيوعى القضاء التام على قوى الرأسمالية الوطنية التى استؤصلت تماما من الجذور. ولكن مع زوالها بدأت تبرز فى صلب المجتمع الشيوعى طبقة جديدة لم يسبق للتاريخ أن رأى مثيلا.

ولقد أكدت هذه الطبقة أنها أكثر تسلطا فى الحكم من أى طبقة أخرى ظهرت على مسرح التاريخ، كما أثبتت فى الوقت نفسه أنها تحمل أعظم الأوهام، وأنها تكرس أعتى أساليب الظلم فى مجتمع طبقى جديد.

لقد تم تأميم المقدرات المادية إلا أنه لم يجر توزيعها على أبناء الشعب، بل أصبحت ملكا مكتسبا للطبقة الحاكمة وللأعضاء القياديين للحزب والبيروقراطيين السياسيين.

لقد حاز الأعضاء الكبار من أفراد النخبة الممتازة أفضل المساكن والبيوت كما شيدت لهم الأحياء الخاصة ومنازل الاصطياف، وحصل أمناء سر الحزب ورؤساء البوليس السرى ليس على السلطة العليا وحسب، إنما على أجمل المساكن وأفخم السيارات وسواها من مظاهر الأبهة والعظمة والامتيازات، أما بقية الأعضاء من دونهم فقد حازوا امتيازات متناسبة مع مراكزهم الحزبية.

وليس هناك أية طبقة أخرى فى التاريخ تشابه الطبقة الجديدة فى وحدة تماسكها، ووحدة الفكر والعمل فى دفاعها عن نفسها، وفى قدرتها على إحكام القبضة على كل ما هو واقع تحت سيطرتها منا لملكية الجماعية حتى السلطة الاستبدادية المطلقة(1).

قلت: ومع ذلك..

قاطعتني بغضب قائلة: ما فائدة أن تملأ البذور التي تشوهها قوتا وإداما..

قلت: لم أفهم.

قالت: ما فائدة أن يملأ الفلاح أرضه بالسماد في الوقت

1) انظر كتاب (العلمانية) لسفر عبد الرحمن الحوالى.

الذي يسيم فيه بذوره الخسف.

قلت: لم أفهم..

قالت: إن الشيوعية لم تكتف بنظام عادل يحكم الرعية.. بل راحت تفرض على الرعية العقائد والأخلاق..

قلت: هل حقا ما تقولين؟

قالت: لقد رأيت الواقع بعيني.. بل عشت بعض ذلك الواقع المرير الذي كان يمر به المسلمون، وهم يقولون للشيوعيين: لا نريد خبزكم.. دعونا نموت جوعا واتركوا لنا مساجدنا.. فنحن لا نأكل من طعام الأرض.. بل نأكل من غيث السماء.

قلت: لعل ذلك سلوك حفنة من المجرمين..

قالت: بل تلك هي الفلسفة الشيوعية..

ويستحيل أن تنفصل الشيوعية عن فلسفتها.

قلت: كيف ذلك؟

قالت: اذهب، واقرأ المؤلفات الشيوعية لتجد الإلحاد مقرونا بالاقتصاد والسياسة.

وسر ذلك يرجع إلى أن الشيوعية تبدأ من الإلحاد.. فالشيوعية تصر على أن لها إلحادها الخاص وهو في نظرها إلحاد (إيجابي).. كما قال (غارودى) الذي تاب من الشيوعية وولى وجهه قبلة الإسلام.. لقد قال يصف الإلحاد الشيوعي: (أما الإلحاد الماركسي، فهو في جوهره إنسي (أي إنساني النزعة) منطلقة ليس رفضاً بل هو تأكيد، تأكيد استقلال الإنسان، أما نتيجته فهي رفض كل محاولة لحرمان الإنسان من قدرته المبدعة والمبدعة لذاتها)

ثم يقول في تفصيل ذلك: (إن ما يميز الإلحاد الماركسي البحت هو أنه على خلاف سابقيه، لم يكتف باعتبار الدين خديعة فحسب، اصطنعها المستبدون أو مجرد وهم ولده الجهل بل إن ماركس و أنجلز قد بحثا عن الحاجات الإنسانية التي تلبيها الأديان بهذه الصورة المخادعة، فوصلا ــ كما يقول ماركس ــ إلى أن الأديان هي في وقت واحد: انعكاس لشقاء فعلي واحتجاج على هذا الشقاء.. وهذه الحقيقة التاريخية (أن الدين انعكاس لشقاء فعلي) هي التي يلخصها ماركس في تعبير مقتضب (الدين أفيون الشعوب))[1]

وجرياً مع المادية الجدلية وتطبيقاً للتفسير الاقتصادي للتاريخ

---

1) ماركسية القرن العشرين: مقتطفات: 144 – 146.

حـول علاقـة الفكـر بـالوجود تـرى الشـيوعية أن الفكـر البشـري انعكاس للواقع المادي، فالمادة هي الأسـاس الوحيـد وعنهـا ينبثـق الفكر وتنبثـق المشـاعر والأحاسـيس، ومن هـذه المشـاعر الـدين نفسه.

أي إن وجود الناس هو الذي يحدد مشاعرهم وليس العكس.

وعنـد تفسـير الـدين على هـذا الأسـاس يقـول أنجلـز: (من الأزمنة الموغلة في القدم ـ إذ وصل الفكر بالناس ــ وهم بعـد في جهـل تـام ببنيـاتهم الجسـدية الخاصـة، وتحت تـأثير أحلامهم ــ إلى القول بأن أفكارهم وأحاسيسهم ليست من فعل أجسـادهم ذاتهـا، بل من فعل روح خاصة تسكن هذا الجسد وتفارقه لحظة المـوت، منذ ذلك الحين اضطروا لأن يصطنعوا لأنفسهم أفكاراً عن علاقـات هذه الروح مع العالم الخارجي)

(وعلى هذا النحو تماماً – عن طريق تشخيص القوى الطبيعية – ولدت الآلهة الأولى التي اتخذت خلال التطور اللاحـق شـكلاً غـير أرضي أكثر فأكثر، إلى أن حدث أخيراً عمليـة تجريـد ... فنشـأ على نحو طبيعي خلال التطور العقلي، أن تولـدت في عقـل النـاس من الآلهة المتعـددين ذوي السـلطة الضـعيفة والمقيـدة بعضـهم حيـال بعض، فكرة الإله الواحد المنفرد في الديانات التوحيدية)(1)

ومـع ذلـك يسـتنتج أنجلـز أن المطـالب الجسـدية هي منشـأ الاعتقادات الفكرية وأن الدين ما هو إلا (الانعكاس الخيالي للأشـياء البشرية في دماغ الإنسان)(2)

وما دام أن الوضع الاقتصادي هو الذي يفسر ويحدد المطالب الجسدية فإن النتيجة هي أن الدين ناشئ عن الأوضـاع الاقتصـادية ولا ينبغي أن يفسـر إلا على ذلـك (أمـا المجـالات الأيدلوجيـة الـتي تحوم أعلى في الفضـاء كالـدين والفلسـفة.. الخ فإنهـا مؤلفـة من بقية – تعود إلى ما قبل التاريخ، وقد وجدها العهـد التـاريخي أمامـه فالتقطها – لما قد نسميه اليوم غباء، إن هذه التصـورات المختلفـة الخاطئة عن الطبيعة وعن تكون الإنسـان ذاتـه، وعن الأرواح وعن القــوى الســحرية وهلم جــرا ليس لهــا في الأغلب غــير أســاس اقتصادي سلبي، فالتطور الاقتصادي الضعيف لعهد ما قبـل التـاريخ

1) نصوص من أنجلز: 61.
2) المصدر السابق: 133.

تكون فيه ... تصورا خاطئة عن الطبيعة)[1]

إذن فالاقتصاد – أو البحث عن الطعام والشراب – هو منبع كل عقيدة وتصور وأساس كل مبدأ وقيمة، بل إن الشيوعية لتطبق ذلك على كل معنى وسلوك إنساني: على العلم والحرب ... على المشاعر والفنون ... على العلاقات الاجتماعية ... على كل شئ، فالعلم ــ مثلاً ليس أصله الرغبة الفطرية في اكتشاف الحقيقة ـ فليس في قاموس الشيوعية شئ اسمه الفطرة ولكنه كما قال أنجلز: (إذا كانت العلوم قد نهضت فجأة بعد ليل القرون الوسطى المظلم بقوة لا ريب فيها، ونمت بسرعة المعجزة، فإننا مدينون بهذه المعجزة الجديدة للإنتاج)

وعن الحروب تقول الشيوعية: (إن ما يسمى بالحروب الدينية ... كانت تتضمن مصالح طبقية مادية إيجابية، فقد كانت هذه الحروب حروبا طبقية تماما ... ورغم أن الصراعات الطبقية كانت عندئذ مغلفة بشعارات دينية، ورغم أن مصالح وحاجات ومطالب مختلف الطبقات كانت مختفية خلف ستار ديني فلم يبدل هذا شيئاً من الأمر، ويمكن تفسيره ببساطة من واقع ظروف تلك الأيام)[2]

وتقول عن الأخلاق: (إن الناس عن وعي أو لا وعي يستمدون مفاهيمهم الأخلاقية – في التحليل الأخير – من العلاقات العملية التي يقوم عليها وضعهم الطبقي، أي من العلاقات الاقتصادية التي ينتجون بها ويتبادلون فيها)[3]

وليس أغرب من هذه الأفكار إلا قول أنجلز (إن العمل هو الذي خلق الإنسان) وليس الإله كما يقول الرجعيون من البورجوازيين والإقطاعيين، وحتى لا نحسن الظن فنحمل كلامه على المجاز فقد شرح هذه العبارة شرحاً وافياً ــ نرى فيه إلى جانب الاستنباط العجيب الاستمداد الساذج من الداورينية ــ يقول: (منذ مئات عدة من ألوف السنين ... كان يعيش في مكان ما من الدائرة الاستوائية ... عرق من القردة الشبيهة بالبشر بلغت تطوراً رفيعاً بوجه خاص، وقد أعطانا داروين وصفاً تقريباً لهذه القردة التي قد تكون أسلافنا.

---

1) المصدر السابق: 187.
2) حرب الفلاحين في ألمانيا: 46.
3) نصوص من أنجلز: 159.

وقد أخذت هـذه القـردة – متـأثرة بالدرجـة الأولى دون شـك بنمط – معيشتها الذي يتطلب أن تنجز الأيدي من أجل التسلق غير وظـائف الأرجـل – أخـذت تفقـد عـادة الاسـتعانة بأيـديها من أجـل السير على الأرض واتخذت أكثر فـأكثر مشـية عموديـة، وهكـذا تم اجتياز الخطوة الحاسمة لانتقال القرد إلى إنسان)(1)

وإذا كان الاقتصاد بهذه المثابة فلماذا اعتقـد النـاس أن شـيئاً آخر غيره هو الذي يسير التاريخ وينشئ الأفكار؟ وكيف غابت هـذه الحقيقة عنهم حتى أظهرها فلاسفة الشـيوعية؟ يجيب الشـيوعيون عن ذلك بسهولة قائلين: لا غرابة في ذلك فإن الإنسان أصـله قـرد وظل يجهل هذه الحقيقة ظانـاً أن العنايـة الإلهيـة هي الـتي خلقتـه حتى عرف ذلك أخيراً.

ويعـبر أنجلـز عن ذلـك قـائلا: (ينسـى النـاس أن الظـروف الاقتصادية لحياتهم هي منشأ الحقوق التي لديهم، مثلما أنهم نسـوا أنهم قد نسلوا من عالم الحيوان)(2)

وانطلاقاً من تأليه الاقتصاد على هذا النحو وانطلاقاً من اعتبار تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام، ومن الانتكاس بالإنسان وجعل معدته هي العليا وروحـه وعقلـه السـفلي جـاء في التفسـير الاقتصادي للتاريخ.

وهـو تفسـير يقـوم على مبـادئ خطـيرة فيهـا هلاك الإنسـان ودماره.. وأخطر ما يقـوم عليـه حتميـة الصـراع بين المتناقضـات، وذلك يعني بالنسبة للمجتمع البشري الصـراع بين الطبقـات، وبين المصالح المادية المتعارضة، وهو صراع حـام لا يهـدأ على الإطلاق، وسببه الوحيد (البحث عن الطعام) و(امتلاك وسائل الإنتاج)

نظام الإسلام

قلت: يكفيني ما ذكرته من نماذج عن نظم البشـر، فحـدثيني عن نظام الإسلام الذي أبديت إعجابك الشديد به.

قالت: أنا لم أبد إعجابـا ناشـئا عن مجـاملات شخصـية.. بـل كان نتيجة بحث طويل في هذه المزرعـة.. في بطـون الفلسـفات والتواريخ.

قلت: ما علاقة مزرعتك بهذا البحث؟

قالت: لقد رأيت في علاقاتي الطويلة مع البذور الزراعية أن

1) المصدر السابق: 160.
2) المصدر السابق: 162.

هناك بذورا تمتلك قوة عجيبة على الحفاظ على شخصيتها وقوتها.. فهي تنبت في كل محل.. وتواجه كل إعصار.. وتقاوم كل الأمراض والطفيليات.. وهي مع ذلك كله تعطي ثمارا يانعة طيبة تتوقف عليها حياة البشر والكائنات.

قلت: أهذه البذور لا تحتاج إلى فلاحين!؟

قالت: هي تحتاج إليهم.. ولكنها قد تعيش من دونهم بنفس قوتها وصلابتها.

قلت: دعيني من هذه البذور.. واعبري بنا إلى بذور البشر.

الفرد:

قالت: لقد بحثت عن النظم التي حولت البشر إلى هذا النوع المستعصي من البذور، فلم أجد إلا نظام الإسلام.

قلت: لم أفهم ما تقصدين.

قالت: لقد علم محمد أو المصدر الذي تلقى منه محمد أن نظام البشر لو وكل إلى طائفة من الناس.. فإن هذه الطائفة سوف تستهويها الكراسي والعروش، فتنحرف ببذور البشر عن الفطرة التي فطروا عليها.

قلت: فماذا فعل؟

قال: بعث من التعاليم السامية والأدوية النافعة ما يجعل من كل فرد دولة قائمة بذاتها بجميع أجهزتها..

لقد أشار محمد إلى هذه النتيجة العظيمة، فقال: (: (المؤمنون تتكافا دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم)(1)

قلت: لم أفهم هذا.. هل يمكن هناك أن يكون هناك نظام في الدنيا يقوم على الفرد.

قالت: كل الأنظمة تتلاعب بالأفراد لتجعلهم محلا صالحا لإملاءاتها.. لقد ذكر القرآن هذا، فقال: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (الزخرف:54)

لقد علل القرآن ذلك الهوان الذي أصاب المصريين المستضعفين على يد الفراعنة المستكبرين بالفسق والانحراف الذي جعل فرعون يستخف بهم.

ليس فرعون وحده هو الذي مارس هذا الأسلوب..

كل الفراعنة.. وكل المستبدين في التاريخ.. راحوا يخاطبون الرغبة والرهبة في قلوب الرعية ليملوا لها بعد ذلك ما يشاءون.

---

1) رواه أبو داود والنسائي والحاكم.

لقد رأينا النظام الـديمقراطي كيـف ينشـر حريـة الانحـراف.. ليحول من الرعية حميرا يركبهم سادتهم من الرأسماليين.

ورأينـا مثلـه النظـام الشـيوعي الـذي لا يعـترف إلا بـالقيم المادية.. ليحول من الأفراد عجينة لينة يتلاعب بهـا الحـزب ورفقـاء الحزب كما يشتهون.

قلت: والإسلام..!؟

قـالت: الإسـلام جعـل للفـرد ــ بفضـل منظومـة كاملـة من التشريعات والتوجيهات ـ حصونا منيعة يستحيل على أي حـاكم في الدنيا أن يخرقها.

لقــد لاحظت بنفســي في الاتحــاد الســوفيتي كيــف يــرمي المسيحيون مسيحيتهم غير مبالين بهـا.. بينمـا يتشـبث المسـلمون بإسلامهم.. ولا يتنازلون عنه مهما كان.

قلت: أعــرف صـمود الإسـلام.. ولكـني أبحث عن النظـام.. والنظام لابد له من منظم.

قالت: لقد وضع الإسلام ـ بنصوصه المقدسـة ــ جميـع النظم العادلـة وجميـع الحـرس القـائمين عليهـا في نفـوس المؤمـنين.. فاستغنى المؤمنين بإيمانهم عن سياسة الساسة.

قلت: أنت تعلمين أن المسلمين حكموا فترة طويلـة بـالحكم العضوض.

قالت: ومع ذلـك لم يـؤثر فيهم ذلـك النـوع من الحكم.. لقـد كان ذلـك الحكم قاصـرا على وظـائف محـدودة لا تكـاد تكـون لهـا علاقة كبرى بالرعية.. فلذلك كانت حصون الإيمان التي حصـن بهـا الإسلام الفرد المسلم حاجزا دون تأثير الحكام الظلمة.

سأضرب لك أمثلة عن النظام الذي كان يحكم المجتمع بعيدا عن السلطة..

يروي الغزالي عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضـها بخمسة دراهم، وبعضها بعشرة فباع غلامه في غيبته لأعرابي شقة من الخمسـيات بعشـرة فلمـا عـاد ابن المنكـدر وعـرف، لم يـزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجـده، فقـال لـه: إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة.

فقال الأعرابي: يا هذا قد رضيت.

فقال: وإن رضيت. فإنا لا نرضـى لـك إلا مـا نرضـاه لأنفسـنا، فـاختر إحـدى ثلاث خصـال: إمـا أن تأخـذ شـقة من العشـريات بدراهمك، وإما أن نـرد عليـك خمسـة، وإمـا أن تـرد شـقتنا وتأخـذ

دراهمك.. فرد عليه خمسة، وانصرف الأعرابي.

ويروي أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان، منها ضرب قيمة كل حلة منه أربعمائة درهم، وضرب كل حلة مائتان، فمر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة فعرض عليه من حلل المائتين، فاستحسنها ورضيها، فاشتراها -أي بأربعمائة- فمشى بها وهي على يديه فاستقبله يونس. فعرف حلته. فقال للأعرابي بكم اشتريت؟ فقال: بأربعمائة. فقال: لا تساوى أكثر من مائتين فارجع حتى تردها. فقال: هذه تساوى في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها. فقال له يونس: انصرف معي فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها. ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم. وخاصم ابن أخيه في ذلك وقاتله. وقال: أما استحييت؟ أما اتقيت الله أتربح مثل الثمن، وتترك النصح للمسلمين؟! فقال: والله ما أخذها إلا وهو راض بها. قال: فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك!!

ويذكر الندوي كيف كانت هذه الأخلاق العالية منتشرة في المجتمعات الإسلامية إلى عهد قريب قال: حدثني بعض الثقات المعمرين الذين أدركوا عهد الأشراف في الحجاز، أن تجار مكة كانوا في ذلك العهد على جانب عظيم من المواساة لزملائهم، والنظر في مصالحهم والإخلاص والإيثار لهم، قال: كان بعض التجار إذا أتاه زبون في آخر النهار وقد باع ما يكفيه لقوت يومه وما حدده من الربح والوارد، ولم يكن زميله الجار سعيد الحظ في ذلك اليوم، قال له في لطف وهدوء: (دونك هذا الدكان الذي هو بجواري! تجد عنده ما تجده عندي، وقد لاحظت قلة الزبائن عنده هذا اليوم، فهو أحق بأن تشتري منه)

ويتحدث ليوبولد فايس ــ الذي أسلم بعد أن أقام في بلاد المسلمين مدة طويلة ــ عن مدينة إسلامية عربية كبيرة هي (دمشق) فيقول: (وقفت على ذلك الاستقرار الروحي في حياة سكانها، إن أمنهم الباطني كان يمكن أن يرى في الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين يعامل بها بعضهم بعضاً، أولئك التجار في الحوانيت الصغيرة، أولئك الذين لا ينون ينادون على المارة، أولئك كانوا يبدون وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسد، حتى أن صاحب دكان منهم ليترك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه، كلما دعته حاجة إلى التغيب بعض الوقت، وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه يتساءل فيما بينه وبين نفسه، ما إذا

كـان ينتظـر عـودة البـائع، أو ينتقـل إلى الـدكان المجـاور، فيتقـدم التاجر المجاور دائماً -للتاجر المـزاحم- ويسـأل الزبـون عن حاجتـه ويبيعـه مـا يطلب من البضـاعة -لا بضـاعته هـو بـل بضـاعة جـاره الغائب- ويترك له الثمن على مقعده. أين في أوروبا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة؟)(1)

المجتمع:

قلت: وعيت مـا ذكرتـه من أهميـة الفـرد في جميـع النظم.. ولكن الفرد كالبذرة يحتاج إلى التربة الطيبة التي تحتضنه.

قالت: وهذا ما فعله الإسـلام.. فقـد ركـز على بنـاء المجتمـع بناء سليما بنفس تركيزه على الفرد.

ولهـــذا.. فقـــد أغنت التربيـــة العظيمـــة الـــتي امتلأت بهـــا المجتمعات الإسلامية الرعية عن راعيها.. فلم يعد للنظـام الحكـام أي أهمية في ظل مجتمع يعيش في تكافل وتناصر وتناصح عجيب.

قلت: كيف تقول ذلك.. والدولة بنظامها السياسـي هي الـتي تؤسـس المـدارس والمستشـفيات وجميـع المرافـق العامـة الـتي تحتاجها الرعية.

قالت: لقد تولى المجتمع الإسـلامي الـذي نفخ فيـه الإسـلام روح التكافل كل هذه الوظـائف.. فلم يعـد للحـاكم أي علاقـة بـأي حاجة من حاجات رعيته.. ولم يعد للحاكم أي قـدرة على اسـتذلال رعيته بهذه الحاجات.

قلت: إن هذا لعجيب..

قالت: هو الواقع الذي تدل عليه كل الدلائل.. وسأضرب لـك من الأمثلة ما يبرهن لك على ذلك.

لقد ملأت النصوص المقدسة التي يرتلها المسلمون كـل حين حبا لبعضهم البعض، فصاروا كالجسد الواحد إذا اشتكى منـه عضـو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

التفتت إلي، وقـالت: أتـدري مـا السـر الـذي جعلهم يفعلـون هذا؟

قلت: ما هو؟

قالت: تلك التعاليم العظيمـة الـتي امتلأت بهـا آيـات القـرآن وأحاديث محمد.. لقد جعلتهم يجودون بالغالي والنفيس في سـبيل المصـالح العامـة.. ففي الحـديث: كـان أبـو طلحـة أكـثر الأمصـار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء (اسـم حديقـة

---

1)الطريق إلى مكة ص 167باختصار.

له) وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) (آل عمران:92)، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أن الله تبارك وتعالى يقول: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وإن أحب أموالي إلى بيرحاء، وإنها صدقة. أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: (بخ بخ.. ذاك مال رابح! ذاك مال رابح)(1)

قلت: إن كل ما ذكرته طيب.. ولكن حاجات المجتمع أعظم من أن تفي بها مثل هذه التصرفات التي تصدر عن فئات محدودة.

قالت: لا.. لم تكن هذه تصرفات فئات محدودة.. لقد كانت تنتشر كوعي عام في المجتمع يسد كل حاجاته، ويكفي جميع مصالحه.

سأضرب لك مثالا على شريعة من شرائع الإسلام استطاعت أن تلبي من حاجات المجتمع ما لم تستطع الدول المعاصرة بجميع أساطيلها أن تفي به.

قلت: ما هذه الشريعة؟

قالت: الوقف..

لقد سمع المسلمون محمدا يقول: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم نافع، أو ولد صالح يدعو له)(2)

فراحوا يتنافسون على أن يترك كل مسلم خلفه وقفا صالحا يكتب له أجره بعد موته.. فلذلك غطت الأوقاف الخيرية كل الحاجات الاجتماعية.

لقد نهض الوقف برسالة ضخمة في إقامة المؤسسات الخيرية، ورعايتها، وبرزت أهميته بوجه خاص، في توفر الرعاية الاجتماعية، للطبقات الضعيفة، والفقيرة، ولكل محتاج إلى العون، والرعاية،كابن السبيل، وطالب العلم، والمريض، بل اتسع نطاقه ليشمل أوجه الحياة الاجتماعية(3)، وتكاثرت الأوقاف، وتنوعت تعبيراً عن إحساس الواقفين، بأن هناك ثغرة في المجتمع لا بد أن تستر، أو منكراً يجب أن يزول، أو معروفاً مهملاً يجب أن

1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
2) أحمد.
3) انظر محمد بن عبد الله، الوقف في الفكر الإسلامي 1/11.

يراعى(1).

ومن نماذج ذلك ما ذكره ابن بطوطة عن أوقاف دمشق حينما دخلها قال: (والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها،ومصارفها لكثرتها، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج، يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأسرى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون، ويلبسون، ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطرق، ورصفها، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليها المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير)(2)

ومن أطرف أنواع الوقف التي حكاها ابن بطوطة في دمشق وقف الأواني يقول: (مررت يوماً ببعض أزقة دمشق، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت، واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم أجمع شقفها، واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها وذهب الرجل معه إليه، فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن، وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره، وهو أيضاً ينكسر قلبه، ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا)(3)

ومن أنواع الوقف وقف للقرض المالي بدون فائدة، ووقف لختان الأطفال اليتامى، وأوقاف لنظافة المدينة، وأوقاف لإيناس المرضى، وأوقاف للنساء النافرات من أزواجهن، وأوقاف للمعاقين، هذا فضلاً عن المساجد، والمدارس، والمكتبات، والربط، والمستشفيات، وكان المحسنون يبنون المستشفيات، ويوقفون عليها الأوقاف، وكذا المدارس، والجامعات وأنواع الخدمات الأخرى، كالسقاية، والطرق، والمساكن، وغيرها، مما يصعب حصره(4).

الأمة:

---

1) انظر د. جمال برزنجي، الوقف الإسلامي وأثره في تنمية المجتمع (نماذج معاصرة لتطبيقاته في أمريكا الشمالية) ص 140، ضمن أبحاث ندوة نحو دور تنموي للوقف في الكويت عام 1993م.

2) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة ص104.

3) المرجع السابق ص137.

4) انظر ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية ص310، 311.

قلت: عرفت أهمية الفرد والمجتمع في النظام الإسلامي.. ولكن المجتمعات لابد لها من نظام سياسي يحميها.. وهذا ما لم يفلح الإسلام فيه مقارنة بغيره.

قالت: وكيف عرفت أنه لم يفلح؟

قلت: لقد حكم المسلمون دول كثيرة كان النزاع بينها شديدا.

قالت: نعم.. لقد وقعت أخطاء كثيرة في هذا الباب.. ولكنها لم تكن ناتجة عن الاستمداد من الشريعة الإسلامية.. بل كان مصدرها الأهواء والعصبيات..

ولكن مع ذلك.. فإن ما حصل من ذلك لا يساوي شيئا أمام ما يحصل في هذا العصر..

قلت: كيف ذلك؟

قالت: إن اهتمامنا المتزايد بتفاصيل التاريخ السياسي للمسلمين هو الذي جعلنا نحمل تلك النظرة القاسية.

قلت: لم أفهم ما الذي تريدين قوله.

قالت: لو جمعنا حالات الاضطراب التي مر بها الحكم السياسي في جميع التاريخ الإسلامي وقارناه بحالات الاستقرار.. لوجدنا الاضطراب حالات نادرة في أماكن محدودة في عصور محدودة..

ألا ترى أن الدولة الواحدة في عصرنا تمر في عقد واحد من السنين بجميع أنواع الحكم.. وكل حكم يحاول أن يلغي من قبله؟

قلت: هذه حقيقة.. ونحن نعيشها.

قالت: ولكن الدول الإسلامية الكبرى التي حكمت بلاد الإسلام حكمته لقرون طويلة.. ساد فيها الاستقرار فترات طويلة.

نعم.. ربما تكون قد وقعت بعض المظالم.. ولكنها مظالم محصورة جدا.

قلت: وحاجات المجتمع.

قالت: لقد ذكرت لك أن المجتمع الإسلامي حاول أن يستغني بتكافله التام عن تغير السياسات والحكام.. وهذا ما ضمن للمجتمع استقرارا أعظم بكثير من استقرار السياسة.

***

ما وصلت (هيلين كارير دانكوس) من حديثها إلى هذا الموضع حتى سقطت دموع حارة من عينيها، فقلت لها: ما يبكيك؟

قالت: شيئان.

قلت: ما هما؟

قلت: أمـا أولهمـا.. فموقـف قومنـا الـذين تـاهوا بأنفسـهم وبعقولهم وبمجالسـهم الكثـيرة عن الفضـائل العظيمـة الـتي جـاء الإسلام بها.

فراحوا يفخرون عليـه.. وهم في ذلـك كـالمجرم الـذي يفخـر على القضاة.. وكالأمي الذي يفخر على العلماء.. وكالفاسـق الـذي يفخر على القديسين.

قلت: والثاني؟

قالت: على أولئك المسـلمين الـذين تصـوروا نظـام الإسـلام قاصــرا على كراســي الحكــام.. فراحــوا ينــازعونهم كراســيهم، ويشوهون أنفسهم ودينهم بذلك النزاع.

قلت: ولكن.. هل يرضى مسلم بأن يحكمه فاسق؟

قالت: التغيير ليس بذلك الأسلوب.. التغيير في الإسـلام يبـدأ بإقامة دولة الفرد الصالح.. فـإذا صـلح الفـرد صـلح المجتمـع.. وإذا صلح المجتمع لم يملك الحاكم إلا أن يصلح أو يستقيل.

قلت: إني أعجب لـك حضـرة المستشـرقة الفاضـلة.. كيـف تقفين من الإسلام كل هذه المواقف، ثم لا أراك تعلنين إسلامك!؟

نظرت إلى الأفق البعيد، ثم قالت: ذلـك حلم جميـل عسـاني أفيق بعض الأيام عليه.

قلت: لم أفهم ما تقصدين.

قالت: أتعرف رجاء جارودي؟

قلت: أجل.. وكيف لا أعرفه؟

قالت: لقد كـان أسـتاذا لي.. لقـد عـرف كـل الأنظمـة الـتي حكمت البشرية في جميع مراحلها.. وكـان يبحث عن نظـام يجمـع بين العدالة والرحمة، فلم يجده إلا في الإسلام.. فأسلم.

قلت: سألتك عنك لا عن رجاء.

قالت: أحيانا تجد لغيرك من الجـرأة عن التعبـير عنـك أعظم مما تجده من نفسك.

قالت ذلك، ثم انصرفت..

انصرفت بعدها، ومعي بصيص جديد من النور اهتديت به بعـد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

ثامنا ـ علوم

في اليوم الثـامن من تلـك الأيـام العشـرة المباركـة.. التقيت المستشـرقة الـتي قطفت على يـدها ثمـرة (العلـوم)من شـجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر كون أول آيـات القـرآن تبـدأ بقوله تعالى:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَـانَ مَـا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾ (العلق)

فهـذه الآيـات الكريمـة ــ الـتي هي أول مـا نـزل من القـرآن الكريم ـ لا تشير إلى أهمية العلم فقط.. وإنما تشير أكثر من ذلــك إلى ارتباط العلم بالله وبالدين وبالخلق..

وقد عرفت منها أن انفصال العلم من الدين.. وانفصاله ـ من ثم عن الخلق ـ سيكون وبالا عظيما على العالم.. وعلى البشرية.

وعرفت بهذه الثمرة سر ذلك التوبيخ والعقاب الذي ناله ذلـك الرجل الذي سلخ علمه من دينه.. قال تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَـانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَـوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْـهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)﴾ (القصص)

وعرفت بها سرا خطيرا من أسرار قارون.. فقارون لم يطغه ماله فقط.. وإنما جعله يطغى تلك العلوم التي تميز بها بين الناس، فراح يقول:﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص:78)

وعرفت بها سر النصوص المقدسـة الكثـيرة الـتي تحـذر من فصل العلم عن الدين وعن الخلق.. والتي امتلأ بها القرآن والسنة.

وعرفت بها سر إلحاح الأولياء والقديسين من المسلمين على ربط العلم بالخلق والدين..

وعرفت بها أسرارا كثيرة لا أطيق ذكرها لك الآن..

***

كانت المستشرقة المشهورة الـدكتورة زيغريـد هونكه(1) من

---

1) هي الدكتورة زيغريد هونكه Dr. Sigrid Hunke، وهي مستشرقة ألمانيـة معاصـرة، وهي زوجة الدكتور شولتزا، المستشرق الألماني المعروف الذي تعمـق في دراسـة آداب العرب والاطلاع على آثارهم ومـآثرهم. وقـد قضـت هونكـه مـع زوجهـا عـامين اثـنين في مراكش، كما قامت بعدد من الزيارات للبلدان العربية.

الأسماء الضخمة التي وضعت في الدفتر الذي سلمني إياه المرشد.. ولذلك كنت أتحين الفرص للقائها، والحديث معها، لأعرف سر ذلك المروق الذي شرفها بتسجيلها في ذلك الدفتر.

كنت أعلم مدى اهتمامها بالعلوم الإسلامية، والحضارة الإسلامية التي أنتجت تلك العلوم.. ولكني لم أكن أعرف المحرك الذي حركها لذلك إلى أن التقيتها ذلك اليوم.

في ذلك الصباح الذي التقيتها فيه كنت مارا على جنان تمتلئ بعناقيد العنب المباركة، فبقيت أنظر إلى تلك المصانع الصغيرة الكثيرة التي تصنع ألذ العصائر وأشهاها وأكثرها إفادة للصحة.

بينما أنا كذلك إذ سمعت أصواتا ترفع تكاد تقترب من الخصومة.. فسارعت إلى الدخول من غير استئذان لأفك الخصومة، أو أمنع حدوثها.

في ذلك الحين رأيت تلك المستشرقة التي طالما حلمت بالجلوس إليها..

لقد كانت هي صاحب الصوت المرتفع، وكانت تقول بجرأة عظيمة لصاحب البستان: إن هذه جريمة.. جريمة بحق الإنسانية.. وجريمة بحق العنب..

قال لها الرجل: ولكن كل الناس يفعلون ذلك.

قالت: وهل تتبعهم في جرائمهم.. أو في جنونهم..!؟

قال لها الرجل: لست أدري لما تتحاملين علي بهذه الصورة؟

قالت: لأنك تحول من البركة خبثا.. ومن الدواء داء.. ومن الترياق سما.. فكيف لا أتحامل عليك، وأنت تخرب بنيان الله، والطبيعة التي طبع الله عليها الأشياء!؟

من آثارها: (أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية) وهو أطروحة تقدمت بها لنيل الدكتوراه من جامعة برلين، و(الرجل والمرأة) وهو يتناول جانبًا من الحضارة الإسلامية (1995)، و(شمس الله تسطع على الغرب) الذي ترجم بعنوان: (شمس العرب تسطع على الغرب)، وهو ثمرة سنين طويلة من البحث والدراسة.

وقد اخترناها للحوار معها في هذا الفصل لشهاداتها الكثيرة المعروفة حول الإسلام والعلوم الإسلامية والحضارة الإسلامية.. ومنها قولها:(لقد أوصى محمد كل مؤمن رجلاً كان أو امرأة بطلب العلم، وجعل من ذلك واجبًا دينيًا. وكان يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة التعرف على قدرة الخالق. وكان يرى أن المعرفة تنير طريق الإيمان.. ويلفت أنظارهم إلى علوم كل الشعوب، فالعلم يخدم الدين والمعرفة من الله وترجع إليه، لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها وينالوها أيًا كان مصدرها ولو نطق بالعلم كافر. وعلى النقيض تمامًا يتساءل بولس الرسول مقرًا: (ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة)؟ مفهومان مختلفان، بل عالمان منفصلان تمامًا، حدّدا بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر في الشرق والغرب وبهذا اتسعت الهوة بين الحضارة العربية الشامخة والمعرفة السطحية المعاصرة في أوروبا حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها.."(شمس العرب تسطع على الغرب، ص 369) (انظر: قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل)

قال لها الرجل: لا أرى إلا أن رحلتك لتلك البلاد.. وسكنك بين أولئك المتخلفين قد أثر فيك، وفي عقلك.. فدعيني أفعل ما أشاء.. فالأرض أرضي.. وعنبها عنبي.. ولي الحرية المطلقة في أن أحوله داء أو دواء..

قال ذلك بغضب شديد، ثم انصرف إلى عماله..

أما أنا، فاقتربت منها، وسألتها عن سر اختلافها مع هذا الرجل، فقالت: هذا الرجل أخي.. وقد ورث هذا البستان من زوجة له.. وقد كان يبيع عنبه كل سنة طيبا مباركا، ليأكله الناس كما خلقه الله.. ولكنه هذه السنة.. وبتأثير جماعة من المجرمين قرر أن يبيعه لصانعي الخمور، ليحولوا منه سما زعافا.

قلت لها: إن كل الناس يفعلون ذلك.. ولا يرون بذلك بأسا.

قالت: وهذا هو الخطر الأكبر.. أن يجتمع الناس على عدم إنكار المنكر.. بل على اعتبار المنكر معروفا..

قالت ذلك، ثم رمت ببصرها إلى الأفق البعيد، وسالت دمعة حارة من عينها، ثم قالت: متى يأتي اليوم الذي تشرق فيه شمسك يا محمد على هذه البلاد.. وعلى هؤلاء العباد.. ليعود الإنسان إلى الإنسان.. وتعود الحياة إلى الحياة.

قلت: مع من تتحدثين؟

قالت: أشواقي هي التي تتحدث.. لقد من الله علي أن أعيش بين ثلة من المسلمين استظلوا بظلال محمد.. وأشرقت عليهم أشعة شمسه.. فعرفت الإنسان، وعرفت الحياة.. وعرفت بعدنا عن الإنسان والحياة.

قلت: كيف تقولين هذا!؟.. ونحن أمة العلوم التي فجرت من أنهار العلوم وبحارها ما كان كامنا مختفيا، لا تراه الأبصار، ولا تسمع به الآذان.

قالت: ونحن من الأمة التي غرقت في تلك الأنهار والبحار، فلم تجد منقذا.

قلت: ما تقصدين؟

قالت: إن العلوم وتطبيقات العلوم التي فتحنا أبوابها كلها.. وأكلنا من شجرها جميعا تشبه تلك الجنة التي دخل إليها آدم.. مع فارق بسيط هو أن آدم أقدم مرة واحدة على الأكل من تلك الشجرة التي نهي عن الأكل منها.. ولكنا لم نأكل مرة واحدة.. بل رحنا نمزج من ثمار تلك الشجرة جميع ثمارنا، ونخلط سمها بجميع طعامنا.

قلت: ولكن آدم خـرج من الجنـة بأكلـه من تلـك الشـجرة.. ونحن دخلنا إليها بأكلنا منها.

قـالت: نحن لم نخـرج من الجنـة فقـط.. بـل خرجنـا من الإنسانية.. ونحن نغبط آدم، فقد خرج ـ على الأقل ـ بإنسانيته..

قلت: أنت متشائمة كثيرا!؟

قالت: عندما تكون في الظلام لا تبصر غير الظلام..

قلت: أليس هنـاك بصـيص من النـور يمكن أن يخـترق حجب الظلام ليعيد نهار البشرية!؟

قالت: أجل.. ذلك كائن لا محالة.. وقد نعمت به البشرية فترة طويلة.. وسيعود.. سيعود.. لي أمل كبير في ذلك.

قلت: أفصحي.. فإني لا أطيق فك ألغازك.

قالت: أعرفك بنفسي أولا.. أنـا زيغريـد هونكـه.. لسـت أدري هل سمعت بهذا الاسم أم لا..

قلت: بلى.. لقد سمعت به.. وأنا من بلدك.. من ألمانيا.. وقـد سمعت بكتابـك عن إشـراقة شـمس الإسـلام على الغـرب.. وقـد تعجبت من كتابتك له.

قالت: لقد بثثت فيـه بعض مـا علي من دين نحـو تلـك الأمـة العظيمة التي غرس شجرتها محمد.

قلت: ما الذي جعلك تميلين كـل هـذا الميـل لمحمـد، ولـدين محمد؟

قـالت: لأنـه حافـظ على الإنسـان، فلم يحولـه إلى حيـوان.. وحافـظ على العنب، فلم يحولـه إلى خمـر.. وحافـظ على الأنهـار، فلم يحولها إلى مستنقعات..

قلت: ليس محمدا وحـده هـو الـذي فعـل هـذا.. حـتى أولئـك البدائيين البسطاء الذين لم تنفتح لهم فتوح العلم فعلوا هذا.

قالت: فرق عظيم بين ما فعله محمد وثمـار محمـد، وبين مـا فعله أولئك البسطاء.

قلت: ما الفرق بينهما؟

قالت: أولئك البسـطاء لم تنفتح لهم العلـوم.. ولم يغيروهـا.. ولكن الثمار التي رباها محمد على عينه فتحت لهـا خـزائن العلـوم لكن تربيـة محمـد جعلتهم يتـأدبون.. فلا يتنـاولون منهـا مـا يحـرف الإنسان، وما يحرف الأكوان.

لقد سمعوا ربهم يقـول لهم: لا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللَّهِ (الـروم: 30)، فراحوا يحافظون على أصالة الإنسان وأصالة الأكوان.

وسمعوا ربهم يربط بين العلم والإيمان، فيقول لهم: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر:28)، فراحوا يمزجون بين العلم والخشية.

وسمعوا ربهم يحدثهم عن الطواغيت الذين حرفوا العلم.. وانحرفوا بالعلم.. وبطروا بالعلم.. فراحوا يفرون من سلوكهم.. ويربطون علمهم بربهم، وبإيمانهم، وبمصالح البشرية التي كلفوا برعايتها.

أما قومنا.. فلا ينطبق عليهم إلا ما ورد في القرآن من خبر ذلك الذي سلخ علمه عن إيمانه.. ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الأعراف:175-176)

إن هذا المثال يكاد ينطبق تماما على الكثير من اكتشافات هذا العصر.. حيث تلهث البشرية كل حين وفي كل مجال، وتستغل العلم لتغذي ذلك اللهث الذي لا ينقطع.

قلت: إن في كلامك هذا دعاوى كثيرة تحتاج إلى برهان.. فلا يمكن لعقلي أن يقبل الدعوى من غير برهانها.

قالت: اجلس.. وسأحدثك عن الحقائق التي اكتشفتها بعد بحث طويل في الأديان والمذاهب والأفكار بحثا عن شجرة العلوم التي سقيت بمياه الإيمان، وأشرقت عليها شمس العرفان.. فلم أجدها إلا في دين محمد.

علوم الجاهلية

قلت: فهل سنبدأ بالحديث عن الجاهلية!؟

قالت: لا تعرف قيمة الفضائل إلا إذا قارنتها بالرذائل.. ولا يعرف شرف الحقائق إلا إذا قارنتها بالأباطيل.

قلت: فبأي جاهلية تحبذين أن نبدأ حديثنا؟

المسيحية:

قالت: بالمسيحية.. بالدين الذي تنتسب إليه هذه الحضارة.. أو بالدين الذي تخلصت منه هذه الحضارة.

قلت: لا علاقة للمسيحية بالعلوم.. فالمسيحية دين الملكوت لا دين الملك.. وهي تبحث في حقائق الأزل، لا في أباطيل الفناء.

قالت: لقد أتيحت للمسيحية، ولرجال الدين، وللكنيسة أن

تكون لها في فترة طويلة علاقة بالعلم.. فتعال بنا نرى مـاذا فعلت في تلك الفرصة العظيمة التي أتيحت لها(1)؟

نظرت إلى عناقيـد العنب المتدليـة، وقـالت: بمثـل التحريـف الذي يريـد أخي أن يحـرف بـه هـذه العصـارات المباركـة، حـرفت الكنيسة الحقائق.. فتبنت الجهل الذي اعتبرته علما، وقاومت العلم الذي اعتبرته جهلا.. فأخطأت خطأين لا نزال نصلى نارهما: نصرت الجهل، وحولت العلم عن وجهة الدين، لينفصل عن الدين.

قلت: فحدثني عن الخطأ الأول.

قالت: كما تسربت الوثنيات إلى عقائـد المسـيحية، وتسـربت طقوس الوثنية إلى شعائرها، تسربت الخرافات إلى علومهـا.. ولم تكتف بقبولها، بل راحت تحتكرها، وتعتبرها عقائد لازمـة يحـرم من جحدها.

يقول برنتن: (إن أكثر أصحاب الوظائف العلمية حتى في أوج العصـور الوسـطى كـانوا ينتمـون إلى نـوع من أنـواع المنظمـات الدينية، وكانوا جزءاً من الكنيسة، حيث أن الكنيسـة بدرجـة لا نكـاد نفهمهـا اليـوم تتـدخل في كـل لـون من ألـوان النشـاط البشـري وتوجهها وبخاصة النشاط العقلي)

ويقول: (وإذن فقـد كـان الرجـال الـذين يتلقـون تعليمهم في الكنيسة يكادون يحتكرون الحياة العقليـة، فكـانت الكنيسـة منصـة المحاضرة والصحافة والنشر والمكتبـة والمدرسـة والكليـة، وكـان أصـحاب الميـول الفلسـفية في الـدول الروميـة سـواء من رجـال الكنيسة أو من المسـيحيين العـاديين، متـأثرين بـتراثهم من الفكـر الإغــريقي في ميــادين العلم والفلســفة، لا ســيما آراء أرســطو وبطليموس، وقد بذلوا جهودهم في التوفيق بين معتقداتهم الدينيـة وآرائهم الفلسفية.ونشأ عن ذلك فلسفة مركبـة تسـمى (الفلسـفة المسـيحية)، وهي خليـط من نظريـات الإغريـق وظـواهر التـوراة والأناجيل وأقوال القديسين القـدامى، ولمـا كـان العلم والفلسـفة في ذلك العصر شيئاً واحـداً، فقـد أدمج الفلاسـفة المسـيحيون في صرح فلسفتهم كل ما وصل إليـه العلم البشـري في عصـرهم من النظريات الكونية والجغرافية والتاريخيـة، ورأت الكنيسـة في هـذه الفلسفة التوفيقية خير معين على الدفاع عن تعليمها ضد المارقين والناقدين، فتبنتها رسمياً وأقرتها مجامعها المقدسـة حـتى أضـحت جزءاً من العقيدة المسـيحية ذاتهـا وامتـدت يـد التحريـف فـأدخلت

1) انظر المراجع التي تتحدث عن العلمانية التي سبق ذكرها.

بعض هذه المعلومات في صلب الكتب الدينية المقدسة)[1]

لقد تبنت الكنيسة آراء أرسطو في الفلسفة والطب ونظرية العناصر الأربعة ونظرية بطليموس في أن الأرض مركز الكون.. وما أضاف إلى ذلك كله القديس أوغسطين وكليمان الإسكندري وتوما الاكويني.. واعتبرت هذا المزيج من الآراء البشرية أصولاً من أصول الدين المسيحي وعقائد مقدسة لا يصح أن يتطرق إليها الشك.

وقد كانت هذه العلوم المسيحية تشتمل على معلومات تفصيلية عن الكون.. تذكر بأن الله خلق العالم ابتداء من سنة 4004 ق.م، وتوج ذلك بخلق الإنسان في جنة عدن.. والعجيب أنها ظلت مصرة على هذا الرأي حتى مطلع القرن التاسع عشر، فقد طبع كتاب الأسقف (آشر) الذي يحمل هذه النظرية سنة 1779 م [2].

أما تاريخ الطوفان فتختلف فيه تقاويم التوراة، لكنه على أقصى آرائها وقع بعد خلق آدم بـ (2262)سنة[3]، ومعنى ذلك أنه كان سنة 1742 ق.م.

ومن الطريف أن مجلساً كنسياً كان قد أعلن في بداية القرن العاشر للميلاد أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل، لأن الله قد جعل المدة بين إنزال ابنه ونهاية العلم ألف سنة فقط[4].

هذه بعض معلوماتها التاريخية..

أما معلوماتها الطبية، فقد كانت أفضل وأنجح الوسائل العلاجية في نظرها إقامة الطقوس لطرد الشياطين التي تجلب المرض، ورسم إشارة لصليب ووضع صور العذراء والقديسين تحت رأس المريض ليشفي.

قلت: عرفت الخطأ الأول.. فما الخطأ الثاني؟

قالت: لقد أتيح لقومنا أن يروا بعض ثمار العلوم التي أنتجتها الشجرة التي غرسها محمد.. وذلك بفضل مراكز الحضارة الإسلامية في الأندلس وصقلية وجنوب إيطالية التي كانت بتشع نور العلم والمعرفة على القارة المستغرقة في دياجير الخرافة والجهل، فاستيقظ العقل الأوروبي من سباته وأخذ يقتبس عن

---

1) انظر استمداد المسيحية من الفلسفة من كتاب المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص 101 فما بعد.
2) انظر معالم تاريخ الإنسانية: ج1 ص16.
3) انظر: إظهار الحق:218.
4) انظر قصة الحضارة:14/ 379.

المسلمين طرائق البحث ومناهج التفكير التي تجعلـه يكـد ويعمـل في مجال اختصاصه.

وفي ذلك الحين وقع الخطأ الثاني الذي لا نزال نعاني آثاره..

لقـد ثـارت ثـائرة رجـال الكنيسـة على الـذين يتلقـون علـوم الكفار.. والذين لم يكونوا في نظرهم غير المسلمين..

فلــذلك أعلنت حالــة الطــوارئ ضــدهم، وشــكلت محــاكم التفــتيش في كــل مكــان تتصــيدهم وتــذيقهم صــنوف النكــال.. وأصـدرت منشـورات بابويـة جديـدة تؤكـد العقائـد السـابقة وتلعن وتحــرم مخالفيهــا.. وبــذلك قــامت المعركــة بين الكنيســة والعلم، وأخذت تزداد سعاراً بمرور الأيام.

لقد كان من أول النظريـات العلميـة الـتي صـادمت الكنيسـة نظريــة كوبرنيــق (1543) الفلكيــة، فقبــل هــذه النظريــة كــانت الكنيسة المصدر الوحيد للمعرفـة، وكـانت فلسـفتها تعتنـق نظريـة بطليمـوس الـتي تجعـل الأرض مركـز الكـون، وتقـول أن الأجـرام السماوية كافة تدور حولها.

فلما ظهر كوبرنيق بنظريته القائلـة بعكس ذلـك كـان جـديراً بأن يقع في قبضـة محكمـة التفـتيش، ولم ينج من ذلـك لأنـه كـان قسيساً، بـل لأن المنيـة أدركتـه بعـد طبـع كتابـه بقليـل، فلم تعـط المحكمة فرصـة لعقوبتـه، إلا أن الكنيسـة حـرمت كتابـه (حركـات الأجرام السماوية)، ومنعت تداوله وذكرت أن ما فيه هـو وسـاوس شيطانية مغايرة لروح الإنجيل.

وقد ظن رجال الكنيسة أن أمر هذه النظرية قد انتهى، ولكن رجلاً آخـر هـو (جردانـو برونـو) بعث النظريـة بعـد وفـاة صـاحبها، فقبضــت عليــه محكمــة التفــتيش، وزجت بــه في الســجن ســت سنوات، فلما أصر على رأيـه أحرقتـه سـنة 1600م وذرت رمـاده في الهواء وجعلته عبرة لمن اعتبر.

وبعد موته ببضع سـنوات كـان (جـاليلو) قـد توصـل إلى صـنع المرقب (التلسكوب)، فأيد تجريبياً ما نادى به أسلافه نظرياً، فكـان ذلك مبرراً للقبض عليه ومحاكمته، وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان، وأمر بتلاوة مزامـير النـدم السـبعة مـرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات (1)..

ولمـا خشـي على حياتـه أن تنتهي بـالطريق الـتي انتهى بهـا برونو أعلن ارتداده عن رأيـه، وهـو راكـع على قدميـه أمـام رئيس

1) معالم تاريخ الإنسانية:1/1008.

المحكمة قائلاً: (أنا جاليلو.. وقد بلغت السبعين من عمري.. سجين راكع أمام فخامتك، والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدي، أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادي الخاطئ بدوران الأرض)

ولم يكتف بهذا التعهد.. بل أضاف إليه التعهد بتبليغ المحكمة عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل(1).

قلت: فما الذي جعل الكنيسة تصر على تلك الآراء كل ذلك الإصرار، مع أن ذلك لم يذكر في الكتاب المقدس؟

قالت: وهل تتبنى الكنيسة شيئا مما في الكتاب المقدس!؟.. لقد رأت الكنيسة أن الأرض يجب أن تكون مركز الكون الثابت لأن الأقنوم الثاني.. الذي هو المسيح.. تجسد فيها، وعليها تمت عملية الخلاص والفداء، وفوقها يتناول العشاء الرباني.

وأضافوا إلى هذا ما فهموه من قول التوراة: (الأرض قائمة إلى الأبد، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق) (انظر: سفر الجامعة:1/ 5-6)

أما كروية الأرض وسكنى جانبها الآخر، فنفتها الكنيسة بحجة أن (من خطل الرأي أن يعتقد الإنسان بوجود أناس تعلو مواطئ أقدامهم على رؤوسهم وبوجود نباتات وأشجار تنمو ضاربة إلى أسفل، وقالت إنه لو صح هذا الزعم لوجب أن يمضي المسيح إلى سكان الوجه الآخر من الأرض ويموت مصلوباً هناك من أجل خلاصهم)(2)

قلت: فهل أفلحت الكنيسة في نصرة آرائها ومقاومة الهراطقة؟

قالت: على العكس تماما.. فلم يكد القرن السابع عشر يستهل حتى كان لنظرية كوبرنيق وما أضاف إليها برونو وجاليلو آثار واسعة، ظلت راسخة في الفلسفة الأوروبية عامة.

وذلك ما أحدث أثرا خطيرا في ثقة الجماهير بالكنيسة جعلتهم يشكون في سلامة معلوماتها، وهو أثر له أهميته القصوى.

لقد قدم ذلك الصراع إيحاءات فلسفية جديدة، هزت فكرة الثبات المطلق التي كانت مسيطرة على العقلية الأوربية وحطت كذلك من قيمة الإنسان ومكانته في الوجود.

والأخطر من ذلك كله هو ما حصل من ثورة العلماء على

---

1) قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل /205 وانظر كذلك تكوين العقل الحديث 3/348.

2) قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل /205 وانظر كذلك تكوين العقل الحديث 3/348.

الكنيسة كما ثار العامة عليها.. وتولد من تلك الثورة جاهلية جديـدة فصلت العلم عن المبادئ والمثل.

قلت: فهل سكتت الكنيسة؟

قـالت: لا.. الكنيسـة لم تسـكت.. ولم تبحث عن أي محاولـة توفيق تحفظ للعلم حرمته، وتحفظ للدين قداسته.

قلت: فماذا فعلت؟

قـالت: سـلاح الإرهـاب الـتي تـدربت على اسـتعماله في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش..

لقـد كـان القـرن السـابع عشـر هـو القـرن الـذهبي لمحـاكم التفتيش.. فقد قاسى العلماء أنواع الاضطهاد، واستخدمت ضـدهم أساليب القمع الوحشـية وظهـرت الفهـارس أو (القـوائم البابويـة) التي تحتوى على أسماء الكتب المحرمـة، وكـان وجـود شـيء من هذه الكتب في حوزة إنسان ذريعة لسـوقه إلى محكمـة التفـتيش وتعريضه لأليم عقابها.

لقد قاومت الكنيسـة كـل محاولـة للتجديـد وإن كـانت نافعـة خيرة، فقد كفرت رئيس بلدية في ألمانيا لأنه اخترع غاز الاستصباح بحجة أن الله خلق الليل ليلاً والنهار نهاراً، وهو بمخترعه يريد تغيـير مشيئة الخالق فيجعل الليل نهاراً.

واضـطرب حبـل الكنيسـة بظهـور الـروح الجديـدة اضـطراباً واضحاً وألقت بكل ثقلهـا في معركـة كـانت في غـنى عن دخولهـا أمام الناس، لا سيما المثقفون الذين انتهـزوا الفرصـة وخيـل إليهم أن الأقـدار قـد لاقت أيهم مفتاحـاً سـحرياً يخلصـهم من سـجن الكنيسة وأغلالها ذلك هو مفتاح (العلم والتجربة)

قلت: فهل سكت الناس؟

نظرت إلى عناقيد العنب نظرة ألم، ثم قالت: لقد بـدأ العنب في ذلك الحين ــ بحكم تصـرفات الكنيسـة الحمقـاء ــ يتحـول إلى خمر..

لكن مع ذلك.. بدأت خطايا الكنيسـة والمسـيحية الـتي كـانت تغطى بستار القداسة تفتضح.. وأصـبحت للنـاس ــ وللعلمـاء على الأقل ـ الجرأة الكافية ليقولوا للكنيسة: لا.

وكان (سبينوزا) ذلك اليهـودي المتحـرر من هـؤلاء.. بـل لعلـه أعنفهم.. فقد طبـق المنهج العقلي على الكتـاب المقـدس نفسـه، ووضع الأسس التي قـامت عليهـا (مدرسـة النقـد التـاريخي) الـتي ترى أنـه يجب أن تـدرس الكتب الدينيـة على النمـط نفسـه الـذي

تدرس به الأسانيد التاريخيـة.. أى على أسـاس أنهـا تـراث بشـري، وليست وحياً إلهيا.

وقد استنتج سـبينوزا ــ انطلاقـا من تطـبيق هـذا المنهج ــ أن أسفار التوراة لم يكتبها موسى، مستدلاً بمـا جـاء في سـفر التثنيـة من ذكر موت موسى ورثائه، وقـول كـاتب السـفر: (لم يـأت نـبي مثله من بعده)(1)

واسـتطاع أن يثبت أن التـوراة قـد عينت أمـاكن بأسـماء لم (توضع لها إلا بعد موسى بقرون عديدة)(2)

وفي إنجلترا طور جيبون النقد التاريخي للمسـيحية في كتابـه (سقوط الإمبراطورية الرومانية واضمحلالها).. أما هليوم فقد ابتدع مذهب الشك المطلق الذي كان ثورة نفسية على الإيمان المطلق طوال القرون الماضية.

كما استطاع (باسـكال) أن يوجـه نقـده إلى عقيـدة الخطيئـة قـائلاً: (لا شـيء يـزحم العقـل الإنسـاني بـالألم كعقيـدة الخطيئـة الأصلية، وأنه ليبدو أبعد ما يكون عن العقـل أن يعـاقب إنسـان من أجل خطيئة اقترفها أحد أسلافه منذ أربعة آلاف سنة)

أما (جون لوك)، فقد خطا خطوة أبعد من ديكارت بأن طالب بإخضـاع الـوحي للعقـل عنـد التعـارض قـائلاً: (من اسـتبعد العقـل ليفسح للوحي مجالاً، فقد أطفأ نـور كليهمـا وكـان مثلـه كمثـل من يقنع إنساناً بـأن يفقـأ عينيـه ويسـتعيض عنهمـا بنـور خـافت يتلقـاه بواسطة المرقب من نجم سحيق)

كما دعا إلى تطبيق مبدأ جديد على الحياة الأوربية آنذاك، وهو مبدأ التسامح الديني وإعطاء الحق لكـل إنسـان في أن يعتنـق مـا يشاء ويكفر بما يشاء من الأديان والمذاهب.

قلت: فكيف سكتت الكنيسة على هؤلاء؟

قالت: لقد ظل صوتهم خافتـاً أمـام بطش محـاكم التفـتيش، وضغط المجتمع الذي كان يدين بالمسيحية ويراها جزءاً من كيانه.. ولذلك لم يحرقوا.. ولكن تراثهم مع ذلك تعرض للحرق والمصادرة كما تعرضوا شخصياً للإيذاء والمضايقة من قبـل الكنيسـة.. إلى أن تفجـر البركـان العلمي في كـل مكـان والخلافـات الداخليـة بين الطوائـف المسـيحية شـغلتها عن إعطـائهم مـا يسـتحقون من الاهتمام.

---

1) انظر: رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.
2) انظر: رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا، ترجمة: حسن حنفي.

كمـا أن النظريـات الجديـدة عن الكـون في هـذا القـرن قـد غمـرت الأفكـار الفلسـفية، واسـتأثرت بالاهتمـام البـالغ من قبـل الأوساط الدينية والعلمية على السواء.

قلت: فهل توقف النقد عند ذلك الحد المؤدب؟

قالت: بل تجاوز النقـد حـد الأدب ليفسـح الأمـر لإلـه العقـل الذي خلف إله الكنيسة..

لقد ظهر فولتير الذي كان أعدي أعداء الكنيسـة آنـذاك.. لقـد نقد الكنيسة نقدا لاذعا..

وكان أول ما انتقده العقيـدة المسـيحية في التثليث وتجسـيم الاله والصـور المقدسـة وأنحى باللائمـة على بـولس الـذي طمس المسيحية وحرفها، ولذلك كـان الإيمـان بالمسـيحية في نظـره هـو (الاعتقاد بأشياء مستحيلة أو بأشـياء تستعصـي على الفهم فالحيـة تتكلم والحمار يتحدث وحوائط أريحا تتساقط بعـد سـماعها صـوت الأبواق، إن الإيمـان على هـذا النحـو هـو على مـا يقـول أرازم هـو الجنون)

أما الخطيئة الأولى فيرفضها فولتير، ويعتبرها إهانة لله واتهاماً له بالبربرية والتناقض، وذلك للتجرؤ على القول بأنه خلـق الأجيـال البشرية وعذبها لأن أباهم الأول قد أكل فاكهة من حديقته(1).

وقد انتقد فولتير الطقـوس السـبعة نقـدا مريـرا، وسـخر من الكتـاب المقـدس سـخرية لاذعـة تتجلى في قولـه تعليقـا علي معلومات التوراة الجغرافية: (من الواضح أن الله لم يكن قويـا في الجغرافيا).. وقوله عن صـيام المسـيحية (دواء للفقـراء لا يتعاطـاه الأغنياء)، ويـري (أن الطقـوس والشـعائر والعبـادات و الاحتفـالات الدينيـة جـرائم محليـة يعـاقب عليهـا كـل من يزاولهـا لأنهـا ضـارة بالمجتمع خاصة إذا تمت في صورة أضاح وقرابين)

أما آراؤه السياسية، فقـد عـبر عنهـا بقولـه: (إن التوحيـد بين الدين والدولة لهو أبشع نظام لذلك يجب إلغاؤه وإقامة نظـام آخـر يخضع فيه رجال الدين لنظم الدولة ويخضع فيها الراهب للقاضي)

وقال: (إنه لا يمكن طاعة البشـر باسـم طاعـة اللـه لابـد من طاعة البشر باسم قوانين الدولة)(2)

---

1) سلسلة تراث الإنسانية ج 8 ص 78، 80.

2) وقد كان فولتير صرح ببعض التصريحات ضد الإسـلام قبـل أن يعرفـه، ولكنـه بعـد معرفته أعلن توبته عن مواقفـه من الإسـلام، ومن محمـد ﷺ ولكن الأضـواء لا تسـلط إلا على أقواله الأولى، أما أقواله الأخيرة فقد طُمست، فهو يعترف بأنه كـان ضـحية الأفكـار السائدة الخاطئة:(قد هدم محمد الضلال السائد في العالم لبلوغ الحقيقة، ولكن يبدو أنه يوجد دائماً من يعملون على استبقاء الباطل وحماية الخطأ)

قلت: فهل سكتت الكنيسة؟

قالت: لا.. لقد جـزعت الكنيسـة من هـذه الانتقـادات والآراء جزعـا شـديدا ولعنت فولتـير وأشـياعه وكفـرتهم وحـرمت قـراءة كتبهم.. وتعـرض فولتـير للمضـايقة والاضـطهاد من قبـل رجـال اللاهوت، حتى أنه قال مخاطبا إنسان ذلك العصر: (أنت طـائر في قفص محاكم التفتيش.. لقد قصت محاكم التفتيش جناحيك)(1)

العقلانية:

قلت: عرفت هذا ووعيته.. فما الجاهلية الثانية؟

قالت: لقد أسسـت الجاهليـة الأولى للجاهليـة الثانيـة.. وهي جاهلية لبست لباس العقل(2) كرد فعـل ضـد موقـف الكنيسـة من العلم.. وهي جاهلية تدعو للكفر بالكنيسة وبكل دين..

قلت: هذا موقف طبيعي.. وقد كان رد فعل.

قـالت: ولكنـه رد فعـل خـاطئ.. فالـدين ليس محصـورا في الكنيسـة.. لقـد كـان في إمكـان العقلاء أن ينظـروا في الأديـان ويدرسوها دراسة موضوعية ليبحثوا عن الحقيقة، ويسلموا لها.

قلت: ألم يفعلوا؟

قالت: لو فعلوا لما وقعنا فيما وقعنا فيه.

قلت: فماذا فعلوا؟

قالت: لقد استبدلوا إله الكنيسة بإله العقل.. لقد صار العقـل هو الإله الجديد لذلك العصر.. وصـار المخـبر هـو الكنيسـة.. وصـار البشر هم القرابين التي تقدم لمحرقة كنيسة العلم.

قلت: أفصحي عن مرادك.. فلا طاقة لي بفهم ألغازك.

قالت: لقد وصف برنتن ذلك العصر الذي ابتدأت فيـه عبوديـة العقل المصارع لإله الكنيسة، فقال: (كان العقل للرجل العادي في عصر التنوير هو كلمة السر الكبرى لعالمه الجديد، العقل هو الـذي

ثم يقول في قاموسه الفلسفي:(أيها الأساقفة والرهبان والقسيسون إذا فُرض عليكم قانون يحرم عليكم الطعام والشراب طـوال النهـار في شـهر الصـيام.. إذا فـرض عليكم الحج في صحراء محرقة.. إذا فُرض عليكم إعطـاء 2,5 بالمائـة من مـالكم للفقـراء.. إذا حُرِّم عليكم شرب الخمور ولعب الميسر.. إذا كنتم تتمتعون بزوجات تبلـغ ثمـاني عشـرة زوجة أحياناً، فجاء من يحذف أربع عشرة من هذا العدد، هل يمكنكم الإدعاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذّات؟!)

ويقول:(لقد قـام الرسـول بـأعظم دور يمكن لإنســان أن يقـوم بـه على الأرض... إن أقل ما يقال عن محمد أنـه قـــد جـاء بكتـاب وجاهـد، والإسـلام لم يتغـير قـط، أمـا أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة)

1) مقتطفات من سلسة قراءات إنسانية ج 8 ص 80 – 87.

2) نقصد بالعقلانية هنا كل المناهج العلمية التي تسـتبعد الـوحي، لا المنهج الفلسـفي المعروف الذي اشتهر به ديكارت وغيره.

يسوق الناس إلى فهم الطبيعة.. وهذه هي كلمة السر الثانية الكبرى.. وبفهمه للطبيعة يصوغ سلوكه طبقاً لها، وبذلك يتجنب المحاولات العابثة التي قام بها في ظل لأفكار المسيحية التقليدية الخاطئة، وما يخالفها في الأخلاق والسياسة ممالا يناقض الطبيعة)(1)

وقد بين أن السبب في هذا يعود إلى المسيحية التي طبعتها الكنيسة بطابعها الخاص، قال: (إن المسيحية التقليدية لم تعد قادرة على أن تمد المستنيرين بنظرية كونية فقد بدأ الناس يعرفون ما يكفي من الجيولوجيا لكي يبين أن تاريخ الخليقة الذي حدده الأسقف (آشر) بعام 4004 ق م وتاريخ قصة الطوفان بعيدا الاحتمال.. ولكن مبدأ التثليث في المسيحية مثلاً: إن الرياضة كانت ضد هذا المبدأ فإن أي نظام رياضي محترم لا يسمح بأن يكون الثلاثة ثلاثة وواحداً في آن واحد، أما عن المعجزات فلماذا توقفت؟ إذا أمكن إحياء الميت في القرن الأول، فلماذا لا يحيا في القرن الثامن عشر)(2)

لقد تخلص الإنسان في هذا العصر من القيود التي كانت تربطه بالكنيسة، فراح يتمرد عليها في كل شيء..

لقد انطلق العقل من أغلاله في ذلك العصر، ولم يعد مقيداً بأغلال الثنائية الديكارتية، بل بدأ يبحث عن ذاته، ويسلك طريقه لكي يتصرف كما لو كان (إلها) بالفعل، وتعالت أصوات الباحثين والفلاسفة منادية بأن العقل هو الحكم الوحيد والعقل هو كل شيء وما عداه فوهم وخرافة، ابتداء بالوحي وانتهاء بالفداء والصلب والرهبانية.. فكلها أباطيل مضللة وعقائد مرذولة لأنها لا تتسق مع العقل.

قلت: ولكن العقل.. والمنطق العقلي.. يقتضي وجود الله.. بل وجود كمالات الله.

قالت: إن رد فعل العقلانيين على الكنيسة جعلهم ينفرون من الإله نفورا كليا.

قلت: فبم استبدلوه؟

قالت: بالطبيعة.. لقد حلت الطبيعة محل الإله.. كما يقول (سول): (صار لزاماً على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه في الطبيعة)(3)

---

1)أفكار ورجال: 474، 476.
2)أفكار ورجال: 476.
3) جورج سول: المذاهب الاقتصادية الكبرى:51.

وكتب الفكر الغربي تسمي ذلك العصر عصر (تأليه الطبيعة)، أو عبادة الطبيعة، وليست هذه العبارات مجازاً، بـل هي مسـتعملة على الحقيقـة تمامـاً، فكـل صـفات اللـه الـتي عرفهـا النـاس عن المسيحية نقلها فلاسفة الطبيعة إلى إلههم الجديد، مع فـارق كبـير بين الإلهين في نظرهم.

فإله الكنيسة حقود يعـذب السـلالة البشـرية ويقتـل ابنـه لأن الإنسان الأول أكل فاكهة من حديقته.. وهو إله متعنت يضع القيـود الاعتباطية على حرية الإنسـان ويقيـده بالالتزامـات ويفـرض عليـه الرهبانية والخضوع المذل لممثليه على الأرض.

أمـا الطبيعـة فإلـه جـذاب رحب الصـدر ليس لـه كـنيس ولا التزامات ولا يسـتدعي طقوساً ولا صـلوات، وكـل مـا يطـالب بـه الإنسان أن يكون إنساناً طبيعياً يلبي مطالبـه الطبيعيـة في وضـوح وصراحة.

وميزة الإله الجديد أنه ليس لـه رجـال دين ــ كمـا للكنيسـة ـ يستعبدون الناس لأنفسهم.. ولا كتاب مقدس متناقض.. ولا أسـرار علياً مقدسة.. بل له دعاة من أمثال روسو وفولتـير وديـدرو.. ولـه كتب علميـة هي (دائـرة المعـارف) و(العقـد الاجتمـاعي) و(روح القوانين)

والقانون الطبيعي يجعل الكون مترابطاً متناسقاً لا اضـطراب فيه ولا خلل، وبالمقابـل جعلت الطبيعـة للإنسـان قانونـاً يكفـل لـه السعادة التامة ولكن النظم الإنسانية والأديان طمست هذا القانون فشقي الإنسان وتعذب.

تلك هي المبادئ الأولى للمذهب الطبيعي الذي تبلـور ليصـبح ديناً إنسانياً عنـد (كـومت) في القـرن التاسـع عشـر، وعنـه انبثقت الماديات المتعددة التي تفسر الكون تفسيراً آليـاً حسـب القـوانين التي سميت (قوانين الطبيعة)

قلت: فكيف بدأ ذلك؟

قالت: لم يبدأ ذلك دفعة واحدة بطبيعة الحال.. لقد انفصـلت الفلسفة عن الدين بادئ ذى بدء ونبذت البحث فيمـا وراء الطبيعـة كما كـانوا يطلقـون على أمـور الغيب المتعلقـة باللـه وخلقـه لهـذا الكون، والغاية من هـذا الخلـق، والـوحى الربـانى المتضـمن للقيم الدينية التى ينبغى أن يتبعها الإنسان من أجل الخلاص فى الآخرة.

واتجهت الفلسـفة إلى دراسـة الطبيعـة والكـون المـادى، والإنسان باعتباره كائنـا موجـودا فى الطبيعـة، لا بوصـفه كائنـا قـد

خلقه الله لغاية معينة وهدف يؤديه.

وكان التقدم العلمى الذى حدث منذ بدء النهضة أحد العوامل الهامة الـتى سـاعدت على اتجـاه الفكـر الأوربى ذلـك الاتجـاه من خلال المذهب العقلى والتجريبى.

وقـد بـدأ ديكـارت ــ أولا ــ بتطـبيق المنهج العقلي في الفكـر والحيـاة، واسـتثنى من ذلـك الـدين والعقائـد الكنسـية والنصـوص المقدسة، وكان يرى أن ميدان العلم الطبيعة، وموضوعه اسـتغلال القوى الطبيعية وأدواته الرياضة والتجربـة، ويختص الـدين بمصـائر النفس في العــالم الآخــر، ويعتمــد على الاعتقــاد والتســليم، فلا مضايقة بين العلم والدين، ولا سلطان لاحدهما على الآخر (1).

ومع ذلك فقد وجد فلاسفة آخرون معاصرون لهـؤلاء لم تـرق لهم هذه الفلسفة، بل أغرتهم تفاهة آراء الكنيسـة وحقـدهم عليهـا أن يهاجموا التعاليم الدينية هجوماً مباشراً.

ثم كان نيوتن ونظرياته خطوة دافعة على الطريق..

فقد اكتشف نيوتن بعض ما سمى عنـدهم (قـوانين الطبيعـة) التى يجرى الكون المادى بمقتضاها.. وكشف عمـا يسـمى عنـدهم (قانون السببية) أى القانون الذى يفسر ظواهر الطبيعة بردهـا إلى أسبابها الظاهرة، وقد كان هذا فى أوروبا ذريعة لنفى الأسباب غير الظاهرة وغير المحسوسة، أى نفى الأسباب الغيبية.

يقـول برينتـون: (إن السـببية تهـدم كـل مـا بنتـه الخرافـات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة فى هذا العالم)

ويقول: (الإله فى عـرف نيـوتن أشـبه بصـانع السـاعة، ولكن صانع هذه الساعة الكونية – ونعـنى بهـا الكـون – لم يلبث أن شـد على رباطها إلى الأبد، فبإمكانـه أن يجعلهـا تعمـل حـتى الأبـد، أمـا

---

1) العلم والـدين في الفلسـفة المعاصـرة: اميـل بـوترو / 19، وتتلخص نظريتـه في الاعتقـاد بوجـود منبعين للتصـورات: احـدهما الاحسـاس, فنحن نتصـور الحـرارة والنـور والطعم والصوت لأجل احساسنا بذلك كله, والآخـر الفطـرة بمعـنى أن الـذهن البشـري يملك معان وتصورات لم تنبثق عن الحس وإنما هي ثابتـة في صـميم الفطـرة, فـالنفس تستنبط من ذواتها.

وهذه التصورات الفطرية عند (ديكارت) هي فكرة (اللـه والنفس والامتـداد والحركـة) وما إليها من أفكار تتميز بالوضوح الكامل في العقل البشري.وهذه الازدواجية الديكارتيـة وجدت لها نظـيراً في منهج بيكـون التجريـبي الـذي قـال عنـه أندرسـن:(إن أعظم مـآثر بيكون الفصل بين العلم البشري والوحي الإلهي)، فعند بيكون يمكن أن تكون أي قضـية خاطئة تماماً في نظر العقل، ولكنها صحيحة تماماً لأنها نظر الدين.

والواقـع أن المـذهب الازدواجي ليس إلا مرحلـة طبيعيـة في سـلم التـدرج من الإيمان المطلق بـالوحي إلى الإنكـار المطلـق لـه (راجـع: مـدخل الى فلسـفة ديكـارت ـ سلسلة المكتبة الفلسفية رقم 5 منشورات عويدات)

الرجـال على هـذه الأرض فقـد صـممهم الإلـه كـأجزاء من آلتـه الضخمة هذه ليجروا عليها، وإنـه ليبـدو أن ليس ثمـة داع أو فائـدة من الصلاة إلى الإله صانع هذا السـاعة الكونيـة الضـخمة، الـذى لا يستطيع إذا ما أراد التدخل فى شئون عمله)(1)

ويقول: (ولكن ثمة أناس ذهبـوا إلى أبعـد من ذلـك، واعتـبروا فكـرة الإلـه فكـرة شـريرة، وخاصـة إذا مـا كـان إلـه الكنيسـة الكاثوليكية، وأطلقوا على أنفسهم بكل فخر اسـم الملحـدين، وهم يعتقدون أن ليس ثمة وجود لمسيح أو لإله المسيحية، ويقولون إن الكـون ليس إلا مجموعـة متحركـة ذات نظـام معين يمكن فهمـه باللجوء إلى السببية المعتمدة على أساس العلوم الطبيعية)(2)

هكذا سار الاتجاه المادى المادى الملحد بخطوات حثيثة حـتى جاء القرن التاسع عشر، فظهـرت الفلسـفة الوضـعية الـتى تقـول بسيادة الطبيعـة على الـدين والعقـل، واعتبارهـا هى الأصـل الـذى ينبثق عنه كل شئ.. والذى يبعث الأفكار فى العقل البشرى، وكان من أهم فلاسفتها (أوجست كومت) و(فرباخ)

نظـرت إلى عناقيـد العنب بحـزن، وقـالت: لم تكن هـذه هي النظريات الوحيدة الـتي فصـل فيهـا العلم عن اللـه وعن الإنسـان وعن الحقائق..

لقد ظهر دجالون كثيرون.. لا تـزال سـموم فلسـفاهم تنتشـر في مدارسنا وجامعاتنا..

قلت: إلى أن ظهر ماركس فرعون الإلحـاد ليبشـر بالجدليـة المادية.. والتفسير المادي للكون.

قـالت: لقـد لقـد ظهـر قبلـه (فيشـته) و(هيجـل) ليؤسسـا لأقواله..

لقـد جـاء هـذان الـدجالان بـالتفكير الجـدلى الـذي يبحث عن تصـور فلسـفى يسـمح بوجـود المتناقضـات فى الكـون والحيـاة ويفسرها.. ذلك أن المنطق اليونانى القديم (الذى يسمى المنطـق الصورى) ينفى وجود التنـاقض فى الكـون والحيـاة، ويقيم تفكـيره على أساس أن الشئ ونقيضه لا يمكن أن يجتمعا، فوجود أى شئ هو ذاته نفى قاطع لوجود نقيضه.

ولكن الفكر الأوروبى منذ عصر النهضة – وإن كـان قـد رجـع إلى الفكر الإغريقى يستمد منه ـ كانت له التفاتات مختلفة عنه فى

---

1) منشأ الفكر الحديث ص 151.
2) منشأ الفكر الحديث ص 152.

مجالات متعددة. حتى إذا كان النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى ـ عصر سيادة العقل فى الفكر الأوربى قام فلاسفة يشيرون إلى وجود التناقض فى الكون والحياة ويحاولون تفسيره، من أبرزهم (فيشته) و(هيجل)

فأما فيشته (1762 – 1814 م)، فقد استخدم مبدأ النقيض كى يدعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة.

وأما هيجل (1770 – 1831)، فيستخدم مبدأ النقيض لتأكيد قيمة العقل من جهة، ثم لدعم فكرة الألوهية من جديد، وتأكيد الوحى كمصدر أخير للمعرفة، وهو يعتبر الله عقلا (1).

وهذا العقل المجرد يتمثل فى القانون والأخلاق، وفى الفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة.. إذن فالعقل المجرد الذى يتحقق فى أى وحدة من هذه القيم العاملة المذكورة جامع للمتقابلين: جامع للفكرة فى العقل المطلق وهو الله، وللفكرة فى العقل المقيد وهو الطبيعة.. ذلك أنه ليس له إطلاق العقل المطلق ولا تحديد عقل الطبيعة، بل فيه إطلاق بالنسبة إلى الطبيعة وتقييد بالنسبة للعقل المطلق، ولذا يعتبر جامع الدعوى ومقابل الدعوى.

بالإضافة إلى هذين، فقد استلهم ماركس نظرية التطور.. فقد جاء دارون يؤله الطبيعة ويقول عنها إنها تخلق كل شئ ولا حد لقدرتها على الخلق.. ويؤكد أن الإنسان هو نهاية سلسلة التطور الحيوانية.. وأن التطور ذاته – الذى أنشأ الحياة المادية الميتة أول مرة، ثم تدرج بها من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان – هو نتيجة أسباب مادية بحتة، وأنه يتم مستقلا عن إرادة الكائن الحى، وبصورة حتمية لا يملك الكائن الحى الخروج عليها ولا معارضتها ولا الوقوف فى طريقها.

المادية:

قلت: فهمت هذا ووعيته.. فهل أورثت هذه الجاهلية الثانية جاهلية أخرى؟

نظرت إلى عناقيد العنب بألم وقالت: أجل.. ولدت هذه الجاهلية التي توشحت بوشاح العقل، فلسفات أخرى، كلها امتلأت بها جميع علومنا ومدارسنا.. وكلها حولت هذه العناقيد الطاهرة خمرا معتقة يخرج من إنسانيته كل من اقترب منها.

---

1) عن الفكر الإسلامى الحديث ص 289 بتصرف.

قلت: ما هي هذه الفلسفات؟

قالت: كلها فلسفات مادية تحتقر الإنسان، وتحتقر ما أنيط به من وظائف، بل تحتقر الكون وتملؤه بالخراب..

قلت: لم وصفتها بالمادية(1)؟

قالت: لأنها كالدجال لا ترى إلا بعين واحدة.. فجميع نظريات العلوم الإنسانية التي تتضمنها المناهج الدراسية الحديثة نظريات مغلوطة وناقصة وقائمة على المفهوم المادي الذي لا يؤمن بالأديان المنزلة، ولا بالقيم الأخلاقية المرتبطة بالدين.

وهي تقوم في مجموعها على مفهوم زائف وباطل هو أن البيئة هي التي تخلق تراثها، وهي التي يرجع إليها الفضل في تنشئة الفرد وتوجيهه والإشراف على سلوكه.

ومعنى هذا إنكار الدور الذي يقوم به الدين في تكوين الأفراد وتجاهل وجود الدين كلية أو اعتباره قد خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها، على حد تعبير دوركايم.

لقد عمد دوركايم (بوضعه أبرز منظري علم الاجتماع) إلى إقامة منهج التشكيك في القيم والمثل والعقائد والأخلاق من منطلق مفهوم قوامه أن كل الظاهر نسبية متغيرة متبدلة، لا تثبت على حال ولا تستقر على وضع لأنها في كل يوم يتبدل الحال بحال.

ليس هذا خاصا بعلم الاجتماع.. بل صار هذا قاعدة مضطردة في كل مجالات دراسات الاجتماع والنفس والأخلاق وتاريخ الأديان.

قلت: ولكن العلوم التي نشرتها هذه الحضارة ليست هي العلوم الإنسانية وحدها.. بل هناك علوم كثيرة نشأ عنها هذا الترف الذي يعيشه أهل هذا العصر.

قالت: بما أن العلوم الإنسانية هي الأساس الفكري الذي يملأ عقول المكتشفين والمخترعين، فإنهم راحوا بما أملى عليهم أولئك الدجالون يسخرون سلاح العلم ليقتلوا به الإنسان، ويدمروا به الأكوان..

إن أنواع الأسلحة التي تنشر الصراع على الأرض.. وأنواع الدمار التي قتلت الحياة فيها.. كل ذلك سببه تلك المفاهيم التي بني على أساسها العلم الذي تحول إلى معول لهدم الحياة وهدم الإنسان.

علوم الإسلام

1)انظر: تجاوزات العلوم الاجتماعية والإنسانية لمفهوم الفطرة والعلم، أنور الجندي.

قلت: عــرفت الجاهليــة وعلــوم الجاهليــة.. فحــدثيني عن الإسلام.. ولمـاذا لم يحصـل للمسـلمين ذلـك الفصـام الأسـود بين علومهم وبين الإسلام.

قالت: لأن الإسلام هو دين العلم والعقل والتجربة والمنطـق.. وكل ما توصلت إليه البشرية من مناهج البحث عن الحقيقة(1) ..

فلئن كـانت المسـيحية تعتمـد على الإيمـان المجـرد.. فـإن الإسلام يعتمد على العقل والمنطق.. ويحث على طلب العلم الذي يغذى به العقل والمنطق.

التعميم:

ولئن كــانت المســيحية جعلت العلم محصــورا في طائفــة محدودة.. فإن الإسلام أمر بتعميمه على الكل.. فالعلم في الإسلام ركن من أركـان الـدين لا يقـل عن الإيمـان والشـعائر التعبديـة: فالتعرف على الله الذي هو جوهر الدين وأصله وغايتـه وموضـوعه يحتاج إلى العلم..: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(محمد:19)

ولهذا كان أول أمر من أوامر هذا الدين هو: اقْرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (العلق:1)، ثم كرر هذا الأمـر في قولـه: اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (العلق:3)

والقرآن يعتبر وظيفة الرسل هي وظيفة المعلمين: لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كَـانُوا مِنْ قَبْـلُ لَفِي ضَـلالٍ مُبِينٍ (آل عمران:164)

وأخبر أن كـل الأنبيـاء جـاءوا أقوامهم بالبينـات، وهي العلـوم الواضحات التي قويت أدلتها.. أَلَمْ يَـأْتِكُمْ نَبَـأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَـوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِـهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (ابراهيم:9)

بل إن القرآن فوق ذلـك كلـه أخـبر عن مزيـة الإنسـان الـتي أهلته للخلافة في الأرض، وأهلته للتكريم الرباني، فقال يقص قصة بدايـة خلـق الإنسـان: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَـا ثُمَّ عَرَضَـهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَـالُوا سُـبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَـا إِلَّا مَـا عَلَّمْتَنَـا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَـالَ يَـا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْـمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَـأَهُمْ بِأَسْـمَائِهِمْ قَـالَ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (البقــرة:31

1) تحدثنا عن هذا بتفصيل في كتاب (سلام للعالمين) من هذه السلسلة، فصل العقل.

ـ 33)

انطلاقا من هذا وردت النصـوص الكثـيرة عن محمـد بـالحض على العلم والترغيب فيه ورفع مكانة أهله، فقد أخبر بأن العلم نوع من أنواع العبادة، بل هو من أفضلها:، فقال: (أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع)(1)

وصرح بذلك فقال : (فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع)(2)، وقال: (قليل العلم خـير من كثـير العبـادة، وكفىٰ بالمرء فقها إذا عبـد اللـه، وكفىٰ بـالمرء جهلا إذا أعجب برأيـه)(3)، وقال: (ما عبد الله بشـيء أفضـل من فقـه في دين ولفقيـه واحـد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شـيء عمـاد وعمـاد هٰـذا الدين الفقه)(4)

وقـايس بين بعض النوافـل وبين طلب العلم، فقـال لأبي ذر، وقد رأى حرصه على النوافـل: (يـا أبـا ذر لأن تغـدو فتعلم آيـة من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعـة، ولأن تغـدو فتعلم بابـا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة)(5)

وأخبر أن تعليم العلم لا يختلف عن الصدقات، فقال: (أفضـل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم)(6)

ويروى أنه ذكر له رجلان: أحدهما عابـد والآخـر عـالم، فقـال: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)، ثم قـال: (إن اللـه وملائكته، وأهل السمٰوات والأرض حتى النملـة في جحرهـا، وحـتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير)(7)

وطلب العلم لذلك دليل على خيرية العبد الطـالب للعلم، بـل دليل على اجتباء الله له، قـال: (من يـرد اللـه بـه خـيرا يفقهـه في الدين)(8)، وقال: (يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقـه، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الـدين، و إنمـا يخشـىٰ اللـه من عباده العلماء (فاطر: 82))(9)

---

1)) رواه الطبراني في معاجيمه الثلاثة.
2)) الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد حسن.
3)) الطبراني في الأوسط.
4)) الدارقطني والبيهقي.
5)) ابن ماجه بإسناد حسن.
6)) رواه ابن ماجه بإسناد حسن.
7)) الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.
8)) البخاري ومسلم وابن ماجه.
9)) الطبراني في الكبير.

وهذا الاجتباء هو الذي يؤهله للجنة ولهذا التكـريم الـذي أخـبر محمد عنه، قال محمد وهو يعـدد فضـل طـالب العلم: (من سـلك طريقـا يلتمس فيـه علمـا سـهل اللـه لـه طريقـا إلى الجنـة، وإن الملائكة لتضع أجنحتهـا لطـالب العلم رضـا بمـا يصـنع، وإن العـالم ليستغفر له من في السـمٰوات ومن في الأرض حـتى الحيتـان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهمـا إنمـا ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)(1)

وقال: (ما من رجل تعلم كلمة، أو كلمـتين، أو ثلاثـا، أو أربعـا، أو خمسـا ممـا فـرض اللـه عـز وجـل فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخـل الجنة)(2)

ويخبر عن بعض صور التكريم التي يقابل بها الملأ الأعلى أهل العلم، فعن بعض أصـحاب محمـد قـال: أتيت النـبي ﷺ وهـو في المسجد متكىء على برد له أحمر، فقلت لـه: يـا رسـول اللـه إني جئت أطلب العلم، فقـال: (مرحبـا بطـالب العلم إن طـالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغـوا السـماء الدنيا من محبتهم لما يطلب)(3)

بل إن محمدا يرفع درجة أهل إلى درجة الأنبياء، فيقـول: (من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيـين إلا درجة النبوة)(4)

أما الأجور المعدة لأهل العلم، فإنهـا أضـعاف مضـاعفة، قـال محمد: (من طلب علما فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علما فلم يدركه كتب الله له كفلا من الأجر)(5)

ومن أكبر ميزات أجر العلم أن أجره غير منقطع، قال محمد: (إذا مات ابن آدم ٱنقطع عمله إلا من ثلاث: صـدقة جاريـة، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)(6)

وفي حديث آخر مفصل، قال محمد: (إن مما يلحق المـؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره وولدا صالحا تركـه أو مصحفا ورثه، أو مسجدا بنـاه أو بيتـا لابن السـبيل بنـاه، أو نهـرا

1)) أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي.
2)) أبو نعيم.
3)) أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقـال: صحيح الإسناد.
4)) الطبراني في الأوسط.
5)) الطبراني في الكبير.
6)) مسلم وغيره.

أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)[1]

وقد ورد وصف مفصل لفضل العلم وفضل أهله، ففي الحديث: (تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة لانه معالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة قائمة تقتص آثارهم ويقتدىٰ بفعالهم، وينتهىٰ إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلىٰ في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء)[2].

نظرت إلي، وقالت: أتدري من قال هذه النصوص.. إنه رجل لم يدخل مدرسة ولا جامعة.. ولم يكتب حرفا واحدا.. ولم يقرأ رسالة واحدة.. ومع ذلك شاء الله أن تقوم على يده أكبر نهضة علمية عرفتها البشرية.

قلت: ما تقولين؟

قالت: منذ قال محمد تلك النصوص هرعت كل أمة محمد تنهل من العلم صغارها وكبارها ورجالها ونساؤها.. حتى الشيوخ الكبار كانوا يحتضرون، وهم يطلبون العلم.

في ذلك الوقت الذي كنا فيه عبيدا للكنيسة وفلاحين عند رجال الدين، وكان الرهبان عندنا يتقربون إلى الله بالجهل.. كان المسلمون يتنافسون في بناء المدارس والمكتبات والجامعات، ويعتبرون ذلك من أقرب القرب إلى ربهم[3].

فانتشرت الكتاتيب التي تمثل المدارس الابتدائية التي تقام

---

1)) ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقي، ورواه ابن خزيمة في صحيحه مثله.

2)) رواه ابن عبد البر في كتاب العلم قال المنذري: ورفعه غريب جدًّا.

3) استفدنا المعلومات الواردة هنا من كتاب: الأوقاف في العصر الحديث، كيف نوجهها لدعم الجامعات وتنمية مواردها (دراسة فقهية)، د/ خالد بن علي بن محمد المشيقح.

لتعليم الصبيان القراءة، والكتابة، والقـرآن وبعض العلـوم العربيـة، والرياضيات، وقد وجدت هذه الكتاتيب قديماً في الإسلام، وقد ذكر بعض المؤرخين أنها وجدت في عصر الصحابة، وكـانت من الكـثرة بحيث عـد ابن حوقـل ثلاثمائـة كتـاب في مدينـة واحـدة من مـدن صقلية(1).

وكان الكُتَّاب في بعض البلدان من السـعة بحيث يضـم مئـات وآلافاً من الطلاب، ومما يروى عن أبي القاسم البلخي أنه كـان لـه كتاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ، وكان كتابه فسيحاً جداً، ولذلك كان أبو القاسم يحتاج إلى أن يركب حماراً ليتردد بين طلابـه وليشـرف على شؤونهم(2).

وكانت هذه الكتاتيب جميعـا تمـول بـأموال المحسـنين الـذين يجعلونها وقفا لوجه الله.

بالإضافة إلى هذا.. فقد كـانت أمـوال المـوقفين تتوجـه لبنـاء المدارس الكبار.. والتي بدأ إنشاؤها بعـد أن تضـاعف إقبـال طلاب العلم على حلقات المساجد.

وقد كانت الدراسة في تلك المدارس مفتوحة لكل راغب في العلم دون قيد أو شرط، وكان طلاب هذه المدارس يتمتعون بكـل الرعاية من طعام وشراب وعلاج وإقامـة للغربـاء والفقـراء، وكـان الأساتذة الـذين يقومـون بالتـدريس فيهـا ينتخبـون ممن شـهد لهم الشيوخ بالكفـاءة العلميـة، وكـان المتخرجـون من هـذه المـدارس يمنحون إجازة علمية باسم شيخ المدرسة، وما كان يسمح للأطبـاء بممارسة مهنة الطب إلا بعد نيل هذه الشهادة أو الإجازة من كبـير أطباء المدرسة.

بالإضـافة إلى هـذا فقـد أدرك المحسـنون من المسـلمين والواقفون للمدارس، وزوايا العلم، وحلقات الـدرس في المسـاجد أهمية الكتاب لنشر العلم، وأن الاقتصار على تشييد الأبنيـة وتوفـير جهاز للتدريس غير كاف فاهتموا بوقف الكتب عليها لتكون وسـيلة ميسرة للتحصيل والمراجعة، توفر مادة علمية يسـتند إليهـا المعلم والمتعلم في وقت واحد، فأصبح من المعتاد وجـود مكتبـة في كـل مدرسة، أو جامع، أو رباط وقف على طلبة العلم وغيرهم(3).

وكانت هـذه المكتبـات بكتبهـا الوقفيـة إضـافة إلى المكتبـات الخاصـة مثـل مكتبـات الخلفـاء والأمـراء والـوزراء والعلمـاء، وراء

---

1) ينظر: معجم البلدان 3/417، 418.
2) مجلة الوعي الإسلامي عدد (382) ص37.
3)) انظر: الوقف وبنية المكتبة العربية للدكتور يحيى محمود ساعاتي ص21.

حركة الازدهـار العلمي الـتي شـهدها العـالم الإسـلامي على مـدى قرون طويلة، فقد اعتمد عليها العلماء وطلاب العلم في دراسـتهم ومراجعاتهم، ووضع مصنفاتهم.

الانفتاح:

قلت: ولكن الإسلام مع توسعه في الأمـر بطلب العلم إلا أنـه ضيق في العلم المطلوب.. وفي مصادر العلم المطلـوب.. فخصـه بما يتعلق بالكتاب والسنة ولم ينفتح على باقي الثقافات.

قالت: الأمر عكس ذلك تماما.. لقد انفتح الإسلام على جميـع الثقافات الأجنبية، واستفاد منها، وتعامل معها بإيجابية تامـة.. يأخـذ منها ما يراه مفيـدا، ويـرد مـا لا يـراه صـالحا.. لعلم المسـلمين أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، فهو أحق بها.

ففي الوقت الذي قام رجـال ديننـا بتكفـير كـل انفتـاح علمي كان فقهاء المسلمين يقرؤون الفلسـفة اليونانيـة والثقافـة الهنديـة وجميع أنواع الثقافات.

ولكنهم لا يتعاملون معها تعامل الخاضع الذليل.. بل يتعـاملون تعامل الند للند.. يناقشونها مناقشة موضوعية علمية لا نزال نفتقـد مثلها.

فلم يقبل المسلمون المنطق الأرسـطي، ونقـدوه من جميـع عناصره، وكونوا لهم منطقًا آخر، هو المنطق الاستقرائي.

فقد أدرك مفكـرو الإسـلام تمـام الإدراك أنـه لا بـد من وضـع منهج في البحث يخالف المنهج اليوناني، حيث أن هـذا المنهج إنمـا هو تعبير عن حضارة مخالفة، وتصور حضاري مختلف، وقـد وصـل المسلمون إلى فكرة (الخـواص) اللازمـة لكـل ذات، وهي الفكـرة التي صبغت المنهج الاستقرائي الحديث بصبغتها الخاصة، وأخذ بهـا جون استيورت مل وغيره، وأعلن المسـلمون أن الإنسـان يتوصـل إلى القضية الجزئية قبل التوصل إلى القضية الكلية.

واختلــف قيــاس المســلمين عن قيــاس أرســطو، فــاعتبر المسلمون القياس: هو قياس الغـائب على الشـاهد، فوصـلوا إلى اليقين، أما قياس أرسطو الذي هو حركة فكرية ينتقل فيهـا العقـل من حكم كلي إلى أحكام جزئية، فإنه يوصل فقط إلى الظن.

وفي الوقت الذي احتقر فيه اليونان التجريب والتجربة، وجـاء منطق أرسطو أكبر معبر عن روح اليونان، رفضه المسلمون إيمانًا بروح الحضارة الإسلامية وروح القـرآن الـذي دعـا إلى وضـع منهج ومنطــق مختلــف في كــل خصائصــه عن منطــق أرســطو وروح

الحضارة اليونانية.

ومنهج القرآن منهج ينأى عن البحث في الشيء ذاته ويدعو إلى البحث في آثاره: (تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا)، وكان ذلك العمل الإسلامي هو مصدر التحول العالمي من النظرة المفكرة للدنيا المعزولة عنها المسقطة للإرادة والتكليف القائمة على التشاؤم والانسحاب والعجز إلى نظرة التكليف والإرادة والبناء والعمل.

وقد صحح المسلمون أغلاط أرسطو وجالينوس وأفلاطون في الفلسفة والعلوم والكثير من أخطاء الفلسفة اليونانية، وأبطل صناعة التنجيم وبطلان القول بأن بعض الكواكب يجلب السعادة، وبعضها يجلب النحس، وعللوا ذلك بأن اليونان أخذوه من غير برهان ولا قياس..

وأبان علماء المسلمون ضعف نظام بطليموس ونقط القصور فيه، وقد عكف (التباني) على دراسة بطليموس، وحقق مواقع كثير من النجوم، وصحح حركات القمر والكواكب السيارة، وخالف بطليموس في ثبات الأوج الشمسي.

وأنكر الغزالي ما قاله فلاسفة اليونان من أن بالسماء حيوانًا وأن له نفسًا، ونقد الأطباء المسلمون طب اليونان، ورفضوا الأخذ ببعض نظرات أبقراط وجالينوس، ومن طريق التجربة والاختبارات الشخصية، ورفض ابن النفيس قبول نظرية جالينوس عن الدور الذي تلعبه الرئتان في نقل الدم من تجويفة القلب الواحدة إلى الأخرى، وأعلن أنها خاطئة.

قلت: ولكني قرأت كثيرا من المنشورات والكتب التي يصدرها قومنا تذكر أن الثقافة الإسلامية والعلوم الإسلامية مجرد نقل للثقافة اليونانية..

ففي الطب مثلا يقول سانجور وجو داريلانو: (ليس الطب الإسلامي إلا مجموعة ترجمات كتبت باللغة العربية، من قبل فارسيين ويهود ومسيحيين)

ويقول داريمبرغ: (كانت سيطرة الطب الإسلامي في القرون الوسطى سيطرة كاملة في أوروبا. لكن هذا لم يغير جوهر العلم، فقد كان وبقي جالينوسيا فالطب العربي بأجمله، ما هو إلا ترجمة أو بالأحرى تزييف وتزوير للطب الأغريقي)

ويقول باریاتي: (أن الميزة المهمة للطب العربي هو حفظه ونقله للمؤلفات اليونانية العديدة التي كانت منسية في الجزء

الأول للقرون الوسطى)

ويقول كاستيجليوني: (إن الطب الإسلامي ما هو إلا الطب اليوناني القديم، لابسا حلة جديدة)

قالت: أنت تعرف قومنا.. وتعرف أسلوب تفكيرهم، والطريقة التي يبثون بها مواقفهم.. فلذلك لا أحتاج إلى الرد عليهم.. لأنهم يلقون بالمواقف التي تملى عليهم، ولا يلقون بالمواقف التي يجدونها بالبحث الموضوعي.

ولكني أقول لك ـ وخصوصا في هذا الجانب ــ أن المسلمين لم يكتفوا بترجمة المؤلفات اليونانية والهندية، لكنهم أعطوا العالم أطباء بكل معنى الكلمة، وأعطوا للطب شكلاً لم يكن معروفاً من قبل، وكانت مدارسهم مثلاً اقتدى الغرب بها، فجعل جامعاته على نفس النمط، وعلم فيها ما كان يعلم في المدارس الإسلامية.

فمنذ القرن العاشر أخذ الطب بفضل الأطباء المسلمين، شكلاً جديداً لم يكن معروفاً من قبل، لا عند إبقراط ولا جالينوس ولا عند غيرهم، وكان هذا الطب الجديد يرسخ على ثلاث ركائز متينة:

فهو نظام طبي للتعليم والممارسة.. وهو يقوم على تشخيص الأمراض ووصف أمراض جديدة، وله اهتمام بعلم الصيدلة واكتشاب أدوية جديدة.

أما تنظيم التعليم الطبي وممارسة مهنة الطب.. فقد كان هذا التنظيم يعتمد على مدرسة للعلم تعطى فيها الدروس النظرية وتشرح فيها الكتب العلمية، وإلى جانب هذه المدارس، كانت بيوت الكتب تغص بالمؤلفات من كل الأنواع، كما كانت هناك مستشفيات للمرضى، يعطي فيها المعلم الدروس العملية. ومستشفيات بغداد والري وابن طولون أمثلة حية على ذلك.

وكانت هناك قواعد لهذا النظام، فقد كان على من يود ممارسة مهنة الطب، الحصول على أجازه لذلك. وكانت هذه الإجازة، تعطى من قبل لجنة تتشكل من أعضاء لهم خبرة ويرأسها عالم، وكان لهذه اللجنة الحق في سحب الإجازة ممن كانت معلوماتهم غير كافية.

وإلى جانب هذا التنظيم، كان الطب في مضمونه وفي مادته جديداً فكتب الحاوي للرازي، و(الملكي) لابن العباس، والقانون لابن سينا، لم تكن ترجمة لكتب القدماء. بل اعتمد الأطباء المسلمون على تشخيص كل مرض بظواهر عديدة، وعلى

اكتشاف ووصف أمراض لم تكن معروفة قبلاً.

وكانت المؤلفات الطبية الإسلامية عديدة وهامـة: فموسـوعة الحاوي للرازي كانت مؤلفة من 24 كتاباً أو فصلاً وتحتوي على كل المعلومات الطية المعروفة في القرن العاشر.

وكان كتاب القـانون لابن سـينا مرجعـاً طبيـاً، وبـدون منـازع، طيلة القرون الوسـطى، وإن كـان ابن سـينا قـد لقب في الشـرق باسم (الشيخ الرئيس)، فقد كان لقبه في الغرب (أمير الأطباء)

وإلى جانب هذا كان علم الصيدلة منظماً كغـيره من العلـوم، وللعرب فضل كبير في نهضته وتطوره، فمنذ القرن العاشـر، نجـد فرقا بين الصيادلة والعطارين ونجد قواعـد وقـوانين الصـيدلة في كتاب (نشاجة الرطبة)، الذي كتب في سنة1236.

وقد انتشر الطب الإسلامي وتطور بسرعة هائلة فكان هنـاك منذ القرن العاشر أطباء ذوو شهرة واسعة، واستفادت أوروبا كلهـا من ازدهـار الطب الإسـلامي عمومـاً وازدهـاره في إسـبانيا على الأخص.. فقد كان هنـاك أوروبيـون يدرسـون الطب الإسـلامي في الجامعـات الإسـلامية، ومن أشـهرهم جيريـبر دوريـاك، جـيرار دي كريمونه، ارنو دي فيلنوف وقسطظين الإفريقي..

وأولى هذه المدارس هي مدرسة ساليرن في جنوب إيطاليا، ومن بعدها مدرستي مونبليه وباريس في فرنسا(1).

القيم:

نظرت إلى عناقيد العنب بحزن، ثم قالت: ناحيـة مهمـة تمـيز بهـا العلم في الإسـلام عن العلم الـذي نعـاني ويلاتـه بنفس القـدر الذي نتنعم بخيراته.

قلت: ما تقصدين؟

قالت: القيم.. والآداب الرفيعة.. والنيات الصالحة التي كـانت تحرك طلبة العلم والعلماء.

لقد بلغ الاهتمام بمزج التربية بالعلم في الإسلام حدا لم تبلغه أي حضارة.

فقد اعتبر الإسلام الإيمان والتقوى والصلاح من أهم خصائص العلماء وطلبة العلم.. وقد وصف القرآن أهل العلم بأنهم يسجدون لله ويخشـعون ويبكـون حين يسـمعون آياتـه: ﴿ قُـلْ آمِنُـوا بِـهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِـهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِـرُّونَ لِلْأَذْقَـانِ

---

1) انظر: الطب الإسلامي: عامل أساسي في خروج أوروبا من عصر الظلام، الدكتور عبد الرحيم حجازي، موقع: الإسلام ست.

سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (الاسراء: 107 ـ 109)

وقد وصف القرآن العلماء بانهم أهل خشية: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾(فاطر: 28)

ووصفهم بأنهم يحذرون عذابه ويرجون رحمته: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: 9)

وفي الحديث عن أبي الدرداء قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: (هذا أوان يُخْتَلَسُ العلم من الناس، حتى لا يقدروا منه على شيء)، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: يا رسول الله، وكيف يُخْتَلَسُ منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنقرئه نساءنا وأبناءنا، فقال: (ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا يغني عنهم؟)

ولهذا كانوا يقولون: (ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم خشية الله)، وكانوا يقولون: (العلم والحكمة نور يهدي به الله من يشاء، وليس بكثرة المسائل)، ويقولون: (إن حقّاً على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعاً لأثر من مضى قبله)

قلت: لست أدري كيف تطرحين مثل هذه الطروحات في عصرنا هذا الذي بلغ العلم فيه شأوا بعيدا لم يصله عصر من العصور.

قالت: لأن كل السلبيات التي نعانيها في حياتنا سببها تسخير العلم في خدمة أهواء الشياطين..

تصور لو أن القائمين على برامج التلفزيون والإنترنت وغيرها من وسائل العصر كان لهم من الخشوع والتقوى ما يحول بينهم وبين صناعة الإجرام التي يمارسونها.. أكنت ترى هذا الواقع؟

قلت: لا..

قالت: ولو أن أولئك العلماء الذين مدوا أيديهم للطغاة.. فراحوا يصنعون لهم أحدث الأسلحة وأفتكها.. كانوا ممتلئين تقوى وخشوعا.. أكانوا يقدمون على صناعة تلك الأسلحة؟

قلت: لا..

قالت: ولو أن أولئك العلماء الذين احتكرتهم شركات الأدوية

الكبرى ليحولوا من السموم أدوية قاتلة تنشر وهم الصحة الكاذبة كانوا ممتلئين خشوعا أكانوا يقدمون على ذلك؟

قلت: لا..

قالت: ولو أن خبراء التغذية الذين راحوا يتلاعبون بأغذية الله ليحولوها سموما قاتلة كانوا ممتلئين خشوعا أكانوا يقدمون على ذلك؟

قلت: لا..

قالت: ولو أن مهندسي الأزياء ومصممي الموضة كانوا ممتلئين خشوعا أكانوا يقدمون على مثل تلك التصاميم التي تنشر الخراب في المجتمعات؟

قلت: لا..

قالت: فقد رأيت إذن أن كل المصائب التي تعانيها هذه الحضارة سببها انعدام التقوى والخشوع..

ولذلك كان من الثمار العظيمة لشجرة العلوم التي غرسها محمد كونها شجرة مسقية بماء التقوى والورع والإيمان.. فلذلك لم تنحرف بالبشرية عن الفطرة التي خلقها الله عليها.

الرفاه:

قلت: ما ذكرته صحيح.. ولكن ناحية مهمة ربما تكون قد غابت عنك.

قالت: ماهي؟

قلت: نعم.. لقد اهتم الإسلام بالعلم.. ولكن العلم الذي يقصده هو العلم بالدين.. ولذلك لم يهتم المسلمون بعلم الدنيا..

لقد اعتبر الغزالي من أول مواصفات العلماء إدراكهم لحقارة الدنيا بجانب ما أوتوا من العلم، فقال: (إن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر. فإن من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل. فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر

مسلوب الإيمان فكيف يكـون من العلمـاء من لا إيمـان لـه ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بـينهما طمع في غير مطمـع؟ فهو جاهل بشرائع الأنبـياء كلهم، بل هو كافر بالقرآن كله من أوّلــه إلى آخره، فكيف يعدّ من زمرة العلماء؟ ومن علم هـذا كلـه ثم لم يؤثر الآخـرة على الـدنيا فهـو أسـير الشـيطان قـد أهلكتـه شـهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته؟)(1)

ابتسـمت، وقـالت: إن هـذا الكلام العظيم الـذي نطـق بـه الغزالي كما نطق به جميع علماء الإسـلام هـو الـذي أعطى لعلـوم المسلمين تلك الروحانية العميقة والآداب الرفيعة التي نفتقر إليها.

والغزالي لا يقصد ما فهمته من ترك علوم الدنيا.. لأن الإسلام لا يفرق بين علوم الدنيا وعلوم الـدين.. فالـدنيا لابـد أن تخضـع في الإسلام للدين ليقيها من الانحراف.

والغزالي نفسه ـ الذي استندت إليـه في ذلـك الفهم ــ يعتـبر جميع ما نسميه علوم الدنيا من علوم الدين.. بل من العلـوم الـتي يفتقر إليها في فهم القرآن.. لقد قال في بيان نسـبة هـذه العلـوم للقرآن: (ثم هذه العلوم مـا عـددناها ومـا لم نعـدها ليسـت أوائلهـا خارجة عن القرآن، فان جميعهـا مغترفـة من بحـر واحـد من بحـار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كـان مـدادا لكلماتـه لنفـد البحـر قبـل أن تنفـد، فمن أفعال الله تعالى ـ وهو بحر الأفعال ـ مثلا الشفاء والمرض كما قال الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام: وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُـوَ يَشْـفِينِ((الشـعراء: 80)، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه الا من عرف الطب بكمالـه، إذ لا معنى للطب الا معرفة المرض بكماله وعلاماتـه، ومعرفـة الشـفاء وأسبابه)(2)

وضرب مثالا آخر عن ذلك بعلم الفلك، وهو ـ فيما نرى ـ علم محض إلا إذا هدف من ورائـه إلى تحقيـق مصـلحة من المصـالح ـ فقال: (ومن افعاله تبارك وتعالى تقـدير معرفـة الشـمس والقمـر ومنازلهما بحسبان وقد قال الله تعالى: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (الرحمن:5)، وقالتعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُـوا عَـدَدَ السِّـنِينَ وَالْحِسَـابَ (يـونس:5)، وقـال تعالى: وَخَسَفَ الْقَمَرُ (القيامة:8)،ـ وقال تعـالى: ذَلِـكَ بِـأَنَّ اللَّهَ

1) الإحياء: 1/60.
2) جواهر القرآن: 45.

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (الحج:61)،ـ وقال تعالى: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (يّس:38)، ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل في النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر الا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه)(1)

وضرب مثالا آخر عن ذلك بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (الانفطار:6 ـ 8)، فلا يعرف مراد هذه الآية (إلا من عرف تشريح الأعضاء من الانسان ظاهرا وباطنا وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها، وقد أشار في القرآن في مواضع اليها)

بل إن الغزالي بنور بصيرته الإيمانية يذكر بأن العلوم لا تنحصر في علوم عصره، ويتنبأ بعلوم كثيرة ستظهر للوجود، كلها تغترف من بحار أفعال الله، فيقول: (بل أقول ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها أن في الامكان والقوة أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الآدمي الوصول اليها، وعلوم كانت قد خرجت الى الوجود واندرست الآن فلن يوجد في هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخر ليس في قوة البشر أصلا ادراكها والإحاطة بها)(2)

ومثل الغزالي بين النورسي مدى الفوائد التي تجنى من هذه العلوم إذا ما استنارت بنور الله، وبهدي الإيمان، فيقول: (العلوم التي تبحث في حقيقة الموجودات - كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان.. ـ هذه العلوم التي هي (حكمة الاشياء) يمكن ان تكون حكمة حقيقية بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم الله (الحكيم) جل جلاله في الاشياء، وهي تجليات تدبير، وتربية، ورعاية. وبرؤية هذه التجليات في منافع الاشياء ومصالحها تصبح تلك الحكمة حكمة حقاً، أي باستنادها الى ذلك الاسم (الحكيم) والى ذلك الظهير تصبح حكمة فعلاً، وإلاّ فإما أنها تنقلب الى خرافات وتصبح عبثاً لا طائل من ورائها أو تفتح سبيلاً الى الضلالة، كما هو الحال في الفلسفة الطبيعية المادية)

ويذكر علة مهمة لذلك غابت عن العلوم الحديثة، فأغرقتها في الجزئية، وأبعدتها عن جمال الوحدة والتناسق والكمال، فقال:

---

1) جواهر القرآن: 46.
2) جواهر القرآن: 47.

(إن نظر النبوة والتوحيد والايمان يرى الحقائق في نور الالوهية والآخرة ووحدة الكون لأنه متوجه اليها، أما العلم التجريبي والفلسفة الحديثة فانه يرى الامور من زاوية الاسباب المادية الكثيرة والطبيعة لأنه متوجه اليها، فالمسافة اذن بين زاويتي النظر بعيدة جداً. فرب غاية عظيمة جليلة لدى اهل الفلسفة تافهة وصغيرة لا تكاد ترى بين مقاصد علماء اصول الدين وعلم الكلام. ولهذا فقد تقدم اهل العلم التجريبي كثيراً في معرفة خواص الموجودات وتفاصيلها واوصافها الدقيقة في حين تخلفوا كثيراً حتى عن ابسط المؤمنين وأقلهم علماً في مجال العلم الحقيقي وهو العلوم الإلهية السامية والمعارف الاخروية)

قلت: ربما يكون الغزالي والنورسي وغيرهما تأثرا في ذلك بنا وبالفلسفة اليونانية التي كانت مهتمة بالعلوم.

قالت: لا.. لم يستمد الغزالي ولا النورسي ولا جميع علماء الإسلام هذه المعاني النبيلة إلا من القرآن..

فالقرآن يشير إلى هذه الناحية، ويعتبرها من تمكين الإنسان في الأرض، ففيه عن ذي القرنين: إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (الكهف:84)

بل إن القرآن نوه بأنواع الصناعات، وقد كانت محتقرة في الجاهلية لا يقوم بها إلا العبيد أوعامة الناس وبسطاؤهم:

فذكر صناعة الحديد، ونوه بها، وذكر اشتغال الأنبياء والصالحين بها: آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (الكهف:96)..: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (سبأ:10)، بل قرن بإنزال الحديد إنزال الكتاب: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحديد:25)

وذكر الصناعات النسيجية وأنواعها وأغرضاها: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ (النحل:80)

وذكر ما يرتبط بالعمران من أعمال: وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (لأعراف:74)

وذكر الصناعات المرتبطة بالنقل: وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ((النحل:8)..: وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ((هود:37)..

وذكر الصناعات البحرية: وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ((النحل:14)..

بل إن القرآن دعا إلى بذل كل الجهود لتحصيل جميع أنواع القوى، ويدخل فيها هذا النوع من أنواع القوى، قوة الصناعة والسياسة، ففيه: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ((لأنفال:60)

والقرآن لا ينهى عن هذه العلوم بذاتها، وإنما ينهى على ما تفرزه في الإنسان من قيم الطغيان حين يبتدئ فيها باسم أهوائه لا باسم الله، فالقرآن يحكي عن هود قوله: وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ((هود:52) فهو لم يخبرهم بأن نتيجة إيمانهم بالله زوال قوتهم التي كانوا يحرصون على الظهور بها، بل أخبر عن زيادة قوتهم.

بل أخبر القرآن أن القوة التي لا تستضيء بهدي الله مصيرها الهلاك المحتم، ولذلك يدعو إلى السير في الأرض للبحث عن مصير الحضارات العظيمة التي لم يبق منها إلا فلول آثار تدل على مدى طغيانها: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ((الروم:9)

وذلك لأن أخطر ما تنفخه الصناعة في عقول أصحابها ذلك الإغترار بالقوة، والذي حجبهم عن الله: فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ((فصلت:15)

قلت: ربما يكون ما ذكرته صحيحا.. ولكنه يبقى على المستوى النظري، فلم يستطع المسلمون أن يترجموا تلك التوجيهات القرآنية إلى أفعال تنهض بالعلم، وتحقق به مصالح البشر.

انتفضت قائلة: لا.. بل لم يفعل المسلمون غير ما أمرهم به

دينهم.. لقد نهضوا ـ على ضوء تلك التوجيهات المقدسة ــ فحققوا في التراث الذي وصل إليهم من الأمم المختلفة، ونقحوه، وأضافوا إليه كما كبيرا من العلم لولاه ما قامت الحضارة الحديثة.

قلت: فكيف لم يصلوا إلى ما وصلنا إليه من تطور؟

قالت: لا شك أنك تعلم أن التقدم العلمي يسير بطريقة خاصة.. فالمبادئ النظرية قد تستدعي الواحدة منها قرونا عديدة.. لكن تحويل تلك النظريات إلى تطبيقات عملية لا يستغرق وقتا طويلا..

لقد أجريت مقارنة بين الفترات الزمنية التي كان يستغرقها الوصول من الكشف العلمي النظري إلى التطبيق في ميدان الإنتاج منذ عصر الثورة الصناعية حتى اليوم.. فوجدت مدى التسارع الذي يصل إليه هذا التطبيق العملي.

لقد احتاج الإنسان ــ على سبيل المثال ــ إلى 112 سنة (1727 - 1839 م) لتطبيق المبدأ النظري الذي يبنى عليه التصوير الفوتوغرافي.. واحتاج إلى 56 سنة (1820 -ـ 1876 م) لكي يتوصل من النظريات العلمية الخالصة إلى اختراع التليفون.. وإلى 35 سنة (1867 - 1902 م) لظهور الاتصال اللاسلكي.. وإلى 15 سنة (1925 ـ 1940 م) للرادار.. و12 سنة (1922 ـ 1945 م) للتلفزيون.. و6 سنوات (1939 -ـ 1945 م) للقنبلة الذرية.. و5 سنوات (1948 ـ 1953 م) للترانزستور.. و3 سنوات (1959 - 1961 م) لإنتاج الدوائر المتكاملة.. وهكذا ترى مدى التسارع الذي يسير به التطبيق العلمي بعد أن توفر الكم الكبير من النظريات العلمية.

قلت: تقصدين أن المسلمين كان يمكن أن يصلوا إلى هذا التطور التكنولوجي الذي وصلنا إليه.

قالت: أجل.. كل البشائر كانت تدل على ذلك.. لولا ما أصابهم من ضعف، وما أصابهم بسببنا من عدوان.

لقد قطفنا ثمرات علومهم ناضجة لنخلط فيها الحق بالباطل، والمنفعة بالمضرة.

قلت: فهل ظهر علماء مسلمون في ميادين العلوم؟

قالت: في كل ميادين العلوم كان للعلماء المسلمين موقع الريادة والسيادة والسبق.. سأضرب لك أمثلة تقرب لك ذلك، أو

تبرهن لك عليه(1).

لقـد اتجـه علمـاء الفلـك المسـلمين ــ منطلقين من اهتمـام القرآن بالكون ـ نحو مظاهر الكون وعلاقاتهـا وأسـبابها ومسـبباتها، فربطوا حركة المد والجزر بحركة القمر، وطبقوا حساب المثلثـات على الأرصاد الفلكية، وقاسوا أجـرام الشـمس والقمـر والنجـوم بطرق هندسية حسـابية قريبـة من الحقيقـة، وقاسـوا أبعادهـا عن الأرض، وتأسـس على أيـدهم علم المثلثـات الكرويـة في القـرن الرابع الهجري مما أدى إلى تسهيل حساب المسافات بين الأمكنـة على الأرض، كمـا قاسـوا محيـط الأرض بـأمر الخليفـة المـأمون بطريقة مبتكرة فبلغ (41248 كم)، وتمكن البتّاني (القرن الرابع) من حساب السنة بمقدار 365 يوماً وخمس ساعات و46 دقيقة و 24 ثانيـة، والفـرق بين تقـديره والتقـدير الحـالي دقيقتـان واثنـان وعشرون ثانية.

واعتمـــد المســـلمون على الرصـــد الفلكي المســـتمر من مراصدهم الممتـدة من مراغـة وسـمرقند إلى اشـبيلية.. وطـوروا آلات الرصـد من الاسـطرلابات والمنـاظير المتنوعـة، وعرفـوا أن الأرض تدور حول الشمس منذ القرن الثامن الهجـري على يـد ابن الشاطر الدمشقي، ووضعوا الجداول الرياضية (التقاويم) مستندين على علم الأزياج..

وكان أبـرز علمـاء الفلـك المسـلمين ينكـرون التنجم ــ الـذي يعـني أثـر النجـوم في حيـاة الإنسـان ــ كـالخوارزمي والفرغـاني والبيروني، وهذا من أثر العقيدة الإسلامية عليهم.

وقد مهد علماء الفلـك المسـلمين للنهضـة العلميـة الأوروبيـة حيث لا زالت مصطلحاتهم تستعمل في علم الفلك المعاصر، وقـد أحصيتها بـ 160 مصطلحا وكلمة.

واهتم المسـلمون بالرياضـيات، فـابتكر العـالم المسـلم أبـو الحسـن علي الاقليدسـي (القـرن الرابـع الهجـري) نظـام الكسـر العشري في الحساب، مما كـان لـه أثـر كبـير في تقـدم الحسـاب وفي اختراع الآلة الحاسبة (الكومبيوتر) في العصر الحديث.. ووضع المسلمون علم الجبر الذي لازال يعرف باسمه العربي في مختلف لغات العالم Algebra حيث ألّف محمد بن موسى الخـوارزمي (ت 235 هـ) كتابه المشـهور (الجـبر والمقابلـة) في عصـر المـأمون (

1) المعلومـات العلميـة الـواردة هنـا مقتبسـة من محـال مختلفـة من كتابـات (أنـور الجندي)

198-218هـ)..

ووضع المسلمون اللبنات الأولى للهندسة التحليلية عندما حلوا المعادلات التكعيبية الصعبة، كما برعوا في الهندسة التطبيقية حيث طبقها ابن الهيثم 0ت430هـ) في العديد من المسائل في علم المناظر (البصريات) لتحليل الشعاع وانعطافه وانكساره وانعكاسه على المرايا المستوية والمقعرة والمحدبة والأسطوانية..

وقام المسلمون بتنظيم علم المثلثات وهو يبحث في الزوايا وعلاقتها بالأبعاد، وأضافوا إليه اكتشاف جيب الزاوية وجيب التمام والظل (المماس) وقاطع التمام.

والمسلمون هم الذين أنشأوا علم الكيمياء واكتشفوا بعض أجزائها المهمة كحامض الكبريتيك والنيتريك، والكحول، وقاموا بعمليات التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتكليس، وهيأوا الأدوات والمختبرات اللازمة لهذه العمليات، ولا زالت كثير من مصطلحاتهم تستعمل في الكيمياء المعاصرة، وقد بنى المسلمون صناعتهم على اكتشافاتهم العلمية مثل صناعة العقاقير وتنقية المعادن وصناعة الورق والأقمشة والزجاج ودبغ الجلود وصناعة العطور، واعتبر ابن حيان (ت 200هـ) أكبر عالم في مجال التأليف والبحث في هذا العلم.

أما في الطب فالمسلمون هم أول من استخدم المخدر (المرقد) في الطب والعمليات الجراحية مستخدمين الإسفنجة المخدرة من محلول الأفيون يستنشقها المريض.. كما اكتشف الأطباء المسلمون العديد من الأمراض وشخصوها، فاكتشف ابن سينا المرض المعروف اليوم بالانكلستوما وهي الدودة التي وصفها بالمستديرة، واكتشف ابن النفيس (ت 686) الدورة الدموية الصغرى بعد تشريح القلب، كما ألف في علم التشريح كتاباً، وبذلك استقل هذا الفرع من العلوم الطبية.. واهتم أبو القاسم الزهراوي (ت 404 هـ) بعلم الجراحة ووصف أكثر من مائتي آلة جراحية مع صورها، وصار كتابه بعد ترجمته إلى اللاتينية يدرس في أوربا خمسة قرون، واستعمل الزهراوي خيوط الحرير في خياطة العمليات الجراحية لأول مرة، كما كان الرازي قد استعمل الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات لأول مرة.. وألّف ابن الجزار القيرواني (ت 369 هـ) أول كتاب في طب الأطفال، وقد استمرت عنايتهم بطب الأطفال حتى وصلوا إلى تلقيحهم ضد

الجدري الذي كان معروفاً في المغرب العربي.
وعلى يد المسلمين استقل علم الصيدلة، وألحقوا الصيدلية بالمستشفى، وأجروا امتحاناً للصيادلة منذ القرن الثالث الهجري، ونموا علم العقاقير بالتأليف في الأدوات المفردة والمركبة، وظلت كثير من الأسماء العربية للعقاقير تستعمل في اللغات الأخرى حتى الوقت الحاضر، وظلت مؤلفاتهم في الصيدلة يستفاد منها في أوروبا حتى أوائل القرن التاسع عشر.
وقد ألحق المسلمون المعاهد الطبية بالمستشفيات مما نجم عنه تقدم الطب السريري (الإكلينيكي)، وقد ذكر المستشرق الألماني (ماكس ماير هوف) 43 مؤسسة طبية تعليمية مع المستشفيات المنتشرة من فارس إلى مراكش.
إن الاعتراف العالمي بجهود المسلمين في الطب يظهر في الموسوعات العلمية وفي صورتي الرازي وابن سينا المعلقتين في كلية الطب بجامعة باريس، وفي إطلاق اسم الرازي على قاعة من أفخم قاعات جامعة برنستون الأمريكية.
أما في علوم الطبيعة (الفيزياء) فتظهر جهود ابن الهيثم (ت 430 هـ) في تطور علم البصريات وفيزيولوجية الأبصار، وكان بحثه في العدسات قد مهَّد لظهور العدسة المكبرة للمجهر والتلسكوب، وجهود البيروني في بيان أن سرعة الضوء أعظم بكثير من سرعة الصوت، وبحث المسلمون في الصوت وتموجاته في الأثير، وهو أساس اختراع الإذاعة المسموعة.
كما استبط علماء المسلمين طرقاً واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من معرفة الوزن النوعي لعدد من المعادن والأحجار، وبحثوا في الضغط الجوي وعرفوا بأن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من أسفل إلى أعلى مما مهَّد السبيل لاختراع البارومتر ومفرغات الهواء.
واهتموا بعلم الميكانيكا وأسموه (علم الحيل)، ووصف ابن الجوزي خمسين آلة ميكانيكية كالساعات المائية والنافورات مع صورها بالألوان الجميلة، كما بحثوا في هذا العلم نظرياً مثل موضوعات القوة وأنواعها والحركة وقوانينها، وتصادم الأجسام وتساقطها، وطبيعة الزمان والمكان وقوة الجذب والجاذبية الأرضية، مما يقلب مفاهيمنا عن كثير من النظريات التي كانت تنسب إلى علماء الغرب.
واهتم المسلمون بعلم الحيوان والنبات وصنفوا في أنواعها

وصفاتها، ونشأ عندهم علم البيطرة، وعلم الفلاحة فصنفوا في ذلك كله منذ القرن الثالث الهجري، وقد ظهر تأثير دراساتهم على نظام الري المعقد في العصر العباسي والذي ضمّ مائة قناة للري، كما ظهر على المستوى الراقي للحدائق والبساتين وخاصة في الأندلس.

والميزة الكبرى للمسلمين أنهم نقلوا هذه العلوم لقومنا الذين استفادوا منها كثيرنا.. بل لولاها لما قامت هذه العلوم الحديثة.

لقد حاول بعض الحقدة طمس هذه الحقيقة والزعم بأن النهضة الأوروبية بنيت على تراث اليونان مباشرة دون وساطة المسلمين وإضافاتهم الكبيرة، لكن الدراسات الحديثة الجادة تؤكد أن أوروبا في عصر النهضة اعتمدت على ترجمة المؤلفات العربية ودرستها في جامعاتها عدة قرون، وطبعت منها بعد اختراع الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي عشرات الطبعات في سنين قليلة (طبع كتاب (القانون) لابن سينا خمس عشر مرة خلال ثلاثمائة وست وعشرين سنة (1174 - 1500) وطبع كتاب (الحاوي) في الطب للرازي مرارا وتكرارا حتى القرن الثامن عشر بعد ترجمته إلى اللاتينية سنة 1279 م في صقلية، وثمة مؤلفات أساسية عديدة ترجمت في القرن العاشر والحادي عشر وظلت متداولة في الجامعات ولدى العلماء قروناً طويلة)، ومن هنا قال فؤاد سزكين: (كلما أمعن الإنسان في دراسة المصادر الأصلية للنهضة الأوروبية ازداد تصوره أن هذه النهضة المزعومة أشبه ما تكون بالولد الذي نسب إلى غير أبيه الحقيقي)

***

ما وصلت (زيغريد هونكه) من حديثها إلى هذا الموضع حتى أقبل أخوها.. وقد كان في محل قريب منا يتنصت لنا.. وقال ـ والدموع تسيل من عينيه ـ: أعتذر إليك ـ أختي ـ على ذلك السلوك المشين الذي سلكته معك..

لقد كنت أنتصت لحديثك مع هذا الرجل.. وقد سمعت من الحقائق ما جعلني أندم على هذه النية التي نويتها.. وأنا الآن أعاهدك، وأعاهد هذا الرجل الفاضل على أن أحافظ على العنب حتى يبقى عنبا..

وأعدك فوق ذلك بأن أبحث عن أسرار ذلك الرجل الذي

تزينت الحياة بمجيئه، وأظلمت بفقده.. إن لي أشواقا نحوه لسـت أدري سرها.

قال ذلك، ثم انصرف، ليتركها ودموعها تختلط بابتسامتها.

قلت لها: أخوك رجل طيب..

قالت: انظر.. إن دين محمد علي لا ينتهي.. فهذا أخي بمجـرد سماعه حديث محمـد تحـول إلى مـا رأيت.. فيـا خسـارة البشـرية التي لم تسمع بمحمد.. ولم تسمع لمحمد.

قلت: أنـا أعجب لـك.. فمـع كـل هـذه الأشـواق والمحبـة لم تعلني إسلامك..

قالت: ذلك سر آخر (1).. أحيانا يتطلب منك حبك للشـيء أن تكتم محبتك له.

قلت: لم؟

قـالت: أرأيت لـو أني أعلنت إسـلامي.. ثم كتبت جميـع شهاداتي للإسلام.. هل ترى أحدا من الناس سيقبلها؟

قلت: لا أظنهم يفعلون..

---

1) ورد في مقال بعنوان (مستشرقون أعلنوا إسلامهم) قول مؤلفه ــ لم أجـد اسـمه ـ :(ويطيب لي هنا أن أَتـلـثَ بثالثة الأثافي، قصة العالمة الألمانية زيغريـد هونكـة صـاحبة الكتاب الشهير (شمس العرب تسـطع على الغـرب) والـذي بينتْ فيـه، كمـا هـو معلـوم، فضل حضارة المسلمين وتمدنهم على الغرب ونهضـته الأخـيرة بعـد عصـور الظلام الـتي غطتْ أوروبا في غطيطها قرونا طويلة.. زيغريد هونكة التي تَمَلّـك حبُّ العـرب وثقـافتِهم ومجدِهم شَغاف قلبها بما لا يكاد أن يكون لـه مثيـل بين الأوربـيين وأحبتْ الإسـلام لحبهـا لهم ولعلمها بأنه هو الذي أخرجهم بين الأمم خير أمة أخرجت للناس.

وقد حدثني بخبرها الدكتور علي الدفاع عالم الرياضيات المعروف في جامعـة البـترول بالظهران بنفسه مشافهة قال: كنت في أحد المؤتمرات العلميـة في أوربـا وقـد تحـدثتُ إلى الدكتورة هونكة وكنت مطلعا على كتاباتها وإنصافها لعقيـدتنا وحضـارتنا ورأيتُهـا وقـد كبِرتْ سِنُّها قلت لها: إن لي حلما جميلا أرجو له أن يتحقق!! فقالت لي: وما هذا الحلم.. قال فأجبتُها: بأن حياتك العلمية والثقافية الطويلة في الدفاع عن مآثر العرب والمسلمين وتاريخهم أرجو أن يكون لهذه الحياة الحافلة وهذه السيرة العلمية المميزة تكملة جميلـة وأن تختم بأحسن ختام وذاك بأن تـدخلي في الإسـلام!! قـال محـدثي: وقـد رأيتُ عينيهـا اغرورقتا بالدموع ثم قالت لي بالعربية الفصيحة:(بيني وبين ذلك قاب قوسـين أو أدنى) قال فما مر عام أو أكثر حتى سمعتُ خبر اعتناقها للإسلام وسمعتُ خبر وفاتها بعـد ذلـك بمدة رحمها الله..

وعندما سُئلتْ في أحد المؤتمرات الإسلامية ما نصيحتها للمرأة العربية التي تريـد طي الماضي وخلع الحجاب، قالت زيغريد هونكة:(.. لا ينبغي لهـا أن تتخـذ المـرأة الأوربيـة أو الأمريكية أو الروسية قدوة تحتذيها، أو أن تهتدي بفكر عقدي مهما كان مصـدره، لأن في ذلك تمكينا جديدا للفكر الدخيل المؤدي إلى فقدها مقومات شخصيتها، وإنما ينبغي عليهـا أن تستمسك بهدي الإسـلام الأصـيل، وأن تسـلك سـبيل السـابقات من السـلف الصـالح، اللاتي عشنه منطلقات من قانون الفطرة التي فُطرنَ عليها، وأن تلتمس العربيـةُ لـديهن المعايير والقيم التي عشن وفقا لها، وأن تكيف تلك المعايير والقيم مع متطلبـات العصـر الضرورية وأن تضع نصب عينيها رسالتها الخطيرة الممثلة في كونها أم جيل الغد العربي، الذي يجب أن ينشأ عصاميا يعتمد على نفسه)

قالت: هذا ما أطيق أن أجيبـك عنـه.. فلا تسـألني المزيـد من الأسئلة.

قلت: فأنت مسلمة تكتمين إسلامك!؟

قالت: ليس هناك أحد يعرفـه.. ثم ينكـره.. وليس هنـاك من يراه.. ثم لا يحبه.

قالت ذلك، ثم انصرفت تطلب أخاها، وانصـرفت على إثرهـا، وفي قلبي بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلـك إلى شـمس محمد ﷺ.

تاسعا ـ فنون

في اليوم التاسع من تلك الأيام العشرة المباركة، التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة الفنون من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى في التنبيه إلى الجمال الذي اشتملت عليه السماء: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (قّ:6).. ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (الحجر:16)

وقوله في التنبيه على الجمال الذي اشتملت عليه الأرض: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (قّ:7)

وقوله في التنبيه على جمال حدائق الأرض: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل:60).. ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:99)

وقوله في التنبيه على الجمال الذي جعله الله في الأنعام: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل:6).. ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:8)

وقوله في الجمال الذي جعله الله في البحر: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:14)

وقوله في التنبيه على جمال الإنسان: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (غافر:64).. ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن:3)..﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الانفطار:7)

وقوله في الحض على أخذ الزينة والاهتمام بالجمال: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا

يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (لأعراف:31)

وفوق ذلك كله قوله تعالى وهو يصف جمال أفعاله ودقة صنعه: صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (النمل:88).ـ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (السجدة:7)

وعرفت به سر نصوص أخرى كثيرة توجه الأبصار والأسماع وجميع وسائل الإحساس والإدراك إلى النظر إلى الجمال المبثوث في الأشياء وتذوقه وشكر الله عليه..

وهذا ما يجعل من كل مسلم فنانا ذواقة ممتلئا بالأحاسيس الجميلة التي يعبر عنها بأجمل قصائد مديح ربه وحمده.

***

كان من ضمن الأسماء التي وضعت في دفتر المرشد اسم (سير هاملتون جيب)(1)، ولم أكن أعرفه، ولكني كنت أسمع بحبه

---

1) هو سير هاملتون الكساندر روسكين جب (1895 – 1967) Sir Hamilton R. A. Gibb، ولد في الإسكندرية، ثم انتقل إلى اسكتلندا وهو في الخامسة من عمره للدراسة هناك ولكنه كان يمضي الصيف مع والدته في الإسكندرية. التحق بجامعة أدنبرة لدارسة اللغات السامية. عمل محاضراً في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام 1921وتدرج في المناصب الأكاديمية حتى أصبح أستاذً للغة العربية عام 1937 وانتخب لشغل منصب كرسي اللغة العربية بجامعة أكسفورد. انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل مديراً لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد بعد أن عمل أستاذاً للغة العربية في الجامعة.

هو إمام المستشرقين الإنكليز المعاصرين، وهو عضو مؤسس في المجمع العلمي المصري، تفرغ للأدب العربي وحاضر بمدرسة المشرقيات بلندن.

بالإضافة إلى اهتمامه اللغوي فقد أضاف إلي ذلك الاهتمام بتاريخ الإسلام وانتشاره وقد تأثر بمستشرقين كبار من أمثال تومارس آرنولد وغيره.

ومن أقواله التي جعلتنا نختاره لهذا الفصل:(إذا رأى أحد أن إلحاح القرآن على فعل الخير غير كثير أنبئنا له بالحجة القاطعة خطأه وسقنا إليه ذلك التعريف الشامل للبر في تلك الآية العظيمة: لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة 177)، فالبر إذن تاج الإيمان الحق، حين يدرك المؤمن أخيرًا أن الله شاهد أبدًا، ويستجيب لشهوده في كل أفكاره وأعماله) (دراسات في حضارة الإسلام، ص 254)

وقوله:(هذه، إذن، هي الرسالة التي بلغها القرآن إلى الجيل الأول من المسلمين وظل يبلغها إلى جميع الأجيال منذ ذلك العهد. فالقرآن سجل لتجربة حية مباشرة في ميدان الألوهية، تجربة ذات طرفين: واحد مطلق وآخر متصل بشؤون الحياة العامة، ودعوة للمخلوق كي ينظم حياته ليتمكن من الأخذ بنصيب في تلك التجربة. وحين يتبع المسلم أوامر القرآن ويسعى ليستكنه روح تعاليمه، لا بفكره فحسب بل بقلبه وروحه أيضًا، فإنه يحاول أن يستملك شيئًا من الرؤى الحدسية ومن التجربة التي كانت للرسول الحبيب. ويعظم في عينيه مغزى كل آية فيه، لإيمانه بأنه كلام الله. ولو لم يكن هذا الإيمان شعبة من عقيدته لما تناقصت قيمته لديه من حيث هو منبع حي للإلهام

للأدب العربي وللفنون الإسلامية.. ولم أكن أدري سر ذلــك إلى أن التقيته في ذلك اليوم المبارك.. فعلمت سر ذلك الحب.

في ذلــك اليــوم من أيــام الربيــع، خــرجت إلى منــتزه من المنتزهات الطبيعية التي لم تمتد إليها بعد يد الإنسان.. وقد احترت إذ رأيت المنتزه خاليا، وكأن الجماهير زهدت في الطبيعة العــذراء، فراحت تبحث عن الطبيعة التي تلاعبت بها يد الصناع.

لكني رأيت رجلا مستلقيا على عشب ذلك المنتزه، وهو يترنم بشعر عربي فصيح، يتغنى به، ويكاد جسمه يرقص مع ترنيماته.

لم أشأ أن أكدر عليــه صــفوه، ولكــني في نفس الــوقت كنت مشتاقا أن أحدثه، فقد ناسب ذوقه ذوقي وســلوكه ســلوكي.. فأنــا أحب الشعر، وأتذوقه كما لا أتذوق أي فن من الفنــون، وخاصــة إذا امتزج مع الألحان الطيبة التي تحيله نغمات روحية رفيعة.

استلقيت مثل استلقاءته.. غير بعيد عنه.. ورحت أتــرنم بقــول علي بن أبي طالب:

ليس الجمال بأثوابٍ تزيِّنُنا إن الجمالَ جمالُ العقلِ والأدبِ

فانتفض الرجل من مكانــه، وأسـرع يحث الخطــا إليّ، وقــالَ: أعد علي ما كنت تقرأ.

أعدت عليه البيت، لكن بقراءة سريعة له..

قال: لا.. أعده كمــا كنت تقــرؤه.. فلا ينبغي أن يهــان الشــعر هكذا.

أعدت قراءته كما طلب مني، فقال: أرأيت.. هــذا هــو الأدب.. وهذا هو الفن.. وهــذا هــو الــذوق الرفيــع الــذي يرفــع الإنســان إلى الإنسان.

قلت: أراك مهتما بالأدب العــربي.. ألــك علاقــة بــالعرب؟.. أم أنك عربي؟

قال: أنا لم يجذبني إلى هذا الأدب كونه عربيا؟

قلت: فما الذي جذبك إليه؟

قــال: أنــا رجــل أحب الفنــون الرفيعــة، وأشــعر أن إنســانية الإنســانية لا تكتمــل إلا بــالفن الرفيــع الــذي ينمي ذوقــه، ويصــقل مداركه، ويحيله طائرا جميلا يحلق في سماء الكون.

قلت: ما دمت بهذه الصورة.. فارحل إلى أمريكا.. ففيها بلــدة يقال لها (هوليــود) تنتج في كــل يــوم من أنــواع الفنــون مــا أنتجتــه

والاستبصار الديني) (دراسات في حضارة الإسلام، ص 254) انظــر: قــالوا عن الإســلام، عماد الدين خليل.

البشرية في عمرها جميعا.
قال: قد عرفت تلك البلدة.. وسـكنت فيهـا.. وامتلأت بالغثـاء منها ومن أهلها ومن فنها.
قلت: فـاذهب إذن إلى المتـاحف العالميـة.. هنـا في بـاريس واحـد منهـا.. اذهب وانظـر إلى تلـك اللوحـات الزيتيـة الـتي تبـاع بملايين الدولارات..
قال: قد ذهبت.. ولكـني لم أشـعر بشـيء.. تلـك اللوحـات لا تمثل لي أي شيء.. لأن كل شخص يقرأ منها ما يشاء.
قلت: وما الحرج في ذلك؟
قال: أنا أبحث عن الفن الرفيع الذي يرفعـني.. لا الفن الـذي يضعني أو يحدث في تأثيرا مؤقتا سرعان ما يزول.
قلت: أنت تبحث عن الفن المرتبط بالإيمان.
قال: أجل..
قلت: فاذهب إلى الكنائس، فهي تمتلئ بالصور والأيقونات.
قال: لقد زرت الكثير منها.. ولكـني لم أر إلا آلهـة تـزاحم إلـه الكنيسة..
قلت: أراك لا يعجبك شيء..
قال: بلى.. لقد ظفرت بغايتي..
قلت: أين؟
قال: عند محمد.. وعند ورثة محمد.
قلت: أنت مسلم إذن؟
قال: إلى هذه الساعة لست مسلما.. ولكني أشـعر أنـه ليس هناك دين يستحق أن يتبعه عاقل وذواقة مثل الإسلام.
قلت: لم؟
قال: لقد بحثت في دور الفن وألوانه وأنواعه ورجالـه عن فن يحلق بالإنسان إلى الآفاق العليا من مراقي الكمال.. فلم أجــده إلا في دين محمد.
قلت من غير أن أشعر: من أنت؟.. لكأني بك أحد من أبحث عنهم.
قال: ما تقصد؟
تداركت الموقف، فقلت: لا أقصد شيئا.. لكن من أنت؟
قال: أنا (هاملتون جيب)
قلت: أعرفك.. أنت العالم والمستشرق المعروف.
قال: أجل.. وفوق ذلك أنا الباحث عن الفنون العاشق لها.

قلت: أعلم حبك للأدب العربي.. ما الذي جذبك إليه؟
قـال: حـبي للفن.. والأدب بالنسـبة لي أرفـع أنـواع الفنـون وأرقها وأبلغها في التعبير عن المشاعر.
قلت: فهل تحدثني عن نتيجة أبحاثك؟
قال: أجل.. لقد وجدت بعد تأمل طويـل أن الفن الرفيـع هـو الفن الذي يحقق غايتين جليلتين كلاهما ترفعان الإنسـان إلى أعلى مدارج الكمال.
قلت: ما هما؟
قال: التهذيب والتوحيد.
قلت: ما تقصد بذلك؟.. وما وجه الحصر في ذلك؟
قـال: لقـد وجـدت أن الإنسـان معـدن لا يختلـف عن سـائر المعادن.. هو كسبيكة الذهب.. وسبيكة الذهب لا يعـرف جمالهـا إلا بعد صقلها وتزيينها وتهذيبها.
قلت: والتوحيد.
قال: ليس للعقود ولا الأسورة أي قيمة ما لم تؤد الغاية منها..
قلت: فـأنت تـرى أن الغايـة من الفن هي الوصـول إلى التوحيد.
قال: أجـل.. لأن الغايـة من الفن أن يوصـلك إلى السـكينة.. ولن تجد السكينة في غير التوحيد.
قلت: فهل تحدثني عما توصلت إليه.
قال: يسرني ذلك.. فأنا لا أبشر إلا بذلك.

فنون الجاهلية

قلت: فهل سنبدأ بالحديث عن فنون الجاهلية؟
قال: أجـل.. فلا يعـرف الإسـلام من لا يعـرف الجاهليـة.. ولا تعرف الثمرة الطيبة إلا بمقارنتها بالثمرة الخبيثة.
قلت: فبأي جاهلية نبدأ؟
المسيحية:
قال: بالجاهليـة الـتي عقـدت البسـاطة.. وعـددت التوحيـد.. وحرفت التهذيب.
قلت: من تقصد؟
قال: المسحية التي عقدتها الكنيسة.
قلت: ولكن المسيحية دين.. وليست مدرسة فنية.

قال: لكـل دين مدرسـته الفنيـة.. ويسـتحيل أن تكـون هنـاك فكرة في الدنيا لا تعبر عن نفسها بأسلوب فني.

قلت: فكيف عبرت المسيحية عن نفسها؟.. ولمـاذا اعتـبرت تعبيرها جاهلية؟

قال: لقد بحثت المسيحية في الفنـون الـتي تسـتطيع بهـا أن تعبر عن ذاتها، فلم تجد إلا الصور والتماثيل.

قلت: لم اختارتها دون غيرها؟

قال: هي لم تختر.. ولكنها فرضت عليها.. المسـيحية لم يكن لها من الحصون ما كان للإسلام، فلذلك اخـترقت، وسـهل التلاعب بها إلى أن صارت وثنية، أو اقتربت من الوثنية.

فكمـا اخـترقت المسـيحية في عقيـدتها وشـريعتها.. فقـد اخترقت أيضا في فنونها.. بل تحولت فنونها إلى طقوس شـعائرية لا تختلف عن طقوس الوثنيين.

قلت: ولكن شـريعة التـوراة تحـرم التصـوير ونحت التماثيـل وتعده من أعمال الوثنيين.

قال: وشريعة التوراة دعت إلى تقديس السبت.. فهـل تـراه مقدسا عندنا؟

قلت: لا..

قال: فكذلك هذا.. وكذلك غيره..

أنت تعلم أن المسيحية كلهـا ــ بجميـع شـعائرها وطقوسـها ـ عبارة عن محدثات تروق لرجال الدين.. فيجتمعون.. وسـرعان مـا يقـررون.. وسـرعان مـا تتحـول قـراراتهم المشـبعة بـأهوائهم.. أو المشـبعة بـأهواء السـلطة الـتي تحكمهم إلى دين.. ثم نـأتي نحن لنصفها بالقداسة، ونظل نتعبد بها.

قلت: أهذا ما حصل مع الفن المسيحي؟

قال: أجل.. لقد نشـأت عبـادة الصـور والتماثيـل كـأي بدعـة أخرى ـ محدودة النطـاق ــ ثم نمت تـدريجياً وانتشـرت في أرجـاء واسعة لكنها لم تدخل في صلب الديانة المسيحية بصفة رسمية إلا في مجمع نيقية الثاني(1).

يقول ول ديورانت: (كانت الكنيسـة أول أمرهـا تكـره الصـور والتماثيــل وتعــدها بقايــا من الوثنيــة وتنظــر بعين المقت إلى فن النحت الوثــني الــذي يهــدف إلى تمثيــل الآلهــة، ولكن انتصــار المسيحية في عهد قسطنطين وما كان للبيئـة والتقاليـد والتماثيـل

1) انظر الكتب التي تتحدث عن العلمانية التي سبق ذكرها.

اليونانية من أثر كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية، ولما أن تضاعف عدد القديسين المعبودين نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم وظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصور، ولم يعظم الناس الصور التي يزعمونها أنها تمثل المسيح فحسب بل عظموا معها خشبة الصليب حتى لقد أصبح الصليب في نظر ذوى العقول الساذجة طلسماً ذا قوة سحرية عجيبة)

ويذكر ديورانت كيف انتشرت هذه الوثنية بين العامة كانتشار النار في الهشيم، فقال: (وأطلق الشعب العنان لفطرته، فحول الآثار والصور والتماثيل المقدسة إلى معبودات يسجد لها الناس ويقبلونها ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها ويتوجونها بالأزهار ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفي.. وفي البلاد التي تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص كنت ترى الصور المقدسة في كل مكان في الكنائس والأديرة والمنازل والحوانيت وحتى أثاث المنازل والحلي والملابس نفسها لم تخل منها، وأخذت المدن التى تتهدد أخطار الوباء أو المجاعة أو الحرب تعتمد على قوة ما لديها من الآثار الدينية، أو على ما فيها من الأولياء والقديسين.. للنجاة من الكوارث)(1)

قلت: لقد سمعت أن بعض قومنا قاموا في وجه هذا النوع من الوثنية.

قال: نعم.. لقد حصل ذلك بتأثير الإسلام(2).. ولكن ذلك ـ للأسف ـ لم يتم بالصورة المثلى.. فقد ظل المتعصبون من رجال الدين هم الحكم في هذا.. بل إنه اجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا (جريجورى الثاني) وصب اللعنة على محطمي الصور والتماثيل.

وفي مجمع نيقية الثاني سنة 787 صدر القرار التالي، والذي عدل نوعا ما كان سائدا من عبادتهم: (إنا لا نحكم بأن توضع الصور في الكنائس والأبنية المقدسة والملابس الكهنوتية فقط، بل في البيوت وعلى الجدران في الطرقات، لأننا إن أطلنا مشاهدة ربنا يسوع المسيح ووالدته القديسة والرسل وسائر القديسين في صورهم شعرنا بالميل الشديد إلى التفكير فيهم والتكريم لهم، فيجب أن تؤدى التحية والإكرام لهذه الصور، لا العبادة التي لا تليق إلا بالطبيعة الإلهية)(3)

1) قصة الحضارة 24/154.
2) انظر الفصل الأول من هذه الرسالة.
3) محاضرات في النصرانية: 164.

سكت قليلا، ثم قال: ليت الأمر اقتصر على المسيح وأمه، بل إن الكنيسة تجرأت فصورت الله كما تصور المخلوقين..

لقد قال الفنان الذي هرب من المسيحية إلى الإسلام (ناصر الدين دينيه): (الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشريا أو ما إلى ذلك من الأشكال.. أما في المسيحية فإن لفظ الله تحوطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال، فمن تجاعيد الوجه غائرة إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة تثير في النفس ذكرى الموت والفناء، ونسمع القوم يصيحون (ليحي الله) فلا نرى للغرابة محلاً، ولا نعجب لصيحاتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة، وقد تمثل أمامهم شيخاً هرماً قد بلغ أرذل العمر، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء، وكيف لا يطلبون له الحياة؟ كذلك (يا هو) الذي يمثل به طهارة التوحيد اليهودي، فهم يجعلونه في مثل تلك المظاهر المتهالكة تراه في متحف الفاتيكان ونسخ الإنجيل القديمة المصورة)[1]

والعجب أن أحد علمائنا الكبار يقول مقررا: (لا يمكننا أن نفهم الله إلا عن طريق تصوره بالصور البشرية)[2]

التفت إلي، وقال: أتدري كيف تسربت هذه الوثنية إلى المسيحية؟

قلت: لا..

قال: لقد كان الهدف الأكبر لمبشرينا هو إدخال أكبر عدد من الناس، ولو على حساب المبادئ والقيم والقوانين التي تحفظ صفاء الدين.. وهذا ما تختلف فيه مع الإسلام اختلافا جذريا.

سأضرب لك مثالا على ذلك.. لقد دخلت بعض الجزر البريطانية في المسيحية.. وكانت شديدة التمسك بوثنيتها.. ودار بينهم وبين الكنيسة صراع طويل، ولما رأى البابا (جريجورى) ذلك اصطنع اللين مع من بقى في إنجلترا من الوثنيين، وأجاز تحويل الهياكل إلى كنائس بأن تحول عادة التضحية بالثيران في يسر ولطف إلى ذبحها لأنعشهم لمديح الله، وبهذا كان كل ما طرأ على الإنجليز من تغير، هو تحولهم من أكل لحم البقر حين يحمدون الله إلى حمد الله حين يأكلون لحم البقر)[3]

التيه:

1) أشعة خاصة بنور القرآن: 25.
2) الله واحد أم ثالوث: 14.
3) قصة الحضارة 14: 368.

قلت: لقد طلق الناس الكنيسة.. فهل وجدوا فنا صالحا يخدم ما وجدته من أهداف بعدها؟

قال: الفن مثل الثمـرة.. وكمـا أن الثمـرة لا تلام على نوعهـا ولونها، فكذلك لا يلام الفن؟

قلت: فمن الملوم؟

قال: البذرة.. البذرة هي التي تنتج الثمرة.. كما قال المسيح: (هل تجتنون من الشوك عنبا، أو من الحسك تينا.. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الرديـة فتصـنع أثمـارا رديـة) (إنجيل متى:7/16-17)

قلت: فما البذرة؟

قال: هي الأفكار التي تملأ عقل صـاحبها وقلبـه، فيـأبى إلا أن يعبر عنها بما يطيق من صنوف التعبير.

قلت: فهمت هذا.. ولكني سألتك عن أنواع الفنون التي هــرع إليها قومنا بعد أن طلقوا الكنيسة.

قال: قد أجبتـك.. لقـد تـوزعت عقـولهم تبحث عن أي شـيء يغطي ذلك اللهث وراء الحقيقة.

قلت: فهل وجدوها؟

قال: للأسف قل من وجدها.. مع أنها كـانت أقـرب إليهم من حبل الوريد.

قلت: فما الذي منعهم منها؟

قال: أنفسهم.. الكبر الذي كانت نفوسهم ممتلئـة بـه منعهم.. فلذلك وقعوا في وديان سحيقة لم تزدهم إلا بعدا عن الحقيقة.

قلت: هذا كلام عام أريد تفاصيله.

قال: كثيرة هي تفاصيله.. ولكني سأذكر لـك نمـاذج عن ذلـك التيه الذي وقع فيه قومنا، ووقع فيه الفن بسبب ضياعهم.

الكلاسيكية الجديدة:

قلت: فما النموذج الأول؟

قال: أول قبلة التفت إليها قومنا ــ بعـد أن طلقـوا الكنيسـة ـ جـذورهم الأولى.. وجـاهليتهم الأولى.. لقـد وجـدوا أن الكنيسـة لم تلب مطالبهم النفسية.. فعادوا إلى الخلف يبحثون عنها.

قلت: تقصد المدرسة الكلاسيكية؟

قال: أجل.. فقد اقترن مـا نسـميه (عصـر النهضـة) الأوربيـة بالحركة التى نشأت فى إيطاليا، واستهدفت بعث الآداب الإغريقيـة القديمة التي أطلق عليهـا أسـم (الآداب الإنسـانية) تميـيزا لهـا عن

كتابات رجال الكنيسة اللاهوتية.

لقد فوجئت أوروبا الغارقة فى سبات القرون المظلمة بنور الحضارة الإسلامية فانبهرت به وأحست بواقعها المرير تحت ضغط الكنيسة التى جثمت على فكرها وشعورها وسلوكها وأفقدتها الإحساس بإنسانيتها.

وهذه اليقظة المفاجئة أوقعت النفسية الأوربية فى مأزق حرج إذ تصادم فى داخلها دافع ومانع قويان: الأول دافع الاستمتاع بنور الإسلام والدخول فى فردوس حضارته حيث التوازن الفريد بين الدنيا والآخرة، وبين الروح والجسد، ففى ظله تنطلق إنسانيتهم لتعبر عن ذاتها بعيداً عن أغلال الرهبانية وشطط الكنيسة.

والآخر مانع التعصب والعداوة الحاقدة للإسلام وحضارته تلك التى عمقتها الحروب الصليبية.

وكان المانع أقوى من الدافع، فخرجت أوربا من ذلك التناقض النفسى بالبحث عن وسيلة تتيح لها الخلاص من براثن السلطة الكهنوتية الطاغية دون أن تتخلى عن تعصبها وعداوتها للإسلام وأهله ولم تكن تلك الوسيلة سوى عملية (اجترار الماضى) ببعث تراثها الوثنى الإغريقى والالتصاق به لاسيما جوانبه الشهوانية البهيمية.

قلت: لقد كان للكنيسة بعض سلطة في ذلك الحين.. فكيف لم تثر عليه؟

قال: نعم.. لقد أزعج هذا التوجه الكنيسة.. ولكنه ـ مع ذلك ـ كان أفضل لديها من إقبال أتباعها على الإسلام.

لقد حاولت جهدها أن تسير الموجة لصالحها، وتسيطر على الوضع بحيث تبقى عقائدها وتصوراتها تصبغ الأدب، وتظل بصماتها بارزة فى فنه المنحوت والمرسوم، ولكن عوامل التحرر والانطلاق كانت أقوى من حواجزها، واستطاع عصر النهضة أن يخطو خطوات كبيرة وجريئة للوصول إلى علمانية كاملة للأدب والفن عليها قام الأدب العلمانى الحديث وارتكز(1).

قلت: أراك تتكلم عن هذا النوع من الفن باعتباره جاهلية.. ولكني بحسب ما أعلم هو الفن الذي تولى التعبير عن العواطف الإنسانية العامة.. وربطه بالمبادئ الأخلاقية، ووظفه لخدمة الغايات التعليمية واحترام التقاليد الاجتماعية السائدة.

---

1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.

قـال: هـذا مـا يقـال.. وفيـه بعض الحقيقـة.. وفيـه كثـير من الباطـل.. سـأذكر لـك بعض خصـائص هـذا التوجـه لـترى نـواحي الجاهلية فيه.

لقد كانت الخطوة الأولى التي خطاها هذا النوع من الفن في انفلاته من الكنيسة هو إحياء الآداب الإغريقية.. حيث استطاع أدبـاء وفنانو النهضة النفاذ إلى عالم آخر خـارج من مـألوف عصـرهم ولا أثر فيه لشيء من اللاهوتيات.

لقد نفذوا أول الأمر من كوة صغيرة، لكنها ظلت تتسـع حـتى انتفض بنـاء الكنيسـة والتقاليـد من أساسـه، وطلعـوا على الفكـر الأوروبى بمفـاهيم جديـدة ومعـايير سـبقوا بهـا النهضـة الفكريـة العقلانية، وذلك ما يعده الفكر الحديث أعظم مآثر النهضة.

قلت: لقد وضعت معيارين للحكم على الفنـون، همـا التوحيـد والتهذيب.. فهل ترى هذا النوع من الفن مناقض لهما؟

قال: كل المناقضة.. ولا ينبغي أن يكـون الأمـر إلا كـذلك.. فلا يمكن لمن زرع شوكا أن يجني عنبا.

قلت: فحدثني عن دلائل ذلك.

قال: هذه المدرسة كما ذكرت لك ـ أو هذا العصر ـ انطلق رد فعل على الكنيسة وعلى انحرافات الكنيسة..

ولذلك كان أول ما اهتم به هو الحيـاة الـدنيا.. والإنسـان.. لأن الكنيسة كانت تلغي كليهما.

قلت: هذا مكسب جيد.

قال: ولكنه مكسب منحرف.. لأنه لم ينتج فعلا.. وإنما نتج رد فعل.. ورد الفعل صراع.. والصراع لا يأتي بخير.

لقد كانت الكنيسة تحصر كل النشاط الفكرى والفنى لأتباعها فى مجال الحديث عن الثالوث والقديسـين والملائكـة والمعجـزات وكبت المشـاعر والأحاسـيس الإنسـانية أيـا كـانت مـا لم تكن فى حدود دائرتها اللاهوتية.

ولهذا جاءت هذه الحركة تناقض ذلك تماما حتى أطلـق عليهـا وصف (الإنسانية)

لقد قام دانتى (ت 1321م) فى هذا المجال بمثل ما قـام بـه (مكيافيللى) فى مجال السياسة، فقد خـرج على الكنيسـة خروجـاً صريحاً، وناقص تقاليدها ومقاييسها، وابتداء منه أخـذ الأدب الأوربى بحل الإنسان شـيئا فشـيئا محـل (الإلـه).. وبـذلك انتقضـت عـروة التوحيد.. وارتباط الفن بالغاية الكبرى من وجود الإنسان.

لقد صار الاهتمام بالإنسان ـ الذى نبه إليه دانتى ومعاصـروه ـ المنطلق لمحاولـة تأليـه الإنسـان وتصـويره على أنـه الـه حقيقى، وهى المحاولة التى بدأت فى القرن التاسع عشر واكتملت على يد (سارتر) وأشياعه فى هذا القرن مـروراً بتأليـه الطبيعـة الـذى دعـا إليه عصر التنوير.

ذكر (داونز) ذلك، فقـال: (يقـف (دانـتى) كمـا وقـف صـديقه ومعاصره المصـور الرسـام (جيوتـو) على رأس حقبـة جديـدة فى تطور الفكر البشرى، ولما كان كلاهمـا فنانـاً عظيمـاً، فإنهمـا عـبرا أصدق تعبير عن ذلك الشـيء الجديـد الـذي ربمـا كـان يجيش فى صدور الكثير من معاصـريهم، ولكنهم لم يسـتطيعوا الإفصـاح عنـه كما أفصحا)

ويقول: (وهذا الشيء الجديـد هـو (الإنسـانية).. أو هـو بتعبـير آخر الاهتمام بشئون الإنسان فى الحياة الدنيا.

ونستطيع أن نتفهم خطورة هذا الجديد الذى يزاحم القديم إذا قارناه بالعقائد المسيطرة على أذهان الناس فى ذلـك العصـر عن الحياة والكون ... ومؤداها أن الحياة الدنيا ليست إلا تمهيداً لاستقبال الحياة الأخـرى، وقـد هيمن هـذا الاعتقـاد على النـاس فى القـرون الوسطى جيلاً بعد جيـل تحت سـطوة الكنيسـة وسـيطرتها العاتيـة على جميع نواحى النشاط الإنسانى وجميع المؤسسات الاجتماعية بينما كـان علم العلمـاء كلـه يـدور حـول المبـادئ الدينيـة والعقائـد الكنسية)

ويقول: (ثم جاء عقب ذلك عصر الاسـتنارة، وهـو أول تبـديل جديد طرأ على النـاس في نظـرتهم للحيـاة، فـاتجهوا إلى أحضـان الطبيعة يستوحون منهما أسرار الكون ووضعوا ثقتهم المطلقة فى مقدرة العقل الإنسانى)

ويقول: (وقد نادى بهذا نفر من عبـاقرة ذلـك العصـر، ... كـان مجالهم الفكرى فى ناحية الاهتمام بشؤون الإنسان فى هذه الـدنيا وترك الاهتمام بشؤون الآخرة)

ويقول: (وأما (جيوتو) فكان فنان هذه النهضة كما كان دانـتى شاعرها فقد أخذ جيرتو يرسم على جدران كنائس مدينة (أسيزى) صوراً وأقاصيص لحياة القديس فرانسيس عـرض بهـا رسـوماً من النـاس والطبيعـة والطـير والحيـوان والزهـور من واقـع الحقيقـة والمشاهدة وهو حدث جديـد فى الفن وخـروج التقليـد القـديم فى تصوير العذراء والطفل وتصوير القديسين).

ويقول: (إن ملحمة الكوميديا كانت حدثاً جديداً فى الأدب، حدثاً ضخماً لم يسبق له مثيل، فليس إذن من العجب أن يدعوها الناس بلقب (الإلهية) لأنهم شعروا عند ظهورها أن أدبا أوروبيا جديداً قد انبثق فجره)

ويقول: (إن الناس كانوا يعتقدون ما علمتهم الكنيسة من أن كل إنسان يكفر بالمسيحية جزاؤه جهنم، وأما من يؤمن بها فمآله إلى الجنة، وجاء دانتى فخرج من تلك العقيدة القديمة وأقام موازين جديدة للعقاب والثواب على أساس من الأخلاق.. وعندما ننظر اليوم إلى الوراء نجد شاعراً يوزع بالقسطاس العقاب والثواب بدلاً من أن يوزعها البابا، فإننا لا نرى فى عمله شيئا خارقاً غير أنه بالقياس إلى عصره كان لا شك انقلاباً خطيراً)

ويقول: (وقد صدق الشاعر بوب عندما عبر عن فلسفة القرن التالى (18) بقوله: (إن خير دراسة يقوم بها البشر هى دراستهم للإنسان)، وقد كان شكسبير قبله خير من قام بهذه الدراسة، والحق أن شكسبير يمثل أرقى ما بلغت إليه حركة النهضة الأوربية بأجمعها، وهى فى لبابها تتلخص فى اكتشاف الجنس البشرى لقيمته وأهميته التى كانت قد ضاعت على مر العصور)(1)

وبذلك بدأ الانحراف الثاني للفن.. وهو الانحراف عن غاية التهذيب..

وذلك شيء منطقي.. فكل فن يبتعد عن التوحيد لابد أن يبتعد عن التهذيب.. ويكون بعده عن التهذيب بقدر بعده عن التوحيد.

وبما أن هذا المذهب ابتعد كثيرا عن التوحيد.. فقد ابتعد بمثل ذلك عن التهذيب..

لقد عاد المذهب المناهض للكنيسة وللرهبانية، فأحيا الإباحة الرومانية، وأعاد معها إحياء المذهب الأبيقورى فى التمتع بضروب الملذات والانغماس في الشهوات الجسدية.

وهكذا كان عصر النهضة يتسم بطابع كلاسيكى خاص يقدس الجسد، ويعبد اللذة فى وقت لا تزال الرهبانية فيه هى المثل الأعلى، ووجه زعماء ذلك العصر أنظار الناس إلى مثالب الرهبانية بحجة منافاتها (للإنسانية)، وهو الوصف الذى كانوا يتسترون به.

وكمثال على ذلك هذه القصيدة المبتذلة:

---

1) كتب غيرت وجه العالم: مقتطفات: من 362 – 368.

نحن فى تجوالنا مغتبطون مشرقون ...
نأكل حتى الشبع نشرب حتى الثمالة ...
نمرح إلى الأبد ننهل من الجحيم ...
تلتصق صدور بعضنا ببعضنا ...

وعندما نشأ أدب علمانى عامى لم يجد إلا أن يصدر من نفس التمتع الوثنى بخيرات الحياة الرفيع منها والوضيع، فالشعراء المغنون (التروبادور) حولوا الفروسية المسيحية إلى تمجيد للحب الإنسانى ... ومن الجدير بالملاحظة أن أكثر هذه القصائد صراحة وواقعية نشأت من الثقافة البرجوازية فى المدن، فالأقاصيص الفرنسية البذيئة وصفت بصورة حاذقة التمتع بضروب الحياة كما كان يحصل فى الواقع وتميزت بشغف خاص بسرد قصص الماكرين الأوغاد ومثالب الكهنة كما نجد ذلك فى قصائد شوسر ومعرض صور الأوغاد التى رسمها بوكاشيو.

لقد رسم بعضهم صورة للفن في ذلك العصر، فقال: (انفجرت العاصفة بكامل عنفها على رأس الراهب، ذلك أن فشل الراهب فى تحقيق الطهارة التى بشر بها جعلت أدب القرون الوسطى منذ ولادته يعطى لزلات الراهب صورة أكثر بشاعة، وصورته بأنه أكثر حيوانية من سواه، وجاء أحذق الإيطاليين وأجرؤهم إطلاقاً لورنزفالا ... فأنكر فى كتابه (حياة الرهبانية) كل قيمة للتقشف والقداسة، وذهب أبعد من ذلك فى رسالته عن اللذة التى يتفق فيها مع المذهب الأبيقورى، فأعلن أن المرأة المتزوجة بل المستهترة أيضا هى أفضل من الراهبة، لأنها تسعد الرجل أما الراهبة فهى تعيش فى تبتل لا فائدة منه، وينعت موت الإنسان فى سبيل بلاده أو من أجل أى مثل أعلى بأنه لا يقره العقل.

وهذا التحول المفاجئ يوحى فى بعض الأحيان بالرجوع إلى ما يشبه الوثنية الخالصة، ويمثل الفن الإيطالى أحسن تمثيل المزج الكامل بين المسيحية والوثنية فلو ألقينا نظرة على بعض الرسوم الشهيرة هل نستطيع التفريق بين الله والملاك والعذراء والصبى وكيوبيد والقديس)

وقال: (ثار الإيطاليون على الأخلاق المسيحية، واستبدلوا بها مجرد التمتع بالملايين من أشكال الجمال ... لكن الشعوب الشمالية وجدت فى الحياة أكثر من الجمال وقد مثل هذه الروح

فيما كتب رابليه الكبير ...

وتتجسم روح ثـورة النهضـة فى مقطـع يطلب منارابليـه فيـه (أن نهــرب من أولئــك الرعــاع ذوى العقــول الزائفــة المــاكرين والقديسين المـزورين الوقـورين الهيئـة المـرائين مـدعى الإيمـان، الإخوان الخشنين الرهبان الذين يلبسون النعال ... أهرب من هـؤلاء الرجـال عليـك بكـراهيتهم واحتقـارهم قـدر مـا أكـرههم أنـا وإنـنى لأقسم لك أنك إن فعلت فستجد نفسك أفضل حالاً)(1)

هذه هي بداية جاهلية التيه والضياع.. وقـد تلى هـذه الجاهليـة جاهليات أخرى عمقت ما بدأ به هذه الجاهلية من البعـد عن اللـه.. والبعد عن الإنسان.

الرومانسية:

قلت: لقد خرجت أوروبا من عصر النهضة وابتدأ مـا يسـمونه (العصر الحديث)

قال: ولم تطق أوروبا الاستمرار مع (الكلاسيكية).. بل ارتدت عليها كما ارتدت على الكنيسة..

قلت: لقد ارتدت عليها فيما يسمى (عصر التنوير)(2)..

قال: أجل.. وقد بدأ مذهب فني جديد.. أو عصر فني جديـد.. هو (الرومانسية)

قلت: إن سمعة الرومانسية بيننا طيبة، فهي مذهب فني يهتم بالنفس الإنسانية وما تزخر به من عواطف ومشاعر وأخيلة.

قال: ولكنه اهتمـام منصـرف عن الركـنين الأساسـين اللـذين يجعلان الأدب سلما للكمال والتهذيب والإصلاح.

قلت: ما تقصد؟

قال: لعل أصدق تعبير عما حصل في ذلك العصر هو ما قاله مؤلفو كتاب (ثلاثة قرون من الأدب).. لقد قالوا: (إن القرن الثـامن عشر لم يخصص للدين، وإنمـا خصـص للعلم والسياسـة، فلم يعـد زعماؤه قساً مسيحيين ... بل فلاسفة طبيعيين .... لقـد كـان التغـير عميقـاً ومن نـواح عـدة كـان القـديم والجديـد عن طـرفى نقيض، فالتطلع إلى ما وراء أشياء هذا العالم قـد تراجـع أمـام التطلـع إلى أشياء هذا العالم، لقد أصبح القديسين الدائر حول محور الله عالما

---

1) مقتطفات من: راندال: 2/185 – 198.

2) لا شك أن الثورة الفرنسية (1798م) هي أحد العوامل الكـبرى الـتي كـانت باعثـاً ونتيجـة في آن واحـد للفكـر الرومانسـي المتحـرر والمتمـرد على أوضـاع كثـيرة، أهمهـا الكنيسة والواقع الفرنسي وما فيه.

إنسانيا محوره هذا العالم والحياة التى كانت تسير بهذا الكتاب المقدس، ولم يعد العالم مكاناً حيث العناية الإلهية دائمة الحضور والفعل تضبط وتدير كل ما يحدث حتى التافه منه (!) حتى الله ذاته لم يعد شخصياً، أبا يحب ويرهب، بل أصبح قوة عاقلة سحيقة البعد لا شخصية، (علة أولى) أدارت الآلة وتركتها تعمل بنظام كامل وفق نواميس رياضية وفيزيائية ويسوع ابن الله أصبح يسوع ابن الإنسان(؟!))

(ولم يعد موضوع البحث للجنس البشرى هو الله، بل الإنسان)

(وتحسين حال الإنسان يمكن توقعها لا عن طريق الدين بقدر ما يمكن توقعها عن طريق العلم والتربية والسياسة التى بها يستطاع إصلاح المجتمع)

هذه هي الميزة الأول للرومانسية، وعنها نشأ (تأكيدها على سيادة القلب وحياة النفس الداخلية).. أي حصر كل الاهتمامات فى حدود الكائن البشرى، بل فى أعماق النفس الفردية.

ولهذا ينتقد الرومانسيون الكلاسيكية بأن الهدف منها تصوير البشر، لا كما هم فعلياً ولكن كما هم مثالياً..مما جعل الأدب تقليدا وليس تعبيراً، ولذلك فقد أهمل الرومانسيون الملاحم وحوروا المسرحيات، ونحوا بالأدب منحى شخصياً داخلياً، فالكتابة الفنية تأتى فى صورة اعترافات أو سيرة ذاتية والشعر يصبح غنائيا عاطفياً يعبر عن المعانى الوجدانية للبشر كالعشق والفرح والألم ويبتغى ـ بالدرجة الأولى ـ إثارة السامع وامتاعه.

وكان من أبرز العوامل الاجتماعية المهيئة لذلك طابع الفروسية التى كانت فى ريعان شبابها إذ احتضنت الرومانسية حتى اندمجت فى كيانها، وأصبح الرومانسيون اللسان المعبر عن الحياة الفروسية بخصائصها وفضائلها.

وقد أفصح بعض زعماء المذهب عن علاقة (رد الفعل) القائمة بين الاتجاه الرومانسى والمسيحية، فالمسيحية كما عرفوها تكبت الإنسان و(تصيبه بالميلانخوليا)، ومن ثم فهى مسؤولة عما أصاب الإنسانية من الانطواء والكآبة (وقد عزا الناقد الرومانسى الألمانى شليجل الكآبة إلى الدين المسيحى الذى جعل الإنسان منفياً يشتاق إلى وطنه البعيد)(1)

وانطلاقاً من ذلك وتمشياً مع التركيز على التعبير عن الذات

1) ثلاثة قرون من الأدب: 1/134.

جهد أولئك فى أن يحولوا الشـرق الصـوفي المسـيحى الـذى كـان يتجه إلى الله أو (يسوع) إلى حب عـذرى أو إبـاحى يعـبر عنـه فى أسلوب غنائى، ويتجه إلى الجمال الخـارجى للمحبـوب الـذى كـان فى الغالب امرأة وأحياناً (الطبيعة)

قلت: فقد انحرفت الرومانسية بالفن إذن عن الغايـات الـتي ذكرتها.

قال: أجـل.. وذلـك شـيء طـبيعي.. فقـد انتشـرت في ذلـك العصر عبودية إلهين مقدسين بدل أقـانيم الكنيسـة همـا (الطبيعـة والعقل).. الطبيعة التي حلت محل (الله).. والعقل الذي حل محـل (الوحى)

وقد وثـق الهـاربون من طغيـان الكنيسـة العلمى فى مقـدرة العقـل وثوقـاً أعمى، وكـان لكشـف كـوبرنيكس وقـانونين جـاليلو ونيـوتن ومبـادئ بيكـون وديكـارت العقليـة أعظم الأثـر فى تمجيـد العقل بل عبادته، ولما كان جل همم إغاظة الكنيسـة والانتقـام من عبوديتها فقد اشتطوا وغلوا فى ذلك إلى أبعد الحدود.

لكنهم مـا كـادوا يلتقطـون أنفاسـهم وتسـتقر أعصـابهم من مطاردة الكنيسة حتى بدأ بعضهم يبحث عما إذا كـان إلـه (العقـل) جديراً بما أعطى من قيمة وتقديس أم لا؟

وكانت النتيجة مـرة.. وهي أن العقـل عـاجز حقـاً عن تفسـير الطبيعة، وإذ كـان كـذلك فهـو أعجـز عن تفسـير النفس الإنسـانية وفهمها.

واسـتطاعوا أن يكتشـفوا طريقـاً آخـر أرحب من العقلانيـة بمنطقهـا الجامـد وقوالبهـا المحـددة، وأقـوى من العقـل اختراقـاً للأسـرار وتبديـداً للغمـوض، ألا وهى (الشـعور العـاطفى)، ذلـك الشعور الذى يمتطى آفاق الخيال الواسـعة، فيسـبر أغـوار الـذات الإنسانية العميقة ويستجلى جمال الطبيعة.

وهكـذا أخـذ الرومانسـيون يرتفعـون رويـداً رويـداً عن الأرض ويحلقـون فى الفضـاء السـحيق ولكن إلى غـير اللـه.. ومن غـير طريق المسيحية.

كانوا يتحدثون عن الحب، ويبحثون عن الجمـال، ويفلسـفونها فى أسـاليب ضـبابية كثيفـة، كمـا كـانوا يتحـدثون عن الشـياطين والملائكة والسحر والعوالم المجهولـة فى محـاولات دائبـة ويائسـة لاستكناه أسرار الكون وتحقيق السعادة الداخلية.

وأصبحوا ينقبون عن الحقائق الأبدية ـ لا فى الكتاب المقدس،

ولا فى المؤلفـات العقليـة ــ ولكن فى صـفحة الطبيعـة الخلابـة ومناظرها الحالمة، وكل هذا أفضى بهم إلى مثاليـة معرفـة جوفـاء أعظم فى بعض جوانبها من تلك التى انتقدوها على الكلاسيكيين.

ونتيجـة أخـرى مهمـة هى أن الرومانسـية باعتقادهـا أن غايـة النشوة وقمة السـعادة تكمن فى أن يطلـق الإنسـان عنـان نفسـه لتذوب فى حب الطبيعة ويفـنى الصـوفى فى معبـوده ولـذا أحلت (الطبيعة) محل (الله) والشعور محل العقل.

وبهـذا تكشـفت الرومانسـية عن صـورة وثنيـة جديـدة (وكـل الكلام الجميل المعسول الذى قيل لتبرير هذه الوثنية: أن الطبيعـة (محراب) الله وأن الجمال (صورة الله).. إننا نعبد الله فى خلقـه ... إلى آخـر هـذه الجمـل (الرومانتيكيـة) البراقـة.. كـل هـذا الكلام لا يستطيع أن يخفى تلك الروح الوثنية الغارقة فى الوثنية الـتى تعبـد المحسوس فى حقيقة الأمر لأنها تعجز عن إدراك (اللـه) بـالروح ... والروح غنية بالمحسوسات)(1)

لقد عبر روسو ـ رائد الرومانسية ـ عن ذلك أوضح تعبـير فى (راهب سافوى) الذى هو صـورة لذاتـه، إنـه راهب بالفعـل، ولكنـه يختلف جذرياً عن رهبان الكنيسة، فهو راهب فى صـومعة الطبيعـة يسبح بحمدها ويقدس لها.

وفى كتابات روسو (الاعترافات مثلاً) وقصائد بوب (مقال عن الإنسـان) وجوتـه (فاوسـت) وكـذلك كيتس ولامـارتين وأضـرابهم نماذج واضحة للمذهب الرومانسى فى أوج مجده.

الواقعية:

قلت: لقــد ارتــددنا على الرومانســية كمــا ارتــددنا على الكلاسيكية.

قال: ذلك شيء طبيعي.. لقد عبر القرآن عن هذه الإرتدادات التي تصـيب من لا يصـيب الحـق، فقـال: وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَعْمَـالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (النور:39)

فالظمآن حسبما تشير إليه هذه الآيـة يظـل ظمـآن مـا دام لا يجد إلا السراب.. وحبه للماء يجعـل يلهث وراء كـل سـراب طمعـا في أن يكون ماء.. ولكن السراب لا يتحول إلى ماء.

قلت: فأين القرار؟

قال: لقد ذكرته الآية: وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ .. القرار لا يكون إلا

1) جاهلية القرن العشرين: 226 – 227.

عند الله.. ولا يكون إلا في التوحيد.. لقد قـال القـرآن: وَكُـلُّ أَمْـرٍ مُسْتَقِرٌّ (القمر:3)

القرار والسكينة والطمأنينة مفردات لا يمكن أن توجد إلا في النصوص المقدسة التي لم تمتد إليها يد العابثين.

قلت: فما السراب الجديد الذي خلف الرومانسية؟

قال: عقلك يدل عليه..

قلت: لم أفهم..

قال: ما دامت الرومانسية التي هي هروب للخيال لم تطفئ ظمأ الإنسان.. فإنه سيفر من الخيال ليبحث عن الواقع..

قلت: فقد خلفتها الواقعية إذن؟

قـال: أجـل.. وبئس الخلـف كـان.. لقـد وقعت الواقعيـة في رذائل لم تسبق إليها.

قلت: كيف كان ذلك؟

قال: لقد كانت الرومانسية بخيالها الجانح صـورة صـادقة لمـا يمكن أن يسمى (عصر الهـروب).. الهـروب من طغيـان الكنيسـة، والهــروب من نــير الإقطــاع، والهــروب من تقاليــد الماضي(1).. وجـاءت الثورتـان الفرنسـية والصـناعية وجـاءت الحـروب الدينيـة والقومية، وتغـيرت ملامح الحيـاة تغـيراً بـارزاً، فكـان لا بـد لصـورة الحياة (الأدب) أن تتغير كذلك.

في هذا العصر ــ الـذي دخلت فيـه الآلـة حيـاة الإنسـان ــ لم ينحصـر الاهتمـام بالإنسـان دون الآلـة فحسـب، بـل اقتصـر ــ من الإنسان ـ على وضعه الدنيوى ومكانتـه الاجتماعيـة.. وعلى واقعـه المعيشى وجزء معين من نزواته ورغباتـه والظـروف المحيطـة بـه التى يتأثر بها سلباً وإيجاباً.

وكعادتنـا في السـقوط الحـر سـقطنا سـقوطاً مفاجئـا من الفضاء السحيق إلى الوحل الهابط.

لقد كانت الرومانسية تحاول تصوير أعلى مـا يمكن أن يصـل إليه الإنسان من القوة والمثالية فى مواجهة تحدى الإله أو الطبيعة أو حتى نزواته وأهوائه، فجاءت الواقعية لتصوره فى أدنى ما يمكن أن يصل إليه من الهبوط فى لحظات الضعف القاتلة.

لقد كان الإنسان ـ في الرومانسية ـ يصـارع الأقـدار، ويحـاول إخضاع الطبيعة.. ولكنه في (الواقعيـة) ينهـزم بضـعف أمـام نـزوة عابرة ولذة ساقطة.

---

1) انظر: جاهلية القرن العشرين: 221.

لقد أخذ الواقعيون على الرومانسية أنها في جميع أعمالها الفنية تقتصر على تصوير الإنسان المثالى واللحظة المثالية والمنظر المثالى.. ولذلك راحوا للواقع يصورونه، بل يفضحونه من غير محاولة تهذيبه ورفعه.

نظر إلى الأفق البعيد، وقال: لقد كان انحراف الكنيسة هو السبب في كل تلك المصائب.. ولهذا جوزيت بما صنعت..

لقد كال لها هذا النوع من الفن من الهجوم ما لم يتجرأ عليه من سبقه..

يقول مؤلف (قصة الفكر الغربى): (يرد كثيراً فى الأدب الشعبى الوسيط ذكر القسيس الجشع والقسيس الفاسق والقسيس المغرور الذى تشغله أمور الدنيا، وكذلك لا يعطينا شوسر صورة طيبة عن رجال الدين.. ومع ذلك فلم يكن فى كل هذا إلا قليل من المرارة وإنما كان يرمى إلى إنزال القسيس إلى المستوى البشرى العام ولم يقصد إلى تحدى بناء المسيحية الفلسفى والدينى أى نظرتها الشاملة إلى الكون كما قصد إلى تحديها فى أيام فولتير وتوم بين)

اللامعقول:

قلت: ثم ارتددنا على الواقعية..

قال: بسبب ضغوط الواقع ارتددنا على الواقعية.. فسقطنا في أوحال اللامعقول.

قلت: اللامعقول!؟

قال: أجل.. ونحن لا نزال نئن تحت وطأة هذا النوع من الفن.

قلت: كيف سقطنا كل هذا السقوط؟

قال: لقد اجتمعت أسباب كثيرة.. أهمها الدجالون..

قلت: الدجالون!؟

قال: أنت تعرفهم.. ولعلك مررت في حياتك بمن حدثك عنهم(1).

قلت: من تقصد؟

قال: من أعطوا صورة للإنسان انحرفت بها عن معنى الإنسان.. فصار الإنسان غير الإنسان.

قلت: فهمت قصدك.. أنت تريد داروين.. وماركس.. وفريزر.. وفرويد وغيرهم من بناة الفكر الذي تنبني عليه هذه الحضارة.

قال: أجل.. وقد كان لداروين وفرويد أعظم الأثر فى ذلك:

---

1) انظر الفصول السابقة، خاصة (قيم) و(إنسانية)

فالداروينية ولـدت فى النفسـية الأوربيـة شـعورين عميقين لا يمكن للفن الأوروبى مهما تعددت مدارسـه ومناهجـه إلا أن يكـون تعبيراً عن أحدهما:

أمـا الأول، فحيوانيـة الإنسـان الـتى تلغى المشـاعر الروحيـة تماماً، وتجعل الكائن البشرى كتلة من اللحم كأى حيوان آخر لا هم له إلا إرواء غرائزه البهيمية، والحصول على أكبر قسط من المتـاع الجسدى المحض.

وأما الثاني، فالشعور بتفاهـة الحيـاة وحقارتهـا ونفى أي غايـة سامية لوجودها، وهو الشـعور الـذى عـبرت عنـد مـدارس الضـياع المختلفة تحت أسماء وشعارات شتى(1).

وأما الفرويدية، فقد عمقت الاتجاه الحيواني موصلة إيـاه إلى الحضيض.. وقد صاغته فى فلسفة نظريـة منمقـة تجعـل الوصـال الجنسى هو الغاية والوسيلة، بل تجعله محور الحياة ومحور البحث ومناط التفكير وعلة العلل.

وعمقت كـذلك الشـعور بالضـياع والحـيرة، لأن فلسـفتها الجنسية ـ حول العقل الباطن واللاوعى واللاشعوري والأنا المثاليـة ـ قدمت العوض المعاكس للإيمان والإحساس الروحى.

قلت: هذه البذور.. فما الثمار؟

قال: لا يجنى من الشوك إلا الشوك.. لقد جنينا وجنت أخلاقنا وقيما من ذلك الزقوم الـذي غرسـه أولئـك الشـياطين مـا لا نـزال نصلى بناره.

قلت: أفصح.. وفصل.. فلا دليل أقوى من التفصيل.

قال: أول ثمـرة جنيناهـا من شـعورنا بحيوانيتنـا وضـياعنا هـو الإباحية المفرطة..

قلت: اسمح لي بأن أصارحك بأننا في جميع مراحلنـا تاريخنـا الأدبي والفني لم ننفك عن الإباحية.. لقد قال برنتن: (إن الخشـونة والفحش من الصفات الدائمة تقريباً فى ثقافتنا الغربية)(2)

فالأغـانى البذيئـة ومثلهـا المسـرحيات المبتذلـة فى عصـر النهضـة، ثم عبـادة اللـذة والجمـال فى الرومانسـية، ثم الـدعوة الصريحة إلى الفجور فى الأدب الـواقعى.. وتظـل الصـورة تفحش إلى أن تصل إلى الأدب المكشوف.

قال: وقد كان هذا النوع من الفن الذي سـقطنا فيـه مرحلـة

---

1) كما سنرى في هذا المبحث.
2) قصة الفكر الغربى: 297.

خطيرة من مراحل سقوطنا في حمأة الرذيلة..
لقد ظهر فنانون كثيرون في ذلك العصر كرسوا فنهم وحياتهم كلها للإباحية..
لن أحتاج لذكر أمثلة لذلك.. فأنت تعرف (الفريددى موسيه) شاعر (الليالى) الذى كان أبيقورياً بأوسع معانى الكلمة.
ومثله (بروسبير) صاحب قصة (كولومبيا).. وألكسندر دوماس، الكبير والصغير.. الصغير المشهور بقصة (غادة الكاميليا).. والكاتبة العربيدة (جورج ساند) صاحبة (ليليا) و(أنديانا).. وغيرهم كثير.
إن أدب كل هؤلاء محصور فى تمجيد الرذيلة وتبرير أعمال العاهرات والإشفاق عليهن، ودخل هذا الاتجاه مرحلة أتم بالمدرسة (الطبيعية) التى يتزعمها الكاتب اليهودى (أميل زولا) وهى مدرسة إباحية متخصصة.
لقد قال تولستوى عن هذا الاتجاه سنة 1898: (أصبح المقياس الوحيد للفن الجيد والفن الردئ هو اللذة الشخصية، فالخير هو ما يبعث اللذة فى نفوسهم وهذا هو الجميل، وبذا إرتدوا إلى تصور الإغريق البدائيين الذين أدانهم أفلاطون، وطبقاً لهذا الفهم فى الحياة تكونت نظرية فى الفن)(1)
ويقول: (إننا نشبه الفن المعاصر ـ مع غرابة هذا التشبيه ـ بامرأة تبيع جسدها لإرضاء الذين يبتغون اللذة بدلاً من أن تجعله مستودعاً للأمومة، فالفن المعاصر يشبه العاهر فى أدق التفاصيل فهو مثلها ليس وقفا على عصر معين، وهو مثلها مبهرج، وهو مثلها قابل للبيع دائما، وهو مثلها كله إغراء وكله هدم)
ثم جاءت الحرب الأولى، فاكتسب هذا الاتجاه قوة واستشرت رذائله فى الأوساط العامة وانهال الإقبال على إنتاجه الرخيص ووجدها الهدامون والمتكسبون فرصة لنفث سمومهم واستغلال مشاعر الناس واللعب بعواطفهم وإثارة غرائزهم.
أما ما يسمى الأدب المكشوف الذى لا يصح أن يسمى أدباً بحال، فهو فى بلادنا ملء السمع والبصر.. يملأ الحوانيت.. ويستنفذ الصحافة.. ويسيطر على دور العرض السينمائى.. ويستغرق أوقات الملايين من الناس.. حتى الأطفال تكتب لهم مسلسلات جنسية وروايات جنسية ومسرحيات جنسية.
قلت: هذه الثمرة الأولى.. فما الثمرة الثانية؟

1) دراسات أدبية: يوسف الشارونى: 84.

قـال: الضـياع والتيـه.. فكـل المـذاهب الفكريـة الفلسـفية الاجتماعيـة عجـزت عن إعطـاء الإنسـان أى نـوع من أنـواع الثقـة والطمأنينة.

لقد كان دورها منحصرا في رد الفعل.. منحصـرا فى اجتثـاث موروثات الكنيسة الهشة.

وأمام العملاق الميكـانيكى الـرهيب وسـيطرة الآلـة الطاغيـة شعر الإنسان بأنه قد سحق وأن وجـوده قـد تضـاءل إلى حـد أدنى مما كان عليه وهو يواجه جبرية الكنيسـة واضـعا مصـيره بين يـدى قدرها المحتوم.

لقـد تحققت نبـوءة شـبنجلر وتكهنـات أورويـل عن مسـتقبل القطيع البشرى، وأصبحت مشكلة الإنسان العظمى فى الحياة هـو وجوده حياً، فالكلمة الـتى قالهـا أوغسـطين: (أصـبحت أنـا نفسـى مشكلة بالنسبة لنفسى) لم تعد خاصة بالفلاسفة بل بـاتت ترددهـا شفاه الفرد العادى من أجيال الضياع.

قلت: هذه فرصة عظيمة للبحث عن الحقيقة.. والوصول لها.

قال: ولكن اللامعقـول كـان متغطرسـا متكـبرا عن الحقيقـة وعن البحث عن الحقيقة.. فلذلك آثر لذة الضـياع والتيـه على لـذة الوصول.

إن هذا الفن يصرح بكل بـرودة: (إننـا لا نـؤمن أبـداً بالمعـانى الجامدة الجاهزة التى يقدمها النظام الإلهى القديم للإنسـان وعلى أثره نظام القرن التاسع عشر العقلانى، ولكننا نضـع كـل أملنـا فى الإنسان: إن الأشكال التى خلقها هى التى تسـتطيع إعطـاء العـالم معنى)[1]

قلت: لم هذا التكبر على النظام الإلهي؟

قال: وهم الحرية.. مـع اختلاط المـدارك الـتي جعلتهم يـرون الكون متناقضا تعجز عقولهم عن تفسيره.

ولم يظل هذا الاعتقاد فكرة مجردة، بـل بـنى عليـه الدسـتور العلمى للفن الذى ينص على أن (الفن للفن)

لقد قال يعضهم تحت عنوان (الالتزام الوحيد الممكن للكـاتب هـو الأدب): (ليس الصـواب الـزعم أننـا نخـدم فى روايتنـا قضـية سياسية مهما كانت قضية تبدو لنا عادلة، وحـتى لـو كنـا فى حياتنـا السياسية نحارب فى سبيل انتصارها، إن الحياة السياسية تضطرنا دون انقطاع إلى افتراض معـانى (كـذا) معروفـة: معـانى تاريخيـة،

1) معجم الأدب المعاصر: 62، 63.

معانى أخلاقية، إن الفن أكثر تواضعاً أو أكـثر طموحـاً، ففى نظـره ليس هناك من شىء معروف مسبقاً، وقبل العمل لا يوجـد شـىء: لا يقين ولا قضية ولا رسالة فالظن أن عند الـروائى شـيئا يريـد أن يقوله وأنه يبحث بعد ذلك كيف يقولـه يمثـل أخطـر عمـل منـاقض للحقيقة)(1)

قلت: هذه الثمرة الثانية.. فما الثمرة الثالثة؟

قال: مدارس الضياع.

قلت: ما مدارس الضياع!؟

قال: هي مدراس كثيرة تأسست من بـذرة اللامعقـول لتزيـد في ضياع الإنسان عن حقيقة الإنسان.

قلت: فهلا عرفتني ببعضها؟

قال: لعلك تعرفها.. بـل لا بـد أنـك تعرفهـا.. فنحن نصـبح في مدرسة.. ونمسي في أخرى..

قلت: حدثني عنها.

قال: تعرف **الوجودية!؟**

قلت: تلك الـتي تنتسـب إلى جـان بـول سـارتر (ولـد 1905 م)الفيلســوف والأديب صــاحب (الغثيــان)، و(الــذباب)، و(البــاب المغلق).. وعشيقه سيمون دي بوفوار التي قضت حياتها كلها معـه دون عقد زواج تطبيقاً لمبادئ الوجودية(2).

قال: نعم.. فالوجودية ليسـت سـوى ثـورة سـلبية يائسـة، لم تستطيع أن تشخص الداء فضلاً عن تقديم الدواء، وكل ما تسـتطيع أن تقـول بصـدق أنهـا قدمتـه للإنسـانية هـو عـرض بعض جـوانب المأساة البشرية، تلك المأساة التى تعبر عنها جملة واحدة (البحث عن الإله).. فهى ترفض الإيمان بالله كما تصـوره الأديـان ولكنهـا لا تجد البديل.

والإنسـان الـذى تحـاول تأليهـه محصـور مقهـور أمـام القـدر الكونى وأمام سيطرة الآلة وأما وضعه التاريخى المحدد.

وهي تهرب من الضياع والتناقض إلى شعارات شتى كالحرية عند سارتر، والعبث عند البير كامو.

---

1) معجم الأدب المعاصر:63.

2) ترجع بذور مذهب الوجوديـة إلى الكـاتب الـدانمركي كيركـا جـورد 1813-1855م وقد نمى آراءه وتعمق فيها الفيلسوفان الألمانيان مارتن هيدجر الذي ولـد عـام 1889م، وكـارك يسـبرز المولـود عـام 1883م.. وقـد أكـد هـؤلاء الفلاسـفة أن فلسـفتهم ليسـت تجريدية عقلية، بل هي دراسة ظواهر الوجود المتحقق في الموجودات.

والفكر الوجودي لدى كيركاجورد عميق التدين، ولكنه تحول إلى ملحـد إلحـاداً صـريحاً لدى سارتر.

قلت: أعرف الوجوديـة.. وأعـرف مـدى ضـياعها.. فـاذكر لي غيرها؟

قال: السريالية.. فهي مدرسة حديثة تهتم بالشـعر والرسـم.. وتبتدئ من الخط الذى تبتدئ منه الوجودية، ولكنها تفترق عنها فى الإيغال في اللامعقول والأعـراض عن الخـوض فى حقـائق التـاريخ والمشــادات الفكريــة والبحث المنطقى فيمــا يفــوق الإدراك إلى الخوض فى أعماق المجهول بلا موضوعية.

قلت: أعرفها.. وهي ترجع في أصـلها إلى نظريـة فرويـد عن العقـل البـاطن، فهي تريـد أن تجعـل من العقـل البـاطن الحقيقـة النفسية بالذات، وتحول الفن إلى كتابة آلية لإيضاحه.

قـال: ومنهـا فن التفسخ.. وهـو نـوع من أدب الضـياع الـذي يميل إلى التشاؤم والابتذال ويتميز بأن أبطاله هم نوع من الكائنات التى فقدت الثقة وبمسـتقبلها والـتى لا تـؤمن أبـدا بإمكـان قيامهـا اليوم بحياة إنسانية.

ومنهـا الفن العـدمي، وهـو نـوع أخـر أكـثر تشـاؤما وقنوطـاً، وإنتاجه هو عبارة عن ذلك العمل المؤلم الذى يصرخ بصـوت عـال فى كل صرخة من صرخاته المبتورة (إن الإنسان قد مات)

وغيرها من الفنون الكثيرة التي تولد كل يوم..

فنون الإسلام

قلت: عــرفت فنــون الجاهليــة.. وأحســب أن كــل النــاس يعرفونهــا، فهم يصــبحون عليهــا ويمســون.. فحــدثني عن فنــون الإسلام.

قال: فنون الإسلام تنطلق من القـرآن.. فـالقرآن لوحـة فنيـة عظيمة.. بل مدرسة فنية عريقة نشأت على أساسها جميع الفنون الإسلامية.

قلت: هــل طبقت المقــاييس الــتي ذكرتهــا على الفن الإسلامي؟

قال: أجل.. وقد وجدت المعاني الإسـلامية العظيمـة مصـاغة بقوالب غاية في الجودة.

التهذيب:

قلت: فلنبدأ بالتهذيب.. فقد ذكرت أنه غاية جليلـة من غايـات الفن.

قال: لقد رسم القرآن للفن الإسلامي الأسلوب الصحيح الذي

يرفع به الواقع من الانحطاط إلى الارتفاع.. ومن السقوط إلى الصعود.

اقرأ سورة يوسف في القرآن، وقارنها بكتابنا المقدس(1) لترى سر تلك النزعة النبيلة التي صاحبت الفن الإسلامي مقارنة بأدبنا وفننا الذي استوحى بذاءته وفحشه من نفس القصة في الكتاب المقدس.

قلت: فننا يصور الواقع كما هو.. ويحاول أن يعالجه من خلال ذلك.

قال: وهذا سر انحرافه وجاهليته.. الفن الراقي النبيل هو الذي يملأ النفس طهرا وعفافا وسموا.. وهو الذي يعين النزعة الطيبة في النفس، لا الذي يعين الشياطين عليها.

إن الواقع الذي يبحث عنه فننا هو الواقع الهابط.. المنسلخ من الدين.. ومن القيم.. ومن الأخلاق!

ففى الفترة التى استغرقتها الرومانسية وارتدت بعدها إلى الواقع كان الناس قد ساروا خطوات على خط العلمانية المنسلخة من الدين فهبطوا، فجاءت الواقعية لترصد واقعهم حيث هم.. ثم تقول هذا هو الواقع البشرى!

فأما كون هذا هو الواقع الذى كان عليه الناس وقتئذ فهذا حق لا شك فيه، وأما أن هذا الواقع البشرى على إطلاقه فأمر يكذبه التاريخ، وتكذبه فترات الهدى فى حياة البشرية، التى ارتفع الناس فيها إلى قمم تبدو ــ فى هذا الواقع المنحرف ــ كأنها خيالات، ولكنها كانت واقعا عاشه الناس بالفعل، وينبغى أن يحاولوا على الدوام أن يعودوا إلى ذلك المستوى السامق أو يعودوا إلى قريب منه.

قلت: أتريد من الفن أن يدارى على هبوط الناس وأن يصورهم فى صورة غير واقعية من أجل إرضاء المثل العليا(2).

قال: لا.. فالفن المزور لا يستطيع أن يعيش.. لكن هناك فرقا بين تصوير الواقع على أنه واقع، وأنه واقع منحرف عن الأصل الذى كان ينبغى أن يكون عليه، وبين تصويره على أنه هو الواقع الإنسانى الذى لا يمكن تعديله أو لا ينبغى تعديله أو لا يعنينا تعديله!

كلاهما تصوير للواقع. ولكن أحدهما يصور الواقع المنحرف بروح الإنكار، ويدعو إلى الارتفاع عنه، والآخر يعطيه شرعية الوجود

---

1) انظر هذه المقارنة في (الكلمات المقدسة)

2) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، ومنهج الفن الإسلامي، لمحمد قطب.

فتكون النتيجة الحتمية – دائما – مزيدا من الهبوط.

لقد ذكر القرآن في سورة يوسف نموذجا للواقع، فقد ورد في قصة يوسف: وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) (يوسف)

ولكن هذه ليست اللقطة الأخيرة.. إنما اللقطة الأخيرة هى الأوبة والتوبة والترفع والارتفاع: قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) (يوسف)

ونموذج الواقعية الهابطة هو الأدب الذى يدعى الواقعية وهو فى الواقع يدعو إلى الهبوط.. وهبه صادقا فى ادعاء الواقعية، فلماذا يصر على التقاط اللحظات الهابطة وحدها ويتجنب لحظات الارتفاع!؟ ثم لماذا لا يسمى الهبوط باسمه الحقيقى وهو الهبوط!؟

قلت: إن ما ذكرته من هذه القيود هو الذي جعل الفن الإسلامي فنا هزيلا متخلفا عن سائر الفنون.. فإذا ما قارنا الأدب الإسلامي بالآداب الاغريقية والرومانية، فإننا نرى كثيراً من الألوان الفنية ـ غير الشعر ــ تنقصه، مثل القصة والمسرحية والملاحم الشعرية.

ومثل ذلك يقال في فن النحت.. فلا نجد في الحضارة الإسلامية أي تماثيل كتلك التماثيل التي تركها الرومان وغيرهم من أصحاب الحضارات العريقة.

قال: صدقت في هذا.. ولكن هل هذا من النقص أم من الكمال؟

قلت: ما تقصد؟

قال: أرأيت لو أن أحدهم ظل طول الليل يسرد عليك حكايات كاذبة مملوءة بالخرافة والمجون ليمتعك.. أتختاره أم تختاره الذي يحكي لك قصة قد تكون قصيرة، ولكنها بمنتهى النظافة والجمال والعفاف؟

قلت: بل أختار الثاني.

قال: وهذا ما فعل المسلمون.. لقد أنف شعرهم من أن يضع الملاحم التي تحشر نفسها في صياغاته آلهـة الشـر والخـير والنـار والحـرب والشـعر والجمـال، وكـان يـأنف من روايـات الأسـاطير الميثولوجية لمنافاتها لاعتقاداته، وخروجها على مألوف تصوراته لله والقوى التي يرمز اليها بما وراء الطبيعة.

قلت: فأين توجه؟

قال: إلى شـعر نظيـف يشـكل الـبيت الواحـد منـه موسـوعة قيمــة في الأخلاق الرفيعــة.. أو إلى القصــة القصــيرة الــتي تملأ النفس بالإيمـان والتقـوى والصـلاح.. أو إلى الإنشـاد الطيب الـذي يعمق المعاني الجميلة في النفوس..

قلت: والنحت والتصوير؟

قال: لقد توجه المسلمون إلى الخطوط يصوغون منها أجمل اللوحات الفنية المعبرة.

قلت: ذلك لا يكفي.

قال: لكل شعب من الشعوب طريقـة تعبـيره الفـني.. وربمـا تكون لك بعض الأمور لا أهمية لها، ولكن في نظر آخـرين تكتسـي أهمية كبرى.

الفن ـ يا صاحبي ـ أذواق.. والذوق ملك لصاحبه، والكمال في الفن هو استخدام الذوق لخدمة التربية النبيلة.

قلت: ولكن ما ذكرته من هـذه المعـاني لم يحصـل.. فـأغلب الشعر العربي يضم مدائح كاذبة، ترفع البشـر من الحكـام والقـواد وزعماء القبائل والعشائر الى مصـاف المثاليـة المغرقـة، فجـودهم كالبحر أو الـريح المرسـلة، وشـجاعتهم فـوق التصـور، وأخلاقهم لا مأخذ فيها، ولا ضعف في بنائها، وبيانهم معجز لا ركاكة ولا إسفاف، ووجوههم مشرقة كالشموس أو البدور.. ومن هنـا يرمـون الشـعر والشـعراء بالنفـاق والكـذب الصـراح، والـتزلف وإغفـال جـانب الجماهير في المطالبة بحياة أسعد وأرغد..

قال: إن كل ما ذكرته صـحيح.. ولكنـه يصـب في صـالح الفن الإســلامي، وفي خدمتــه لهــذه الغايــة العظمى من الفن غايــة التهذيب.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا ترى أن فننا يتوجه ليصور واقـع المنحـرفين كمـا هـو بمجونه وصراعه وانحرافه.

قلت: أرى ذلك.. فهو على الأقل يصور الواقع.

قال: ولكنه يملأ النفوس بالكدورات.. إن الفن مدرسة.. والنفوس تتلقى منها.. وهي في تلقيها تنشغل عن الوقائع بالمفاهيم والقيم.. ولذلك تمتلئ بقيم الإجرام إذا أدمنت مشاهد الإجرام.

قلت: وشعر المديح الذي اشتهر في الإسلام.

قال: إن الشاعر في مدائحه يحاول ان يرسم صورة مثالية رائعة لما يجب أن يكون عليه الممدوح، إن فضيلة الكرم اذا وضحت في الأذهان، واتخذت أغنية أو قصيدة تترنم بها المحافل، وارتبطت بشخصية من الشخصيات، فإن إشاعة مثل هذه الفضيلة يؤدي الى ترسمها والنسج على منوالها، فتسود فضيلة الكرم فعلاً.. والتغني بالعدالة والحرية والنبل، وربط الممدوح بها، يلفت النظر إليها ويجعلها بالممارسة والحديث الطويل عنها حقيقة كائنة.

لقد مدح المتنبي بقصائده الكثير من الأمراء.. وامتلأ شعره حكمة بسبب ذلك، ولكنا نرى العامة يرددون شعره من غير أن يعرفوا أميرا من الأمراء.. فقد انشغلوا بالغاية عن الواسطة.

قلت: ولكن القرآن ذم الشعر.. ففيه:﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الشعراء:224)

قال: القرآن لم ينه عن الشعر.. بل وجهه نحو الوجهة النبيلة، ولهذا، فقد جاء بعد تلك الآية السابقة تعليل سر ذلك، واستثناء الذين آمنوا:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)﴾ (الشعراء)

وقد قال محمد يبين الغاية التي ينبغي أن يتوجه لها الشعر: (إن من الشعر حكما)(1)

قلت: أجل ذلك ما صحيح.. وقد قال الشاعر يبين الدور العظيم الذي قام به الشعر في هذا المجال:

ولولا خِلالٌ سَنَّها الشِّعْرُما درى بناةُ المعالي كيفَ تُبْنى المكارمُ

التوحيد:

قلت: عرفت الغاية الأولى من غايات الفن.. فحدثني عن الغاية الثانية.

---

1)) الترمذي، وقال: حسن صحيح، وابن ماجة.

قال: الغاية الثانية هي التوحيد.. وهي عبودية الفن لله.
قلت: ما تقصد؟
قال: لقد عرفنا كيف توجهت الفنون في جميع الجاهليات إلى خدمة الآلهة المزاحمة لله.
قلت: أجل.
قال: مقابل هذا، فقد توجه الفن الإسلامي إلى التوحيد الذي يملأ القلوب معرفة لله ومحبة له.
قلت: أين أجد هذا في الفن الإسلامي؟
قال: اذهب إلى دواوين الصالحين الكثيرة لترى تلك الأشعار الرقيقة في محبة الله وذكر كمالاته.
قلت: ولكن ليس الفن شعرا وحده.
قال: فاذهب إلى تلك المجالس التي تترنم بتلك القصائد لتحولها إلى ألحان تموج بجميع معاني الإيمان.
قلت: قد سمعت بعضها وأثرت في نفسي تأثيرا عميقا.
قال: فقارن ذلك بما تسمعه من قومك من أنواع الغناء والموسيقى التي تملأ النفس بالضياع والقلب بالألم.
***
ما وصل (سير هاملتون جيب) من حديثه إلى هذا الموضع حتى سالت دموع حارة من عينيه لم يملك حبسها، فقلت له: ما يبكيك؟
قال: أمران.. كلاهما ملأ قلبي بحزن وانقباض وكآبة.
قلت: ما هما؟
قال: أما أولهما فهو من آلت إليه قيادة الفن في عصرنا.
قلت: ما به؟
قال: هم لم يكتفوا بما وصل إليه الإنسان من انحراف عن إنسانيته، بل راحوا يعمقون هذا السقوط.. فكل يوم ينتج لنا الشياطين الذين يحتكرون وسائل الإعلام من ألوان الغثاء ما يزيد به تيه الإنسان عن الإنسان.
قلت: عرفت هذا.. وأنا أتألم له بمثل تألمك.. فما الثاني؟
قال: أولئك المسلمون..
قلت: ما بهم؟
قال: أراهم يعرضون دينهم والحقائق العظيمة التي جاء بها في أسلوب جاف قاس جعلهم وجعل دينهم عرضة للتهكم.
قلت: فما تريد منهم؟

قال: ما يريد المريض من طبيبه؟
قلت: العلاج.
قال: والعلاج يحتـاج إلى مسـكنات ومهـدئات وتطـييب نفس، فلا يمكن للطبيب أن يغرس سكينه لاستئصـال الآلام من دون كـل ذلك.
قلت: أجل..
قـال: ولكن أولئـك االمسـلمين لم يفعلـوا هـذا في مـداواتهم للبشرية، وأتاحوا بذلك المجال للمجـرمين لينحرفـوا بالبشـرية عن مسارها الصحيح.
قال ذلك، ثم انصرف، وانصرفت خلفـه ومعي بصـيص جديـد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

عاشرا ـ حضارة

في اليوم العاشـر من تلـك الأيـام العشـرة المباركـة، التقيت المستشـرق الـذي قطفت على يـده ثمـرة الحضـارة من شـجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى على لسان هـود ـ عليه السلام ـ: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (هود:61)

فقد عرفت من هذه الآية غاية جليلة من الغايـات الـتي خلـق من أجلهـا الإنســان، وهي عمــارة الأرض.. ولكن لا بالخراســانة المسلحة وحدها، بل بذكر الله والتقرب إليه.

***

كـان من الأسـماء المارقـة الـتي سـجلت في الـدفتر الـذي سلمني إياه المرشد اسم (كوستاف لوبون)(1).. وقد كنت أعرفـه، وأعرف تأثره الشديد بالحضارة الإسلامية، والـذي ملأ بـه كتبـه.. إلا أني لم أكن أعرف سر ذلك إلى أن التقيته في ذلك اليوم المبارك.

عندما رأيته في البدء تصورته مجنونا قد فقد عقلـه.. ولم أكن وحدي في ذلك التصور.. بل كان كل من كان معنا في ذلك المحل يحمل ذلك التصور.

في ضاحية من ضواحي باريس كـانت تسـكن غابـة لم يفكـر إنسي ولا جني في قطع أشجارها.. فقد كـانت الرئـة الـتي تتنفس منها باريس.. وكانت القلب الذي يمدها بدماء الحياة..

ولكنهم في ذلـك اليـوم أحضـروا كـل مـا أمـدتهم بـه هـذه الحضـارة من وسـائل التـدمير ليقطعـوا أشـجار تلـك الغابـة.. بـل يجتثوها من أصولها.. ليقيموا بدلها مصنعا للكوكاكولا.

وجاءت الآلات، واقتربت من الأشجار لتقطعها.. أو لتجتثها من أصولها.

لكنها فوجئت برجل يصيح فيها كمـا يصـيح المجـانين: ابتعـدي أيتها الآلات الحمقاء.. اتركي لي أسرتي.. لا تقطعي جذوري.

---

1) هو كوستاف لوبون Dr. G. Lebon ولد عام 1841م، وهو طبيب، ومؤرخ فرنسي، عني بالحضارات الشرقية.
من آثاره: (حضارة العرب) (باريس 1884)، و(الحضارة المصـرية)، و(حضـارة العـرب في الأندلس)

ضحك أصحاب الآلات وغيرهم من الناس الـذين اجتمعـوا في ذلك الموقف.

استمر في صـياحه يقـول: ملعونـة أنت أيتهـا الحضـارة الـتي تهـدم الحيـاة.. ملعونـون أنتم يـا من خلفتم عـادا وثمـودا وسـدوما وعمورية.. ملعون كـل من يقطـع أشـجار اللـه ليسـتبدلها بشـراب الشياطين..

نظــر إلى الآلات، وصــاح: حــتى أنت أيتهــا الآلــة الخرســاء ملعونة.. لأن تلك الأيادي الآثمة امتدت إليك وصنعتك..

أسرع رجال الشرطة إليه ليبعدوه عن طريـق الآلات.. فصـاح فيهم، وهم يمسـكون بـه: هـذه هي حضـارة الجـبروت.. هـذه هي حضارة المعتقلات والسجون والزنازن والدماء.. هذه هي الحضـارة التي حلمت بها الشياطين منذ ابتدأت الشياطين.

أبعدته الشـرطة عن ذلـك المحـل.. ثم قيدتـه بعيـدا عن تلـك الأشجار، لتدع للآلات ممارسة ما تتقنه من أدوار.

في ذلك الحين.. وفي ذلك الموقف الشديد الـذي تنفطـر لـه القلوب التقيت (كوستاف لوبون)

اقتربت من ذلك الرجل الذي توهموه مجنونا، فوجدته مع كل ذلك الصياح هادئا غاية الهدوء.. مطمئنا عظيم الطمأنينة.

قلت: أراك ناقما على الحضارة..

قال: أي حضارة!؟.. ليس هناك شـيء اسـمه حضـارة.. نحن في بدائية تفوق بدائية البدائيين إن كان هناك بدائيون.

قلت: حضارتنا الغربية التي نشرت العلـوم والفنـون.. وأحيت من الحيـاة مـا كـان خـاملا.. ألسـت تـرى ناطحـات السـحاب.. والمركبات التي تـزور الأفلاك.. وصـناديق الانتخابـات الـتي تتجـول على الرعايا لتعطيهم ما يريدون؟

قـال بـألم شـديد، وهـو شـارد الـذهب: نعم (1).. الإنسـان.. السـوبرمان.. أو السـوبر شـيطان.. مشـى على القمـر، وأرسـل السـفن إلى المـريخ والزهـرة وأورانـوس والمشـتري.. وأرسـل الكـاميرات الفلكيـة إلى مـا وراء الشـمس.. وأرسـل المجسـات الفضائية تقيس الأشعات الخفيـة في أرجـاء الكـون.. وزرع الأرض بالميكنـة.. وضـاعف المحصـولات بالهندسـة الوراثيـة.. واسـتولد الجديـد المبتكـر من الفواكـه والثمـار، واخـترع السـيارة والقطـار

1) الكلام التالي لهـذا منقـول من (سـواح في دنيـا اللـه)، لمصـطفى محمـود.. ببعض التصرف.

والطائرة والصاروخ والتليفزيون والفاكس.. واخترع الحاسبات والذاكرة الكمبيوترية المذهلة وصنع الأعاجيب في الطب والجراحة.

زرع قلوب الموتى في الأحياء.. وزرع الشعر والجلد والكبد والكلية والأمعاء والرئتين.. وزرع أجهزة السمع والبصر في الدماغ.. قضى على الجدري.. وأوشك أن يقضي على التيفود والتيفوس وشلل الأطفال والجذام..

وامتد بصره عن طريق المناظير الفلكية العملاقة، فأصبح يرى شموسا على بعد 15 مليون سنة ضوئية.. واخترق بصره العالم الأصغر عن طريق المجهر، فأصبح يرى الميكروبات والفيروسات.. وامتد سمعه إلى ما وراء المجرات.. فالتقط ضوضاء الانفجار الذي بدأ به الكون.

أما قوة ذراعه فقد تعملقت إلى روافع وصواريخ وقنابل ذرية وهيدروجينية وتحولت إلى قوة تدميرية هائلة..

قلت: نعم.. هذه بعض منجزات هذه الحضارة العظيمة..

التفت إلي، وقال بغضب: أي عظمة هذه.. إن الانحطاط أقل وصف يمكن أن توصف به هذه الحضارة.

قلت: كيف ذلك.. وقد تهيأ لها ما لم يتهيأ لأي حضارة في الدنيا.

قال: أجل.. أجل.. لقد تمكن الإنسان من خياطة شبكة الانترنت..

قلت: أجل.. إنها عجيبة العجائب.. يتصل بها أطراف العالم للتجارة الإلكترونية ونشر العلوم والمعارف.

قال: ولكن هذه الحضارة المجنونة.. حضارة سدوم وعمورية استعملتها في نشر الدعارة والقمار.. وجميع أنواع الانحراف.

بينما نحن كذلك إذ سمعنا رجلا ينادي عاملا باسم (محمد).. فصاح الرجل بكل قوة: ابتعد يا محمد.. فأولئك مجرمون.. عد إلى بلدك.. وعد إلى أصلك.. فإن هؤلاء سيزجون بك في هاوية الجحيم.

قلت: مع من تتحدث؟

قال: لقد ذكروا اسم (محمد).. أليس كذلك؟

قلت: بلى.. هو أحد العمال..

قال: اذهب إليه.. واطلب منه أن يبتعد عن هؤلاء المجرمين.. ومره أن يلجأ إلى محمد ليغسل الأدران التي ملأه بها

هؤلاء المجرمون.
قلت: إلي أي محمد يلجأ؟
قال: إلى ذلك الذي مزج حضارة الأرض بحضارة السماء.. ذلك الذي رفع الإنسان إلى عالم الإنسان.. ذلك الذي بنى حضارة القيم والمثل العليا.
قلت: تقصد نبي العرب؟
قال: بل أقصد النبي الذي بشر وأقام حضارة لم يقم في الدنيا مثلها.. ولن يقوم.
قلت: ولكن محمدا لم ينجز أي إنجاز مما أنجزته حضارتنا.. بل كان يركب الحمار، ويأكل الشعير.. بل أحيانا لا يجد ما يأكل، فيعصب الحجر على بطنه من الجوع.
ونحن الآن في عصر التخمة.. أقل فقير يمكنه لو أطاع بطنه أن يموت من التخمة.
قال: بل نحن في عصر الجوع.. والألم.. والكآبة.. ولكنا نفر من جوعنا وآلامنا وكآبتنا إلى أنواع كثيرة من السموم.. فلا يزيدنا أكلنا لها إلا جوعا وألما وكآبة.
قلت: لم أفهم ما تقصد.
قال: نحن في جاهلية لبست لباسا مزركشا، ووضعت عطورا سامة.. ثم توهمت أنها حضارة..
قلت: إن لم يكن ما نحن فيه حضارة.. فليست هناك حضارة على الأرض.
قال: إن كانت هذه حضارة.. فليس هناك حقيقة في الأرض.
قلت: أهذه الحضارة تناقض الحقيقة؟
قال: هذه الحضارة تناقض كل شيء، وتصارع كل شيء.. ولو ترك لها الزمام قرنا آخر.. فستقطع آخر شجرة في الأرض.. وستقتل آخر إنسان في الأرض..
قلت: أنت متشائم كثيرا..
قال: لا.. أنا مع ألمي وصياحي وكآبتي متفائل كثيرا.
قلت: لم؟
قال: لأن هذه الحضارة تقتل نفسها، وتقطع جذورها..
ألا ترى إلى هذه الآلات التي تجتث هذه الأشجار؟
قلت: بلى.. وأنا متألم مثلك لذلك.
قال: ستصيب هذه الحضارة اللعنة التي أرسلتها هذه الأشجار.

قلت: ستدمر الأرض إذن.
قال: بل ستعمر.. ستعمر عمرانا لم تعمر مثله.
قلت: ألست متناقضا فيما تقول؟
قال: لا.. بل أنا متفائل.. هذه الحضارة ستموت كما ماتت قبلها كل الحضارات الطاغية لتبنى على أنقاضها حضارة السماء.
قلت: ومن الذي ينزل لنا بحضارة السماء؟
قال: الذي أنزلها أول مرة لن يعجز عن أن ينزلها مرة أخرى.
قلت: وهل نزلت حضارة من السماء.. لم أسمع بهذا.
قال: إنها الحضارة التي غرس شجرتها محمد.. هي لا تزال حية نضرة تنتظر فقط من يسقيها.. لتعود ثمارها الطيبة من جديد تطعم جوع البشرية.. وتسقي ظمأها.
قلت: أراك تعود إلى محمد.
قال: لولا أن لي ثقة كبيرة في إنقاذ ورثة محمد للإنسان ولحضارة الإنسان لكنت الآن في مارستان المجانين.. إن أملي في ذلك الرجل العظيم.. وفي ورثته العظام.. إن ذلك هو زاد تفاؤلي الوحيد.
قلت: أراك مغرما بالحضارة الإسلامية..
قال: لقد طفت الحضارات البشرية جميعا، وبحثت في تراثها وآثارها.. وسألت إنسانها وبنيانها.. فلم أجد حضارة أطهر ولا أصفى ولا أرفع من الحضارة التي أقامها محمد.
قلت: لكأني بك أحدهم.. فمن أنت؟
قال: أنا (كوستاف لوبون)..
قلت: المستشرق العاشق لحضارة المسلمين.
قال: أنا الباحث عن الحضارة التي تحفظ الأكوان.. وترفع الإنسان.
قلت: لقد كنت مشتاقا للقائك لأسألك عن سر ذلك التفاني الذي أبديته تجاه حضارة المسلمين.
قال: يسرني أن أجد من يسمعني.. فأنا لا أبشر إلا بذلك.
قلت: فهل وضعت مقاييس تميز بها الحضارات؟
قال: لم أضع أنا.. ولكن الحقائق الأزلية التي وردت في القرآن.. والتي تنطق بها العقول التي لا تزال عقولا هي التي وضعت تلك المقاييس.
قلت: فهل هما مقياسان؟

قال: أجل.. ولكنهما يؤولان إلى واحد.
قلت: ما هما؟
قال: الفطرة والسلام.. وكلاهما يؤول إلى الفطـرة، وكلاهمـا يؤول إلى السلام.
قلت: لم أفهم هذه الألغاز.
قال: لقد نطق القرآن ـ كتـاب الحقـائق الأكـبر ـ فقـال على لسان موسى عندما سأله فرعون عن الله: قَالَ رَبُّنَـا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طـه:50)
فالله جعل لكل شيء برنامجا يسير عليه.. وهذا البرنـامج هـو الفطرة.. والخروج عنها هو الشذوذ.
والشذوذ هو نوع من الصراع.. ولكنه صراع مع الداخل.
وأما السلام.. فهو الفطرة التي تحكم العلاقات بين الكائنات.. وهي التوافق والتكامل والانسجام.. فإذا خـرج عنهـا كـان صـراعا.. وكان في نفس الوقت شذوذا.
قلت: فهمت قصدك.. أنت تريـد أن تقـول بـأن الفطـرة هي سلام الداخل، والسلام هو فطرة الخارج.
قـال: أجـل.. وقـد طبقت هـذه المقـاييس على جميـع أنـواع الحضارات.. فلم أجد حضارة تكتمل لها الفطرة مع السـلام إلا في الإسلام.
قلت: هذه دعوى..
والدعاوى إن لم تقيموا عليها بينات فأبناؤها أدعياء
قال: الحيـاة كلهـا والمجتمعـات كلهـا دليـل على صـدق هـذه الدعوى..

حضارة الجاهلية

قلت: فهل نبدأ بحضارة الجاهلية؟
قـال: لا يمكن أن تعـرف فضـل حضـارة الإسـلام من دون مقارنتها بحضارة الجاهلية..
قلت: فعن أي جاهلية تريد أن نتحدث؟
قال: بهذه الحضارة التي ذكـر قومنـا أنهـا نهايـة التـاريخ (1)..

1) هذا ما زعمه المفكر الأمريكي الياباني فرانسـيس فوكوياما (Francis Fokoyama) الذي طرح نظريته، أو فكرته، حـول (نهايـة التـاريخ)، وهـو يختلـف مـع كـل من لـويس، هنتنجتون، ودانيال بايبس (Danial Pipes) في ديمومة الصراع.
وهو يرى أن هذا الصراع كان قائماً بالفعل بين هـذه الحضـارات، ثم انتهى الآن لصـالح الحضارة الغربية، بعد وصول البشرية إلى المرحلة الأخيرة من اكتمالها، أي بعـد وصـولها إلى النموذج الأوحـد، وهو الحضارة الغربية.. وقد انتهت زعامة العالم إلى هذه الحضارة.

وأنها الأمل الذي انتظرته البشرية طويلا.

قلت: ألم يكونوا محقين؟

قال: لقد طبقت المقياسين اللذين ذكرتهما لك على هذه الحضارة.. فوجدتها تتربع على قمة الشذوذ، وعلى قمة الصراع..

ثم وجدتها فوق ذلك قد جمعت شرور الحضارات السابقة، وأضافت إليها من الكبرياء والغفلة ما جعلها تسد آذانها وأبصارها عن كل صالح ومصلح.

الشذوذ:

قلت: فلنبدأ بشذوذ هذه الحضارة (1).

قال: لن أطيق الحديث عن كل شذوذ هذه الحضارة.. ولكني سأقتصر على نماذج بسيطة تستطيع أن تعبر منها إلى غيرها من العظائم..

قلت: يمكنك أن تستدل بالأمثلة..فهي عينات صالحة.

قال: أتعرف النوم؟

ابتسمت، وقلت: وكيف لا أعرفه.. وأنا أقضي ثلث عمري نائما.

قال: لقد وضع البرنامج الإلهي للنوم مواقيت محددة تتوافق مع الفطرة.. ووضع في نظام الكون ما يتوافق مع هذا البرنامج.. لقد ذكر القرآن ذلك، فقال: وَهُوالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً (الفرقان:47).. وعد القرآن من نعم الله على عباده أن جعل الليل بصورة معينة تتناسب مع حاجة الإنسان الجدسية إلى الراحة، فقال: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ

لذا وجب على جميع شعوب الأرض أن تنطاع لها.

أي أن النظام الغربي: الليبرالي في السياسة، والرأسمالي في الاقتصاد هما وحدهما النظامان اللذان يتناسبان مع الفطرة الإنسانية ؛ لأنهما اللذان يحققان ما في تلك الفطرة من نشْدَانٍ للكرامة ؛ فهما يمثلان لذلك نهاية التاريخ في هذا المجال، مجال النظم السياسية والاقتصادية، وأن هذا هو الذي يفسر سير العالم كله نحوهما.

وقد طرح هذه النظرية العنصرية في صيف 1989م بمقال نشره في مجلة National Interest ، وإن كان قد سبقه بها هيجل بقوله: (إن تاريخ العالم يتجه من الشرق إلى الغرب، لأن أوروبا هى نهاية التاريخ على نحو مطلق، كما كانت آسيا هى بدايته..)

وقد كتب بعد عشر سنوات من صدور كتابه ذاك مقالاً تراجع فيه عن تلك الفكرة، وعزا تراجعه إلى أن فكرة الكتاب كانت قائمة على افتراض الثبات في الفطرة الإنسانية، وأن تتبعه للتطورات التي حدثت في علم الأحياء في هذه السنوات العشر، ولا سيما في مجال هندسة الجينات، أقنعته بأن العلم الطبيعي يمكن أن يغير الطبيعة البشرية! وإذا كانت الطبيعة البشرية متغيرة فإن النظم السياسية والاقتصادية المناسبة لها ستكون أيضاً متغيرة!!!

1) استفدنا الكثير من المعلومات حول هذا العنصر من مقال جيد للكاتب الكبير فتحي يكن بعنوان (فقه الفطرة) نشرته مجلة المجتمع، 1414.

عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللَّهِ يَـأْتِيكُمْ بِضِـيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَـارَ سَـرْمَداً إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ مَنْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللَّهِ يَـأْتِيكُمْ بِلَيْـلٍ تَسْـكُنُونَ فِيـهِ أَفَلا تُبْصِـرُونَ (القصص:71 ـ72)

قلت: أنا لا أزال أتعجب من ذكر القرآن لهذا مع كونـه يكـاد يكون معلوما من الفطرة بالضرورة.

قال: القرآن يتحدث مع الإنسان.. ويصف له البرنامج الإلهي.. والله يعلم أن البرنامج الذي يضعه لهم سـتغزوه الفيروسـات الـتي تحرفـه وتحولـه عن مسـاره الحقيقي.. فلـذلك كـان القـرآن هـو الكتاب الذي يصف الفطرة التي طبع عليها الإنسان.

قلت: نحن نتحدث عن حضارتنا وعن شذوذها.

قال: وهذا من أخطر مظاهر شذوذها.

ابتسمت، وقلت: وما علاقة النوم بالحضارة؟

قال: أليس للنوم علاقة بالإنسان.. أليس النـوم ركنـا أساسـيا من أركان الحياة!؟

قلت: بلى..

قال: فالحضارة التي تنحرف بهذا الركن من أركان الحياة عن الفطرة التي فطر الله عليها الأشياء حضارة شاذة.. وهذا نـوع من شذوذها.

قلت: ربمـا يكـون مـا تقولـه صـحيحا.. ولكن مقـاييس نجـاح الحضارات أعظم من هذا.

قال: لا تحتقر هذا.. ولا تحتقـر شـيئا من الفطـرة الـتي فطـر الله عليها الأشياء.. فإن شيئا بسيطا يغزو برنامج الحياة قـد يفسـد الحياة جميعا ويملؤها بالكدورة.

إن انحراف الليل في هذا الحضارة تبعه انحرافـات كثـيرة في السلوك وفي الصحة وفي العلاقات الاجتماعيـة.. وهـو مـا لا يمكن أن تنهض الحياة بسببه.

سـكت قليلا، ثم قـال: في الولايـات المتحـدة يعـاني نصـف الأمريكيين من الأرق واضطرابات النوم، وقد ازدادت هـذه النسـبة عما كانت عليه.

وقد ذكر الدكتور آلن باك ـ المدير الطبي للمؤسسـة الوطنيـة لأمراض النـوم ــ الـذي أشـرف على اسـتطلاع خلص إلى النتيجـة المذكورة ـ سبب هذا المرض قائلاً: (إن طبيعة الحياة المعقـدة في المجتمع الحديث قد أفقدت الكثيرين قدرتهم على التمتـع بـالنوم..

بسبب زحمة العمل وتوتر الأعصاب)[1]

قلت: ولكن التنمية تقتضي هذا.. وعلى كل حال.. فمن لم ينم في الليل نام في النهار..

قال: أكثر ما يطلق عليه البشر تنمية انحراف.. ومرض.. ومصائب.. لا تقل عن هذه المصائب التي تراها الآن.

أما نوم النهار.. فلا يغني عن نوم الليل.. لأن الله خلق الليل ليلا، والنهار نهارا.. وقد قال الأطباء: (ولا يخالف أحد أن باستطاعته تعويض ما فاته من نوم ساعات الليل، ويا بعد ما بين هيمنة الظلام الهادئ الساكن، وبين انتشار النور الخاطف للأبصار والمثير للأعصاب.

ويستغرق النائم عادة في نومه آخذاً القسط الأوفى من راحته في ساعاته الأولى، لهذا كانت الفائدة المجتناة من نوم ما قبل منتصف الليل، ضعف الفائدة المتوخاة من نوم ما بعد منتصف الليل)[2]

ويقول جورج ألفرد تينيس ـ أحد أتباع ثيودور ستوكمان ـ وهو صاحب نظرية (النوم الطبيعي) القائلة إن النوم الذي يسبق منتصف الليل تكون له ضعف القدرة على إعادة العافية إذا قيس بالنوم الذي يعقب انتصاف الليل: (الصباح هو أفضل الأوقات وأنسبها للعمل، لأننا نكون عندئذ قد استعدنا حيويتنا وأصبحنا أكثر مرونة ونشاطاً واستجابة للتنبيه، أو بعبارة أخرى، نكون أكثر حظاً، في تمتعنا بخصائص الشباب)

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف (الريجيم)؟

ابتسمت، وقلت: هل له هو الآخر علاقة بالحضارة؟

قال: أجل.. له علاقة كبرى بالحضارة.. لأنه من شذوذ هذه الحضارة.

قلت: كيف ذلك.. أتريد من البشر أن يصبحوا بأجسام الفيلة.. إن الأرض لا تستطيع حمل هذا العدد الضخم من الفيلة.

قال: ولم يصبح البشر فيلة؟

قلت: لولا الريجيم لصاروا فيلة.

قال: ولم لا يأكلون أكل الفطرة.. ويعيشون حياة الفطرة.. فلا يضطرون إلى الريجيم ولا إلى غيره..

أعرف قريبة كانت تأكل بلا حساب.. وخارج فطرية الغذاء..

---

1) الشرق الأوسط: العدد ـ 6247.

2) الدكتور صبري القباني في كتابه (طبيبك معك)

حتى أصبحت ممتلئة البدن وغير مقبولة الشكل، وبخاصة من زوجها، فلما أحست منه ذلك سارعت إلى اعتماد ريجيم صارم دفعة واحدة، ودون تدرج، فأصيبت بالهزال وفقدان المناعة إلى أن ابتليت بمرض (السحايا) وأدخلت المستشفى في حالة الخطر الشديد، ثم رد الله لها عافيتها بعد فقدان الأمل.

إن حاجة الجسم إلى الأغذية المتنوعة تبعثها الغدد من خلال الإحساس بالرغبة في تناول هذا الطعام أو ذاك، ومن الفطرية مراعاة التجاوب مع هذه الرغبات دون تفريط ولا إفراط، لأن عدم التجاوب مع هذا الإحساس الفطري، يعتبر لوناً من ألوان الشذوذ.

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف الزواج.. والعلاقات الزوجية؟

قلت: أجل.. ولولا الزواج ما استمر نوع الإنسان.

قال: هذه الحضارة المسمومة عبثت به وبهذا النوع من العلاقات ما شاء لها أن تعبث.. فعالم الجنس اليوم ــ في حضارة سدوم وعمورية ـ قد خرج بالكلية عن الممارسة الفطرية، فلم تعد هناك علاقة بين الزوج وزوجته، بل اتخذ أنماطاً من الممارسات الجنسية القذرة الممعنة في الحيوانية، حيث الممارسات الجماعية، بين الذكور والإناث، وبين الذكور والذكور، كما بين الإناث والإناث، بقصد الوصول إلى المتعة القصوى.. لقد بلغ الجنون والهوس الجنسي اليوم، درجة باتت تهدد المجتمعات العالمية بالأوبئة الفتاكة..

قلت: هذه ممارسات شاذة لبعض الشواذ.. ولا نستطيع أن نحكم من خلالها على حضارة كاملة.

قال: لم يعد الأمر شذوذا.. إن هذه الحضارة الشاذة تريد أن تجعل من الشذوذ فطرة.. لتصبح الفطرة بعدها شذوذا.

إن الشذوذ الجنسي ومخالفة الفطرة في الزواج، أخذ طريقه عبر التشريعات والقوانين.. فقد راح الكثير من الدول، وحتى بعض الكنائس الغربية ـ في بريطانيا تحديداً ـ تجيز الزواج المثلي الأحادي الجنس.

سكت قليلا، ثم قال: أتسمع ببراءة الأطفال؟

قلت: أسمع بها.. وأرها في عيونهم البريئة.

قال: ويوشك أن لا تراها.. لو استمرت هذه الحضارة المجنونة..

لقد امتد جنون هذه الحضارة إليهم ليلتهم براءتهم.. لقد ذكر المصادر الإعلامية أن ملايين الأطفال، يقعون ضحية عصابات

الدعارة والشذوذ.

وما حدث في بلجيكا على سبيل المثال، يعطي نموذجاً واضحاً لما آلت إليه أوضاع البشرية، من جراء انحدارها وبعدها عن الفطرة.

ففي هذا البلد الأوروبي.. اكتشفت عصابات تقوم على تجارة الأطفال وقتلهم بعد اغتصابهم، والأنكى من ذلك، أن الرأي العام البلجيكي والعالمي اكتشف تورط مسؤولين حكوميين في الفضيحة، مما استدعى ردات فعل قوية ستؤدي إلى تغييرات دستورية مهمة، والأمر نفسه يحدث الآن في بريطانيا وعدد آخر من دول العالم.

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف العلف؟

ابتسمت، وقلت: هو طعام الحيوانات.. أله علاقة هو الآخر بالحضارة؟

قال: أجل.. له علاقة عظمى بالحضارة.. فالحيوانات شركاء لنا في الأرض.. وينبغي أن لا نطعمهم سموما وإلا أصابونا بلعناتهم.

قلت: وهل أطعمتهم هذه الحضارة سموما؟

قال: أجل.. لقد دنست هذه الحضارة فطرهم كما لم تدنس شيئا آخر.

قلت: فما فعلت؟

قال: لقد ذكر القرآن أنواع الرزق التي أفاضها على الأنعام، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إلى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾(السجدة:27)، وقال بعد أن ذكر ما أخرج لعباده من أصناف الرزق: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾(طه:54).. ولكنهم أبوا إلا أن يطعموها سموما.

قلت: ولكن ما حصل من جنون البقر جعلهم يثوبون إلى رشدهم.

قال: ومن قال ذلك؟.. لقد وردتنا الأخبار بأن المزارعين، ومثلهم الشركات المنتجة للأعلاف بدأوا في استخدام أو محاولة استخدام فضلات الأطعمة الجافة المستخرجة من حاويات القمامة، ومخلفات المطاعم من الشحوم وزيت القلي والشحوم المتجمعة في محابس الشحوم والغبار المتصاعد من مصانع الإسمنت.. وحتى أوراق الجرائد والورق المقوى المستخرج من النباتات، كما أجرى الباحثون بعض التجارب على سماد المواشي

والخنازير والرواسب الطينية.

ولا تتوافر في الوقت الراهن أي إحصائيات دقيقة حـول عـدد المزارعين الذين يطعمون مواشيهم بفضلات الدواجن، لكن يعتقـد بأن هذه الظاهرة قـد عمت في نصـف الولايـات المتحـدة أو ثلاثـة أرباعها، وبالرغم من الرائحة الكريهة المنبعثة من فضـلات الـدجاج والديك الرومي، فإنه يمكن اسـتخدامها كعلـف بعـد تكديسـها على نحو سـليم وإخضـاعها لمـدة تـتراوح مـا بين 4 ـ 8 أسـابيع لدرجـة حرارة تتراوح مـا بين 160 ـ 170 درجـة فهرينهـايت، وهي درجـة عاليـة تكفي لقتـل البكتيريـا، وقـد ذكـر بعض المـزارعين بـأنهم يقدمون لدواجنهم سماد المواشي الخام دون إخضاعها لأي تصنيع.

وقد ازداد الاهتمـام بمكونـات أعلاف الحيوانـات في الولايـات المتحدة مـؤخراً في أعقـاب الضـجة الـتي قـد أثارهـا في بريطانيـا موضوع جنون البقر والمخاوف التي انتابت الشـعب الأمـريكي من أن تنتقـل العـدوى إليهم، وقـد لقي مئـات من البريطـانيين حتفهم نتيجة تناولهم لحوم الأبقار الملوثة.

وتفيد الإحصائيات بـأن 75 بالمائـة من رؤوس المواشـي في أمريكـا والبـالغ عـددها 90 مليـون رأس ظلت تأكـل مخلفـات المسـالخ، وأن الحظـر المفـروض على تقـديم المنتجـات الثانويـة لمصـانع اللحـوم قـد يـدفع مـربي المواشـي ومصـانع الأعلاف إلى اللجوء إلى مضافات مثل السماد ومخلفات أخرى مشكوك فيها.

نظر إلى العمال الذين يقومون بتقطيع الأشـجار بأسـى، ثم قال: البشر في هذه الحضارة الملعونة لم يشوهوا فطر الحيوانات وحدها.. بل ذهبوا يشوهون أنفسهم..

لقد ذكر القرآن مقالة الشيطان عنـدما أطلـق تهديداتـه على تضليل بني آدم..يقول القرآن حاكيا ذلك: إِنْ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَـالَ لَأَتَّخِـذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًـا (118) وَلَأُضِـلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُـرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّـيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119) (النساء)

وعلى هذا الأساس نهى محمـد عن كـل تغيـير للفطـرة الـتي فطر عليها جسد الإنسان، إلا مـا كـان منـه لضـرورة شـرعية حـدد ظروفها وشروطها، فقال: (لعن الله الواصلة والموصولة)(1)

وفي الحديث: رأى رسول الله ﷺ صبياً قـد حُلِـق بعض شـعر

1) البخاري ومسلم.

رأسه وترك بعضه فنهاهم عن ذلك وقال: (احلقـوه كلـه أو اتركـوه كله)[1]

قلت: فهل حدث تشويه لفطرة أجساد البشر؟

قـال: أجـل.. لقـد أقيمت مستشـفيات خاصـة بـذلك.. لعلـك سمعت بـ (بياولا يندسكو)

قلت: تقصد الممثلة الإيطالية المعروفة.

قال: أجل.. هي مثال على هذا الشذوذ.. لقد أقدمت ــ بطلب من هذه الحضارة المسمومة ـ على عمليـة تجميـل الأنـف، وعللت ذلك بقولها: (أقـدمت على عمليـة تجميـل الأنـف بوصـفي ممثلـة، وليس بوصفي امرأة، وقـد انقضـى الآن شـهران على ذلـك.. كـان الجميع قبل ذلك يقولون: إن عيبي الوحيد هو ذلك التقوس البسيط الذي يظهر في أنفي، فما إن لاحت لي فرصة إجراء العمليـة حـتى أقبلت عليها بنفس مطمئنة، وخاصة أن الطـبيب أكـد لي أنـه ليس هناك أي خطر منها)

قلت: كونها ممثلة هو الذي دعاها إلى هذا؟

قـال: أجـل.. وقـد أقـرت بـذلك.. أقـرت بـأن هـذا مخـالف لفطرتها، فقالت: (على أن الشيء الذي أود أن أسر بـه إلى سـائر النساء هو أنه لو لم تكن مهنتي هي التمثيل في السينما لما جرؤت على هذه العملية خاصـة أن فيهـا بعض المتـاعب.. ومن ذلـك: أني أمضــيت أســبوعين أتنفس ليلا ونهــار من فمي، ولا أســتطيع أن أنقلب على الوسـادة عنـد النـوم يمينـا أو يسـارا، وإلا ضـاع أثـر العملية)

قلت: فالمرأة كانت تحت سيطرة المخرجين الذين أرادوا أن تكون على صورة مقبولة لأذواقهم؟

قال: أجـل.. هـذه الحضـارة الشـاذة صـارت تفـرض قوانينهـا البشر، وتغير جميع الأنماط التي عرفتها الحياة من قبل.. لقد قالت شبيلا جابل: (كنت في بداية العمل في السينما، وكان ذلك حـوالي عـام 1960 م ولم أكن اسـمع من المخـرجين الـذين قـدموني إلا العبارة التالية: (لن تمهري في السينما، ولك هذا الأنف).. فإذا كان أنفي يحد من انطلاقي ويمنعني من الظهور أمام الجمهور،وفكرت طويلا في الأمـر، ثم عـزمت على الإطاحـة بهـذا الأنـف، وأسـلمت نفسي لجراح مشهور، وأجريت لي الجراحة)

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف الرحمة؟

---

1) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

قلت: أجل.. فليس بشرا من لا يعرف الرحمة.
قال: ولكن هذه الحضارة الشاذة انتكست الرحمة عندها..
قلت: لم أفهم قصدك.
قال: لعلك رأيت الذين يأسفون ويمتلئون حزنـا عنـدما يـرون المسلمين، وهم يذبحون ضحاياهم من الكباش.
قلت: أجل.. ويعتبرونها مظهرا للقسوة.
قال: ولكنهم هم أنفسهم الـذين يـذبحون البشـر آلاف البشـر في وقت واحد وبملايين القنابل دون أن يهتز لهم عرق واحد.
قلت: أتقصد أن البشر وجهوا الرحمة للحيوانات بدل البشر؟
قال: ليس مطلقا.. هم يعذبون الحيوانات كما يعذبون البشر.. ولكن منطـق الرحمـة الـذي انتكس عنـدهم جعلهم يتعـاملون مـع الحيوانات معاملات شاذة (1)..
في الغرب عندنا تصـرف البلايين على الكلاب والقطـط.. في الوقت الذي يعيش فيه الملايين تحت مستوى الفقر.
يقـول خـبراء اجتمـاعيون من جامعـة بنسـلفانيا: إن محـبي الحيوانات في الولايـات المتحـدة وحـدها ينفقـون أكـثر من ثمانيـة بلايين دولار للاعتناء بحيواناتهم من القطـط والكلاب.. أي أكـثر من الدخل الوطني في أكثر من دولة من دول العالم النامي(2).
هــذا مــا ينفقــه الشــعب الأمــريكي المتحضــر على الكلاب والقطط سنوياً.. يتم هذا في الـوقت الـذي يمـوت فيـه الآلاف من الجـوع والأمـراض الناتجـة عن سـوء التغذيـة في كثـير من الـدول الأفريقيـة والآسـيوية وغيرهـا.. بـل إن هـذه البلايين من الـدولارات تصرف على الكلاب في أمريكا رائدة الحضارة الغربية في الــوقت الـذي يعيش فيـه الملايين من الشـعب الأمـريكى نفسـه في فقـر مدقع.. فلو قدر لك أن تـدخل حيـاً من الأحيـاء الفقـيرة في مدينـة نيويورك أو غيرها من كبريات المدن الأمريكية ــ وخصوصـاً الأحيـاء التي تقطنها أغلبية سوداء ـ لحدثتك نفسك أنـك في بلـدٍ من أفقـر بلدان العالم الثالث.. وما الدول الغربية الأخرى عن هذا ببعيــدة إن لم تكن أسوأ حالاً منها...

الصراع:

قلت: عرفت شذوذ هذه الحضارة، فحدثني عن صراعها.
قال: هذه الحضارة قامت على الصـراع.. لقـد بـدأت بصـراع

---

1) انظر الإحصائيات التالية في (الحضـارة المعاصـرة.. الوجـه الآخـر)، مجلـة البيـان، العدد2، ص84.
2) جريدة الرياض 30/12/1406هـ

الكنيسة، وانتهت بصراع الإنسان.. وهي الآن لا تزال تصارعه.

وسبب ذلك أنها حضارة مليئة بالمتناقضات(1): تناقض في الأفكار، وتناقض في القيم، وتناقض في المواقف، وتناقض بين الأقوال والأفعال.

وأخطر أنواع تناقضها هو ذلك التناقض بين ضجتها الصوتية العالية عن حرية الأفراد والشعوب، في الحين الذي تسلك فيه كل السبل لفرض قيمها الخُلُقية، وتجربتها السياسية، ونظمها الاقتصادية، بل ومعتقداتها الدينية على سائر شعوب الأرض، ووصم كل ما يخالفها، بل كل ما يتعارض مع مصالحها، بكونه انتهاكاً للحقوق الإنسانية، أو إضراراً بالمصالح العالمية، أو ممارسة للإرهاب، أو سبباً للتخلف، وما شاءت من تهم جائرة.

نظر إلى العمال الذين يقطعون الأشجار بحزن، ثم قال: إن المجرمين من أهل هذه الحضارة مصابون بنوع من المرض الثقافي الذي يجعل على بصر صاحبه غشاوة تهول له قيم ثقافته، بل وأباطيلها، حتى يراها هي القيم الإنسانية التي يجب على كل الأمم أن تؤمن بها وتطبق مقتضياتها، بل وهي المعيار الذي تقاس به إنسانية الأمم، ويحدد على أساسها استحقاقها للمصالحة والمساعدة أو المشاقّة والإعنات.

لقد عبر عن شيء من هذا مندوب أو مندوبة باكستان في جلسة الأمم المتحدة الخاصة بقضية المرأة، فقد قالت لهم المندوبة كلاماً نقلته بعض الصحف الأمريكية فحواه أن مشكلة المرأة في باكستان هي أن تشرب ماءً نقياً، لا أن تتزوج امرأة مثلها، ولا أن تكون لها حرية الاتصال بمن شاءت من الرجال.

قلت: إن الحضارة الغربية تطرح أفكارها في هذه الجوانب، ولا تفرضها.

قال: بل هي تحاول كل السبل لتفرضها..

إن أولئك المجانين الذين يعتلون عرش القوة في العالم.. وبعد أن قضوا على المعسكر الشيوعي تصوروا أن لهم القدرة على القضاء على كل منافس لهم.. وقد كان الإسلام أحد أهم منافسيهم، فلذلك راحوا يوجهون رماحهم إلى نحره.

لعلك سمعت بـ (صراع الحضارات)(2)

---

1) الحضارة الغربية: ضجة عن الحرية.. وممارسة للهيمنة الثقافية، أ. د. جعفر شيخ إدريس، رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة، مجلة البيان.

2) روج لهذه الفكرة مجموعة من المستشرقين والمؤرخين والمفكرين المشبوهين بارتباطاتهم بالدوائر الصهيونية العنصرية، ومن أبرزهم المؤرخ اليهودي برنارد لويس (

قلت: أجـل.. وقـد ولـد هـذا المصـطلح بعـد انهيـار الاتحـاد السـوفيتي الـذي كـان العـدو الأول للغـرب ــ وخصوصـا الغـرب الأمريكي ـ من عام 1947 م إلى عام 1990م، ثم دارت الدائرة على هذا (الخطر الأحمر) ـ كما يسـميه الغـرب ــ وانهـار، وتفتتت هذه الإمبراطورية الضخمة إلى مجموعـــة من الـدول والـدويلات، وانتهى بذلك عصر (الحرب البادرة)

قال: لقد وجدت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وأتباعهـا ومن يدورون في فلكها من دول أوربا، نفسها بلا عـدو تمـارس الصـراع ضده وتطور عدتها وآلاتها لمهاجمته، فأوعز نفر من كبار المفكرين الاستراتيجيين هناك إلى أصحاب القرار باتخاذ الإسلام جبهة صالحة لتصويب آليات الصراع نحوها، واعتباره (الخطـر الأخضـر) بحسـب تعبيرهم.

وذلك للحفاظ على تماسك واندفاع الحضارة الغربية ضد هـذا (الزحـف الإسـلامي)، وخصوصـاً بعـدما نمـا الإسـلام في أوربـا، وظهـرت فيـه دويلات تحمـل اسـم الإسـلام، كمـا تزايـدت أعـداد المسـلمين في الولايـات المتحـدة، سـواء المهتـدين من أهلهـا، أم النازحين إليها من خارجها..وأصـبح من الحاقـدين من يحـذر حكـام أوروبا من الانتشار المتزايد للإسلام.

لقـد ظهـرت فكـرة (صـراع الحضـارات)، أو نظريـة (صـدام الحضارات)، وخصوصاً الصراع الحتمي بين الإسـلام كحضـارة وبين الحضارة الغربيـة الـتي تتزعمهـا الولايـات المتحـدة الأمريكيـة في العقود الأخيرة.

وإذا كـان هنتنجتـون يتحـدث في كتابـه المشـبوه عن ثمـاني حضـارات في العـالم الآن، فإنـه ركـز على حتميـة الصـدام بين الحضارة الغربية والحضارة الإســلامية، وهو صراع قائم ــ حسـب زعمه ـ وسيصبح أكثر خطرا على الحضارة الغربية، أما الصراع بين الحضـارات الأخـرى والحضـارة الغربيـة فهـو ضـعيف ولا يسـتحق الاكتراث(1).

Bernard Lewis)الذي روج لهذه الفكرة بمقال نشره في مجلة Atlantic Monthly ـ عـدد سبتمبر 199.م. ثم سار على دربه ونسج على منواله المؤرخ اليهودي الأمريكي صموئيل هنتنجتـون (Samuel Huntington) في مقالـة نشـرها في مجلـة Affairs Forein عـام 1993م، ثم طورها ووضع لها كتابا حمل نفس العنوان (صدام الحضارات) The Clash of Civilizations وهو الكتاب الذي تنـــاولته أجهزة الإعلام في الدول الغربية، ومنهـا الولايـات المتحدة، بالشرح والتحليل وتســليط الأضواء عليه بشـكل مــكثف، منـذ ظهـرت طبعتـه الأولى.

1) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري، وكتاباته الأخرى.

قلت: أهذا هو صراع الحضارة الغربية؟

قال: هذا بعض صراعها.. وهي لا تكف عن الصراع.. فجميع إنتاج هذه الحضارة ينطلق من الصراع، وينتهي به.. أفلامها.. ألعابها.. موسيقاها..

نظر إلى الأفق البعيد، ثم قال(1): حينما نادى أفلاطون في جمهوريته المثالية منذ ألوف السنين بتربية النشء على حب الموسيقى والرياضة وجعل من الموسيقى والرياضة حصصا ثابتة في منهج الطالب، كان صاحب فلسفة وكانت له وجهة نظر، فالموسيقى هي الوسيلة لتربية الذوق وتنمية الحس الجمالي، والرياضة هي الوسيلة لكمال الجسد وتنمية الشجاعة والخلق الكريم.

وقد عشنا ورأينا ألوانا من الموسيقى الرفيعة تربي الحس الجمالي وترفع الذوق.. كما رأينا على أيامنا ما تفعله الرياضة في كمال الأجسام وفي كمال الأخلاق.. ولكن يبدو أن العصر اختلف.. والموسيقى اختلفت.. والرياضة اختلفت..

لقد أصبحنا نقرأ عن مباراة عالمية في دور تشستر يسقط فيها عشرات القتلى ويتقاتل فيها المشجعون بالسكاكين والعصي والزجاجات الفارغة، ورأينا معارك أشد في مباراة عالمية أخرى في إيطاليا وثالثة في الدنمارك وتحول الملعب الرياضي إلى مسرح جرائم.

وفي كل أوليمبياد تكتشف اللجنة أبطالا مشهورين يلجأون إلى الغش وتعاطي الحقن الممنوعة ليتفوق كل واحد على منافسيه بدون وجه حق.

وفي آخر خبر جاء من أمريكا رأينا بطلة أوليمبياد التزلج على الجليد تونيا هارودنج ترشو زوجها جيف جالوا ليقوم بعمل كمين لمنافستها نانسي كاريجان ويضربها على مفصل الركبة اليمنى ضربة تكسحها و تمنعها من دخول الملعب.

و يعترف الزوج على زوجته، ويقول إنه تلقى منها رشوة خمسة آلاف دولار ووعودا بآلاف أخرى إذا أنجز مهمته على الوجه الأكمل.. و انفجرت فضيحة تناولتها كل الصحف..

ثم إن الرياضة نفسها تحولت إلى تجارة مفترسة، و أصبح لها سماسرة و أصبح لكل بطل مدير محترف ومكتب دعاية وملحق صحفي وعصابة تتحرك لحراسته أينما ذهب، و أصبحت البطولة

1) من سواح في دنيا الله لمصطفى محمود، ببعض التصرف.

بابا مفتوحا لملايين الدولارات.. ونجوم التنس والملاكمة و السباحة والجـري والقفـز أصـبحوا أصـحاب ملايين ونجـوم شـهرة، وأصـبح العرف السائد هو الوصـول إلى الكـأس.. بـأي سـبيل ولـو بـالغش والتدليس والإجرام.. وأصبحت الرياضة شـيئا آخـر غـير الـذي تكلم عنه أفلاطون.

بل رأينا نجوما مثل مارادونا يسقطون من قمة النجوميـة إلى هاوية الإجرام والمخدرات ثم يفقدون كل شيء.

وكـان مـا حـدث للموسـيقى أكـثر.. فسـيمفونيات بيتهـوفن وشوبان وفاجنر.. تـراجعت لتحتـل المسـرح راقصـات و راقصـون يهزون الصدور و الخصور، وظهر الديسكو الغربي الذي حول الغناء إلى زار و صراخ و ضجيج و عجيج.

ونفس الشيء حدث في السينما و المسرح..

وأبطال كمال الأجسام الآن تلتقطهم السينما لأفلام الرعب و الإجرام..

والرياضـة والموسـيقى والغنـاء والسـينما والمسـرح وبـاقي الفنـون تحـولت في ظـل الصـراع إلى المواصـفات الأمريكيـة، واتجهت إلى القبلة التي تفرضها بورصة هوليوود ويحكمها الدولار.

ولو أن أفلاطون بعث اليوم حيا لأنكر مـا يـرى و مـا يسـمع و لسـحب كلامـه و حـل جمهوريتـه، وفضـل عليهـا بيـع الخضـار في الأسواق. فلم تعد هناك علاقـة بين الموسـيقى وتنميـة الـذوق، ولا بين الرياضة وتنمية الأخلاق الحميدة.

قلت: ألا ترى أنك تبالغ في تشاؤمك من هذه الحضارة؟

قال: لست وحدي في ذلك.. كـل العقلاء لـديهم تشـاؤم كبـير من هذه الحضارة التي تريد أن تمحو آخر رسم للإنسان..

لعلك تعرف (الدكتور ألكسيس كاريل)

قلت: أجل.. وكيف لا أعرفه.

قـال: لقـد كـان صـديقا لي.. وقـد وضـع يـده على الأسـباب الحقيقية لهذا الضياع.. فقد قال: (إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقـف صـعب، لأنهـا لا تلائمنـا، لقـد أنشـئت دون أيـة معرفـة بطيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولـدت من خيـالات الاكتشـافات العلميـة، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا) (1)

1) الإنسان ذلك المجهول: 38.

ويقول: (لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال إهمالاً تاماً عند تنظيم الحياة الصناعية. إذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ: الحد الأقصى من الإنتاج بأقل قدر من التكاليف، حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال.. وقد اتسع نطاقها دون أى تفكير فى طبيعة البشر الذين يديرون الآلات، ودون أى اعتبار للتأثيرات التى تحدثها طريقة الحياة الصناعية التى يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم)(1)

ويقول: (وهؤلاء النظريون يبنون حضارات، بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان، إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهولة للإنسان. إن نظم الحكومات التى أنشأها أصحاب المذاهب فى عقولهم عديمة القيمة.. فمبادئ الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين، تنطبق فقط على الرجال الجامدين (غير الأحياء أو المتحركين)، فيجب أن نفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة. فإن علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية افتراضية)(2)

نظر إلي، وقال: لم يكن ألكسيس كاريل وحده هو الذي نطق بذلك.. بل قامت في سوق الفكر كتب كثيرة تحذر من هذا السلوك الذي تسلكه هذه الحضارة.. وتنبئ بالعواقب الخطيرة التي تنتظرها.

وكمثال على ذلك كتاب صدر قبل سنوات أطلق عليه صاحبه (فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي) لمؤلفه المؤرخ الأكاديمي: آثر هيرمان.

لقد ناقش هذا الكتاب آراء العديد من المفكرين والفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد وغيرهم من أمثال هيزيود، سوفوكليس، تيرجوت، فيخته، جينون جوزيف، آرثر دو جوبينو.. إلى أن وصل إلى الفصل الرابع، ليناقش فيه قضية الانحلال بوصفها نهاية الليبرالية الغربية (وهو يقصد الحضارة الغربية)، واستند في ذلك إلى أطروحات عدد من المفكرين والمتخصصين، وعلى رأسهم الطبيب الإيطالي (سيزار لومبروزو) الذي أكد في عام 1870م، أن الأوربيين (لم يعودوا قادرين جسمانيا على الاحتفاظ بمتطلبات الحياة المتحضرة)

---

1) الإنسان ذلك المجهول: 40.
2) الإنسان ذلك المجهول: 43.

وفي الجزء الثاني من الكتاب، تحدث المؤلف عما كان سائداً من اعتقاد، في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، بأن أمريكا هى أرض المستقبل، بل أنيط بها حمـل رسـالة تخليصـية لبقيـة العـالم و(إمبراطورية الحرية) هو الاسم الذي كان يطلق عليها، إشارة إلى رسالة نشر الفضيلة والسيادة الشعبية التي أنيط بهـا حملهـا العلم ومنذ ذلك التاريخ، وقبل أن يتحقق هذا أعلن (جي كيـو، آدمـز) في عام 1785م، بعـد أن تبـدد أملـه في أن يحافـظ الأمريكيـون على فضـائلهم واسـتقلالهم قـائلا: (إن الأمريكيـون لم يكونـوا أبـداً أهلا لفضيلة رفيعة) واعترف بغبائه لأنه قال فيما سبق من حياته: (إنهم سيصـبحون أفضـل من غـيرهم) مؤكـداً أن أمريكـا محكـوم عليهـا بالهلاك

وفي بـاقي فصـول الكتـاب ينـاقش المؤلـف آراء كثـير من العلماء والمفكرين، من أنحاء متفرقـة من العـالم منهم: آدمـزش، جاكوبي، هنري آدمز، دوبوا، أوزوالـد شـبنجلر، إدوارد سـعيد، اليجـا بول (أو اليجا محمد ـ بعد إسلامه).. إلى أن وصل إلى الفصل الذي ألقى فيه الضوء على (شبنجلر) في كتابه الشـهير (أفـول الغـرب) كما ناقش فكـر المـؤرخ البريطـاني الشـهير (توينـبى) الـذي حـدد لاضمحلال الحضارة الغربية ثلاث مراحل.

كما أن توينبي تنبأ بقيام الولايـات المتحـدة كحضـارة جديـدة، فإنه رأى ـ مثل غيره من المفكرين الأوربيين ــ أنهـا تمثـل الجـانب المظلم للغرب الحديث نفسه وبقدر مـا اعتـبر الشـيوعية هرطقـة غربية، وصحف منزوعة من العهد القديم، اعتبر الولايـات المتحـدة وإسرائيل أخطر قوتين استعماريتين في عالم الحرب الباردة (التي امتدت من النهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة إلى مطلـع التسـعينات حين انفرط عقد الاتحـاد السـوفيتي)ومكمن الخطـر فيهمـا ــ كمـا يقول توينبي ـ ليس لأنهما قوتان عسكريتان فقط، بل لأنهما تمثلان ـ أيضا ـ غربا منحلا وشدد توينبي على أن أعمال الولايـات المتحـدة وإسرائيل في لاوس، وفيتنام، وفلسطين، ليست مجرد جرائم، بـل جرائم ومفارقة تاريخية أخلاقية في الوقت نفسه.

وفي الفصل العاشر تناول المؤلف أطروحات سـارتر، فوكـو، وفـانون، وهــو يشــرح آراء ومواقــف ســارتر الــتي كــانت تعــد (الأمريكيــة) الخطـر الحقيقي على أوروبـا كمرحلـة أخـيرة للقيم البرجوازية الغربية وذهب سارتر ـ الذي كان على عـداء واضـح مـع الهيمنة الأمريكية ـ إلى أن الفيتناميين كانوا يقـاتلون نيابـة عن كـل

البشر، وأن الأمريكيين يقاتلون ضد كل البشر.

وينقل المؤلف آراء (نعوم تشوميسكي) الذي يرى أمريكا (تديرها القوى التآمرية الخبيثة للرأسمالية الكبيرة)، أقامت إمبراطورية شاسعة بالتحالف مع المصالح الرأسمالية العالمية من خلال دول إرهابية في أمريكا اللاتينية، وأعمال عنف تؤدي إلى إبادة جماعية في آسيا والشرق الأوسط ويسوى تشوميسكي بين ألمانيا النازية في الداخل، والاحتفاظ بشبكة عالمية من القوة والإرهاب الوحشي ويقول تشوميسكي: إن الإمبراطورية الأمريكية مؤسسة محكوم عليها بالفناء.

وبالاستناد إلى آراء كل من نعوم تشومسكي، بارنتي، بارنت، وريتشارد سلوتكن، فإن الثقافة الأمريكية تمجد العنف، والاستعمار، والإبادة الجماعية..

التفت إلي، وقال: هذه بعض الشهادات.. وإذا أردت المزيد.. فاذهب إلى وكالات الأنباء.. وتتبع جرائم هذه الحضارة.. فليس هناك شهادة أخطر من شهادة الإنسان على نفسه.

حضارة الإسلام

قلت: عرفت حضارتنا وما فيها من عيوب.. فحدثني عن حضارة الإسلام.. أو بالأحرى: هل للإسلام حضارة.. فأنا لم أر للمسلمين الأوائل أهرامات كأهرامات المصريين، ولا مسارح كمسارح الرومان.

بل إن المسلمين ظلوا يسكنون في بيوت الطين البسيطة إلى أن تداركتهم هذه الحضارة بالخراسانة المسلحة وبأنواع الرقي الحضاري.

ابتسم، وقال: لقد ذكرتني بعمر بن عبد العزيز، فقد كتب إليه أحد ولاته يستأذنه في أن يبني لمدينته سورًا يحفظها من اللصوص، فقال عمر: حصن مدينتك بالعدل.

قلت: لو أن هذا الحاكم كان بيننا لأقيل.. أينهى عن بناء يحفظ المدينة؟

قال: وقد أمر ببناء هو أشد حفظا للمدينة من جميع الأسوار..

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد عرفت ما كان يمتلكه الاتحاد السوفيتي من أسلحة جبارة لا يكاد أحد يفكر في غزوها.

قلت: أجل.. وقد كان ذلك سببا لكون الحرب بينه وبين

أمريكا باردة، ولو أن أسلحته كانت ضعيفة لكانت الحرب حارة ساخنة.

قال: ولكن كل تلك الأسلحة.. وكل تلك الشرطة التي قامت عليها دولته البوليسية لم تستطع أن تحفظ كيانه.

قلت: ذلك صحيح.. فما سره؟

قال: لأنهم توجهوا إلى البنيان، ولم يتوجهوا إلى الإنسان.. والحضارة لا تبنى إلا على الإنسان.

ولذلك فإن أهم مزايا الحضارة الإسلامية أنها حضارة قيم ومبادئ إنسانية رفيعة..

نعم لم يترك المسلمون مسارح كمسارح الرومان.. ولكنهم تركوا مقابل ذلك من القيم ما لا تقوم معه جميع مسارح الرومان وأبنيتهم، بل وأبنية هذه الحضارة جميعا.

نعم.. لم يبن محمد وورثته أهرامات كأهرامات المصريين.. ولكن الأكواخ التي كانوا يسكنونها كانت أشرف بكثير من جميع الأهرامات.. بل من جميع قصور الدنيا.

قلت: فما مبادئ الحضارة الإسلامية؟

قال: ما ذكرته لك من مقاييس الحضارة: الفطرة.. والسلام.

فالحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة في العالم التي اجتمع لها هذان الركنان، ولم يتفرقا طيلة تاريخها.

قلت: فكيف انسجمت حضارة الإسلام مع الفطرة والسلام؟

قال: إن المفهوم الإسلامي للحضارة ينطلق من تصوره لوظيفة الإنسان في هذا الوجود.. والذي يسميه الإسلام (العبادة) (1).. فالعبادة هي غاية الوجود الإنساني التي حددها القرآن: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات)

فتحقيق غاية الوجود الإنساني هو الذي نشأت عنه الحضارة في الواقع البشري، وهو المعيار الذي تقوّم به صعودا أو هبوطا، واستقامة أو انحرافا.

وحين تختلف النظرة إلى غاية الوجود الإنساني تختلف النظرة إلى الحضارة، وتختلف النظرة كذلك إلى التاريخ.

فحين تكون غاية الوجود الإنساني هي الفناء في الكائن الأعظم كما تقول (النرفانا) أو الخلاص من ربقة الجسد وإطلاق الروح لتتحد مع الخالق.. تصبح الحضارة هي تحقيق عالم الروح على حساب الجسد، وعلى حساب الجانب المادي من عمارة

1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب وغيره من كتبه وكتب سيد قطب.

الأرض.

وحين تكـون غايـة الوجـود الإنسـاني هي الاسـتمتاع بمـا في الأرض من متاع، بصرف النظر عن القيم المصاحبة لهذا المتاع من حلال وحرام، وخير وشر، وفضيلة ورذيلة، ورفعة وانتكاس.. تكــون الحضارة هي العمارة المادية للأرض، وهي تيسـير الحيـاة الأرضـية وتزيينها، والانكباب على متعها ولذائذها، وتكون في الوقت ذاته هي محاولـة التغلب على الآخـرين للاسـتئثار بـأكبر قـدر من المتـاع، ومحاولة إخضاعهم بالقوة والقهر، سـواء بـالقوة الماديـة أو القـوة العسكرية أو القوة السياسية أو القوة الاقتصادية أو القوة العلمية.. أو كلها جميعا..

وحين تكـون الغايـة هي عبـادة اللـه يكـون مفهـوم الحضـارة مختلفا عن هذا المفهوم وذاك، وكـذلك يكـون تفسـير التـاريخ، لأن المعيار الذي يقوم على أساسه التفسير، هو مدى تحقيـق الإنسـان لغاية وجوده، ومدى تفوقه أو تخلفه في تحقيق هذا الوجود.

قلت: لكل دين من الأديان شعائره التعبديـة الخاصـة بـه.. ولا يمكن أن نقيم الحضارات على هذه الأسس.

قال: مفهوم العبـادة في الإسـلام ــ والـذي هـو غايـة الوجـود الإنساني كما يرى الإسلام ـ مختلف تماما عن كل المفـاهيم.. ذلـك أن له علاقة كبرى بفطرة الإنسان، وفطرة الوجود.

قلت: لم أفهم.

قـال: الوجـود في التصـور الإسـلامي كلـه متوجـه للـه توجهـا فطريا، فهو لا يعرف إلا الله، ولا يعبـد إلا اللـه..: وَقَـالُوا اتَّخَـذَ اللَّهُ وَلَـداً سُـبْحَانَهُ بَـلْ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُـلٌّ لَـهُ قَـانِتُونَ (البقرة:116)،: وَلَهُ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُـلٌّ لَـهُ قَـانِتُونَ (الروم:26)

وبمـا أن الإنسـان فـرد في هـذا الوجـود، فإنـه من الشـذوذ الخطير أن ينفصل عن هذه العبادة التي يمارسها الكـون، ويسـتمر بها وجوده.

قلت: ما محل الخطر في ذلك؟

قال: أرأيت لو أن القمـر بـدا لـه أن ينفصـل بمسـار خـاص.. ومثل ذلك الشمس.. ومثل ذلك جميـع النجـوم والكـواكب.. أيمكن للوجود أن يظل وجودا؟

قلت: لا.. ستدب الفوضى للوجود.. وسيفنى العالم.

قال: فعبودية الكواكب وسجودها للـه هـو الـذي حفـظ كيـان

الكون.
قلت: والإنسان؟
قال: لا يحفظ الإنسان إلا بالقوانين التي تحفظ الكون.. إلا إذا اعتبرنا الإنسان كائنا غير كوني.
قلت: فكيف ينتظم الإنسان في حلقة الكون؟
قال: بممارسة العبودية التي طلبت منه، والتي تحفظ له فطرته.. أو التي يمارس بها ما تتطلبه فطرته.
قلت: لا شك أنك لا تقصد بالعبودية الشعائر التعبدية.
قال: الشعائر التعبدية جزء من هذه العبادة.. أما كل العبادة فهو أن تتوجه الحياة كلها إلى الله.. لقد عبر القرآن عن ذلك، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام:162)
وهذا هو معنى الإسلام الذي جاء محمد للدعوة إليه..
لقد جاء محمد لا ليقاوم النشاط البشري.. وإنما جاء ليوجهه الوجهة التي يسير بها الكون جميعا حتى يقي المجتمع ويقي الإنسان ويقي الكون من عواقب الشذوذ والصراع.
إن إقامة الحياة كلها - بكل ألوان النشاط فيها - على قاعدة أخلاقية مدارها تقوى الله وخشيته هي الأساس الذي تقوم عليه الحضارة الإسلامية.
لتصير السياسة ذات أخلاق قائمة على حكم الحاكم بالعدل والشورى والنصيحية، والتعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان.
ويصير الاقتصاد له أخلاق، تبتعد به عن كل ما يتنافى معها من ربا واحتكار وغش وسلب ونهب، وسرقة وغصب، وأكل مال الأجير، وأكل أموال الناس بالباطل، والشح بحقوق الفقراء والمساكين..
وتصير العلاقات الاجتماعية ذات أخلاق قائمة على التواد والتحاب والتكافل، والتعاون على البر والتقوى، وحرمة الدم والعرض والمال، وكظم الغيب والعفو عن الناس، والكف عن الغمز واللمز والغيبة والنميمة والتجسس والاطلاع على العورات..
وتصير علاقات الأسرة ذات أخلاق.. وعلاقات الجنسين ذات أخلاق.. والحياة كلها قائمة على قواعد أخلاقية رفيعة.
وتصير الفنون ذات أخلاق.. تلتفت إلى الجمال في الكون وفي الحياة البشرية وتعبر عنه في أداء جميل.. فنون لا تزين

الفاحشة لأن الفاحشة ليست جمالا ولكنها هبوط.. ولا تزين لحظة الضعف لأنها ليست جمالا إنما هي لحظة غفلة عن إدراك غاية الوجود الإنساني، أو لحظة تقصير في تحقيق ذلك الوجود. ولا تزين الانحراف والشذوذ لأنه ليس جمالا، وإنما هو نشاز نافر عن الجمال، ولا تزين عبادة الشيطان وعبادة الهوى والشهوات، لأنها ليست جمالا، وإنما هي حطة للإنسان الذي كرمه الله وفضله، وأراد له أن يتحرر من كل عبودية زائفة تزري بكيانه وتستذله.

هذه هي العبادة التي جاء الإسلام بها ليحفظ الإنسان ويحفظ الأرض من الشذوذ الذي يريد فرضه هؤلاء الدجالون..

قلت: إن كل ما ذكرته جميل.. ولكن هل يتنافى ذلك مع التطور المادي العظيم الذي وصلت إليه هذه الحضارة.

قال: أنا لا أنكر على هذه الحضارة تطورها المادي.. ولكن أنكر بطرها وكبرياءها وانحرافها بسبب هذا التطور.. إني أصيح في هذه الحضارة كما صاح هود: أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) (الشعراء)

فهو لم ينكر عليهم اهتمامهم بالعمران.. ولكن أنكر عليهم ذلك الطغيان والشذوذ الذي وقعوا فيه بسبب ذلك العمران.

لقد ذكر القرآن مثالا لإنسان هذه الحضارة المملوء بالكبرياء بسبب أمواله.

قلت: تقصد قارون.

قال: أجل.. لقد نبهه المؤمنون إلى الطريقة التي ينبغي أن يتعامل بها مع ماله، فقالوا: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (القصص:77)

لكنه أبى كما أبت هذه الحضارة، وصاح كما صاحت: إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (القصص:78)

أتدري ما مصيره؟

قلت: لقد خسف به.

قال: وكذلك هذه الحضارة سيخسف بها.

قلت: ولكن حضارة المسلمين سقطت.

قال: ولكن القيم التي قامت عليها حضارة الإسلام لا تزال باقية.. ويمكنها أن تنبت من جديد.. فلا يمكن للبشر أن يستمر لهم وجود بدونها.

***

ما إن وصل (كوستاف لوبون) من حديثه إلى هذا الموضع حتى سمعنا صراخا عظيما من العمال، فحثثت خطاي أبحث عن سببه، وإذا بي أرى قتيلين مشوهين غاية التشويه.

أما أحدهما، فقد سقطت عليه شجرة من تلك الأشجار الضخمة، وأما الثاني، فقطعه منشار ضخم من تلك الآلات..

أسرعت إلي (كوستاف لوبون) لأخبره، فبكى، وقال: هذا ما تفعله الحضارة.. وهذا هو مصيرها.. ستحطِّم هذه الحضارة بفطرة الأشجار التي ستنتصر على كل مصانع الدنيا.

وستكون الآلات التي يصنعها البشر هي السيوف التي تغمد في قلوبهم لتطهر الأرض من شرهم.

قال ذلك.. ثم انصرف إلى وجوم جعلني أبتعد عنه..

لم يمض وقت طويل حتى عاد العمال إلى عملهم، منشغلين عن الجثتين اللتين أزيحتا جانبا في انتظار سيارات الإسعاف.

وقفت أمامهما بحزن لأرى ما جنت عليهما هذه الحضارة اللئيمة.. وأنظر في نفس الوقت إلى يدي (كوستاف لوبون) المقيدتين.

وفي ذلك الحين تنزل علي بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

الهداية

بعـد انتهـاء تلـك السـنة الـتي تشـرفت فيهـا بلقـاء أولئـك المستشرقين الذين قطفت على أيديهم ثمـارا مباركـة من شـجرة النبوة، جـاءتني رسـالة من أخي التـوأم يبشـرني فيهـا بتحولـه إلى الفاتيكان، واستلامه فيها منصبا محترمـا قـد يرفعـه في المسـتقبل لأن يصبح من مستشاري البابا وخصوصه.

وقد طلب مـني أن أزوره في الفاتيكـان حيث يقيم.. أو حيث أصبح مقر إقامتنا.

لم أملك إلا أن ألبي طلبه، وأحزم متاعي لأخرج من فرنسا.

في طريقي دخلت مكتبـة لأشـتري جريـدة.. فـرأيت صـاحب المكتبـة يتفـرج على فيلم إسـلامي يحكي قصـة بدايـة الإسـلام.. فبقيت أتفرج معه بعض الوقت.

وقد شـد انتبـاهي في الفيلم قصـة جعفـر بن أبي طـالب مـع النجاشي.. لقد كنت قرأتها من قبل.. ولكني في ذلك الحين رأيتهـا بجميع مشاعري..

لقد سأله النجاشي ملك الحبشة: (ما هذا الدين الذي فـارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟)

فقال جعفر: (أيهـا الملـك، إنـا كنـا قومـا أهـل جاهليـة ؛ نعبـد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطـع الأرحـام، ونسـيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلـك حـتى بعث اللـه إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصـدقه وأمانتـه وعفافـه، فـدعانا إلى اللـه لنوحـده، ونعبـده، ونخلـع، مـا كنـا نعبـد وآباؤنـا من دونـه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة، – فعدد عليه أمور الإسـلام – فصدقناه وآمنا به واتبعناه)

رأيت صاحب المكتبـة مسـتغرقا في هـذا المشـهد، فـاقتربت منه، وحييته، وسألته: هل أنت مسلم؟

قـال: قبـل سـاعة لم أكن مسـلما.. لكـني الآن.. والآن فقـط نضج الإسلام في قلبي.. لقد اكتملت جميع الأشعة.. وأنا الآن أبصر شـمس محمـد، وهي تملأ الآفـاق.. فيـا بشـراي، وأنـا أتنعم بـدفئها وحنانها.

قلت: فما الذي جـذبك إلى الإسـلام.. وأنت تـرى الكـل ينفـر منه.

قال: لقد وضع أولئك الحسدة الحقدة على الإسلام أول بـذور الإسلام في قلبي.. وأحسبني مدينا لهم بالشكر ما حييت.

قلت: ما تقول؟

قال: لقد رسموا صورة مشـوهة للإسـلام في نفسـي.. ولكن نفسي التي تعـرف ألـوان الطلاء الـتي يسـتعملونها لم تقبـل منهم تلـك الصـورة.. فـرحت أبحث في الثمـرات المختلفـة.. ثمـرات الأديان.. وثمرات الأفكار.. وثمرات المـذاهب.. ورحت أقـارن ذلـك بالإسلام.. فوجدت ما بهرني.

لقد نطـق جعفـر بالحقيقـة.. فليت لنـا أمثـال جعفـر في هـذا الزمان.

قلت: أي جعفر تقصد؟

قال: ذلك الذي كان يتحـدث.. إنـه ابن عم محمـد.. وقـد أوى إلى النجاشي، وهو حـاكم مسـيحي عاقـل.. وقـد كـان لجعفـر من الذكاء والفطنة والإيمان بحيث عرف كيف يخاطب الحاكم..

لم يشأ أن يـدخل معـه في جـدل عقيم.. بـل راح يحدثـه عن الثمرات.. عن الحصاد العظيم الذي جنته البشرية من زرع محمد..

إن ذلك الحصاد هو وحده الذي يكفي لكل عاقـل لكي يعـرف طيبة البذور التي طلب محمد من البشرية أن تغرسها.

أخذ الجريدة من يدي، وأخـذ يقـرأ عناوينهـا.. وقـد صـادف أن كانت العناوين مملوءة بـإفرازات هـذه الحضـارة السـامة.. وقـال: هذه ثمراتهم.. وتلك ثمرات الإسلام، ولا نجاة للبشرية إلا بالإسلام.

***

لما وصـل الغـريب من حديثـه إلى هـذا الموضـع التفت إلي، فرآني في غاية السرور، وقد انزاحت عني تلك الكآبـة الـتي كـانت تعلو وجهي، وتملؤني بالإحباط، وقال: هذه حكايتي مع ثمار شـجرة النبوة.

قلت: أكل هذه ثمار للنبوة؟

قال: هذه بعض ثمار النبوة.. ولا يمكن لأي بشر في الـدنيا أن يحيط بثمار النبوة علما..

إن الفضل العظيم الـذي من اللـه بـه على البشـرية بإرسـال نبيه محمد ﷺ لا يمكن حده ولا حصره ولا الإحاطة به..

إن الحياة جميعا تتوقف على هذا الفضل العظيم كمـا تتوقـف

حيــاة الأرض على تلــك الأشــعة الدافئــة الحنــون الــتي ترســلها الشمس.

قلت: فهل أسلمت بعدها..

قــال: لا .. لقــد ظلت الشــياطين تنفخ في عقلي وقلــبي من الشــبهات مــا كــان يصــرفني عن كــل خطــوة أخطوهــا لإعلاني إسلامي.. لكني عندما امتلأت بالضعف والتواضع، ولجــأت إلى ربي أن يتداركني برحمته وهدايته، أرسل لي من الأنوار ما أراني الأمور على حقيقتهــا.. فــامتلأت بفضــل اللــه بــأنوار الهدايــة، ورفعت عن قلبي أدران الغواية.

هذا الكتاب

تجري أحداث هذه الرواية بين مبشر مسيحي - هو بطل الرواية، وهو الذي أسلم بعد ذلك، وحكى قصته للمؤلف – ومجموعة من المستشرقين المنصفين الكبار الذين بهرتهم القيم العظيمة التي جاء بها الإسلام، فشهدوا شهادات صادقة كانت أحسن رد على شهادات المجحفين والمناوئين من المبشرين والمستشرقين والمستغربين.

وتدور أحداث الرواية في جامعة السربون وما حولها.. وفيها مقارنات كثيرة بين كل ثمرة جاء بها الإسلام من خلال مصادره المقدسة، والثمار التي جاءت بها سائر الأديان والمذاهب السماوية أو الوضعية.